

د. محمد عادل عبد العزيز

# الحضارة الإسلامية

عوامل الإزدهار وتداعيات الانهيار



# الحضارة الإسلامية

## وعوامل الأزدهار وتداعيات الانهيار

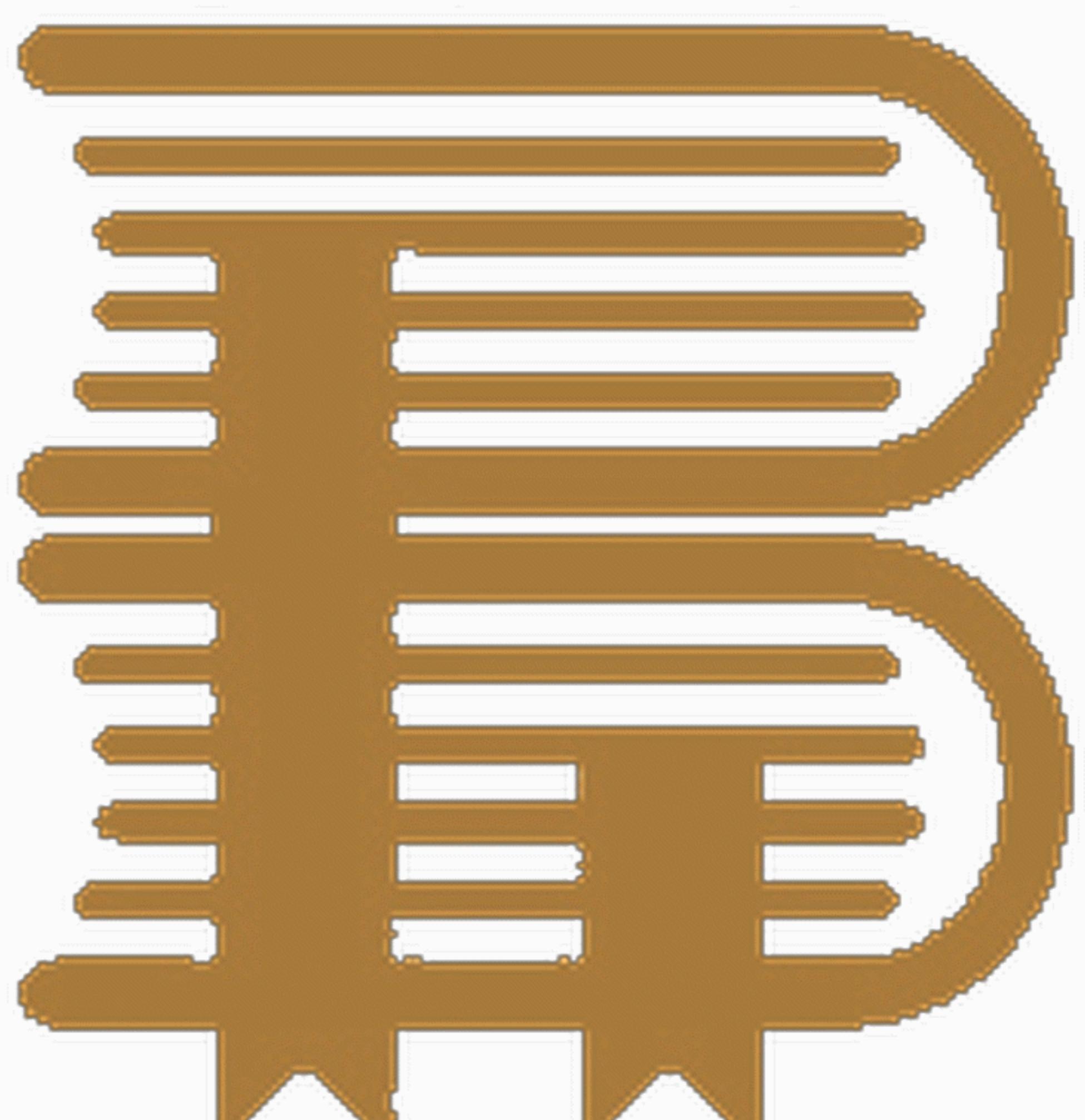
دكتور

محمد عادل عبد العزيز

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر بالقاهرة

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net  
mktba.net ◀ رابط بديل

الكتاب : الحضارة الإسلامية وعوامل الإزدهار وتداعيات الانهيار

المؤلف : د. محمد عادل عبد العزيز

رقم الإيداع : ٩٢٩٢

تاریخ النشر : ٢٠٠٠

الترقيم الدولي : 7 - 511 - 215 - 977 . I. S. B. N.

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للناشر ولا يسمح  
باعادة نشر هذا العمل كاملاً أو أي قسم من أقسامه ، بأى  
شكل من أشكال النشر إلا بإذن كتابي من الناشر  
الناشر . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع  
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطباع . ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت. ٧٩٤٢٠٧٩ . فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

التصویع : دار غريب . ٣١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة

ت. ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق { ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول  
والعرض الدائم ت. ٤٧٣٨١٤٣ - ٤٧٣٨١٤٢

## الإهداء

إلى زوجتي التي بقناعتها وفهمها لطبيعة  
عملى مهدت لى الطريق



## المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ليكون أساس الحياة الطيبة في الدنيا، والسعادة في الآخرة. والصلة والسلام على خاتم النبيين وآمام المرسلين، الرحمة المهدأة، والأسوة الحسنة، سيدنا محمد. وعلى الله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بابحسان إلى يوم الدين.

وبينما فالحضارة لفظ عربي مشتق من «ح ض ر» والحضور ضد الغياب، والحضور: هو عمل التواجد سواء كان ذلك من الأفراد أم للأشياء. وهذا ما يفهم من قوله الله تعالى: **﴿وَوَجَدُوا مَا أَعْمَلُوا حَاضِرًا﴾**. وهكذا يمكن أن نعرف الحضارة: بأنها كل ما وجد أو كان موجوداً من أعمال الأمة.

ولما كان أهل المدن يتواجدون في مدنهم لإقامتهم فيها فقد سمي أهل المدن بالحضر تمييزاً لهم عن أهل البداوة الدائمى التنقل والترحال، وهكذا ارتبط مفهوم الحضارة عند الشعراء أيضاً بالحضر، وهذا ما نفهمه من قول الشاعر الجاهلى القطامي:

فمن تكن الحضارة أعزبته  
فأى رجال بادية ترانا؟  
وكن إذا أغرن على جناب  
وأعزوزهن نهب حيث كانوا

كما نفهم هذا المعنى أيضاً في العصر الإسلامي من قول المتنبي:  
ما أوجه الحضر المستحسنات به  
كأوجه البدويات الرعابيب  
حسن الحضارة مجلوب بتطريرية  
وفي البداوة حسن غير مجلوب  
وتكون أهمية الحضارة في أنها وعاء تراكم المعرفة والتجارب، اللتين بدونهما  
ما استطاعت الإنسانية أن تتقدم خطوة واحدة. كما أن الحضارة أيضاً تكشف عن قوة  
الأمة، لأن علاقة الحضارة بقوة الأمة هي علاقة دلالة شيء على شيء آخر. لأن

ننعرف على شدة التيار الكهربائي من ضوء المصباح. فإذا كان ضوء المصباح في هذا المثال هو حضارة الأمة فإن شدة التيار هي قوة الأمة.

ولما كانت القوة هي استطاعة الأمة، لقوله تعالى: **﴿وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ قُوَّةً﴾**.

فإن الحضارة ترتبط بالتربيـة ارتباطاً وثيقـاً، حيث إن التـربية بمفهـومـها الواسـع هي ذلك العـطـاء الـخـلـاقـ لـاستـطـاعـةـ الـأـمـةـ. لـهـذـاـ كـانـتـ التـرـبـيـةـ هيـ صـنـاعـةـ الـقـوـةـ، وـمـاـ الـحـضـارـةـ إـلـاـ مـنـحـةـ التـرـبـيـةـ، وـلـيـسـ الـعـكـسـ.

والـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ، إـنـ كـانـتـ تـعـيـزـ **﴿نِعَمْ دُورُ الْإِسْلَامِ فِي الْحَيَاةِ، فَإِنَّهَا تَكْشِفُ عَنِ الظُّرُفَّةِ الْحَضَارِيَّةِ الْهَائِلَةِ الَّتِي أَحْدَثَهَا الْإِسْلَامُ فِي عَالَمِ الْعَصُورِ الْوَسْطَىِ﴾**. الـأـمـرـ الـذـيـ رـبـطـ الـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ بـالـإـسـلـامـ اـرـتـبـاطـاًـ وـثـيقـاًـ، وـلـكـنـ مـعـ ذـلـكـ يـلـاحـظـ حـرـصـ الـبـعـضـ عـلـىـ أـنـ يـطـلـقـواـ عـلـىـ الـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ اـسـمـ الـحـضـارـةـ الـعـرـبـيـةـ؟ـ فـهـلـ هيـ حـضـارـةـ عـرـبـيـةـ حـقـاـ كـمـاـ يـدـعـونـ؟ـ أـمـ أـنـهـاـ حـضـارـةـ إـسـلـامـيـةـ خـالـصـةـ؟ـ وـهـنـاـ لـابـدـ أـنـ تـكـوـنـ لـنـاـ وـقـفـةـ مـعـ هـؤـلـاءـ لـنـتـسـاءـلـ: هـلـ اـسـتـمـدـتـ الـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ أـصـوـلـهـاـ وـكـافـةـ مـقـومـاتـهـاـ مـنـ الـدـيـنـ الـإـسـلـامـيـ؟ـ أـمـ مـنـ عـادـاتـ وـتـقـالـيدـ الـعـرـبـ؟ـ

وـإـذـ كـانـتـ الإـجـاـبـةـ بـأـنـ الـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ كـانـتـ فـيـ الـأـسـاسـ حـضـارـةـ عـرـبـيـةـ انـصـهـرـتـ فـيـهـاـ الـحـضـارـاتـ السـابـقـةـ عـلـيـهـاـ مـنـ فـارـسـيـةـ، وـتـرـكـيـةـ، وـرـوـمـانـيـةـ، وـفـرـعـونـيـةـ.. إـلـخـ، نـعـودـ فـنـسـأـلـ: هـلـ أـخـذـتـ الـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ مـنـ الـحـضـارـةـ الـتـيـ نـشـأـتـ عـلـىـ أـرـضـهـاـ، أـوـ مـنـ الـحـضـارـاتـ الـتـيـ اـنـتـفـتـتـ عـلـيـهـاـ مـاـ يـتـوـافـقـ مـعـ الـإـسـلـامـ فـقـطـ وـبـنـذـتـ كـلـ مـاـ عـادـاـ ذـلـكـ؟ـ

أـمـ أـنـ الـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ أـخـذـتـ مـنـ كـلـ الـحـضـارـاتـ كـلـ مـاـ يـتـوـافـقـ مـعـهـاـ أـوـ يـخـتـلـفـ مـعـهـاـ عـلـىـ حـدـ سـوـاءـ؟ـ

وـإـذـ كـانـتـ الإـجـاـبـةـ بـأـنـ الـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ أـخـذـتـ مـاـ يـتـوـافـقـ مـعـهـاـ فـقـطـ وـبـنـذـتـ كـلـ مـاـ يـخـالـفـ شـرـيـعـتـهـاـ، فـهـيـ حـضـارـةـ إـسـلـامـيـةـ خـالـصـةـ، وـأـنـ إـطـلـاقـ الـبـعـضـ عـلـيـهـاـ «ـحـضـارـةـ عـرـبـيـةـ»ـ تـجـاـزـرـ لـاـ مـحـلـ لـهـ.

وـهـكـذـاـ ظـلـتـ الـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ مـحـكـمـةـ بـالـرـوـحـ الـعـامـةـ لـلـإـسـلـامـ فـيـ كـلـ رـبـوعـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ وـإـنـ تـفـاـوـتـ الـمـهـارـاتـ الـتـقـافـيـةـ مـنـ إـقـلـيمـ إـلـىـ إـقـلـيمـ. الـأـمـرـ الـذـيـ جـعـلـ

مستويات العلوم والأداب والفنون والصناعات تختلف تبعاً لمهارة كل إقليم، وهذا ما جعل لكل إقليم من أقاليم العالم الإسلامي، تاريخه الثقافي الخاص به.

وقد كشفت الدراسة عن بعد جديد من أبعاد عصرية الحضارة الإسلامية يحفظ لها ريادتها وتألقها بين كل الحضارات السابقة واللاحقة، لأنّه هو ذلك التوازن في مقومات الحضارة الإسلامية بين التقدّم في ميدان القيم والوعي الإنساني، وبين التقدّم المادّي، فقد حرصت الحضارة الإسلامية أن توازن في مقوماتها بين متطلبات تربية النفس، وتربية المجتمع، وتربية العقل، وتربية اللسان العربي، والتربية المعيشية، وتربية العلاقات الدوليّة، بل والارتقاء بمستواها جميعاً جيلاً بعد جيل، مراعية في ذلك عنصر الزمان والمكان.

وبعد تاريخ طويل وحاصل بالعطاء، تدور الأيام على الحضارة الإسلامية، لأنّها تحمل عوامل انهيارها في داخلها مثل أي حضارة قامت على نظرية وضعية، وإنما بسبب تخاذل من المسلمين أنفسهم. فتختلفت أمة (اقرأ) عن التعليم، وتوقف الاجتهاد، وعجز المسلمون عن مسيرة الزمن وتقديم الحل لمشكلاتهم المعاصرة. وتهب رياح الغرب، وتتعرّض خطاناً أكثر وأكثر بسبب التقليد الأعمى، ويتورّى الخير، وتختسر الدنيا الحياة المطمئنة .. الفرق كبير جداً بين الحضارة الإسلامية التي استهدفت أن يعم الخير الجميع - جميع البشر - وبين الحضارة الغربية التي فيها الدولار أغلى من الإنسان، فهيمنت الرأسمالية على الحكم تحت شعار الديموقراطية، وتباح الأعراض تحت شعار الحرّيات، وتتحمّل المرأة ما لا يتفق وتوزيع الأدوار الطبيعية في الحياة تحت شعار المساواة، وتتصدّع صلة الأرحام تحت شعار سيادة القانون. وهل من قبيل الصدفة أن يحتشد القرن العشرين - بالذات - بظهور زعماء: زعيم منهم يدمر قوى أوروبا مثل: (هتلر)، وزعيم منهم يدمر النفوذ الاستعماري، ويدمر أيضاً وحدة وطنه مثل: (غاندي): لتكون النتيجة أخيراً لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، ولتعلو فوق الجميع.

وبنفس العقلية المتأمرة تتعامل الحضارة الغربية مع العالم الإسلامي فتقضي على الخلافة الإسلامية في خطوة مبكرة للنظام العالمي الجديد.. ولا عزاء. وتقوم

إسرائيل تكون المدخل إلى الشرق الأوسط، ولو يصبح شعب فلسطين ضيوفاً على العالم.. ولا حرج. ويعاد تشكيل العالم الإسلامي سياسياً لتمزيقه فتضيع هويتنا، وتُعلو القوميات المحلية على القومية الإسلامية: **فإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ريكم فاعبدون** **و** وتتوالى الانقلابات العسكرية، ويُحرّم المسلمين من المشاركة الحقيقية في حكم أنفسهم، ويُتَزَعَّم جمال عبد الناصر تصفيّة الاستعمار القديم وأيضاً تصفيّة خزينة مصر. وتقع الدولتان الأعظم فرنسا وبريطانيا في شباك تأميم قناة السويس، ليكون العدوان الثلاثي على مصر نهاية أسطورة هاتين الدولتين...

وتطحّتنا الحروب حتى يفهم العرب أنهم لن يستطيعوا أن يلقوا بإسرائيل في عرض البحر في ظل الهيمنة الأمريكية، فتدخل مصر الحظيرة راضية مرضية، وتكتشف إسرائيل أنها أيضاً لن تستطيع أن توسع أو أن تحتفظ بكل ما استولت عليه من أرض. بل وتكتشف أنها مجرد خط دفاع أول عن النظام العالمي الجديد في المنطقة لا أكثر. وهذا تتغير اللعبة ويعلم العرب، وتعلم إسرائيل أن السلام هو الهدف، ولكن بعد أن تأخذ إسرائيل فرصتها كاملة في المماطلة، حتى لا يكون سلاماً هشاً.

وفي نفس الوقت تكون مصر قد انتهت من استكمال البنية الأساسية، والتي تحتاج إلى سنوات من الاستقرار، فالبنية الأساسية، وبالمناخ الصناعي الذي خلقه القطاع العام من قبل، تتهيأ مصر للاستثمار وانتقال رؤوس الأموال الأجنبية.

ولم تكن التجربة كلها مؤلمة. فقد خرّجت مصر من محاولة إعادة تشكيل شعوب المنطقة بالقضاء على الطبيعة، الذي يمثل المدخل الحقيقي للعصر الحديث، كما خرّجت معظم البلاد العربية المجاورة من هذه التجربة بمحاولة للقضاء على البداوة وزيادة أعداد المجتمعات المستقرة حتى تتهيأ شعوب منطقة الشرق الأوسط جميعها لحضارة العولمة القادمة. والتي تحتاج إلى تنمية الاستهلاك والعمالة ذات الأجر المنخفض لاستقبال الشركات العابرة للقارات.

وطبيعي أنه حينما يتم السلام، ستوضع الديمقراطية موضع التنفيذ، وطبعي أيضاً أن نتوقع مع مرحلة الديمقراطية القادمة بعد السلام، إعادة تشكيل المنطقة سياسياً مرة أخرى لتنتفق مع الديمقراطية المستهدفة. لأن رأس المال «جيان» لا ينمو،

ولا يتزعزع. إلا في ظل سلام وديمقراطية يحميان رءوس الأموال من التأمين أو الاستلاء عليها.

وإذا كان المستقبل يعتمد على تحليل الواقع وصولاً إلى تصور ما يمكن أن يحدث «المستقبلات الممكنة»، وما يمكن عمله لمواجهة تحديات المستقبل «السياسات والاستراتيجيات». فإنه يجب أن نقرر بداية أننا لا نستطيع أن نلقى بكل اللوم على النظام العالمي الجديد فيما أصبح فيه العالم الإسلامي من مشاكل. فالتأمر ليس بالجديد على المسلمين. فمنذ أن وجد الإسلام، ولد معه خصمه، وعاش يعاني من كيدهم صنوفاً من المؤامرات والفتن، مع ذلك لم تزل تلك المؤامرات والفتن من حركة المد في التاريخ الإسلامي، وإن كانت قد نالت منهم في القرن العشرين، فالمشكلة في المسلمين أنفسهم بالدرجة الأولى. لذلك فإن المستقبل سيعتمد على مدى إيجابية المسلمين مع الحياة، وجديتهم نحو الإصلاح.

أما الحضارة الغربية فنحن فيما نعلم أنها لا تناصب الإسلام العداء فقد اعتمدت الولايات المتحدة الأمريكية على الإسلام في صد المد الشيوعي في أفغانستان، كما اعتمدت عليه في حالات أخرى كثيرة. وإن كانت إستراتيجية هذا النظام العالمي المزعوم لا تريده إلا إسلاماً علمانياً تذوب فيه الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية دون ما سبب منطقى، إلا الخشية من أن تتفق الحضارة الإسلامية عقبة أمام بعض المشروعات !!

كما نعلم أن المسلمين غير مختلفين مع العولمة بمفهومها التعاوني، فالمسلمون يدركون أن العولمة هي المدخل الحقيقي لعصر الإبداع الجماعي، كما أنهم يدركون أن الانفتاح على العالم والتفاعل الإيجابي معه ضرورة تفرضها قيم الحضارة الإسلامية، وتفرضها أيضا حاجة المسلمين إلى التطور وعدم الإنزال عن حركة التقدم الكونية. ذلك طالما كانت العولمة لصالح الجميع. أما إذا كانت العولمة تنطوى على الهيمنة أحادية الجانب، وعلى استغلال الشعوب فإن هذا ما يرفضه المسلمون. فلا يختلفثنان في أن التجربة قد أرهقت مصر، كما أرهقت كل دول العالم الإسلامي، وإن كان نصيب كل منها قد تفاوت بتفاوت ظروف كل دولة. لذلك فإن مستقبل العولمة مرهون

بما بقى لها من عمر افتراضى، لأنه لا فرق عندي بين الحضارتين الاشتراكية والرأسمالية، فكلتا الحضارتين وجهان لعملة واحدة. الوجه الأول فيها كانت العزة لفترة انتهازية نصبوا من أنفسهم أوصياء على الأمة، أما الوجه الثاني فالعزّة فيه لفترة مستفلة استفادت وأفادت بالقدر الذى تضمن به تنمية استغلالها للأمة، وإن كان هذا العنصر هو الذى مد فى أجل الرأسمالية عن الإشتراكية، إلا أنه هو أيضاً الذى سيقضى عليها، لأنه يقوم على تنمية الظلم واتساع الفجوة بين الفقراء والأغنياء.

إن كل ما أرجوه، لا ينسى الغرب أنه يدين للحضارة الإسلامية فيما وصل إليه من تقدم علمي، كما أرجو لا ينسى الغرب أيضاً أنهم لم يستطيعوا أن يقدموا لشعوبهم حتى الآن الحياة الطيبة التى يطمنن بها المواطن فى يومه وغدّه كما قدمت الحضارة الإسلامية للعالم على مدى ألف عام. لذلك أرجو لا يأخذهم الغرور بتلك الحضارة المتهاوية، وأن يدخلوا الحضارة الإسلامية ليوم ستكون فيه هى الأمل المتبقى على الأرض.

وأخيراً إذا كان الكتاب قد كشف عن قدرة الإسلام الفائقة على التطور الحضاري، كما كشف عن نظرية التوازن فى تربية الأمة، والتى كانت من إبداع الحضارة الإسلامية، فإننى أرجو أن يكون قد كشف لنا هذا الكتاب أيضاً عن أسباب تعثر خطانا فى العصر الحديث، حتى يكون بداية طيبة لعودة إلى سابق عهدها من القوة والتقدم. والله سبحانه وتعالى أسائل أن يأخذ بأيدينا ونحن على أبواب قرن جديد من الزمان، ليكون لنا لا علينا.

دكتور

محمد عادل عبد العزيز

مصر الجديدة فى ١٨ / ٥ / ٩٨

## الفصل الأول

# الحضارة الإسلامية وتربيّة النّفس

• الدين ضرورة للإصلاح .

• الأخلاق ضرورة فردية واجتماعية .



## الدين ضرورة الإصلاح

نحن حينما ن تتبع حركات الإصلاح على مر التاريخ، نجد ما جمِيعاً قد قامَتْ على أساسين:

الأساس الأول منها نظري، وهو يمثل المرحلة التي يتبلور فيها الفكر ليصبح نظرية إصلاح تتناسب وظروف الأمة.

وطبيعي أن يسبق هذه المرحلة صحوة شعور بالفساد باعتبار أن الفساد لا يولد الدافعية نحو الإصلاح، وإنما الشعور بالفساد هو الذي يولد الدافعية نحو الإصلاح.

أما الأساس الثاني فهو تنفيذى، وهو يمثل المرحلة التي توضع فيها النظرية موضع التنفيذ، وطبيعي أن يقود الأمة في تلك المرحلة المهمة أسوة حسنة تكون بمثابة المثل الأعلى للأمة، وهكذا يتوجه دوران عجلة الأمة في محور الإصلاح ..

والدين الإسلامي رغم أنه دعوة سماوية، ورغم أنه لكل البشر فإنه أيضاً لم يخرج عن تلك القاعدة السابقة باعتباره أعظم حركة إصلاح عرفها التاريخ، فنجد أنه يقوم أيضاً على أساسين: القرآن الكريم، وهو الذي يحمل بين دفتيه نظرية الإسلام، والسنّة الشريفة، وهي الأسوة الحسنة التنفيذية، أو هي البيان العملي من قول أو فعل أو تقرير.

### أولاً: القرآن الكريم

القرآن الكريم هو الأصل الأول الذي نبع من الحضارة الإسلامية، إذ كان المصدر الأساسي للإسلام<sup>(١)</sup>. ومن القرآن عرف أن عماد الدين الإسلامي شيتان: إيمان وعمل.

(١) دكتور حسن الباشا. دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية ١٩٨٨، ص.٣

ولقد عبر القرآن عن ذلك صراحة في كثير من آياته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانُوا لَهُمْ جَنَّاتُ الْفَرْدَسِ نَزَلَهُ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذِكْرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُعْجِنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَلَنُعَزِّزَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا بِعَمَلِهِ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿وَالْعَصْرُ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّيْرَفِ﴾<sup>(٣)</sup>.

ويحدد القرآن الكريم الإيمان في قوله تعالى: ﴿أَمَّنِ الرَّسُولُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رِبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَمِلَائِكَتِهِ وَكُلُّهُ وَرَسُولُهُ لَا تَنْفَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رِسْلِهِ﴾<sup>(٤)</sup>. وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبَرُّ أَنْ تَوَلِّوْا وَجْهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكُنَّ الْبَرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ﴾<sup>(٥)</sup>.

كما يحدد القرآن الكريم القلب ليكون محلاً للإيمان فيقول سبحانه: ﴿أُولَئِكَ كُتُبُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾.

وطبيعي أن ينقسم القرآن الكريم من الناحية الموضوعية إلى عقيدة وشريعة. والعقيدة هي كل ما يتعلق بالإيمان من آيات. أما الشريعة فهي أحكام الدين، وتتضمن كل الأوامر والنواهي التي يجب أن توضع موضع التنفيذ. ولا شك أن العقيدة أصل تبني عليه الشريعة فلا وجود لها بدونها فمن أهدر العقيدة فليس بعمره عند الله.

لذلك حرمت الدعوة الإسلامية في الفترة ما قبل الهجرة على التأكيد على أهمية العقيدة وربما كان هذا هو السبب في أن الفترة المكية - أي فترة ما قبل الهجرة من مكة - أطول وقتاً من فترة ما بعد الهجرة.

ونحن حينما نتبع تاريخ الدعوة الإسلامية وخاصة في سنواتها الأولى نجد أنها كانت حريصة كل الحرص أن تكون عقيدة المسلم عقيدة قوية، بل تصل من القوة إلى الحد الذي تهون فيه حياة المسلم في سبيل العقيدة.

(١) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٢) سورة النحل، الآية ٩٧.

(٣) سورة العصر.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

(٥) سورة البقرة، الآية ١٧٧.

يذكر ابن هشام في سيرته، أن رسول الله - ﷺ - لما بادى قومه بالإسلام وصفع به كما أمره الله، لم يبعد عنه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، ولما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى بالإسلام، وهم قليل مستخفون<sup>(١)</sup>.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا لم تبد قريش اهتماماً لظهور دين جديد في مكة بينما أسرعوا على خلافه وعداؤته لما ذكر آلهتهم وعابها ؟!

نحن نعلم أن جزيرة العرب في الجاهلية قد حوت معظم أديان العصر القديم فقد شاعت فيها الوثنية وعبادة النجوم والكواكب والمجوسية والزرادشتية واليهودية والنصرانية وغير ذلك، فما الذي يضير أن ينضم إلى هذا العدد الكبير من الأديان دين جديد ؟!

لذلك كان أمراً طبيعياً أن قريشاً لم تبد أى اهتمام في بادىء الأمر بالدين الجديد الذي جاء به محمد - ﷺ - كما ذكر ابن هشام.

أما انزعاج القوم بعد ذلك فيرجع إلى أن الدين الجديد بدأ في سب آلهتهم التي يعبدونها، وعاب دينهم وسفه أحلامهم، وضلل آباءهم. وهذا ما لم يحدث من قبل من الأديان الأخرى !!

ولكن ! ماذا يفعل القوم ليسكنوا مهمنا - ﷺ - عن هذه الدعوة بعد أن وجدوه مستمراً في دعوته ولم يعبأ بخلافهم<sup>(٢)</sup> !!

لذلك لم يكن أمام القوم في بداية تصاعد العداوة لتلك الدعوة الجديدة إلا أن يشتكوا مهمنا - ﷺ - إلى عمه أبي طالب سيد مكة فذهب وفند من أشرف قريش إلى أبي طالب فقالوا: «يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكتفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فننكحك». فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، علق عليها وخرج أحاديثها، ووضع فهارسها عمر عبد السلام تدمري أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة اللبنانية، الناشر دار الكتاب العربي، ج ١ من ٢٩٦.

(٢) المصدر السابق من ٢٠١

(٣) مصدر السابق ج ١ من ٣٠٢

ولما وجدوا القوم أن رسول الله - ﷺ - ماض على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، ولم يجدوا أى رد فعل لشكواهم عند أبي طالب، ذهب وفد القوم مرة أخرى إلى أبي طالب وقالوا له: يا أبا طالب، إن لك نسباً وشرفاً ومنزلة فينا، وإننا قد استنثيتك من ابن أخيك فلم تنه عنها، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيوب آهتنا، حتى تكتف عننا، أو ننمازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا له، ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، فبعث إلى رسول الله - ﷺ - فقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، للذى كانوا قالوا له، فأبقي على وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر مالاً أطيق، فقال رسول الله - ﷺ -: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يمينى، والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته، قال: ثم استعتبر رسول الله - ﷺ -، فقال أذهب يا بن أخي، فقل ما أحبابت، فوالله لا أسلمك لشئ أبداً<sup>(١)</sup>

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان محمد - ﷺ - مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال: والله لبني سما تسوونى! أتعطونى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه! هذا والله مالاً يكون أبداً، فقال المطعم بن عدى: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص بما تكرهه، فما أراك تزيد أن تقبل منهم شيئاً، فقال أبو طالب للمطعم بن عدى: والله ما أنصفونى، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم على، فاصنعوا ما بدا لك<sup>(٢)</sup>.

ويورد ابن سعد في طبقاته رواية لا نجدها في المصادر الأخرى، هذه الرواية تشير إلى محاولة مبكرة من زعماء قريش لاغتيال الرسول - ﷺ - وكيف أنهم بعد فشل مفاؤضتهم مع أبي طالب قالوا: ما خير من أن يفتال محمد، فلما كان مساء تلك الليلة بحث أبو طالب عن محمد - ﷺ - فلم يجده فظن أنه أصيب بمكرهه، فجمع

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج ١: ص ٣٠٢، ٣٠٣.

(٢) المصدر السابق من ٣٠٣-٣٠٤.

فتىانا من بنى هاشم وبنى المطلب وأمر كلا منهم أن يحمل حديدة صارمة لقتال زعماء القوم إذا ثبت قتلهم لمحمد - ﷺ - إلا أن أبا طالب سرعان ما أبلغ أن محمدًا يجلس الآن في دار بمنأى عن الشر. وفي اليوم التالي صحب أبو طالب ابن أخيه إلى أندية القرشيين ومعه فتىان بنى هاشم والمطلب، وراح يقول لهم: يا عشر قريش، هل تدرؤن ما هممت به؟ قالوا: لا، فأخبرهم الخبر وقال للفتىان: اكتشفوا عما في أيديكم، فكشفوا فإذا كل رجل منهم يحمل حديدة صارمة. فقال: والله لو قتلتكم ما بقيت ومنكم أحد حتى نتفانى نحن وأنتم<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن محاولة الاغتيال هذه التي أوردها ابن سعد في طبقاته لا تعدو عندنا أكثر من اقتراح باغتيال محمد - ﷺ -. أما الاعتقاد بأنه كان أمرا من قريش تهياً للخروج إلى حيز التنفيذ فهذا ما لا صحة له عندنا. والدليل على ذلك أن قريشاً حينما أجمعوا رأيها على قتل محمد - ﷺ - فيما بعد - حينما علقت صحيفة المقاطعة في جوف الكعبة حرصت كل الحرص أن يكون ذلك بموافقة بنى هاشم وبنى المطلب. فكيف تقرر ذلك وخاصة أن قريشاً لم تعدم كل حيلها بعد؟

على العموم فإن هذه الرواية إن دلت فإنما تدل على يأس قريش من أن يتراجع محمد - ﷺ - عن دعوته لذلك فإن مسيرة الأحداث بعد ذلك تدلنا على أن قريشاً حرصت على أن تبحث عن وسيلة أخرى توقف بها مسيرة الدعوة بعيداً عن محمد - ﷺ - وعنه أبي طالب.

أدركت قريش أنه لا جدوى من أية محاولة تبذلها بعد ذلك مع أبي طالب ليُسكن محمدًا - ﷺ - عن دعوته. لذلك قررت قريش أن تدع أسلوب التفاوض وتتجأ إلى العنف. ولكن مع من سيكون هذا العنف؟ مع محمد - ﷺ -؟ فهو ابن الأكرمين ثم أن قريشاً فشلت في أن تضم أبا طالب إلى صفوفها أو حتى تحيده؟

إذن فالعنف لا يكون إلا مع المؤمنين. فيقول ابن هشام نقلًا عن ابن إسحاق: ثم أن قريشاً تذمروا بيئتهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله - ﷺ -

(١) ابن سعد: محمد (ت ٢٢٠ هـ) كتاب الطبقات الكبير، تحقيق أدور سخاد ورفاقه، طبع مصوراً عن طبعة ليدن بريل - ١٣٢٥ هـ (مؤسسة النصر طهران) ١ / ١٣٥ .

الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم، ويغتئنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله - ﷺ - منهم بعنه أبي طالب، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون فيبني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله - ﷺ -، والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب، عدو الله الملعون<sup>(١)</sup>.

وهنا نأتي لبيت القمسيد: ألم يكن من مصلحة الدين الجديد ألا يخلق له عداوات حتى يتحقق له ولو شيئاً من الانتشار. ثم بعد ذلك فليكن ما يكون !!

نعلم أن قسوة الحياة في جزيرة العرب قد فرضت على إنسان الجزيرة في الجاهلية أن يكون الدين على هامش شعوره، والدليل على ذلك أن القبيلة الواحدة كانت تتعدد فيها الأديان، بل أكثر من هذا أن أفراد الأسرة الواحدة كانوا كثيراً ما تتعدد بينهم الأديان، والأكثر من هذا وذلك أن الفرد الواحد في الأسرة كان يتقلب على عدة أديان في أيام قليلة. ألم يبعد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قبل أن يسلم إليها من التمر في الصباح، وحين المساء أكله !! ثم نحن إذا رجعنا إلى أيام العرب وهي حروبهم فيما بينهم - وما أكثرها لم نجد حرباً واحدة قامت بين قبيلة وقبيلة، أو حتى بين بطون قبيلة واحدة بسبب الدين !! كما أثنا إذا رجعنا إلى شعرهم وهو سجل العرب لم نجد أبياتاً نظمها شاعر منهم اعترضاً بدينه !! فالدين كما ذكرنا كان على هامش شعورهم.

لذلك فإن أتباع الدين الجديد الذي يدعو له محمد - ﷺ - إن لم يمرروا بمحنة تتبلور فيها عقيدتهم فإنهم حتماً سيكونون من نفس الطراز السابق، والدين الإسلامي باعتباره آخر الرسالات السماوية فهو ليس بحاجة إلى ذلك المؤمن الضعيف، بل في حاجة ماسة إلى ذلك المؤمن القوي الذي يستطيع أن يحمي هذه الدعوة حتى آخر الزمان.

وهكذا حرص الإسلام منذ سنواته الأولى على أن يزرع في نفوس المؤمنين به ايماناً لا تزعزعه الشدائدين. ايماناً يقهر به المسلم نفسه قبل أن يقهر غيره. هذا الطراز من

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج ١ من ٥٠٥

الإيمان، هو الذى جعل الرعيل الأول من المسلمين، يتحملون فتنة المشركين لهم. وهذا الطراز من الإيمان - أو القريب منه - هو المطلوب لعصرنا هذا، ولكل عصر، حتى يستطيع المسلم أن يقهر به الغزو الإنحلاقي الذى ينتشر عبر الفيديو والدش والتليفزيون والسينما، وكل ما سيأتى به الغد من وسائل يمكن استخدامها فى نشر الإنحلال الذى يعشّق الغرب، ومن الاهام من يلبسون ملابسنا.

أما الشريعة والتى تتمثل فى مرحلة ما بعد الهجرة، فهى المعروفة بالعبادات والمعاملات، وفى الحديث: «بني الإسلام على خمس، شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً».

والقرآن الكريم كان حريصاً على الجانب التربوى للنفس أيضاً بعد أن انتقل من مرحلة العقيدة (وهي المرحلة المكية) إلى مرحلة الشريعة بداء من الهجرة إلى المدينة. فمن أجل «النفس» أمرت الشريعة بالعبادات تقرباً إلى الله وطهرة للنفس، فأمرت بالصلوة والمحافظة عليها فى أوقاتها، وجعلت الصلاة كفارة للذنوب التى ما بين الصلاة والصلوة التى قبلها، والصلوة قادرة وحدها على أن تحمى الإنسان من الفراغ الذى قد يكون سبباً لأى مرض نفسي، كما أمرت الشريعة بإيتاء الزكاة تطهيراً للنفس من الجشū والشجū وتراحماً.

وأمرت أيضاً بالصوم لتنمية الإرادة ومحاولة الوصول إلى التقوى **﴿لعلكم تتقون﴾**، وفرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً لتنقى القلب **﴿ذلك ومن يعظ شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾**، وفي الوقت نفسه حرصت الشريعة أن تنهى النفس عن الهوى وإغراء الشيطان. وهكذا يزرع الدين فى الإنسان بذرة المقاومة التى تحمى النفس من الضعف أمام شهواتها. كما أن الدين بصفة عامة حرص أن يعصم الإنسان من سائر الأمراض النفسية «القلق - التوتر - الاكتئاب ... إلخ»، حيث حرص الدين أن يحمى النفس من أى متغير قد يطرأ حتى تتكيف النفس بسرعة نتيجة الرضا بالأمر الواقع مادام يمثل إرادة الله عز وجل.

## ثانياً - السنة النبوية :

ربط الإسلام بين الإيمان والعمل، ارتباطاً وثيقاً حتى أن رسول الله - ﷺ - كان يشترط على من شرح الله صدره للإسلام أن يجهر بالشهادتين «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُهُ» وهذا في حد ذاته عمل عبر به المسلم عن إيمانه، وافتتح به مرحلة جديدة من حياته العملية في ظل الإسلام. وكما كان الرسول الكريم يعلم المسلمين القرآن الكريم؛ كان يعلمهم أيضاً كيفية العمل، وضرورة الالتزام بالتنفيذ.

وتتصدر السنة الشريفة تلك المرحلة التي يترجم فيها الإيمان إلى عمل. لذلك فإن السنة هي الأصل الثاني من أصول الدين الإسلامي، والسنّة النبوية هي كل ما صنع عن النبي - ﷺ - من قول أو فعل أو تقرير، وإذا كان رسول الله - ﷺ - لا ينطق عن الهوى وهو معصوم عن الخطأ فيما يبلغه عن ربه، فقد أمرنا الله بصریح القرآن باتباعه في كل ما يأمرنا به، وترك جميع ما ينهانا عنه، فقال تعالى: «وَمَا أَنَّا  
رَسُولُهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» وذلك لأنه يدعو إلى الله ويهدي إليه، يقول القرآن: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ صِرَاطَ اللَّهِ﴾<sup>(١)</sup>، ثم إن الله سبحانه قد جعل إلى رسوله بيان ما كان مجملًا من القرآن مع تبليغ الرسالة، فيقول سبحانه: ﴿وَأَنَّزَلْنَا إِلَيْكُمْ ذِكْرًا لِتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلْنَا إِلَيْكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، لذلك يقول رسول الله - ﷺ - «صلوا كما رأيتموني أصلى»، ويقول: «خذوا مناسككم عنى».. وهكذا كان القرآن أصلاً والسنّة بياناً.

وبينما أن إخبار المسلمين بحادثة الإسراء والمعراج كان اختباراً عملياً لإيمان المسلمين برسول الله - ﷺ - ولا فلماذا لم يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم بأن لا يبوح بتلك الرحلة المباركة؟! ويجنبه بذلك إنكار المنكرين؟! والذى يجعلنا أيضاً نميل إلى أن إخبار المسلمين برحلة الإسراء والمعراج كان اختباراً لإيمان المسلمين برسول الله، هو أن هذه الحادثة جاءت مع بداية فترة التشريع. تلك الفترة التي تحتاج

(١) سورة الشورى، الآياتان ٥٣، ٥٤.

(٢) سورة النحل، الآية ٤٤.

إلى الالتزام التام بسنة النبي - ﷺ - فلولا هذه الحادثة أو هذا الاختبار هل كان المسلمين سيصلون كما صلوا رسول الله ؟

وتأتي أهمية السنة أيضاً في أنها بيان عمل للقرآن الكريم من رسول بشر - ﷺ - فلا عذر لأحد من بعده من البشر في عدم القدرة على تنفيذ ما جاء في القرآن الكريم. ولم يكن الإسلام بداعاً بين الرسائلات السابقة عليه في حرصه على الربط بين الإيمان والعمل، أو بين النظرية والتطبيق. فقد ورد أن المسيح - عليه السلام - لقيه رجل ذات يوم فسأله: ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟

فأجابه المسيح: أنت تعرف الوصايا: لا تزن. لا تقتل. لا تسرق. لا تشهد الزور. لا تسلب. أكرم أباك وأمك.

قال الرجل: هذه كلها حفظتها منذ حادثتي.

فأجابه المسيح: يعوزك شيء واحد. اذهب بع مالك وأعط الفقراء.

وهكذا كان التنفيذ هو أشد ما يفزع له الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - قال المسئور: دخلت على عمر بن الخطاب لما طعن وهو مسجى. فقلت: كيف ترون ؟ قالوا: كما ترى «وكانوا لا يعرفون من شدة إغمانه أهو حى أم مات». قلت: أيقظوه بالصلوة، فإنكم لن توقظوه لشيء أفزع له من الصلاة.

فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين، فقال: ها الله، فصلى وجرحه يثعب «يفيض» دما. فلما نحن اليوم من هذا الطراز من المسلمين !! ثم كيف يتأنى لنا ذلك، وقد فصلنا بين الإيمان والعمل به. فأصبحنا نتناول الدين في بيوتنا ومؤسساتنا التعليمية نظرياً فقط، فتخرجت أجيال تحفظ النصوص، ولكن لا قدرة لديها على العمل بما تحفظ، فبعد أن كانت مدارسنا مساجد، بل ويلحق بها بيوت الطلبة الغربياء، أصبحت مؤسساتنا التعليمية جميعها لا تراعي مواقف الصلة عند وضع جداول المحاضرات، وهذا مثال واحد من أمثلة لا حصر لها في بيوتنا وشوارعنا ومؤسساتنا. الإيمان شيء، والعمل شيء آخر.

وهنا قد يسأل سائل: ولماذا الإسلام؟ ألم تقدم اليابان بعيداً عن الإسلام، وألم يتقدم الغرب أيضاً بعيداً عن الإسلام؟ بل أكثر من هذا وذاك ألم يتقدم الاتحاد السوفيتي في السابق، والصين أيضاً رغم إلحادهما؟

أقول إن الإصلاح يقوم على أساسين: نظرية وتطبيق، فإذا اتفقنا على هذا المبدأ يكون كل من تقدم في عصرنا الحديث، لم يتقدم من فراغ، وإنما تقدم على أساس ديني - ولو لم يكن سماوياً في بعض الحالات - لأن الدين في النهاية هو ما التزم به الفرد والجماعة من مبادئه ووضعها موضع التنفيذ. ولكن يبقى فرق كبير بين ما قدمت الحضارة الإسلامية، وما تقدم تلك الحضارات الحديثة لشعوبها، التي تفتقد الحياة الطيبة التي يطمحن بها المواطن على يومه وغدته. هذا إلى جانب أن تلك الحضارات عمرها قصير، بل قصير جداً إذا ما قورنت بعمر الحضارة الإسلامية التي استمرت في عطانها حوالي ألف سنة، لولا أن فقدت التربية الإسلامية توازنها.

وهكذا ربط الإسلام بين الإيمان والعمل، أو بين النظرية والتطبيق ارتباطاً وثيقاً من أجل مصلحة الفرد والجماعة وصيانته النفس والعقل، والجسد، والمجتمع، والعلاقات. بل والارتقاء بمستواها جميراً لتناسب مع الزمان والمكان جيلاً بعد جيل.

## الأخلاق ضرورة فردية واجتماعية

الأخلاق هي السلوك الذي يدل على درجة تمكن القيم النبيلة من الإنسان. صعوداً أو هبوطاً، فإن كانت صعوداً كان الإنسان على خلق عظيم، وإن كانت درجة تمكن القيم متدنية عن المعدل، كان الإنسان على خلق سيء.

لذلك فقد ارتبطت الأخلاق بالدين ارتباطاً وثيقاً بحيث أصبحت الأخلاق هي روح الدين وثمرته. وهذا ما نفهمه من حديث الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

جاء أنس يوماً إلى الرسول الكريم يسألون: من أحب عباد الله إلى الله؟  
 فقال عليه الصلاة والسلام: أحسنهم خلقاً.

ولا عجب بعد ذلك أن يتوقف جزاء العبد يوم القيمة بمقدار أخلاقه، فقد قال - عليه الصلاة والسلام - «ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيمة من حسن الخلق وأن الله يبغض الفاحش والبذلة».

ولهذا لما قيل لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وهي سيئة الخلق، تؤذى جيرانها بلسانها . قال: لا خير فيها، هي من أهل النار! وإذا كان العمل هو المحرك لعجلة التقدم في أي مجتمع من المجتمعات، فإن الأخلاق ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتقدم الأمة. لأن الأخلاق هي مراقبة الله عز وجل فيما يفعل الإنسان، وهي الضمير الواقي من الزلل.

ولقد ضرب لنا الرعيل الأول من المسلمين أروع الأمثلة في حسن الخلق، والتي أهلتهم أن يتقدموا على كافة الأمم.

فهذا مثلاً عمر بن الخطاب يدخل عليه جنوده يحملون كنوز كسرى إمبراطور الفرس، ويضعونها بين يديه. فيعجب عمر ويقول: إن الذين أدوا هذا لأمناء!

وكان على بن أبي طالب يسمع، فقال : يا أمير المؤمنين . إن القوم رأوك عفوا .  
فغفر .

كما روى أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- كان من عادته أن يطوف بالليل، يتفقد شنون رعيته، وذات ليلة استند إلى جدار بيت بعد أن طال به المطاف في المدينة، وإذا به يسمع امرأة داخل البيت تطلب من ابنتها أن تخلط اللبن بالماء . وتجيب الفتاة على أمها : أو ما علمت يا أماه أن أمير المؤمنين أمر مناديه اليوم فنادى في الناس ألا يخلطوا اللبن بالماء .

فعادت الأم تقول في تحريض : قومي يا ابنتى إلى اللبن فامذقىه «اخلطيه»  
بالماء فإنك بموضع لا يراك فيه عمر، ولا منادى عمر .

فتغضب الفتاة وتجيب قائلة : يا أماه ما كنت لأطيعه في الملا وأعصيه في  
الخلا، وإن كان عمر لا يرى، والله ما كنت لأفعله وقد نهى عنه .

والاليوم أين نحن من هذا الطراز من المسلمين، وهذه النماذج الرفيعة من الأخلاق  
القويمة. ثم من أين يتأتى لنا ذلك وقد أصبحت حياتنا الدنيا تدور على محور تحكمت  
فيه المادة، وأصبح الدين مجرد نصوص نحفظها ولا نعمل بها، فغلبت علينا الهمامة  
الأخلاقية ولا عجب أن نصبح من العالم قبل الأخير !

وأعتقد أن من أهم الأسباب التي أدت إلى هذه الهزيمة الأخلاقية الآتى:  
أولاً ، فقدت التربية الإسلامية توازنها في العصر الحديث بعد انفتاح مصر على  
الحضارة الغربية دون ضوابط، فكانت حصيلة السلبيات التي أخذتها مصر عن الغرب،  
أكبر بكثير من حصيلة الإيجابيات . لأن الانفتاح يجب أن يكون بضوابط .

ثانياً : كان القضاء على الطبقية والإقطاع في مصر بعد سنة ١٩٥٢ هو المدخل  
ال حقيقي للعصر الحديث في مصر، ولكن كان يجب أن يسير ذلك جنبا إلى جنب مع خطة  
قومية تربوية تتناسب مع حجم الحراك الاجتماعي الذي سيحدث . فسادات أخلاق  
الغالبية من الشعب وهم أبناء الطبقة الدنيا، بل وساد أيضاً مزاجهم في الموسيقى  
والفناء .. ورغم أنني أرى أن ما حدث يحدث لا يمثل ظاهرة مرضية . بل على العكس

يمثل ظاهرة صحية لأنه يكشف عن أن النهضة الاجتماعية تأخذ مسارها الطبيعي. فهذا هو ما حدث في فرنسا بعد الثورة الفرنسية، وفي غير فرنسا من الدول التي مرت بنفس ظروفنا، ولكنني أكرر أنه كان من الممكن أن نقلل من حجم المشكلة لو وضعنا ذلك في اعتبارنا عند البداية.

**ثالثاً** : أدى التوسع في التعليم، وانتشار الكتب المطبوعة إلى نشر المغالط في الحكايات والواقع والتى منها الكثير في الكتب الدراسية نتيجة الاعتماد على مجرد النقل رغم تناقض الأخبار بعضها مع بعض، ولقد أدى هذا إلى انتشار الكثير من المفاهيم الخاطئة التي انعكست على شبابنا بالسلب لا بالإيجاب.

**رابعاً** : ظهور سلاح التليفزيون - وأقول سلاح لأنه فعلاً قد ثبت أنه من أقوى الأسلحة في تربية الأمة لو وجهناه التوجيه الصحيح. فال்�تليفزيون منذ أن ظهر في مصر لم يراع أن الأمة تمر بمتغير لم يحدث لها منذ سبعة آلاف عام، فلأول مرة في تاريخ مصر يصبح الشعب نسيجاً واحداً بعد أن كان طبقياً. فكان يجب أن يعرض التليفزيون إلا ما يتناسب مع ظروفنا ويحجب ولو مؤقتاً ما يجب حجبه.



## الفصل الثاني

# الحضارة الإسلامية وتربيّة المجتمع

\* القدوة ضرورة لتربيّة المجتمع

\* تولد فكرة الخلافة

\* موقف الصحابة من ترشيح الخليفة الأول

\* سلطة الخليفة .

\* الوزارة والمحاجبة .

\* الإمارة . الدواوين . القضاء .

\* الحسبة والشرطة



## القدوة ضرورة ل التربية المجتمع

إن الدين الإسلامي هو الذي صنع المجتمع الإسلامي، وهو الذي حدد له سماته ومقوماته، وهو الذي وجهه وطوره، ولم يكن ذلك كله استجابة للحاجات المحلية الموقوتة - كما هو الحال في كل النظم الاجتماعية الأخرى - إنما كانت منهاجاً إليها لتطوير البشرية كلها وصياغتها صياغة معينة، ودفعها إلى أوضاع يتم بها تحقيق المجتمع المنشود.

وقد جاء ذلك في صورة مبادئ كثيرة عامة، تقبل التفريع والتطبيق في الجذورات المتعددة والأحوال المتغيرة دون أن تفارق طبيعتها في أصولها الأولى، ودون أن تضع حلولاً جديدة لمشكلات هي بطبعتها متعددة.

إن هذه المبادئ العامة جاءت شاملة لكل أصول الحياة الإنسانية وجوانبها جمعاً.

وقد جاء على رأس ذلك كله القدوة، حيث قام الإسلام على القرآن الكريم، والقدوة الحسنة سنة الرسول - ﷺ - وبذلك وضع الإسلام الأسس العامة للمجتمع، ولم يتعرض في كثير من الأحوال للتفاصيل، وكان من جراء ذلك أن تطورت نظم الحكم والإدارة والتشريع في الدول الإسلامية حسب الظروف التاريخية ومتغيرات المجتمع وتقالييد الأمم التي دخلها الإسلام، ولكن في إطار أحكام الإسلام ومبادئه الأساسية، ومن ثم حظيت الحضارة الإسلامية بنظم ووظائف ومراسم تطورت إلى درجة رفيعة من الدقة والتنسيق والتفرع، ومن أهم هذه النظم وأكثرها شمولًا: الخلافة والإمارة والوزراء وإدارة الدواوين والقضاء والجيش<sup>(١)</sup>.

وبمبادئه التي بدء نتناول أحداث أربع وعشرين ساعة في حياة الصحابة الكرام عقب وفاة الرسول - ﷺ - وبالها من ساعات حزينة حاسمة مجيدة في تاريخ الإسلام والمسلمين .

(١) دكتور حسن البasha: دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٨٨، ص ٣٣

ومن مفارقات القدر العجيبة، أن ما تمكن الصحابة من إقامته في هذه الأربع والعشرين ساعة وهى الخلافة، احتاجت بريطانيا ومن هم وراءها فى مخططهم إلى الربع الأول من القرن العشرين بأكمله<sup>(١)</sup>، وذلك رغم أن كلنا يعلم أن الهدم دائمًا يكون أسرع من البناء، فقد يحتاج البناء سنوات طويلة، ومع هذا فإنه عند هدمه لا يحتاج إلا أيامًا أو ساعات قليلة، وربما لن يستغرق سوى دقائق أو ثوان، إقامة الخلافة فى سويعات قليلة من نفس يوم وفاة الرسول - ﷺ - تدل على القدرة الفائقة التى كان يتعانق بها الصحابة الكرام، ومدى الأصالة فى أعمالهم، بحيث إن ما أقاموه فى أربع وعشرين ساعة احتاج لهدمه إلى ربع قرن فى المخطط البريطانى، ذلك رغم أن البريطانيين أنفسهم كانوا يطلقون على الخلافة فى تلك الفترة الرجل العجوز، فائى شموخ هذا لتلك الخلافة، وأى رسوخ لها حيث احتاج لهدمها - وبعد أن أصبحت شكلًا لا موضوعا - ربع قرن كامل، وبعد حياة استمرت أكثر من اثنى عشر قرنا من الزمان!!

ومن المفارقات العجيبة أيضًا: أنه رغم علم جميع المؤرخين قديماً وحديثاً أن الخلافة قامت خلال سويعات عقب وفاة رسول الله - ﷺ - فإنه يكتفى الأقدمون من المؤرخين بنصوص شاردة وواردة تلقى بظلال قاتمة على موقف الصحابة من إقامة الخلافة، وذلك لمن قرأ كتاباتهم على عجل.

أما مؤرخو القرن العشرين فيكتفون بإصدار أحكام يرددونها فى كتبهم الدراسية، ومعظمها منقول عن مستشرقين للأسف، وتدور كلها حول محور واحد وهو: أن قيام الخلافة قد صاحبها نزاع كبير وانقسام بين الصحابة كاد يفتت وحدة المسلمين، وذلك رغم علمهم يقيناً أن عملية الترشيح للخلافة، واحتياط الخليفة ثم البيعة فى سقيقة بنى ساعدة تمت كلها فى سويعات قليلة من يوم واحد من نفس يوم وفاة الرسول - ﷺ -، ألم يكن ذلك كافياً أن يصمت الجميع، ثم أين هذا النزاع الكبير والانقسام الذى كاد يفتت وحدة المسلمين؟! لاشك أن صمت المؤرخين الأقدمين عن إصدار أحكامهم فى تلك القضية كان أفضل وأبلغ!!.

---

(١) دكتور محمد عادل عبد العزيز: قضايا فى التاريخ الإسلامى، ص ١٢٠ وما بعدها.

## تولد فكرة الخلافة

وقد شاءت عنابة الله عز وجل أن تقوم الخلافة في نفس يوم وفاة رسول الله - ﷺ - دون فكر مسبق أو ترتيب من الرسول أو الصحابة، وقد كان ذلك أمراً طبيعياً، فلم يكن في وسع رسول الله - ﷺ - أن يعهد لأحد أصحابه قبل وفاته بالنبوة !! أو أن يحدد وريثاً دون أن يكون له عرش، فهو - عليه الصلاة والسلام - لم يكن إمبراطوراً ولا ملكاً !!

وقد اتفق أهل العلم بالأخبار أن النبي - ﷺ - توفي يوم الإثنين في شهر ربيع الأول، ولكنهم اختلفوا في أي الإثنين كانت وفاته ؟

يذكر الطبرى نقاًلا عن فقهاء أهل الحجاز أن رسول الله - ﷺ - توفي يوم الإثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول <sup>(١)</sup> بينما تجمع النصوص بعد ذلك على أن وفاة رسول الله - ﷺ - كانت في يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، فيذكر الطبرى نقاًلا عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - قالت : توفي رسول الله - ﷺ - لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول في اليوم الذى قدم فيه المدينة مهاجراً فاستكمل في هجرته عشر سنين كواهل <sup>(٢)</sup> .

كما يذكر الطبرى نقاًلا عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، قال : توفي رسول الله - ﷺ - في شهر ربيع الأول في اثننتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول يوم الإثنين ودفن ليلة الأربعاء <sup>(٣)</sup> .

ويذكر ابن سعد في طبقاته أن رسول الله - ﷺ - انتقل إلى جوار ربه في يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ١١هـ ٨ يونيو سنة ٦٢٢م <sup>(٤)</sup> وهو في الثالثة والستين من عمره <sup>(٥)</sup> .

(١) دكتور محمد عادل عبد العزيز : قضايا في التاريخ الإسلامي، ص ٥ وما بعدها.

(٢) الطبرى : تاريخ الطبرى . تاريخ الراسل والملوك، الجزء الثالث . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الطبيعة الثالثة دار المعارف القاهرة من ٢٠٠ .

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل ج ٣ ص ٢١٥ .

(٤) المصدر السابق ج ٣ ص ٢١٧ .

(٥) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير، الجزء الثامن (لدين ١٣٢٢هـ) ص ١٢١

يذكر ابن هشام في سيرته قال: ابن إسحاق: لما قبض رسول الله - ﷺ - انحاز

هذا الحى من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بنى ساعدة، واعتزل على بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر وانحاز معهم أسيد بن حضير في بنى عبد الأشهل<sup>(١)</sup>.

هذا السلوك الذي سلكه الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - هو سلوك طبيعي،

لأن السلوك الاجتماعي إزاء الكوارث يحتم أن تلتقي كل جماعة حول قيادتها، فالتفاف الأنصار حول سعد بن عبادة أمر متوقع فهو كبير الأنصار، والتفاف بنى هاشم حول فاطمة الزهراء - للصبر والعزاء بعد ما أذلها المصاب الفادح ومزق كيانها وقرح عينيها البكاء على والدها العظيم - ﷺ - ألم يكن ذلك: أمراً طبيعياً أيضاً؟

أما التفاف المهاجرين حول أبي بكر ليتصدى لتلك المهمة الخطيرة؟.

هذا هو موقف الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - عقب سماعهم نبأ وفاة

الرسول - ﷺ - وهو كما رأينا كان موقفاً طبيعياً ومنطقياً، أما ما يثير الدهشة حقاً فهو سرعة تولد فكرة الخلافة بين الأنصار، بل وسرعة تطور الموقف في سقيفة بنى ساعدة وتحول اجتماعهم إلى جلسة ترشيح لسعد بن عبادة بالخلافة؟!

و قبل أن نحاول التماس الأسباب التي عجلت ببلورة فكرة الخلافة عند الأنصار

قبل المهاجرين فإنه يجب علينا أن نجيب أولاً عن هذا السؤال المهم، وهو: لماذا كان عرب يثرب أسرع تقبلاً للدعوة الإسلامية من القرشيين في مكة؟.

في الواقع كان عرب يثرب أسرع تقبلاً للدعوة الإسلامية من القرشيين في مكة لعدة أسباب: كانت يثرب في الجاهلية تضم كتلتين رئيسيتين من السكان اليهود والعرب، وكان أكبر هذه القبائل اليهودية ثلاثة: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، أما العرب فكانت أهل قبائلهم قبيلتان: قبيلة الخزرج، وقبيلة الأوس، وكانت علاقة اليهود بعرب يثرب سيئة، حتى أن هؤلاء العرب صمموا قبل هجرة النبي - ﷺ - إلى

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج ٤ من ٣٠٨

المدينة على إجلاء اليهود عنها، كذلك كان العرب أنفسهم متعددين فقد وقعت بين الخزرج والأوس حروب عدة نخص بالذكر منها ما حدث في يوم «بعثات» حيث غلبت الخزرج قبل الهجرة بسنوات قلائل<sup>(١)</sup>. رغم كثرة عددها من الأوس، وقد كان من بين نتائج موقعة بعاث ميل الأوس والخزرج إلى تولية عبد الله بن أبي بن سلول سيد الخزرج في هذا الوقت - أميراً عليهم جميعاً حقنا للدماء<sup>(٢)</sup>. غير أنه حدث أن التقى حاجاج يثرب بالنبي - ﷺ - بالعقبة ثم بايده، وقبل دعوته، كما رجعوا في العام التالي بالبيعة بهجرته إلى قومهم، ودعوتهما إلى نصرة الإسلام والدخول في طاعة الرسول - ﷺ - فلقيت دعوتهما قبولاً منهم وعدلوا بذلك عن تولية عبد الله بن أبي<sup>(٣)</sup>.

وقد سارع الأوس إلى قبول دعوة الرسول والترحيب بهجرته، لاعتقادهم أنه لم يتقدم عليه أحد بيترب من الخزرج، أما الخزرج فقد رحبوا بدعوة الرسول - ﷺ - ومجترته إلى مدينتهم لوثيقهم من أنه يستطيع جمعهم مع الأوس تحت لوائه بعد إنهزامهم في موقعة بعاث، وفضلاً عن ذلك ، لأنه من أكرم بيوت قريش وسادتها، ولصلة النسب التي تربطهم به<sup>(٤)</sup> فهو حفيد عبد المطلب ابن سلمي بنت زيد من بنى النجار أحد بطن قبيلتهم الخزرج<sup>(٥)</sup>.

لذلك كان الأنصار أكثر استجابة لمشاعر الخطر الذي يهددهم بوفاة النبي - ﷺ - وهذا ما يفسر قول معن بن عدى الأنصاري حيث قال: إن الناس «يعنى الأنصار» بكونها على رسول الله - ﷺ - حين توفاه الله عز وجل، وقالوا : الله لورثنا أنا متتنا قبله إنا نخشى أن نفتتن بعده<sup>(٦)</sup>.

لذلك ارتبطت سرعة تولد فكرة الخلافة ارتباطاً وثيقاً بسرعة تقبل الأنصار للإسلام عن القرشيين في مكة، فهو أمر حتمته ظروف الأنصار، أضف إلى ذلك أن الأنصار كانوا هم سكان المدينة الأصليين، والمهاجرون وافدون عليهم، وأن المبادرة كان يجب ألا تأتي إلا منهم.

(١) دكتور محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد- صلى الله عليه وسلم - دار الفكر العربي ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م ص ٨٣.

(٢) السمهودي: كتاب الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم- ج ١ ص ١٥٥ (١) ابن خلدون.

(٤) دكتور محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية ص ٨٤.

(٥) محمد رضا: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٨م ص ١٧.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية ج ٤ ص ٣١١ الطبرى: تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٠٧.

## تفسير موقف الصحابة من ترشيح الخليفة الأول

اجتمعت الأنصار في سقيفة بنى ساعدة وقالوا: نولى الأمر سعد بن عبادة سيد الخزرج، فأخرجوا سعدا إليهم وهو مريض، فطلب سعد ابنه أو بعض بنى عمه أن يتلقى منه القول ثم يسمعه القوم لعدم قدرته على أن يسمع القوم كلامه لمرضه، فكان يتكلم وينقل الرجل قوله، فيرفع صوته فيسمع كل المجتمعين: فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار، لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمدأ عليه الصلاة والسلام -لبت بضع عشرة سنة في قومه يدعوه إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان، فما أمن به من قومه إلا رجال قليل، وكان ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله، ولا أن يعززوا دينه، ولا أن يدفعوا عن نفسمهم ضيما عمما به، حتى إذا أراد بكم الفضيلة، ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعم، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله، والمنع له ولاصحابه، والإعزاز له ولدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم، واثقله على عدوه من غيركم، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها، وأعطي البعيد المقادرة صاغرا داخرا، حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكם له العرب، وتوفاه الله وهو عنكم راض، وبكم قرير عين، استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس.

فأجابوه بأجمعهم: أن قد وفقت في الرأي وأصبت في القول، ولن نعدوا ما رأيت، ونوليك هذا الأمر، فإنك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضا.

ثم ترادوا الكلام بينهم، فقالوا: فإن أبىت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون، ونحن عشيرته وأوليائه، فعلام تنازعوننا هذا بعده! فقللت طائفة منهم: فإننا نقول إذا: منا أمير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا، فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا أول الوهن!<sup>١١</sup>

١١) الطبرى: تاريخ الرسل ج ٣ من ٢١٨.

ويصل بعد قليل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ويدخلون على الأنصار وهم مجتمعون، فقد ذكر ابن هشام أنه قد أتى إلى أبي بكر وعمر، فقال: إن كان لكم بأمر الناس حاجة فأذركوا قبل أن يتفاقم أمرهم، رسول الله - ﷺ - في بيته لم يفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله، قال عمر: فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، حتى ننظر ما هم عليه<sup>(١)</sup>.

أما الطبرى فيذكر أن خبر اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة قد أتى عمر بن الخطاب أولاً، فأقبل عمر إلى منزل الرسول - ﷺ - فأرسل إلى أبي بكر أن اخرج إلى فأرسل إليه: إنى مشتغل. فأرسل إليه أنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره، فخرج إليه، فقال: أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة، وأحسنهم مقالة من يقول:

منا أمير ومن قريش أمير، فمضيا مسرعين نحوهم<sup>(٢)</sup> ويدرك ابن هشام أنهم وهما فى الطريق لقيا رجلين صالحين من الأنصار فذكرها لهما ما تملاه عليه القوم، وقالا: أين تريدون يا معاشر المهاجرين؟ قالوا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار قالا: فلا عليكم أن تقربوهم يا معاشر المهاجرين، اقضوا أمركم، فقال عمر: والله لنأتينهم<sup>(٣)</sup>.  
أما الطبرى فيذكر القصة السابقة موضحا أن الرجلين الصالحين هما: عاصم بن عدى، وعويم بن ساعدة، وأن هذا اللقاء حدث بعد أن انضم عبيدة بن الجراح إلى أبي بكر وعمر وليس قبل ذلك<sup>(٤)</sup>.

ويستطرد ابن هشام على لسان عمر بن الخطاب حيث يقول، فانطلقنا حتى أتيناهم فى سقيفة بنى ساعدة، فإذا بين ظهرانهم رجل مزمل، فقلت: من هذا؟ فقالوا سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ فقالوا: وجع. فلما جلسنا نشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو له أهل، ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معاشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة من قومكم «الجماعة من الناس تأتى من بلد إلى

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج ٤ ص ٣٠٨.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل ج ٩ ص ٢١٩

(٣) ابن هشام: المصدر السابق ج ٤ ص ٢١٠

(٤) الطبرى: المصدر السابق ج ٣ ص ٢١٩

بلد» قال: وإذا هم يريدون أن يجتازوا من أصلنا، يغضبونا العر، فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد زورت «أعددت» في نفسى مقالة قد أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكانت أدارى منه بعض الحد» الحدة، فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه، فتكلم، وهو كان أعلم منى وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويرى إلا قالها فى بيته، أو مثلها أو أفضل<sup>(١)</sup>!

و قبل أن نتابع الكلمة التي قالها أبو بكر نود أن نشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن الأنصار رغم أنهم لم يرشحوا للخلافة إلا مرشحا واحداً وهو سعد بن عبادة، ورغم أنه أيضاً مضى من الوقت ما يكفى للأنصار أن يبايعوا مرشحهم الوحيد قبل أن يحضر وفد المهاجرين إلى سقيفة بنى ساعدة إلا أنهم رغم هذا لم يبرموا أمراً حتى وصل وفد المهاجرين، وهذا إن دل فلابننا يدل على أن الأنصار رغم أنهم قد أجمعوا على ضرورة قيام الخلافة، ورغم إجماعهم على أن مرشحهم لهذا المنصب هو سعد بن عبادة فقط دون منافس آخر من الأنصار فإنهم لم يكروا على قناعة كافية بأن يكون الخليفة منهم، لأنه لم يكن هنا ما يمنعهم من أن يبايعوا سعد بن عبادة، ويضعوا المهاجرين أمام أمر واقع!

لذلك فإن اجتماع الأنصار في سقيفة بنى ساعدة لا يعدو أن يكون لتدارس الموقف بعد وفاة الرسول - ﷺ - والإعداد لخوض عملية انتخاب الخليفة.

بدأ أبو بكر حديثه في اجتماع السقيفة بحمد الله والثناء عليه، ثم قال: إن الله قد بعث محمداً رسولاً إلى خلقه، وشهاداً على أمته، ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة، وإنما هي من حجر منحوت، وخشب منجور، ثم قرأ<sup>(٢)</sup>: ﴿وَيَعْبُدُونَ مَنْ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَضْرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هُؤُلَاءِ شَفَاعَانَا عِنْدَ اللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup>، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾<sup>(٤)</sup>، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص ٣١٠ الطبرى : تاريخ الرسل ج ٣ ص ٢١٩.

(٢) الطبرى : المصدر السابق ج ٢ ص ٢١٩

(٣) الآية الكريمة ١٨ من سورة هرون.

(٤) آية الكريمة ٣ من سورة الزمر.

قومه بتصديقه، والإيمان به والمواساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم، وتذكيتهم إياهم، وكل الناس لهم مخالف زار عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشغف الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم، فهم أول من عبد الله في الأرض، وأمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا يناظرهم ذلك إلا ظالم، وأنتم يا معاشر الأنصار، من لا ينكر فضلهم في الدين، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواج وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأوليين عند أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتتون بمشورة ولا تقضي دونكم الأمور<sup>(١)</sup>.

وتمضي وقائع الجلسة في جو تسوده حرية الرأي فيقوم الحباب بن المنذر بيعرض الرأي الآخر بعد أن عرض أبو بكر وجهة نظر المهاجرين، فقال: يا معاشر الأنصار، املروا عليكم أمركم، فإن الناس في فيكم وفي ظلكم، ولن يجترئ على خلافكم، ولن يصدر إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة، وأولوا العدد والمنعة والتجربة، ذوو البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتفض عليكم أمركم، فإن أبي هؤلاء إلا ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير.

فقال عمر: هيهات، لا يجتمع أثنان في قرن! والله لا ترضي العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمرهم منهم، ولنا بذلك على من أبي من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينار عننا سلطان محمد وإمارته: ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم ومتورط في هلكة<sup>(٢)</sup>.

فقام الحباب بن المنذر مرة أخرى وقال: يا معاشر الأنصار، املروا على إيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بمنصبيكم من هذا الأمر، فإن أبووا عليكم ما سألتموه فاجلواهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافك دان لهذا الدين من دان من لم يكن يدين، أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب! أما والله لئن شئتم لنعيدهنها جذعة «فتية».

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٠.

فرد عليه عمر . إذاً يقتلك الله ! قال : بل إياك يقتل !<sup>(١)</sup> .

ويورد الطبرى فى كتابه « تاريخ الرسل والملوك » كلمة قصيرة لأبى عبيدة بن الجراح ألقاها حين تحرج الموقف بين الحباب بن المنذر وعمر بن الخطاب قال فيها: يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وأزر، فلا تكونوا أول من بدل وغيره.

ولما كانت كلمة أبى عبيدة بن الجراح السابقة هى الكلمة الوحيدة التى ذكرها الطبرى له فإن هذا يعني أحد الأمرين : أولهما أن أبى عبيدة بن الجراح قال كلمته هذه قبل أن يتحرج الموقف بين الرجلين الحباب وعمر حيث يذكر الحباب فى كلمته « ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه » يعني أن كلا من الرجال الثلاثة قد تكلم أبو بكر وعمر وأبى عبيدة، ما دامت أنها الكلمة الوحيدة التى وردت على لسان أبى عبيدة بن الجراح، وثانيهما أن تكون كلمة أبى عبيدة بن الجراح فعلا قالها لما تحرج الموقف بين الحباب وعمر، وفي هذه الحالة يكون لأبى عبيدة كلمات أخرى قالها فى تلك الجلسة التاريخية ولكن المصادر أهلتها .

وبعد ذلك يلقى أحد الأنصار - وهو بشير بن سعد - كلمة هيأت القضية للحكم فيها، كما يتضح منها أيضا أن الأنصار قد تهابوا بعد تلك المناقشات لقبول الحكم لصالح المهاجرين، قال بشير بن سعد : يا معشر الأنصار، إنا والله لمن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين، وسابقة فى هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا، والكوح لأنفسنا، فلا ينبعى لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتفى به من الدنيا عرضا، فإن الله ولى الملة علينا لذلك، إلا أن مهدا - بِيَهْ - من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبدا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم !<sup>(٢)</sup> .

وهكذا تهبا الجو لأن يحسم أبو بكر الموقف فقال . أما ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل . ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، هم أوسط العرب نسبيا وداروا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبایعوا أبىهم شتم<sup>(٣)</sup> ، وأخذ بيد عمر ويد أبى عبيدة وهو جالس بينهما<sup>(٤)</sup> ، لكن عمر وأبى عبيدة قالا: لا والله لا نتولى هذا

(١) الطبرى : تاريخ الرسل ج . ٢ ، ص . ٢٢٠

(٢) الطبرى : المصدر السابق ج . ٢ ص . ٢٢١

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ ص . ٣١٠ الطبرى : المصدر السابق ج . ٣ ص . ٢٢١

(٤) ابن هشام : المصدر السابق ج . ٣ ص . ٢٢١

الأمر عليك، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار و الخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاه دين المسلمين فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك<sup>(١)</sup>.

ويشير ابن هشام إلى محاولة من رجل من الأنصار عرض فيها أن يشترك الأنصار مع المهاجرين في الإمارة حيث قال: منا أمير ومنكم أمير يا معاشر قريش<sup>(٢)</sup> بينما يشير الطبرى أن هذه المحاولة كانت من أكثر من فرد من الأنصار حيث يذكر: «قالوا منا أمير ومنكم أمير»<sup>(٣)</sup>.

ويبدو أن أبا بكر كرر هنا ما قاله عليهم من قبل وهو قوله: منا الأمراء ومنكم الوزراء، لأن الطبرى يذكر هذا القول لأبي بكر مرة أخرى في هذا الموقف<sup>(٤)</sup>.

ويسرع عمر بن الخطاب بحسم الموقف فيذكر ابن هشام على لسان عمر أنه قال: فكثر اللغط، وارتقت الأصوات، حتى تخوفت الاختلاف، فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته<sup>(٥)</sup>.

ويعلق عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - على ما حدث بقوله: أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرا هو أوفق من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم، ولم تكن بيعة، أن يحدثوا بعدها بيعة، فلما أن نبايعهم على ما لا نرضى وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد<sup>(٦)</sup>.

يفهم مما سبق أن الصحابة لم يختلفوا في سقيفة بن ساعدة، وأنه كان هناك حرص شديد على عدم الاختلاف، والدليل على ذلك شهادة عمر نفسه حيث يقول «حتى تخوفت الاختلاف» وقوله «إما نخالفهم فيكون فيه فساد»، ثم أين هذا الاختلاف - الذي يتصوره البعض للأسف - رغم علمهم بقيتنا أن عملية الترشيح للخلافة، و اختيار

(١) الطبرى: تاريخ الرسل ج ٣ ص ٢٢١

(٢) المصدر السابق ص ٢١١

(٣) المصدر السابق ص ٢٠١

(٤) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠١

(٥) ابن هشام: السيرة النبوية ج ٤ ص ٣١١

(٦) المصدر السابق ص ٢١١

(٧) السيوطى: تاريخ الخلفاء، دار الفكر، لبنان - بيروت، ص ٦٣

ال الخليفة ثم بيعته في سقيفة بني ساعدة كلها تمت في سويقات قليلة من يوم واحد هو نفس يوم وفاة الرسول - ﷺ .

### وقائع البيعة الخاصة والبيعة العامة:

انتهت اجتماع سقيفة بني ساعدة بترشيع أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - للخلافة، وعليه طلب عمر بن الخطاب من أبي بكر أن يبسط يده للبيعة، وهو ما عرف بالبيعة الخاصة تمييزاً عن البيعة العامة التي تمت في اليوم التالي في المسجد النبوي الشريف.

وقد انحصرت البيعة الخاصة في المجتمعين في سقيفة بني ساعدة فقط، وفيهم من كلام ابن هشام أن عمر بن الخطاب كان أول من بايع أبي بكر بالخلافة حيث يذكر على لسان عمر: «فقلت: ابسط يدك يا أبي بكر، فبسط يده فبايعته»<sup>(١)</sup>.

وهذا يفهم من كلام الطبرى أيضاً حيث يقول: «فبايعه عمر وببايعه الناس»<sup>(٢)</sup> لكن الطبرى يعود فيوضح أنه لما ذهب عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح لمبايعة أبي بكر، سبقهما إليه بشير بن سعد، فبايعه<sup>(٣)</sup>.

ثم يذكر الطبرى أنه لما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد، وما تدعوه إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم البعض، وفيهم أسيد بن حضير - وكان أحد النقباء: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة مازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبي بكر، فقاموا إليه فبايعوه، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له هو أمرهم<sup>(٤)</sup>. وأقبلت أسلم بجماعتها حتى تضايقها بهم السكك، فبايعوا أبي بكر وهنا يذكر الطبرى أن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - قال: ما هو إلا أن رأيت أسلم، فأيقنت بالنصر.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج ٤ ص ٣١١

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل ج ٤ ص ٣١١

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٢

(٤) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٢١

ثم أقبل الأنصار من كل جانب يبايعون أبي بكر، وكادوا يطعنون سعد بن عبادة

فقال ناس من أصحاب سعد : اتقوا سعد لا طعنوه<sup>(١)</sup>.

فقال عمر : أقتلوه قتله الله ! ثم قام على رأسه فقال : لقد هممت أن أطأك حتى  
تندر عضدك. فأخذ سعد بلحية عمر، فقال : والله لو حচست منه شعره ما رجعت وفي  
فيك واضحة «الأستان التي تبدو عن الضحك»، فقال أبو بكر : مهلا يا عمر ! الرفق ها  
هنا أبلع، فأعرض عنه عمر، قال سعد : أما والله لو أُنْبَى قوَّةً مَا أُقْوَى على النهوض  
لسمعت مني فِي أقطارها وسَكَنَّها زَنِيرًا يَحْجِرُكَ وَأَصْحَابَكَ، وأَمَّا اللَّهُ إِذَا لَأْحَقْتَكَ بِقَوْمٍ  
كُنْتَ فِيهِمْ تَابِعًا غَيْرَ مَتَّبِعٍ ! احْمَلُونِي مِنْ هَذَا الْمَكَانَ، فَحَمَلُوهُ فَأَدْخَلُوهُ فِي دَارِهِ، ثُمَّ  
يذَكُرُ الطَّبْرِيُّ أَنَّهُمْ تَرَكُوهُ أَيَّامًا ثُمَّ بَعْثَرُوا إِلَيْهِ أَنَّهُ أَقْبَلَ فَبَاعَهُ، فَقَدْ بَاعَ النَّاسُ وَبَاعَ  
قَوْمَكَ، فَقَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ حَتَّى أَرْمِيكُمْ بِمَا فِي كَنَانَتِي مِنْ نَبْلِي، وَأَخْصَبْ سَنَانَ رَمْحِي  
وَأَضْرِبْكُمْ بِسَيْفِي مَا مَلَكْتَهُ يَدِي، وَأَقْاتَلُكُمْ بِأَهْلِ بَيْتِي وَمِنْ أَطْاعَنِي مِنْ قَوْمِي، فَلَا  
أَفْعُلُ، وَإِيمَانَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ الْجِنَّ اجْتَمَعُتْ لَكُمْ مَعَ الْأَنْسَانِ مَا بَايْعَتُكُمْ حَتَّى أَعْرِضَ عَلَى رَبِّيِّي،  
وَأَعْلَمُ مَا حَسَابِي.

فَلَمَّا أَتَى أَبُو بَكْرَ بِذَلِكَ قَالَ لَهُ عَمَرُ : لَا تَدْعُهُ حَتَّى يَبَايِعَ، فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ :  
إِنَّهُ قَدْ لَجَ وَأَبَى، وَلَيْسَ بِمَبَايِعِكُمْ حَتَّى يُقْتَلُ، وَلَيْسَ بِمَقْتُولٍ حَتَّى يُقْتَلُ مَعَهُ وَلَدُهُ وَأَهْلُ  
بَيْتِهِ وَطَافَةً مِنْ عَشِيرَتِهِ، فَاتَّرَكُوهُ فَلَيْسَ بِضَارِّكُمْ، إِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ وَاحِدٌ. فَتَرَكُوهُ وَقَبَلُوا  
مَشْوَرَةً بَشِيرَ بْنَ سَعْدٍ<sup>(٢)</sup>.

لَكُنَ الطَّبْرِيُّ رَغْمَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي ذَكَرَ تِلْكَ الرِّوَايَةَ فَإِنَّهُ يَذَكُرُ أَيْضًا فِي صَفَحَةِ سَابِقَةٍ  
عَلَى تِلْكَ الرِّوَايَةِ أَنَّهُ لَمْ يَخْتَلِفْ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةِ عَنْ مَبَايِعِ أَبِي  
بَكْرٍ<sup>(٣)</sup> كَمَا إِنَّهُ يَعُودُ فِي الصَّفَحَةِ التَّالِيَةِ لِلصَّفَحَةِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا رِوَايَةً امْتِنَاعِ سَعْدِ بْنِ  
عَبَادَةِ عَنْ مَبَايِعِ أَبِي بَكْرٍ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عَبَادَةَ قَالَ يَوْمَنِذَ لِأَبِي بَكْرٍ : إِنَّكُمْ يَا مُهَاجِرِينَ  
مَهَاجِرِينَ قَدْ حَسَدْتُمُونِي عَلَى الْإِمَارَةِ وَقَوْمِي .. أَجْبَرْتُمُونِي عَلَى الْبَيْعَةِ، فَرَدَ عَلَيْهِ أَبُو  
بَكْرُ وَالْحَاضِرِينَ : إِنَا لَوْ أَجْبَرْنَاكَ عَلَى الْفَرْقَةِ فَصَرَّتْ إِلَى الْجَمَاعَةِ، فَلَا إِقَالَةَ فِيهَا، لَنَنْ  
نَزَعْتُ يَدَا مِنَ الطَّاعَةِ، أَوْ جَمَاعَةً لِلنَّصَرِينَ الَّذِي فِيهِ عِينَاكَ<sup>(٤)</sup>.

(١) الطَّبْرِيُّ : تَارِيخُ الرَّسُولِ ج ٢ ص ٢٢٢.

(٢) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ.

(٣) الطَّبْرِيُّ : الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ج ٣ ص ٢٠٧.

(٤) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ص ٢٢٤.

نفهم من هذا أن سعد بن عبادة بايع يومئذ أبا بكر ولو مكرها، وبذلك يكون قد بايع أبا بكر كل الأنصار ولم يختلف أحد، وهذه ما عرفت بالبيعة الخاصة.

أما البيعة العامة فيذكر ابن هشام والطبرى أن أنس بن مالك، قال: لما بُويع أبو بكر في السقيفة وكان اللد، جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر، فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أيها الناس، إني قد كنت قلت لكم أمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدا إلى رسول الله - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - ولكنني قد كنت أرى أن رسول الله - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - سيدبر أمرنا حتى <sup>(١)</sup> يكون أمرنا، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسول الله، فإن اعتصتم به هداكم الله نعم: كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله، ثانى اثنين إذ هما في الغار فقوموا فباعوا، فباع الناس أبا بكر بيعة عامة بعد بيعة السقيفة <sup>(٢)</sup>.

بعد ذلك تكلم أبو بكر فحمد الله، وأثنى عليه بالذى هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أساءت فقومونى، والصدقأمانة، والكذب خيانة، والضعف فيكم قوى عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عهم الله بالبلاء، أطیعونى ما أطعنت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله <sup>(٣)</sup>.

وبعد أن قضيت الصلاة قام أبو بكر في الناس خطيبا بعد خطبته الأولى فقال: الحمد لله أحمده وأؤمن بوجوده، وأستعينه على أمركم كله سره وعلانيته، ونوعذ بالله مما يأتي به الليل والنهار، وترتكب عليه السر والجهر، وأشهد أن لا إله إلا الله حافظا ونصيرا، وأن محمدا عبده ورسوله بالحق بشيرا ونذيرا قدام الساعة، فمن أطاعه رشد، ومن عصاه هلك وشرد، فعليكم أيها الناس بتقوى الله: فإن أكيس الكيس التقوى، وإن أحمق الحق الفجور، فاتبعوا كتاب الله واقبلا نصيحته، واقتدوا بسنة رسوله وخذوا

(١) لم يذكر في نسخة ابن هشام كلمة (حتى) وإنما ذكرت كلية (يقول) ج ٤ ص ١٣٢

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج ٤ ص ١٣٢ الطبرى: تاريخ الرسل ج ٣ ص ٢١٠

(٣) المحدثون السابقين نفس الصفحات

شريعته، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السينات، وهو الحكيم العليم، «وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا»

واحدروا الخطايا التي لكل بني آدم فيها نصيب، وتزودوا للأخرة فإن المصير إليها قريب، ولكن خيركم من اتبع طاعة الله واجتنب معصيته، فاحذرؤا يوما لا ينفع فيه من حميم ولا شفيع يطاع، وليعمل عامل ما استطاع من عمل يقربه إلى ربه، واعملوا الخير فإن قليله كثير نام مبارك، واتقوا الله حق تقاته، واحذرؤا ما حذركم في كتابه، وتوقوا معصيته خشية من عقابه، فليس فيها رغبة لأحد، استغفوا عما حرم الله وأمر باجتنابه، وإياكم والمحقرات فإنها تقرب إلى الموجبات، واعملوا قبل أن لا تعلموا، وتوبوا من الخطايا التي لا يغسلها إلا الله برحمته، وصلوا على نبيكم كما أمركم ربكم، ثم قال: أيها الناس! إن الذي رأيتم مني لم يكن على حرص من ولا ينكم، ولكنني خفت الفتنة والاختلاف فدخلت فيها، وهأنذا وقد رجع الأمر إلى أحسنه وكفى الله بذلك الشارة، وهذا أمركم إليكم تولوا من أحببتم من الناس وأنا أجيبكم على ذلك، وأكون كأحدكم. فأجابه الناس: رضينا بك قسما وحظا إذ أنت ثانى اثنين مع رسول الله - ص - ، فقال أبو بكر: اللهم صل على محمد، والسلام على محمد، ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا ننكرك، ونؤمن بك ونخلع من يكفرك <sup>(١)</sup>.

هل اختلف على بن أبي طالب على مبادئ أبي بكر؟

اختلفت روايات المؤرخين في إجماع الصحابة على مبادئ أبي بكر بينما يورد الطبرى أنه لم يختلف أحد من الأنصار عن مبادئ أبي بكر في سقيفة بنى ساعدة، وتتابع المهاجرون على بيته من غير أن يدعوه <sup>(٢)</sup> يذكر البيعوبى أنه : تخلف عن بيته أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع على بن أبي طالب، منهم العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد والمقداد ابن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفارى، وعمران بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب <sup>(٣)</sup>

(١) ابن حيان : السيرة البوية وأخبار الخلفاء، صحيح، وعلق عليه الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م. ٤٢٦، ٤٢٥ م. ٢٠٩، ٢٠٨ م.

(٢) البيعوبى : تاريخ البيعوبى. الجزء الثانى. نشر المكتبة المرتضوية بالذجف ١٣٥٨ هـ ٢٠٣ م.

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل ج ٣ ص ٢٠٩.

ونحن حينما نستعرض أقوال المؤرخين في قضية مبادعة علي بن أبي طالب لأبي بكر فنجد لها تنقسم إلى مجموعتين:

**المجموعة الأولى:** تفيد بأن عليا كان يرى أن أبي بكر أهل للخلافة، ولذلك فإنه لم يختلف عن البيعة العامة رغم انشغاله والهاشميين بتجهيز رسول الله - ﷺ -.

**أما المجموعة الثانية:** فتفيد أن عليا كان يرى أنه أحق بالخلافة، ولذلك فإنه امتنع عن مبادعة أبي بكر فترة من الزمن قدرت بستة أشهر وقيل إنها ٧٥ ليلة من وفاة الرسول - ﷺ - وأقلها ٤٠ يوماً فقط.

وبالنسبة للمجموعة الأولى فيذكر الطبرى: أنه لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقول: والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم! يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أمركم! أين المستضعفان! أين الأذلان على والعباس! وقال: أبا حسن! أبسط يدك حتى أباعيك فأبى على عليه وزجره، وقال: وإنك والله طالما بغيت الإسلام شر! لا حاجة لنا في نصيحتك<sup>(١)</sup>. كما يذكر الطبرى أن عليا قال أيضاً لأبي سفيان: إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً<sup>(٢)</sup>.

وكما تفیدنا النصوص السابقة أن عليا كان يرى أبا بكر أهلاً للخلافة فإن النصوص التالية تفید أن عليا لم يختلف عن مبادعة أبي بكر في البيعة العامة.

عن حبيب بن أبي ثابت، قال: كان على في بيته إذ أتى فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجل، كرامية أن يبسطه عنها، حتى بایعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجله، ولزم مجلسه<sup>(٣)</sup>.

وأخيراً يذكر الطبرى نصاً يفيد أيضاً أن عليا لم يختلف عن البيعة العامة، ولكن يفهم من النص أنه جاء مكرهاً حيث يقول الطبرى: وتختلف على والزبير، واختلط الزبير سيفه، وقال: لا أغمده حتى ببايع على، فبلغ ذلك أبا بكر وعم، فقال عمر، خذوا سيف الزبير فاضربوا به الحجر. قال: فانطلق إليهم عمر، فجاء بهما تعباً، وقال: لتبایعان وأنتما طائعان، أو لتبایعان وأنتما كارهان! فبايعا<sup>(٤)</sup>.

(١) الطبرى: تاريخ الرسل ج ٣ ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق من ٤٠٧.

(٣) المصدر السابق. ج ٣ ص ٢٠٣.

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

أما نصوص المجموعة الثانية : فتصور لنا بداية اختلاف وقع بين فاطمة الزهراء وأبى بكر الصديق - رضى الله تعالى عنهم - على ميراثها من رسول الله - ص - فيذكر الطبرى : أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يطالبان ميراثهما من رسول الله - ص - وهما حينئذ يطالبان أرضه من فدك، وسهمه من خيبر، فقال لهما أبو بكر : أما إنى سمعت رسول الله يقول: لا نورث ما تركناه فهو صدقة، وإنما يأكل أهل محمد فى هذا المال وإنى والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه، فهجرته فاطمة فلم تكلمه فى ذلك حتى ماتت <sup>(١)</sup>.

ويذكر ابن سعد أن عليا كان يرى أنه أحق بنى هاشم بميراثهم من النبي باعتباره زوج السيدة فاطمة ابنة رسول الله - ص - وأبا سبطى رسول الله، وهو الذى اعتبره رسول الله بالنسبة إليه بمنزلة هارون من موسى <sup>(٢)</sup>.

أما الطبرى فيروى رواية قالها رجل للزهري نصها: أفلم يبايعه على ستة أشهر! قال : لا، ولا أحد من بنى هاشم، حتى يبايعه على فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبى بكر، فأرسل إلى أبى بكر: أن انتنا ولا يأتنا معك أحد، وكروه أن يأتىءه عمر لما علم من شدة عمر، فقال عمر: لا تأتهم وحدك، قال أبو بكر: والله لا تأتينهم وحدى، وما عسى أن يصنعوا بي! قال: فانطلق أبو بكر فدخل على، وقد جمع بنى هاشم عنده فقام على فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: فإنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك ولا نفاسه عليك بخير ساقه الله إليك، ولكننا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا، فاستبددت به علينا .

ثم ذكر قرابته من رسول الله - ص - فلما صمت على تشهد أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد فو الله لقرابة رسول الله أحب إلى أن أصل من قرابتي، وإنى والله ما ألوت فى هذه الأمور التى كانت بينى وبينكم غير الخير، ولكنى سمعت رسول الله يقول: لا نورث ما تركناه فهو صدقة، إنما يأكل أهل محمد فى هذا المال. وإنى أعود بالله ألا أذكر أمرا صنعه محمد رسول الله إلا صنعته فيه إن شاء الله، ثم قال على: موعدك العشية للبيعة، فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس، ثم عذر

(١) الطبرى : تاريخ الرسل ج ٣ ص ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩ ابن حيان . السيرة النبوية ص ٤٢٩ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى طبعة لندن تحقيق الدكتور سترستين ج ٣ ص ٢٤

عليها ببعض ما أعتذر ثم قام على فعاظم من حق أبي بكر، وذكر فضيلته وسابقته، ثم  
مضى إلى أبي بكر فبایعه<sup>(١)</sup>.

الحق أن النصوص السابقة وإن كانت تفيد تخلف على بن أبي طالب عن مبايعة  
أبي بكر الصديق بالخلافة فترة من الزمن، إلا أنها لا تفيد إطلاقاً أن تخلف على عن  
المبايعة لأنه كان يرى أنه أحق من أبي بكر بالخلافة، وإنما لتمسك أبي بكر بأن كل ما  
تركه الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فهو صدقة.

لكن ابن قتيبة ينفرد بروايتين تتعارضان تماماً مع كل النصوص التي سبقت،  
فيذكر في الرواية الأولى، أن العباس عم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أقبل على وطلب منه  
أن يبسط يده ليبايده لكن علياً يرفض ويقول: ومن يطلب هذا الأمر غيرنا<sup>(٢)</sup>.

أما الرواية الثانية فيذكر فيها أن على بن أبي طالب امتنع عن مبايعة أبي بكر  
هو وجماعة من الهاشمية والزبير بن العوام، وتخلعوا في بيت فاطمة الزهراء، فخرج  
إليهم عمر بن الخطاب في جماعة من الصحابة وأرغموا بنى هاشم والزبير على مبايعة  
أبي بكر<sup>(٣)</sup> ثم استقدم على إلى أبي بكر وطلب منه أن يبایعه فامتنع وقال، «أنا أحق  
بهذا الأمر منكم، لا أبایعكم وأنتم أولى بالبیعة لي، أخذتم هذا الحق من الأنصار،  
واحتجتم عليهم بالقرابة من النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وتأخذونه من أهل البيت غصباً، أسلتم  
زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم فأعطيتكم المقادرة،  
وسلموا إليكم الإمارة فإذا احتج عليكم بمثل ما احتجتم على الأنصار، نحن أولى  
برسول الله حياً وميتاً فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، والا فهووا بالظلم وأنتم تعلمون.  
وتدخل بعض الصحابة لإكراه على على مبايعة أبي بكر، فبكت فاطمة، وزجرت أبا بكر  
وأعلنت سخطها عليه وعلى عمر<sup>(٤)</sup>.

وهكذا أصبح ابن قتيبة هو الوحيد الذي انفرد برواية وضفت على بن أبي طالب

(١) الطبرى: تاريخ الرسول ج ٣ ص ٢٠٧، ٢٠٩.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ١ القاهرة ١٩٣٧ ص ٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤.

(٤) المصدر السابق ص ١٧، ١٦.

موضع الحاسد لأبى بكر على الخلافة وقد تبع ابن قتيبة للأسف عدد كبير بمن نقل عنه خاصة فى عصرنا الحديث دون دراسة متأنية للنصوص.

والواقع أن ما رواه ابن قتيبة مردود عليه :

**أولاً :** لماذا لم يذكر أحد من المؤرخين السابقين والمعاصرين لابن قتيبة مثل تلك الروايات، وخاصة ونحن نعلم أن ابن قتيبة كان بينه وبين زمن الأحداث أكثر من قرنين ونصف القرن، ثم هل أخطأ الصحابة - رضى الله تعالى عنهم - حينما بايعوا أبا بكر بالخلافة بالإجماع؟ !؟

**ثانياً :** لماذا لم يصعد على بن أبي طالب المشكلة مرة أخرى عند تولية عمر بن الخطاب، وأيضاً عند تولية عثمان ما دام أنه كان يرى أنه الأحق بالخلافة من أبي بكر كما ادعى ابن قتيبة؟

**ثالثاً :** لماذا رفض على بن أبي طالب الخلافة في أول الأمر حينما عرضوها عليه بعد مقتل عثمان بن عفان وقال: دعوني والتتسو غيري؟ !؟ في الواقع أنتي شخصياً لم أجد مبرراً لما جاء في كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة إلا ميلاً شيعية لابن قتيبة أو أن كتاب الإمامة والسياسة كتاب مدسوس.

وبعد، فلم تكن هذه هي القضية الوحيدة من قضايا التاريخ الإسلامي، التي تسرت إليها الأكاذيب بل هناك الكثير والكثير، والسبب في ذلك يرجع إلى أنه منذ أن وجد الإسلام ولد معه خصمه، وحين صرخ الإسلام أعداءه في ميدان القتال. لجأ هؤلاء الأعداء إلى التآمر والدس، وقد كان على رأس هؤلاء المتأمرين اليهود والفرس لأنهما الوحيدين الذين ضاع سلطانهما، فقد تمكن المسلمون من طرد اليهود من الجزيرة العربية، كما تمكنوا أيضاً من أن يضموا دولة الفرس إلى دولتهم الناشئة. وهذا ما لم يحدث للرومان، فالدولة الرومانية لم تخسر في حربها مع الإسلام سوى بعض مستعمراتها فقط. لذلك لجأ اليهود والفرس إلى أسلوب الحاقد الضعيف. فحاكوا مؤامراتهم في ظلام بعيداً عن أعين المسلمين، ولما وجدوا أنفسهم لم ينالوا من الإسلام رغم نجاحهم في قتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ثم من بعده عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنهم - رأوا أن يعدلوا من مخططاتهم، وأن يوجهوا حربتهم إلى الصف الإسلامي، واستطاعوا أن يقسموا المسلمين إلى معسكرين، ولما وجدوا أنفسهم لم

ينالوا من الإسلام في الفتنة الكبرى، لكنهم نالوا فقط من المسلمين حيث راح ضحية هذه الفتنة عدد كبير من الصحابة. اتجهوا إلى الكتب فسرروا إليها في عصر التدوين ما جعل المسلمين يتخطبون إلى يومنا هذا في قضايا كثيرة. وقد كان على رأس تلك القضايا قضية الفتنة الكبرى والتي لم يفلح أحد أن يغلق ملف تلك القضية من خلال النصوص العربية التي احتشدت بالمحاجة في الحكايات. لذلك فإنني أرى أن حسم تلك القضية لا يكون إلا دينيا، وليس تاريخيا حيث كان على رأس معسكي الفتنة الكبرى من كان على قيد الحياة من العشرة المبشرين بالجنة، والذين مات رسول الله - ﷺ - وهو عنهم راض.

وهذا في رأيي يكفي لأن نستدل منه على إن انقسام المسلمين إلى فريقين في خلافة على بن أبي طالب، لم تكن لتناقض المنافع بين الفريقين أو لصراع على السلطة وإنما كان بفعل فاعل، ولذلك كان كل من الفريقين يرى أنه على حق .

## سلطة الخليفة

الخلافة في النظام الإسلامي:

الخلف: هو من بعده في الأرض<sup>(١)</sup> لقوله تعالى: **﴿فَمَنْ جَعَلْنَاكُمْ خَلَافَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِ﴾**<sup>(٢)</sup>.

وقد أجمع فقهاء المسلمين - ما عدا طائفة من الخوارج - على وجوب تنصيب الخليفة، يقول ابن خلدون: إن تنصيب الإمام واجب قد عرف وجوبه بالشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأن أصحاب رسول الله - **ﷺ** -، عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر في أمرهم، وكذلك من بعد ذلك، ولم تترك حراسة الدين وسياسة الناس فوضى في عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب تنصيب الخليفة.

أجمل الفقيه الماوردي وظيفة الخليفة في أنها «حراسة الدين وسياسة الدنيا»، فهى إذن وظيفة دينية ودنية.

والولاية العامة في الإسلام ليست مطلقة، وإنما هي مقيدة بحدود الشريعة، أوامرها ونواهيها. وقد استجتمع أول خطاب سياسي لأول خليفة في الإسلام العناصر الدستورية التي تحدد مركزاً الخليفة وسلطاته في الإسلام.

فبعد أن تمت البيعة قال رضي الله عنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه: **أيها الناس، فإنني وليت عليكم ولست بخيركم. فإن أحسنتم فأعينوني. وإن أساءتم فقوموني. الصدق أمانة. والكذب خيانة. والضعف قوى عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله. والقوى فيكم ضعيف. حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل. ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم برحمة الله.**

(١) دكتور محمد عادل عبد العزيز: معجم معاني لفاظ القرآن من القرآن الكريم. معجزة البيان القرآني. باب حرف الخام.

(٢) سورة يونس، الآية ٤.

وتتضح في هذا الخطاب السياسي الحقائق الآتية :

أولاً : أن الخلافة في نظام الإسلام لا تمنع صاحبها حقاً غير عادي فوق حقوق الجماهير يزعم بها قداسة أو حصانة إلهية «إنى وليت عليكم ولست بخيركم».

ثانياً : التضامن في المسؤولية «فإن أحسنت فأعينوني».

ثالثاً : حق النقد والتوجيه للشعب «وإن أسأت فقوموني».

رابعاً : تمركز مسؤوليته عند إقامة الحق وإشاعة العدل «الضعيف فيكم قوي عندى حتى أربع عليه حقة إن شاء الله. والقوى فيكم ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه إن شاء الله».

سادساً : بيان حدود طاعة الخليفة ومخالفته «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله. فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم».

ومن المقرر أن جميع الأوضاع في الخلافة الإسلامية مقيدة بالشريعة إذ هي التي تنشئ هذه الأوضاع وتحددتها. وهي المرجع في كل العلاقات سواء كانت بين الأفراد أم كانت بين السلطة والشعب. والشريعة تتحرى مصلحة البشر. وتتوخى ما فيه خيرهم. وكون الشريعة في الخلافة هي المرجع. يعني بلغة العصر سيادة القانون. فما أنزله الله هو الحكم والفيصل. تعرض عليه أعمال الحاكم. كما تعرض عليه أعمال المحكوم. وتنتهي كلها عند تحقيق العدل.

والعدل في المفهوم الإسلامي ليس أمراً تجريدياً. وإنما هو محدد ومتّمّ. ذلك أنه العدل المبني على التوحيد. المستمد من نصوص القرآن والسنّة. ومعيار العدل ووسيلته ما أظهرنا الله عليه من شريعته.

وسبيل الخليفة إلى ممارسة صلاحياته الدستورية هو البيعة، وحسبنا أن نقول: إن البيعة عهد يعطيه المسلم على نفسه بالطاعة والنصرة لمن يقوم بالخلافة، وهذا العهد له خطورته في تقويم الإسلام، وهو في الأول والأخر التزام من الجانبين، جانب العباديين وجانب الخليفة بتنفيذ شريعة الله.

وخطورة هذا العهد تظهر فيما رواه البخاري قال: قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ثلاثة لا يكلّهم الله يوم القيمة ولا يزكيّهم ولهم عذاب أليم. رجل على فضل ماء بالطريق

يمنع منه ابن السبيل، ورجل بایع إماما لا بیایعه إلا لدنياه، إن أعطاه ما يريد وفي له،  
والالم يوف له، ورجل بیایع رجلا بسلعة فلطف بالله لقد أعطى بها كذا وكذا فصدقه  
فأخذها، ولم يعط بها.

وفيما رواه أبو يوسف قال : قال رسول الله - ﷺ : «ومن فارق الجماعة  
والإسلام شبرا فقد خلع رقبة الإسلام من عنقه»<sup>(١)</sup>.

والبيعة في الإسلام تقوم على عنصري الأمانة والخبرة في شئون السياسة  
والحكم، وإذا كانت الأمانة تعنى أن يتحرى كل من البائع والمبایع له صالح الجماعة  
ديننا ودنيا، فإن الخبرة في شئون السياسة والحكم معيار صالح للتطبيق في كل عصر.  
**الشوري:**

وردت نصوص نظرية في القرآن الكريم والسنّة المطهرة تقرر مبدأ الشورى في  
الإسلام.

يقول الله تعالى : **﴿فَبِمَا رَحْمَةِ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كَنْتَ فَظَا غَلِيلَ الْقَلْبِ  
لَا يَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكِّلْ  
عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾**

قال القرطبي رواية عن الحسن والضحاك : ما أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة  
لما فيهم، إذ هو مoid بالوحى، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من  
الفضل، ولتقنطى به أمته من بعده.

قال العلماء : وصفة المستشار إن كان في الأحكام أن يكون دينا عالما، وصفة  
المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلا مجربا. وقد جاء في مصنف أبي داود عن أبي  
هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : المستشار مؤمن. وقال البخاري : كانت الأئمة  
بعد النبي - ﷺ - يستشرون الأمانة من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا  
بأنها.

ونقل القرطبي عن ابن عطية في التفرقة بين الحزم والعزّم في تفسير قوله  
تعالى : **﴿فَبِذَلِكَ عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾**، أن الحزم هو جودة النظر في الأمر وتنقيذه

<sup>(١)</sup> أبو يوسف الخراج، ص ٩

<sup>(٢)</sup> سورة آل عمران، الآية ١٥٩

والحد من الخطأ فيه، والغزم قصد الإمضاء، والله تعالى يقول: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾، فالمشاورة وما كان في معناها الحزم.

وجاء في صفات المؤمنين أن أمرهم شوري بينهم، فقال تعالى: «فما أوتيت من شيء فمتع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون» الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شوري بينهم وما رزقناهم ينفقون».

قال القرطبي نقلًا عن ابن العربي: الشوري أفة للجماعة ومسار للعقل، وسبب إلى الصواب. ثم قال: فمدح الله المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يتمثلون ذلك. وأن النبي يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب. ولم يشاورهم في الأحكام لأنها منزلة من عند الله. فأما الصحابة بعد استئثار الله به في الأحكام لأنها منزلة من عند الله. فأما الصحابة بعد استئثار الله به علينا فكانوا يتشارون في الأحكام: ويستنبطونها من الكتاب والسنّة. وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة. فإن النبي لم ينص عليها. وتشاوروا في قتال مانع الزكاة، وتشاوروا في ميراث الجد.

وروى الترمذى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ - : «إذا كان أمراؤكم خياركم. وأغنياؤكم سحاءكم. وأمركم شوري بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شاركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموالكم إلى نسانكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

وطبيعة الشوري في الإسلام تبدو معها ظاهرتا الملاعنة والمشروعية. فالملاءمة هي سؤال أهل الخبرة فيما هم خبراء فيه. فتستجمع منهم في شئون الحكم والسياسة عناصر الفهم في نطاق التخصص. فإذا كان الأمر يتعلق بشئون المال أو التجارة أو الزراعة مثلاً سئل أهل الخبرة في ذلك تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿فاسألو أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

والمشروعية هي عرض رأى أهل الخبرة على مقاييس الشريعة. ذلك أن العالم المسلم الخبير بأحكام الله حلالاً وحراماً. وبطرق الاجتهاد وأساليب الاستنباط إذا طلب رأيه في أمر من الأمور فإنه يرجع أولاً إلى أهل الخبرة ليتعرف منهم ما يتطلبه الأمر

من الدواعي والمصالح. وما يكون من الخبرة ليتعرف منهم ما يتطلب الأمر من الدواعي والمصالح. وما يكون من الخير إذا تحققت، والشر إذا تخلفت، فإذا تحرى ذلك ووقف عليه فإنه يعرضه على مقاييس الشريعة، ويبدى رأيه بعد سماع أهل الخبرة. فالمشروعية مقيدة بما يظهر من الموافقة للشريعة. بما يكون من طرق الاجتهاد وأساليبه.

ومن هنا ندرك أن سلطة الخليفة في قوله تعالى «فإذا عزمت فتوكل على الله» ليست مطلقة : بل هي مقيدة بالصلحة التي تتوخاها الشريعة.

### الحرية:

إن الحرية في الإسلام ملتزمة بضوابط الشريعة، وفي مجالنا هذا، وهو مجال إبداء الرأي في شئون السياسة، بمعنى أن يكون الرأي صادراً يتوجه إلى المصلحة العامة. وإذا أخذنا حرية المعاملات مثلاً. لا نجد مجالاً للمعيار الشخصي في التزاماتها، ذلك أن نطاق الحرام محدد ببيان الشريعة. فلا يتأتى أن يكون في الربا المحرم أو الفسق مجالاً للمعيار الشخصي.

والأمر في إبداء الرأي في شئون السياسة والحكم لا يختلف مع الالتزام بتوجيه إرضا الله في تحقيق الصالح العام. فإن المجال يتسع للتقدير الشخصي في الحكم على الواقع والأشخاص. ويتبين ذلك في واقعتين .

الأولى : في موقف المسلمين عقب وفاة الرسول - ﷺ . فقد كان الإجماع بينا على وجوب إقامة من يخلف الرسول في حراسة الدين وسياسة الدنيا. كما كان الأجماع ظاهراً على أن المقصود من ذلك هو تحقيق الصالح العام للدعوة المسلمين. فلا يتركون أزواجاً تتفرق بهم السبيل، وتقطع بينهم أواصر الأخوة التي جمعهم عليهما الإسلام.

والواقعة الأخرى تتصل بإبداء الرأي في أمر كان من الخليفة، بدا فيه لأحد المواطنين أنه استغل مركزه فيه.

ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو خليفة المسلمين - صعد المنبر ذات يوم ليحدث الناس.

فبدأ خطبته بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله بقوله: اسمعوا يرحمكم الله.  
وهنا نهض أحد المسلمين وقال: والله لا نسمع. والله لا نسمع. فسأله عمر في  
لهفة. ولم ياسلمان؟ فأجاب سلمان: ميزت نفسك علينا في الدنيا. إذ أعطيت كلًا منا  
ثواباً بردة واحدة. وأخذت أنت بردتين.

فأجاب أمير المؤمنين بصره في صفوف الحاضرين ثم قال: أين عبد الله بن  
عمر؟

فنهض ابنه عبد الله. وقال هأنذا يا أمير المؤمنين.

فسأله عمر على مشهد من الحاضرين: من صاحب البردة الثانية؟ فأجاب عبد  
الله: أنا يا أمير المؤمنين.

ثم اتجه عمر إلى سلمان والجميع يلقوه السمع وقال:  
إنني كما تعلمون رجل طوال، ولقد جاءت بردتي قصيرة، فأعطاني عبد الله  
بردته، فأطللت بردتي ببردته.

وهنا يتألق وجه سلمان وفي عينيه دموع الغبطة والثقة في الخليفة يقول:  
الحمد لله.. والآن قل نسمع ونطع يا أمير المؤمنين<sup>(١)</sup>.  
وتؤكي الصالح العام هو ما كان في الواقعتين اللتين أخذناهما مثلاً. وبذلك  
يبدو بینا ما قلناه من أن الحرية السياسية ملتزمة، بيد أنها تتسع لمعيار التقويم  
الشخصي الملتزم أيضاً.

### المساواة في الحقوق والتلاقي في الواجبات:

أناح الإسلام لأفراد المجتمع فرص التمتع بحقوق الإنسان كاملة دون تفرقة  
بسبب لون أو عرق وما شابه ذلك مما لا يعم إلى الفطرة الإنسانية بنسب. فقال تعالى:  
«هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها»<sup>(٢)</sup>.  
وقال رسول الله - عليه السلام - أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأدم.

(١) خالد محمد خالد: بين يدي عمر من ١١٢.

(٢) ١٨٩ / الأعراف.

وأدم من تراب، إن أكرمكم عن الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمى ولا لعجمى على عربي، ولا لأحمر على أبيض فضل إلا بالتفوى<sup>(١)</sup>.

ومتقضى خلق البشر جميعا من نفس واحدة، وعدم التفاضل في الفطرة بينهم، هو التساوى في الحقوق كلها فحق التملك متاح لجميع الناس دون تفرقة بينهم فيه. وكذلك حق التناقض، حق إبداء الرأى إلى آخر ما تنتهي إليه الحقوق التي أتاحتها الله للإنسان.

والجميع أمام شريعة الله سواء، يسرى على الغنى منها ما يسرى على الفقير، وتطبيق أحكامها على الكبير كما تطبق على الصغير، دون أدنى تمييز لمركز اجتماعى أو اعتباروظيفى. ومبدأ سريان قانون الشريعة على جميع الناس واضح كل الوضوح فيما قاله رسول الله-صَلَّىَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى حين استقبل الناس بهذه الكلمات: «أيها الناس، من كنت جلت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منى ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منى. ومن أخذت له مالاً فليأخذ منه. ولا يخشى الشحناه فهو ليس من شأنى»<sup>(٢)</sup>.

وقد ذهب الإسلام في الحقوق مذهباً أصل وأبعد. إذ جعل كفالة العاجز عن الكسب حقاً مفروضاً يؤدى إليه من مال الدولة ويطالب به صاحبه إن لم يصل إليه. دون نظر إلا إلى إنسانية الإنسان.

من عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأحد طرق المدينة ذات يوم، فوجد بباب قوم شيخاً منقادماً في السن ضرير البصر. يسأل المعونة، فاتجه إليه ووضع يده على عضد الرجل في رفق، وسألة عما الجاء إلى هذا الوضع فعرف أنه يهودي ذهب الأيام بما كان في يده، فأخذته عمر وذهب إلى منزله، وأعطاه ما استطاع مما كان في المنزل. ثم أرسل إلى خازن بيت المال، وكله أن ينظر في هذا وأمثاله. وبفرض له عطاء دورياً. وقال كلمته المشهورة: «والله ما أنتصناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذه عند الهرم» وحسب الإسلام أنه يحفظ على الإنسان حقه. فلا يسمح بالاعتداء على هذا الحق ولو كان تطاولاً باللسان على عبد أسود.

(١) دكتور يوسف عبد الهادى الشال : الإسلام وبناء المجتمع الفاضل. سلسلة البحوث الإسلامية. السنة الرابعة - العدد السادسون - ذو الحجة ١٤٩٢ هـ - ديسمبر ١٩٧٢ م، ص ٣١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١١.

كان أبوذر الغفارى يكلم عبدا فى مجلس النبي - ص - فغضب أبوذر وقال : يا ابن السوداء، فالتفت إليه النبي قائلًا : طف الصاع طف الصاع - يعني جاوز الأمر حده - ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح. فوضع أبوذر خده على التراب وقال للعبد : قم فطأ على خدي <sup>(١)</sup>.

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام من معاملة الرقيق. فقد يسأل سائل : ولماذا إذن

سمح الإسلام بتداول الرقيق في المجتمع الإسلامي؟

نقول : إن الإسلام أتى والرق نظام قائم في المجتمع الدولي، فإن حرم الإسلام شراء الرقيق فهذا معناه حرمان هؤلاء التعبسات من اعتناق الدين الإسلامي. وحرمانهم أيضاً من أن يحصلوا على حريةتهم في يوم من الأيام. فإذا كان الإسلام قد سمح بشراء الرقيق، فإنه في الوقت نفسه فتح أبواباً كثيرة لعتقه واعطائه حرية.

وبحسب الإسلام أيضاً أنه يدفع أصحاب الحقوق إلى الحصول عليها إذا تراخوا في طلبها، ويحملهم أوزار التراخي في البذل.

روى الطبراني عن علقة بن سعيد عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله ذات يوم، فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً. ثم قال : ما بال أقوام لا يفهون جيرانهم، ولا يعلموهم، ولا يعطونهم، ولا يأمرؤونهم، ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتلقّهون، ولا يتعظون؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم، ويفهونهم، ويعظونهم، ويرأموهم، وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتلقّهون، ويتتعظون، أو لأعجلنهم العقوبة. ثم نزل.

فقال قوم : من ترونكم عنى بهؤلاء؟ قال الأشعربين، هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب.

فبلغ ذلك الأشعربين، فأتوا رسول الله فقالوا : يا رسول الله، ذكرت قوماً بخرين، وذكرتنا بشر، فما بالنا؟

فقال رسول الله : ليعلمن قوم جيرانهم، وليعظونهم، ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتتعظون، ويتلقّهون أو لأعجلنهم العقوبة في الدنيا.

(١) دكتور يوسف عبد الهادي الشال : الإسلام وبناء المجتمع ص ٣١٢.

قالوا يا رسول الله، أنفطنا غيرنا؟ فأعده قوله عليهم، فأعادوا قوله : أنفطنا غيرنا؟ فقال ذلك. فقالوا: أمهلنا سنة. فأمهلهم سنة ليفقهوه ويعلمونه. ثم قرأ رسول الله قوله تعالى : ﴿لَعْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لَسَانِ دَاؤِ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَمُوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾<sup>(١)</sup>

فالرسول هنا يدفع غير المتعلمين إلى التعلم، ويحذر من التفريط في هذا الحق، ويهدى بإذلال العقوبة في الدنيا، ويدفع من لديهم العلم إلى بذلك، ويحذر من التفريط في هذا الواجب، ويهدى بإذلال العقوبة في الدنيا أيضاً.

والتلاؤم في الواجبات ظاهر كل الظهور فيما فرضه الله من واجبات على المسلم. فلا تجب كل من الصلاة والصوم والحج على مستوى المسؤولية قبل سن التكليف. وكل منها حالات تؤدي فيها على نحو معين يتلائم مع ظروف المكلف. فإذا لم يستطع المصلى الوقوف صلى جالسا وإذا لم يستطع الصوم لعارض مرض جاز له أن يفطر. حتى إذا زال العارض قضى ما عليه. كما لا يجب الحج إلا على المستطيع. ومثل ذلك في الواجبات المالية. فإن الشريعة جعلت حدا معينا للإعفاء من الزكاة في أنواعها. فإذا بلغت الأموال هذا الحد المعين كان ذلك دليلاً عملياً على إمكان تحمل الموساة بالمال ونحوه ما تجب فيه الزكاة : ثم بعد ذلك تكون النسبة الواجبة معياراً يتحرك مع الأموال وغيرها. فلا يدفع من عنده المئات مثل ما يدفع من عنده الألوف<sup>(٢)</sup>.

وقد أجمل الفقهاء الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى الخلافة في أربعة شروط، هي العلم والعدالة والكافية وسلامة الحواس والأعضاء، مما يؤثر في الرأي والعمل. واختلفوا في شرط خامس وهو النسب القرشي، فمنهم من قال بوجوبه ومنهم من لم يستشرط محتاجاً بأن الإسلام نادى بالمساواة التامة بين الناس جميعاً، ولم يفضل أحداً على غيره إلا بالتقوى والعمل الصالح. وأشهر من نادى بهذا الرأي طائفة الخوارج، بل إن من بين فرقهم الكثير من لا يرى تنصيب خليفة، وأن الناس يجب عليهم أن يقيموا العدل بينهم من غير حاجة إلى من يحكمهم. ولكن حجة هؤلاء واهية.

(١) سورة المائدة: الآية ٧٨.

(٢) دكتور يوسف عبد الهادي الشال: الإسلام وبناء المجتمع الفاصل. ص. ٢٩٥ - ٣١٥.

وكان يتبع الخليفة مباشرة عدد من الخطط الدينية والشرعية والوظائف الكبرى: وهي الصلاة والفتيا والقضاء والحساب. وكانت تجب له طاعة المسلمين وسائر رعيته.

وكان للخلافة علامات ثلاثة: هي البردة والخاتم والقضيب. أما شاراتها فكانت ثلاثة أيضاً وهي الخطبة والسكة والطراز<sup>(١)</sup>.

وأجيز أن يقال «خليفة رسول الله» واختلف في جواز أن يقال «خليفة الله».. ومع ذلك فقد أطلق لقب «خليفة الله» على المأمون في سكة بتاريخ سنة ٢٠٣ هـ كما أطلق على بعض الخلفاء العباسيين لقب «خليفة الله على كافة أهل الإسلام» و«خليفة في أرضه ونائبه في خلقه».

ويبدو من هذه الألقاب أن الخليفة العباسي ربما كان يعتبر مفوضاً من الله لإقرار دينه وحكم الناس ومن الملاحظ أن هذا التصور كان معروفاً عند الساسانيين ومع ذلك فقد ظهر لقب «خليفة الله» على فلس ينسبة البعض إلى عبد الملك بن مروان. ولم تكن الخلافة وراثية إلى أن جاء معاوية فجعلها وراثية في ابنه وذلك حين وافق في سنة ٥٨ هـ أن يحصل على البيعة لابنه يزيد، وظلت وراثية منذ ذلك الوقت، غير أن الخليفة كان لابد من أن يبايعه المسلمين.

وجريدة عادة الخلفاء العباسيين ولا سيما في العصر العباسي الأول أن كان الخليفة يعهد إلى أكثر من واحد: فمثلاً قد يعهد إلى أكبر أبناءه ثم إلى من يليه من أبناءه أو إلى أحد أقاربه. وقد أدى ذلك إلى اضطراب وبلبلة: إذ كان الخليفة الجديد يلغى العهد السابق، ويعهد بدوره إلى أكبر أبناءه: فمثلاً نجد أن السفاح عهد إلى أخيه المنصور ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى وحين تولى المنصور الخلافة خلع عيسى بن موسى من ولایة العهد وعهد إلى ولديه المهدى والمهدى، ثم عهد المهدى بدوره إلى ولديه الهاجرى ثم الرشيد، ثم نجد الرشيد يولى العهد أولاده الثلاثة: الأمين والمأمون والموتن، ويقسم البلاد بينهم، ويحاول الأمين أن يولي عهده ابنه موسى بدلاً من أخيه مما أدى إلى نشوب الحرب بين الأمين والمأمون، ثم قتل الأمين.

(١) ابن خلدون: المقدمة من ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٦١.

على أننا نجد أحد الخلفاء العباسيين وهو الواثق (٢٧٧-٢٣٢هـ) يرفض أن يوصي لابنه العهد ويقول: لا يراني الله أتقلد لها حياً ومتاً، وقد ولى الخلافة بعده أخيه المتوكل.

ومنذ المتوكل استبد غلامان الأتراك باختيار الخليفة الجديد، ولو أنهم كانوا يحرصون على أن يكون الخليفة من بنى العباس.

واستطاع خلفاء العصر العباسى الأول أن تكون لهم الكلمة العليا فى الدولة ثم أخذ نفوذهم بعد ذلك فى التقلص: إذ مر على الخلافة فترات ضعف واستبد بسلطتها رجال الدولة، واستقلت عنها ولايات انفردت بحكمها امرأوها، ومع ذلك ظل لل الخليفة مكانته واحترامه وسلطانه الروحى مادام فى الخلافة، كما ظل محتفظاً بحق التعيين حتى فى عصر استبداد البوهيميين بالحكم، بل إن كبار الولاية المستقلين كانوا يحرصون دائمًا على الحصول على تصديق الخليفة على ولايتهم، وعلى تفویضه لهم الحكم والجهاد وحق التولية.

وقد ظل العالم الإسلامي يشعر بالفراغ بعد قضاء هولاكو على الخلافة العباسية فى بغداد، ومن ثم بعثها بىبرس من جديد فى القاهرة، حيث صار الخليفة يفوض إلى السلطان الولاية والأمور العامة، وقد ظل ملوك الهند وكثير غيرهم من ملوك الإسلام يطلبون التقليد من الخليفة العباسى فى القاهرة، وكانوا يكتابون فى ذلك سلاطين الممالىك، وكان هؤلاء يجيبونهم إلى ذلك ويبعثون إليهم بالتقاليد والخلع والألوية بالشعار العباسى حسب العادة القديمة<sup>(١)</sup>.

وحيث دخل العثمانيون مصر كانت الخلافة فى يد أبي الصبر يعقوب بن عبد العزيز الذى كان يوبع بالخلافة سنة ٩٠٢هـ، وقد بويع ولده المتوكل على الله محمد بالقسطنطينية، وكان السلطان سليم قد أخذته معه، فلما توفي سليم عاد المتوكل إلى مصر وظل بها إلى أن توفي فى شعبان ٩٥٠هـ فى أيام داود باشا وبيموته انتهت الخلافة العباسية من الدنيا ثم جدت أن اتخذ العثمانيون الخلافة فى وقت متأخر<sup>(٢)</sup>.

(١) المقرىزى: الدرر المضيئة فى تاريخ الإسلام. مخطوطه ص ٢٧٤ ب.

(٢) ابن إياس: تاريخ مصر ج ٢ ص ٣٢٤.

ونظرا إلى اعتبار الخلفاء من موظفي الدولة الذين يلزمهم التفرغ التام للقيام بمهام وظيفتهم فرضا لهم الرواتب أو المرتبات، بالإضافة إلى الغنائم المحددة شرعا، وإلى ما كانوا يفرضونه لأهلهما وأبنائهم من ضياع وأموال.

وظهر فرض رواتب الخلفاء بصورة محددة واضحة في زمن متاخر نسبيا، غير أنه من المعروف أنها أبا بكر قد فرض ستة آلاف درهم لما يصلاح عليه بالمعروف، وكان هذا مرتب أوساط المسلمين في ذلك الوقت، ولم يرد ذكر لمرتبات الخلفاء بعد ذلك إلى أن جاء ابن رائق أمير الأمراء في أوائل القرن الرابع الهجري وكف يد الخليفة الراضي بالله عن بيت المال. وبذلك صار الخلفاء في حاجة إلى الراتب الزهيد الذي فرض لهم. ولما استولى معز الدولة الديلمي على بغداد ٤٣٤هـ فرض للخليفة المستكفي خمسة آلاف درهم كل يوم لنفقاته غير أنه قلما كان يحصل على هذا الراتب.

وتكونت للخلافة مع تطور الزمن مراسمها من آداب الدخول على الخليفة، والاستئذان والمجالسة، والاحتجاب عن الجلسة، وعلامات صرف الجلسة، ومجالس الأدب والشعر، واحترام أهل العلم، وتقديم الشعراء وعطائهم، ومجالس المناقشة والعلم، ومجالس الغناء والأنس، والمواكب، والاحتفالات، والخلع على رجال الدولة واستقبال الوفود وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

كما عنى الكتاب بتوضيح مراسم الكتابة عن الخلفاء واليهم، كما عنوا بذكر صيغ مبادئهم وعهودهم وطريقة مخاطبتهم، والتقاليد المرسلة منهم، والولايات الصادرة عنهم.

ومن المراسيم التي اهتم بها الكتاب بصفة عامة لقب الخلفاء وأنواعها وتقديرها في التأريف المتنطعة، وقد أفردوا لذلك أجزاء كبيرة من البحوث والمؤلفات. وكان الخليفة يطلق عليه ألقاب عامة. وأول هذه الألقاب ظهورا هو لقب أمير المؤمنين.

---

(١) جرجى زيدان: التمدن الإسلامي ج ٥ ص ١٣١.

ولم يطلق لقب أمير المؤمنين على النبي - ﷺ -، غير أن العرب غير المسلمين كانوا يلقوه بأمير مكة، وأمير الحجاز، وبعد وفاة النبي - ﷺ - خلفه في الولاية العامة أبو بكر فصار يسمى خليفة رسول الله، ولما جاء بعده عمر بن الخطاب صار يسمى خليفة خليفة رسول الله، ففي أول الأمر، ثم أضيف إلى لقب خليفة لقب أمير المؤمنين، وقد ناسب هذا قيام الدولة الإسلامية واتساع رقعتها في عهده. ومنذ عهد عمر صار «أمير المؤمنين» هو اللقب الرسمي لمن شغل الولاية العامة على المسلمين. واتخذه الخلفاء الراشدون وخلفاء بنى أمية وبنى العباس، والفاطميون، وبنو عبد المؤمن بن علي، وبنو حفص والزيدية في اليمن.

ومن الملاحظ أن لقب «أمير المؤمنين» ورد في اللغة اليونانية بصيغة قريبة من النطق العربي<sup>(١)</sup> كما وردت له ترجمة حرفية في بعض أوراق البردي اليونانية. كما وردت في الوثائق الصينية التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري (٨٤م) نتيجة للعلاقات التي وجدت بين الدولة الإسلامية في العصر العباسى والصين في عهد أسرة تانج، وقد ظهر بصيغة قريبة من الصيغة العربية هي : هامى - مو - نى، وفي هذه الوثائق ورد اسم الخليفة العباسى أبي جعفر المنصور بصيغة آ - بو - لو - با - واسم هارون الرشيد : آ - لون.

هذا وقد تألف من لقب «أمير المؤمنين» ألقاب أخرى أطلقت على باقى رجال الدولة :

مثل «مولى أمير المؤمنين» و «حسام أمير المؤمنين». وتوضح هذه الألقاب مدى الصلة بين الخليفة والملقب وإن دراسة تطور هذه الألقاب مدى الصلة على مدى الزمن تبين كيف أن سلطة الخلفاء أخذت تض محل إزاء سلطة الأمراء : فبعد أن كان الوالى يلقب في أول الأمر «بمولى أمير المؤمنين»، صار في عصر بنى بوهيه يلقب «بقيس أمير المؤمنين».

ومن الألقاب العامة التي أخذها خلفاء بنى العباس أيضاً لقب إمام، والإمام هو من تهندى به.

(١) د. حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ١٩٥.

ومن أبرز استعمالاته في الإسلام إطلاقه على ولی الأمر، أی الوالى أو الحاکم۔ وجاء بمعنى ولی الأمر والوالى والحاکم في أحادیث نبویة شریفة۔ ولكن لم یثبت عن الوثائق التاریخیة أن أحدا من خلفاء صدر الإسلام وبنی أمیة أطلق عليه هذا اللقب في حیاته على سبیل التکریم، ولو أن العرف جری على إطلاقه على علی بن أبي طالب.

وذكر القلقشندی أن أول من تلقی «بالإمام» هو إبراهیم بن محمد من بنی العباس، ويفهم من نص القلقشندی في كتابه : « ضوء الصبح المسفر » أن لقب «الإمام» لم يكن في هذه الحالة لقبا عاما بل كان نعتا خاصا إذ يقول « ولقب إبراهیم بن محمد العباسی بالإمام، ولقب أول الخلفاء العباسیین « بالسفاح » ثم لقب أخوه أبو جعفر بالمنصور ثم توالى اللقب خلفائهم بعد ذلك « إلى الآن ». ويفغلب « على الظن أن أول من أطلق عليه « الإمام » لقب فخری عام هو المهدی حين كان ولیا للعهد، إذ ورد ضمن ألقابه على سکة بتاريخ سنة ١٥١ھ من بخاری، ومنذ ذلك الوقت صار هذا اللقب عاما على خلفاء بنی العباس وغیرهم، وتتجدر الإشارة إلى الصلة بين تلقی المهدی « بالإمام » ونعته « المهدی » إذ إن في ذلك إشارة إلى أن مهمة الإمام هي الهدایة، وقد جاء ذلك في الآیة الكریمة « وجعلناهم أئمۃ یهدون بأمرنا ». وجرت العادة منذ العصر العباسی أن یتّخذ الخلفاء نعوتا خاصة بهم كالرشید والمعتصم، وكان من عادة الخلفاء العباسیین لا یتلقی خلیفة بلقب خلیفة قبله إلى أن انتقلت الخلافة العباسیة إلى القاهرة فاتّخذ الخلفاء لقب خلفاء قبلهم.

وكانت سلسلة ألقاب الخلیفة تفتح في المکاتبات بعدد الله وولیه، وكان یتسمی بکنیته كما كان یلقی بكثیر من ألقاب الكتابة مثل الحضرة والديوان العزیز. كما اهتم الكتاب بالإشارة إلى أدعیة الخلفاء مثل « الطلبقة »، أو دعاء « أطال الله بقیاء » الذي كان مخصوصا بهم<sup>(١)</sup> .

(١) رکتور حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٣٩، ٤٠.

## الوزارة والحجابة

الوزير: هو من يشدد به الأزر ويشرك في الأمر لقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هارون أخىٰ مشد به أزرىٰ وأشركه في أمرىٰ<sup>(١)</sup>!  
وذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب بعث إلى الكوفة بعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وقال لأهل الكوفة: إني بعثت بعمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً<sup>(٢)</sup>!

وفي عصر بنى أمية تلقب بالوزير زياد بن أبيه في عصر معاوية بن أبي سفيان، وروح بن زنباع الجذامي في عهد عبد الملك.  
غير أن وظيفة الوزير بدأت تتحدد معالماها في العصر العباسى: إذ صار الخليفة العباسى يستعين في إدارة شئون الدولة وتصريف أمورها والإشراف على دواوينها وأعداد مكاتبها وتنظيم أموالها بموظف أطلق عليه لقب وزير. ويبعد أن منصب الوزير في العصر العباسى تطور عن منصب الكاتب في العصر الأموى وربما وجد أكثر من وزير كان يرأسهم أحدهم<sup>(٣)</sup>. وكان أبو سلمة الخلال أول وزراء بنى العباس وكان يلقب «بوزير آل محمد». وصار الوزير في العصر العباسى الأول يتتقاضى مرتبًا ضخماً بالإضافة إلى الإقطاع.

ويتميز العصر العباسى الأول بالصراع بين سلطة الخليفة وسلطة الوزير، وذلك الصراع بين السلطتين لم يكن ينتهي بالقضاء على أحد الوزراء، إذ كان من يحل محله لا يلبث أن يحاول إقرار سلطة الوزراء وتقوية نفوذها، ومما تجدر الإشارة إليه أن ثرى

(١) سورة طه، الآيات ٢٩ - ٣٢.

(٢) دكتور حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٤١، دكتور حسن إبراهيم حسن: نظم ط ٢ ص ١١٣.

(٣) جاء في الإمامية والسياسة ج ٢ ص ٢٢١ أن أبي العباس المفاج استشار وزراءه في بعض الأمور

كثير من الأحيان كان يشغل الوزراء في العصر العباسى رجال من أصل فارسي، وكانوا يعملون على إقرار أسرهم في هذا المنصب، وربما فعلوا ذلك تأثراً بالتقاليد السياسية أو محاولة منهم لاستيلاء الفرس على السلطة، ومن الأسر الفارسية التي نجحت في الوصول إلى هذا المنصب فترة من الزمن ثم قضى عليها أسرة البرامكة في عهد الرشيد.

ولم يتعرض الوزراء في العصر العباسى للضغط من قبل الخلفاء فقط، بل إنهم تعرضوا للضغط آخر من قبل الطامعين في الاستئثار بالنفوذ والسلطان من العسكريين من غلمان الخلفاء ولاسيما من الأتراك.

وكاد هذا الضغط في وقت من الأوقات أن يؤدي إلى زوال هذا المنصب إذ حدث بعد مقتل المأمور في سنة ٢٤٧هـ أن توقفت الوزارة مدة تسع سنوات، ولم ترجع إلا بخلافة المعتمد في سنة ٢٥٦هـ.

وعلى الرغم من المنافسة الشديدة التي تعرض لها الوزراء من قبل الخلفاء من جهة ومن قبل الأتراك من جهة أخرى، فقد نجح بعضهم في إثبات أسمائهم على السكة وعلى طراز المنسوجات، وفي بداية القرن الرابع (١٠) شغل منصب الوزارة أبو الحسين على بن عيسى الذي ساعدته كفاءته وخبرته وأخلاقه على أن يستفيد من كفاح سلفه من الوزراء في إقرار منصب الوزير وسلطته وفي ضبط أمور الدولة وحسن تدبيرها.

ولكن لم تثبت أن تدهورت سلطة الوزارة منذ خلافة الراضى (٣٢٨-٣٢٢هـ) بسبب ظهور منصب أمير الأمراء، ثم انحط مركزها في عهد بنى بويه، إذ صار الوزير سواء كان وزيراً لل الخليفة أو لأمير الأمراء، أشبه بالكاتب، وفي هذا العهد أطلق على الوزراء لقب «الصاحب».

وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى (١١) ظهر وزراء أقوىاء في الأسر التي استقلت عن الخلافة العباسية واستطاع بعضها أن يسيطر عليها، مثل بعض وزراء السلوجقة، ومن أشهر هؤلاء الوزراء نظام الملك الذى وزر للسلطان ألب أرسلان والسلطان ملکشاه، وكان قوى النفوذ عظيم السلطان.

وانتقل منصب الوزراء من الدولة السلجوقية إلى دول الأتابكية وغيرهم من الدول التي تفرعت منها، ثم انتقل من الدول الأتابكية وبخاصة الدولة النورية إلى مصر في عهد الأيوبيين، ثم في عصر المماليك. على أن مصر كانت قد عرفت منصب الوزراء قبل ذلك إذ يرجع إلى ما قبل العصر الفاطمي.

وكما ورث الأيوبيون والمماليك في مصر منصب الوزارة عن العباسيين والسلاجقة ورثه أيضاً المغول في إيران والعراق، وكذلك الدوليات المعاصرة، كما عرف أيضاً في غرب العالم الإسلامي: في بلاد الأندلس والمغرب.

ونظراً إلى أهمية منصب الوزارة وانتشاره في الدول الإسلامية المختلفة أفردت عن الوزارة والوزراء كثير من المؤلفات مثل كتاب «أدب الوزير للماوردي» وكتاب «الوزراء» لابن عبنوس الجهمي، و«الإشارة إلى من نال الوزارة»، لابن الصيرفي، كما اعنى به كثير من كتب النظم والمصطلح وغيرها من المؤلفات.

وأحياناً كان يضطر الخليفة أن يفوض وزيره التنفيذي لمباشرة الحكم إذا ما خرج الخليفة مسافراً للحج أو لغيره، وفي هذه الحالة يجوز للوزير المفوض مباشرة الحكم والنظر في المظالم وحق تفویض الولاة والانفراد بتسخير الجيوش وتدبیر الحروب والتصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ودفع ما يجب فيه.

ومن حيث الشروط يشترط في وزير التفویض دون وزير التنفيذ<sup>(١)</sup> الحرية والإسلام والعلم بالأحكام الشرعية والمعرفة بأمرى الحرب والخارج.

واحتل الكاتب في أواخر عصر بنى أمية مكانة رفيعة تصورها مكانة عبد الحميد الكاتب عند مروان بن محمد، حتى أن الكاتب كان يسمى أيضاً باسم مشير.

ومهدت هذه المكانة لأن يصبح الكاتب في عصر العباسيين بمثابة وزير، بل صار يطلق عليه أيضاً لقب وزير: إذ لقب السفاح كاتبه أبا سلمة الخلال بلقب وزير، ولم يتخذ المنصور في أول الأمر وزيراً واكتفى بكتابته عبد الملك بن حميد وقدله كتابة دواينه، ثم اتّخذ أباً أيوب المورياني لينوب عنه في مرضه، ثم جعله آخر الأمر وزيراً له. واستقر منذ ذلك الوقت لقب الوزارة في الدولة العباسية، وصار الكاتب مجرد موظف

(١) دكتور حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية - ٤١ - ٤٤.

في الدواوين العباسية المختلفة، ولو أن كتاب الرسائل حظوا بمركز رفيع نظراً لصلتهم الوثيقة بأولى الأمر من خلفاء سلاطين ووزراء وأمراء حتى أن بعضهم كانوا يستشارون في أمر تولية الخلافة.

وطرأ على منصب الكاتب تغيير مهم في عهد ابن رائق حين شل سلطة الخليفة الراضي في ٦ ذى الحجة سنة ٩٣٢ هـ / ١٩٢٤ م. وقيد سلطه الوزير، وأبطل الدواوين، وصار هو وكاتبه ينظران في الأمور جميعها. وظلت الحال كذلك بالنسبة لمن ولى الإمارة بعد ابن رائق: إذ اتسعت سلطات كاتب أمير الأمراء في عهد بنى بويه وصار له الإشراف على سائر الموظفين والكتاب.

واحتفظ الغزنويون بالنسبة للكتاب بالنظام الذي كان سائداً في الدولة العباسية في ذلك الوقت، فكان كاتب السلطان قوى النفوذ يستشيره السلطان في شئون الدولة من تعيين الولاية إلى تسيير الجيوش.

وظلت الحال على ذلك في دولة السلاجقة حيث اشتهر إلى جانب كاتب الرسائل كاتب الخارج وكاتب الجندي. وفي عهد نظام الملك نشأت طبقة الكتاب الجياد الذين فرعوا المناصب وولوا المراتب<sup>(١)</sup>.

أما في الأندلس فقد وجدت خطة الوزارة منذ قيام الدولة الأموية، ويشهد بذلك ابن عذاري الذي أورد في ترجمة كل أمير أموي، عدد وزرائه، وأحياناً يذكر أسماءهم أيضاً، وكان منصب الوزير في بادئ الأمر يشبه في مدلوله ما كان سائداً في بقية أنحاء العالم الإسلامي، ثم جاء الأمير عبد الرحمن الثاني (٢٠٧-٢٣٨ هـ / ٨٢٢-٨٥٢ م)، الذي أعاد ترتيب الجهاز الحكومي في الأندلس، وأجرى تعديلات في الوظائف العامة التي كانت الوزارة واحدة منه فخصمتها بعنتايتها وقسمتها إلى عدة وزارات مختلفة، وقد أمننا كل من ابن حيان وابن خلدون، وابن سعيد، بمعلومات مهمة عن هذه القاعدة الثانية في الدولة فقال ابن حيان:

«وال الأمير عبد الرحمن، أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر كل يوم والتكلم معهم في الرأي، والمشورة لهم في النوازل، وأفراد لهم بيتاً رفيعاً داخل قصره

(١) دكتور حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٥٠-٥٣.

(٢) راجع تراجم أمراء وخلفاء الأندلس في الجزء الثاني من كتاب البيان المغرب لابن عذاري.

مخصوصاً بهم يقصدون إليه، ويجلسون فيه فوق أرائك قد نضدت لهم فكان يستدعى بهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشخاص، ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأي فيما يبرمه من أحكامه، وإذا قعدوا في بيتهم (أي بيت الوزارة)، أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهي، فينتظرون فيما يصدر إليهم من عزائم... وجرى على ذلك من تلامهم <sup>(١)</sup>.

ويشير ابن عذاري إلى أن وزراء الأمير عبد الرحمن الثاني كانوا تسعه، وأن رزق كل واحد كان ثلاثة دينار <sup>(٢)</sup>.

ولم يحدد ابن عذاري المدة المستحقة لهذا الراتب، وإن كان يبدو أنه عن كل شهر في الغالب <sup>(٣)</sup>، وهذا يعتبر قليلاً إذا قورن براتب الوزير في بغداد أو القاهرة أو في قرطبة فيما بعد <sup>(٤)</sup>، كما أ Medina ابن خلدون ببعض التفصيلات عن اختصاص كل وزير في الخطة بقوله: «وأما دولة بنى أمية بالأندلس، فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافاً، وأفردوا لكل صنف وزير، فجعلوا لحساب المال وزير، وللترسيم وزير، وللناظر في حوانج المتظلمين وزير، وللناظر في أحوال أهل الثغور وزير، وجعل لهم بيته يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له، وأفرد لتردد بينهم وبين الخليفة واحداً منهم، ارتفع عنهم ب المباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصوصه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم <sup>(٥)</sup>.

هذا، ويضيف ابن سعيد المغربي أن مناصب الوزراء في الأندلس، كانت لأهميتها كالمتوارثة عندهم في البيوت والعائلات المعلومة <sup>(٦)</sup>.

من هذه النصوص السابقة، نفهم أنه كان يوجد بالأندلس على عهد الدولة الأموية، وزارة متعددة المناصب، لها رئيس وزراء وهو الحاجب الذي يتصل بال الخليفة، وهذا التعدد في مناصب الوزراء، لانجده في نظام الوزارة بالشرق العربي، حيث كانت السلطة مركزة في يد وزير واحد، وقلما وجد وزيران. أما في الأندلس فكل ناحية من

(١) ابن حيان. المقتبس في أخبار بلد الأندلس لوحه ١٩٦، الجزء الخاص.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٢ ص ١٢١.

(٣) ابن خلدون. المقدمة ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٤) المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٠، ١٩٩٩.

نواحي الإدارة العامة لها وزير مختص بها، ثم هناك الرئاسة العامة وهي الحجابية، وهناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء في قصر الخليفة، فالوزارة في الأندلس كانت قريبة الشبه بنظم الوزارات الحديثة، وهي في هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف في الشرق في العصر الوسيط<sup>(١)</sup>.

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، أطلق لقب «ذو الوزارتين» على بعض الوزراء والhabib (الحجاب) في الأندلس، وقد سبق أن استخدم هذا اللقب في المشرق أيضاً على عهد العباسيين، ومثال ذلك الخليفة المأمون الذي منحه وزيره الفضل بن سهل، والمراد بتلك التسمية هنا، أن صاحبها يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية معاً، ولهذا يقال له أيضاً : صاحب السيف وصاحب القلم، وقد يجمعان معاً فيقال «ذو الوزارتين» أو «ذو الرياستين»<sup>(٢)</sup>.

إلا أنه يبدو أن استعمال هذا اللقب في الأندلس، قد اختلف في مدلوله عن المشرق، إذ يلاحظ أن الخليفة عبد الرحمن الناصر، أتّم به على وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد سنة ٩٣٩هـ/١٣٢٧م نتيجة للهدايا الثمينة الفاخرة التي أتّحفل بها هذا الوزير الثري، وعندئذ ضاعف له الخليفة راتبه ولقبه بـ«ذى الوزارتين»<sup>(٣)</sup>.

ولما ضعفت الخلافة الأموية في الأندلس، أخذ نفوذ الحاجب يقوى شيئاً فشيئاً حتى استبد بكل أمور المملكة دون الخليفة، وصار اختصاصه يشمل الشؤون المدنية والعسكرية. وتنبغي الإشارة هنا إلى ما سبق أن بيناه آنفًا، وهو أن الحاجب في الأندلس، لم يكن ذلك الرجل الذي يقف بباب الخليفة ليحجبه عن الخاصة وال العامة، كما كان الحال في الشرق، وإنما قصد به رئيس الوزارة وهو ما يسمى بالوزير في المشرق<sup>(٤)</sup>.

ولقد برز من هؤلاء الحجاب الأقوباء في الأندلس : جعفر بن عثمان المصحفي، ثم المنصور بن أبي عامر وأبناؤه من بعده. وحسبنا أن نقتبس هنا بعض فقرات لابن

(١) د. أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب ص ١٤٥، ص ١٤٦.

(٢) محمد الخضرى: محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية (القاهرة ١٩١٦) ج ٢ ص ٢٥٠.

(٣) المقرى: فتح الطيب ج ١ ص ٢٢٣، ٢٢٤. د. أحمد مختار العبادي: المرجع السابق ص ١٤٧.

(٤) د. أحمد مختار العبادي. المرجع السابق، ص ١٤٩.

عذاري يصف بها مدى النفوذ الذى بلغه المنصور بن أبي عامر بقوله : «وفي سنة ٣٧١هـ تسمى ابن عامر بالمنصور ، ودعى له على المنابر استيفاء لرسوم الملوك، فكانت الكتب تتفقد عنـه: من الحاجب المنصور أبي عامر بن محمد بن أبي عامر إلى فلان. وأخذ الوزراء بتقبيل يده، ثم تابعـهم على ذلك وجوه بنـى أمـية، فكان من يدخل عليه من الـوزراء وـغيرـهم يـقبلـونـ يـدهـ، وـيـنـحـنـونـ لـهـ عـنـدـ كـلـامـهـ وـمـخـاطـبـتـهـ، فـانـقـادـ لـذـلـكـ كـبـيرـهـ وـصـفـيرـهـ. . . فـساـوىـ مـحـمـدـ بـنـ أـبـىـ عـامـرـ الـخـلـيفـةـ فـىـ هـذـهـ الـمـرـاتـبـ، وـشـارـكـ فـىـ تـلـكـ الـمـذاـهـبـ، وـلـمـ يـجـعـلـ فـرـقـاـ بـيـنـهـ وـبـيـنـهـ إـلـاـ فـىـ الـاسـمـ وـحـدـهـ فـىـ تـصـدـيرـ الـكـتـبـ عـنـهـ، حـتـىـ تـنـاـهـتـ حـالـهـ فـىـ الـجـلـالـةـ. وـبـلـغـ غـاـيـةـ الـعـزـ وـالـقـدـرـ<sup>(١)</sup>. وـيـبـدـوـ أـلـقـبـ وـزـيـرـ فـىـ ذـلـكـ الـوقـتـ، قـدـ أـخـذـتـ مـكـانـتـهـ تـضـعـفـ نـتـيـجـةـ لـازـديـادـ سـلـطـةـ الـحـاجـبـ فـىـ الـدـوـلـةـ<sup>(٢)</sup>.»

ولما سقطت الدولة الأموية، وقامت على أنقاضها دولـاتـ مـلـوكـ الطـوـانـفـ، استخدم بعض هؤـلـاءـ الـمـلـوكـ لـقـبـ الـحـاجـبـ مـثـلـ سـابـورـ الـفـارـسـيـ، أـوـلـ منـ اـسـتـقـلـ بـمـنـطـقـةـ بـطـلـيـوسـ، وـبـادـيـسـ بـنـ حـبـوسـ مـلـكـ غـرـنـاطـةـ، وـأـحـمـدـ بـنـ قـاسـمـ أـمـيـرـ وـلـاـيـةـ الـبـوـنـتـ Alpuente منـ أـعـمـالـ بـلـنـسـيـةـ<sup>(٣)</sup>، كـذـلـكـ زـادـ استـعـمـالـ الـأـلـقـابـ التـشـرـيفـيـةـ المـزـدـوـجـةـ فـىـ أـيـامـ مـلـوكـ الطـوـانـفـ مـثـلـ: ذـوـ الـوـزـارـتـيـنـ، ذـوـ الـرـيـاسـتـيـنـ، ذـوـ الـسـيـادـتـيـنـ، ذـوـ الـمـجـدـيـنـ، بـالـإـضـافـةـ إـلـىـ الـأـلـقـابـ الـمـلـكـ وـالـسـلـطـنـةـ وـالـخـلـافـةـ. وـهـكـذـاـ اـنـحـطـتـ مـرـتـبـةـ الـوـزـيـرـ عـنـهـمـ، وـصـارـتـ تـمـنـحـ لـلـطـبـقـةـ الـوـسـطـيـ مـنـ الـمـوـظـفـيـنـ وـالـكـتـابـ وـشـيـوخـ الـقـرـىـ<sup>(٤)</sup>.

أما فى بلاد المغرب، فنلاحظ أن الدولة الإسلامية الأولى التى قامت هناك لم يظهر فيها لقب وزير، باستثناء دولة الأغالبة التى اتـخذـ بعضـ أمرـانـهاـ وزـرـاءـ فىـ دـوـلـتـهـمـ مـثـلـ الـأـلـغـلـبـ أـبـىـ عـبـدـ اللهـ الـمـعـرـوـفـ بـغـلـبـوـنـ الـذـيـ كـانـ وزـيـرـاـ لـأـخـيـهـ الـأـمـيـرـ زـيـادـ اللهـ الـأـوـلـ بـنـ الـأـلـغـلـبـ<sup>(٥)</sup>، وـمـثـلـ نـصـرـ بـنـ حـمـزـةـ وزـيـرـ أـبـىـ الـعـبـاسـ مـحـمـدـ بـنـ الـأـلـغـلـبـ<sup>(٦)</sup>، وـعـبـدـ اللهـ بـنـ الصـانـعـ الـذـيـ كـانـ وزـيـرـاـ وـصـاحـبـ الـبـرـيدـ فـىـ عـهـدـ زـيـادـ اللهـ الـثـالـثـ الـأـعـلـىـ<sup>(٧)</sup>. إـلـاـ أـنـهـ

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٧، ٤١٨.

(٢) د. أحمد مختار العبادي: دراسات ص ١٥٠.

(٣) المرجع السابق: ص ١٥١، ١٥٠.

(٤) د. أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ من ١٢٤، ١٢٥.

(٦) نفس المصدر ص ١٤٢.

(٧) ابن عذاري: البيان ج ١ ص ١٨٣.

يلاحظ أن نفوذ وزراء الأغالبة كان ضعيفاً، حتى كاد لقب الوزير عندهم أن يكون لقباً تشريفياً. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الأغالبة - رغم استقلالهم - كانوا يحكمون باسم خلافة بغداد، وقد اعتادوا أن يكونوا عمالاً لها في هذه المنطقة مما جعلهم يباشرون أعمالهم بأنفسهم منذ بداية دولتهم<sup>(١)</sup>.

أما الأدارسة في قاس، والرستميون في تاهرت، والمداريون في سجلماسة والفاتميون في إبان حكمهم في المغرب، فعلى الرغم من أنهم استعاناً بمن عاونهم في الحكم، إلا أنهم لم يطلقوا لقب وزير، فالفاتميون مثلاً لم يتخذون الوزراء إلا في القاهرة ومنذ أيام الخليفة العزيز ٣٦٥-٣٨٦هـ، وفي ذلك يقول المقريزى: «أول من قبل له الوزير في الدولة الفاطمية، الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله»<sup>(٢)</sup>.

ويقال أن الخليفة المعز لدين الله، اتّخذ جوهر الصقلى وزيراً له سنة ٤٣٧هـ بال المغرب<sup>(٣)</sup>، استناداً إلى قول المقريزى: «وجوهر هذا مملوك رومى، رباه المعز لدين الله، وكناه بأبي الحسين، وعظم محله عنده فى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، وصار فى رتبة الوزارة، فصبره قائد جيوشه»<sup>(٤)</sup>، ولكن هذه العبارة قد تعنى أن جوهر الصقلى قد ارتفع شأنه عند مولاه المعز حتى صار فى مرتبة الوزير، ولكنه لم يحمل لقب وزير، بل كان قائداً لجيوش الدولة. وقد يؤيد ذلك قول ابن خلدون بخصوص خطة الوزارة: «ثم جاءت دولة الشيعة بأفريقية والقبروان، وكان للقانعين بها رسوخ في البداوة، فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً»<sup>(٥)</sup>، على «أن الفاطميين وإن كانوا قد أغفلوا خطة الوزارة في المغرب، إلا أنهم لم يغفلوا خطة الحجابة منذ قيام دولتهم. وقد أعطانا ابن عذارى قائمة بأسماء حجاب الخليفة عبيد الله المهدى بقوله:

«استحجب ابا الفضل جعفر بن على، وأبا أحمد جعفر بن عبيد وأبا الحسن طيب بن اسماعيل المعروف بالحاضن وأبا سعيد عثمان بن سعيد المعروف بمسلم السجلماسي»<sup>(٦)</sup>.

(١) د. أحمد مختار العبادى: دراسات من ١٣٩.

(٢) المقريزى: الموعظ والاعتبار في ذكر الخطوط والآثار (بولاقي ١٢٧٠هـ) ج ٢ ص ٤٠٤.

(٣) حسن إبراهيم حسن، طه شرف: المعز لدين الله ص ١٤٦، ١٤٧.

(٤) المقريزى: المصدر السابق. ج ٢ ص ٢٠٥.

(٥) ابن خلدون: المقدمة ص ٢١٣، ٢١٤.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩.

ويلاحظ أن معظم هؤلاء الحجاب كانوا من القادة العسكريين الذين شاركوا في الأعمال الحربية برا وبحرا ولا سيما في صقلية. وهم في هذا يشبهون حجاب الأغالبة الذين حكموا هذه البلاد قبل الفاطميين.

ولما دانت المغرب لسلطة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين عمل على تطبيق النظام الإداري المتبع في الأندلس على بلاده في العدوة المغربية<sup>(١)</sup>. فاستعان المرابطون بالوزراء في إدارة البلاد، فاتخذوا لأنفسهم الوزراء العسكريين من أشراف لمتونة على وجه الخصوص، وأشراف صنهاجة على وجه العموم<sup>(٢)</sup>، كما اتخذوا كتاباً من الفقهاء<sup>(٣)</sup>، للإشراف على ديوان الإنشاء لاذاعة المراسيم والبراءات، وتحرير الرسائل، وختمتها بخاتم الأمير<sup>(٤)</sup>.

وقد وجد يوسف بن تاشفين وخلفاؤه في الأندلس معيناً لا ينضب من هؤلاء الكتاب، الذين تألق نجمهم في سماء الأدب وشهد الناس لهم بالبلاغة والفصاحة، وكانت وفود هؤلاء الكتاب تعبر البحر إلى العدوة، وكادوا يحتكرون صنعة الكتابة والإنشاء، وخصوصاً أن الدولة كانت قد بدأت تقيم نوعاً من العلاقات الدبلوماسية مع كثير من الدول، فكان الأمراء بحاجة إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد فن القول، وكان كتاب الأندلس يتميزون أيضاً بمعرفيتهم للغات النصارى الأجنبية<sup>(٥)</sup>. وقد عبر عبد الواحد المراكشي عن كثرة عدد كتاب الأندلس في بلاط أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بقوله: « ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنایته لذلك حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك<sup>(٦)</sup> ».

ومن أعلام الكتاب الأندلسيين الذين استخدمتهم المرابطون: يحيى ابن همام السرقسطي، وعبد الملك بن أبي الخصال، وطلحة بن عبد العزيز بن سعيد البطليوسى

(١) د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص ٣٦١.

Athinson William. (c) : A history of spain and portugal (London K961 P.55

(٢) د. أحمد مختار العبادى: دراسات في تاريخ المغرب ص ٣٥٨.

(٣) نفس المرجع ١٥٢.

(٤) د. حسن إبراهيم: النظم الإسلامية من ١٨٠.

(٥) د. حسن أحمد محمود. المرجع السابق، ص ٣٦٠، ٣٥٩.

(٦) المراكشي: المعجب ص ١٧٣.

وأحمد بن أبي جعفر بن محمد القضايعي، وأبو القاسم بن الجد المعروف بالأحدب، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطنة، وعبد المجيد بن عبدون، وأبو عبد الله محمد بن أبي الخصال، وعبد الرحمن بن جعفر بن أحمد المعاوري، وعلى بن عبد العزيز بن الإمام الأنصاري، ومحمد بن سلمان الكلاعي المعروف بأبي بكر بن القصيرة، ويحيى بن محمد يوسف الأنصاري ويكنى أبو بكر بن الصيرفي، وابن الصانع، ومحمد ابن أحمد بن محمد بن ابراهيم المعروف بابن السقطاط، وأبو جعفر أحمد بن عطية القضايعي<sup>(١)</sup>.

ولما جاءت دولة الموحدين أغلقت في البداية خطة الوزارة للبداوة ثم سار خلفاء الموحدين في الاستعانة بكتاب الأندلس في شغل وظيفة الكتابة، فقد استخدم عبد المؤمن ميمون الهواري كاتبا له وهو من سكان قرطبة، وكان أدبياً فقيهاً<sup>(٢)</sup>، كما استخدم أيضاً أبي الحسن بن عياش وهو من أهل قرطبة<sup>(٣)</sup> وعلى نفس السياسة سار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين استخدم أبي الحسن بن عياش الذي كان كاتبا لوالده من قبل<sup>(٤)</sup> كذلك استخدام المنصور المودي، أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عباس من أهل برشانه من أعمال المرية ببلاد الأندلس، والذي ظل كاتبا مدة حكم المنصور المودي ثم ابنه الناصر من بعده<sup>(٥)</sup>.

وكما اتخذ الحكام المرابطون والموحدون الوزارة الكتاب المركزيين في العاصمة مراكش، فقد اتخذ أمراء الأقاليم لأنفسهم الكتاب لمعاونتهم في الأعمال الإدارية، وكان معظم هؤلاء الوزراء الإقليميين من الأندلسيين أيضاً، فقد اتخذ سير بن أبي بكر الذي ولى إشبيلية الكاتب ابن عبدون الذي ظل يكتب له إلى أن استدعاه يوسف بن تاشفين ليتولى مهمة الكتابة في مراكش<sup>(٦)</sup>، واتخذ أبو سعيد بن أبي محمد عبد المؤمن الذي ولى غرناطة الكاتب محمد بن أحمد بن جبير من أهل شاطبة، ثم رحل عنه

(١) د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين من ٢٦٠.

(٢) ابن صاحب الصلاة: *المن بالإمامية على المستضعفين* بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازري (بيروت ١٩٦٤) ص ٢٢٢.

(٣) نفس المصدر ص ١٦٠.

(٤) المراكشي: *العجب* ص ٢٤٤، ابن أبي زرع: *الأنيس* ج ٢ ص ١٧٥.

(٥) المراكشي: ص ٢٣٦.

(٦) المصدر السابق، ص ٨٧.

وكتب لأبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن والى سبعة<sup>(١)</sup>، وأبى حفص الذى اتخذ أبا الحسن بن عباس القرطبي كاتبا له، وتوجه معه إلى تلمسان إلى أن استدعاه يوسف بن عبد المؤمن ليشغل وظيفة الكتابة لديه<sup>(٢)</sup>.

أما بالنسبة لخطة الحجابة فيبدو أن المرابطين لم يتخذوا حجابا فى دولتهم<sup>(٣)</sup>.

أما بالنسبة لدولة الموحدين فيقول ابن خلدون فى مقدمته «ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغلقت الأمر أولا للبداوة، ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب، وكان اسم الوزير فى مدلوله. ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها فى مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان فى مجلسه ويقف بالوقفى والداخلين على السلطان عند الحدود فى تحبیتهم وخطابهم والأداب التى تلزم من الكون بين يديه»<sup>(٤)</sup> لذلك نجد من وزراء عبد المؤمن من يقوم بمهمة الحجابة وذلك حين تولى ابنه أبو حفص مهمة الحجابة له<sup>(٥)</sup>. ولما تولى الحكم يوسف بن عبد المؤمن تولى حجابته أولا أخيه أبو حفص الذى تولى الحجابة لوالده عبد المؤمن من قبل<sup>(٦)</sup> ثم تولى مهمة الحجابة أبو العلاء إدريس ابن جامع الذى تولى الحجابة ليوسف بن عبد المؤمن<sup>(٧)</sup>.

أما حجاب خلفاء الموحدين بعد ذلك فأغلبهم كان من الموالى الخصيـان أمثل كافور، وعنبـر، وفضـيل، وريـحان، ومبـشر وفارـح<sup>(٨)</sup>. (وأغلـب الظن أنـهم كانوا من فتـيان أو، مـالـيـكـ الخليـفـةـ)، وأن مـهمـتـهمـ كـانـتـ مـقـصـورـةـ عـلـىـ خـدـمـتـهـ وـمـلـازـمـتـهـ فـىـ جـلـوسـهـ وـفـىـ غـدوـاتـهـ وـدـرـوـحـاتـهـ<sup>(٩)</sup>.

(١) ابن القاضى: جذرة الاقتباس فيما حل من الاعلام مدينة فاس. طبع حجر (فاس ١٢٠٩هـ) ص ١٧٢ .١٧٣

(٢) ابن عذارى: البيان المغربي ج ٤ ص ٧٣.

(٣) د. حسن على حسن: الحضارة الإسلامية ١٢٢

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص ٢١٤

(٥) التوپری: نهاية الأرب مجلد ٢ ج ٢٢ ورقة ٩٨

(٦) ابن أبي زرع: الأنبياء المطروب ج ٢ ص ١٧٤

(٧) ابن صاحب الصلة: المن باللامة ص ٤٧٣

(٨) المراكش: المحجب من ٢٦٣، ٣٢٣، ٣١١، ابن عذارى: البيان المغرب ج ٤ ص ١٤١

(٩) د. أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٩

أما الحجابية في المشرق فقد عرفت مكة الحجابية قبل الإسلام، وكانت تعنى حراسة الكعبة وحفظ مفتاحها<sup>(١)</sup>.

وفي الإسلام عرفت الحجابية بدلالة جديدة إذ أصبح (الحاجب) يطلق على من يقوم بين الخليفة وبين الناس ويطلب لهم الإذن لمقابلته وينظم الاتصال له، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون على صلة وثيقة به.

وصارت وظيفة الحجابية في ذات أهمية رسمية بعد مذلة الخوارج اغتيال معاوية بن أبي سفيان. واستمرت وظيفة الحجابية في الدولة العباسية، وزادت أهميتها وسلطتها تدريجيا. وبدأ الخلفاء العباسيون باتخاذ حجاب اقتصر سلطانهم في أول الأمر على حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه. ثم قوى سلطان الحاجب فصار يمنع الناس عن مقابلة الخليفة إلا في الأمور الهامة: إذ صار بين الناس وال الخليفة داران: دار الخاصة ودار العامة، يقابل كل فئة في مكان حسب ما يراه الحاجب (وهذا ما يسمى بالحجابة الثانية)، ثم تطور الأمر فصار الحاجب يحجبون على الخليفة نفسه، ويمنعون البطانة وسائر الأولياء من مقابلته بحجة المبالغة في الاحترام.

وكان للحجابية في العصر العباسى قوانين ورسوم أوضحتها هلال الصابى، في كتابه رسوم دار الخلافة<sup>(٢)</sup>.

وصار يشغل هذه الوظيفة أفراد من العسكريين ذوى القدر الرفيع والرتبة العالية.

وأناحت هذه الوظيفة لمن يشغلها فرصة للتحكم فيما يحبه من جهة وفي المحكومين من جهة أخرى، كما تهيات الظروف لبعض الحجاب في أن يغتصبوا السلطة ويؤسسوا دولا وأسرا حاكمة: فكان سبكتكين مؤسس الدولة الفزنوية حاجبا لزوج الثالث ثم لابنيه منصور وعبد الملك رؤوس الدولة السامانية، وظل سبكتكين يلقب بالحاجب حتى بعد توليه الملك. واستمرت وظيفة الحاجب في عصر السلاجقة

(١) د. محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية من ٤٢-٣٩.

(٢) د. كتور حسن البشا: دراسات في الحضارة ص ٥٢، هلال الصابى: رسوم دار الخلافة، ص ٧١.

من الوظائف الرئيسية كما كان الحاجب يعد من أهم رجال البلاط، كما صارت واسطة بين السلطان والوزير: إذ صار هو الذي يتلقى الأوامر شخصياً من السلطان ويبلغها إلى وزير وأعيان المملكة، كما هو الذي يبلغ مطالبهم إلى السلطان، وكان الحاجب الأعظم (حاجب بزرك) يشرف على أمور البلاط كما كان كثيراً ما يتدخل في شئون الدولة ويستبد بها دون الوزير، كما كان أصحاب الدواوين، أى رؤساء الدواوين يرجعون إليه في المسائل المتعلقة بدواوينهم.

هذا وأطلق لقب حاجب الحاجب على حاجب الخليفة القائم في سنة ٤٥٣ هـ<sup>١</sup> كما كان الحاجب في عصر السلاغقة نائباً. ويبعدو أنه منذ القرن السادس الهجري (١٢) صار كبير الحاجب يسمى بأمير حاجب مما يدل على قوته شوكته<sup>٢</sup>.

وفي عصر السلاغقة أسس أيضاً بعض الحاجب أسرًا حاكمة، وأوضاع مثال لذلك قسيم الدولة آق سنقر الحاجب أبو عماد الدين زنكي رأس الأسرة الزنكية التي حكمت الموصل وغيرها.

وحقق كثير من الحاجب في عصر السلاغقة والأتابكة درجة كبيرة من الثراء، بالإضافة إلى السلطة والنفوذ بحيث استطاعوا أن يشيدوا عمائر فخمة وضعوا عليها أسماءهم كما كان بعض الحاجب يسند إليهم الإشراف على تشييد بعض العمائر<sup>٣</sup>. هذا وقد انتقلت وظيفة الحاجب إلى الدولة الأيوبية في مصر وسوريا، ثم المملوکية عن طريق دولة الأتابكة والدولة النورية إذ أن لقب الحاجبة لم يعرف في الدولة الفاطمية حيث كان من يقوم بهذه الوظيفة يسمى صاحب الباب. واتسعت سلطة الحاجب في مصر في عصر المماليك اتساعاً كبيراً حتى وصلت حدة التدخل في الأحكام الشرعية ومزاحمة قضاة الشرع فيها كما زاد عددهم زيادة كبيرة، وصاروا ينقسمون إلى درجات متفاوتة<sup>٤</sup>.

(١) انظر مثلاً الراندي. راجحة الصادر من ١٦٠ و ٣٩٤.

(٢) انظر مثلاً: 67: Herzfeld, Khorasan, Islam, XI, p. 1

(٣) دكتور حسن الباشا: دراسات في الحضارة الإسلامية من ٥٤-٥٣.

## الإمارة - الدواوين - القضاء

### أولاً - الإمارة :

كانت وظيفة الوالي في عهد رسول الله - ﷺ - إماماً الناس في الصلاة وجمع الزكاة، وكذلك كانت في عهد أبي بكر رضي الله عنه .

وفي عهد عمر رضي الله عنه اتسعت رقعة البلاد الإسلامية واتسعت معها سلطة الولاية، ولكنه كان يراقبهم مراقبة دقيقة فكان يسأل أهالي الإقليم إذا وفدوه عليه في موسم الحج عن حال أمرائهم وسيرتهم فيهم فإن استبان له ظلم أو تقصير عزله .

وفي العهد الأموي ازداد نفوذ الوالي وتلقب بلقب «أمير»، وقد ساس بعض ولا THEM الرعية بالقهر وساموهم سوء العسف، كما فعل زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف بأهل العراق فقتلوا منهم عدداً عدиваً ونكلوا بهم تنكيلاً شديداً، ولكن هذه السياسة سياسة خاطئة لا يقرها دين ولا يستبيحها عرف .

وقد قسم الفقهاء الولاية إلى قسمين : ولاية استكفاء وولاية استيلاء . فال الأولى : ما يعدها الخليفة لشخص كفاء تتوافق فيه الشروط . والثانية : ما يضطر إليها الخليفة اضطراراً، وذلك يحدث حينما يستولى أمير على إقليم بالقوة يضطر الخليفة إلى تقليده إمارته .

ويشترط في إمارة الاستكفاء ما يشترط في وزارة التفويض لأن كل تيهمها تفويض من الخليفة ونيابة عنه، غير أن نياية الأمير عن الخليفة لا تتعدي نطاق إمارته أي أنها نياية محلية، أما نياية الوزير فعامة تشمل جميع الأقاليم التي تتكون منها الدولة .

وإمارة الاستكفاء نوعان : إمارة عامة ، وإمارة خاصة .

فإمارة العامة: يكون لصاحبها النفوذ المطلق في توجيه الشؤون الغربية وتعيين القضاة والإشراف عليهم وجباية الضرائب وصيانة الأمن العام وإمامة الناس في الصلاة يوم الجمعة<sup>(١)</sup>.

وأما الإمارة الخاصة: فهي التي لا يكون للأمير فيها حق تعيين صاحب الخراج في إمارته أو القاضي أو هما معا، وإنما يعين الخليفة أحدهما من قبله أو يعينهما معا. ومهمة الأمير في كلتا الحالتين هي النظر في أمور الدين في ولايته، ولا سيما الصلاة وأمامتها، والإدارة والسياسة والحكم، وإعداد الجيش وقيادته، والقضاء، وتدبیر الأموال. وينتسب الأمير بطبيعة الحال من يقوم عنه بأداء هذه الأعمال. وفي حالة تبعية الأمير للخلافة تبعية حقيقة قد ينفرد بالإدارة المالية موظف مستقل عنه يكون مسؤولاً مسؤولية مباشرة أمام الخليفة يسمى العامل أو صاحب الخراج.

وجرت العادة أن يقيم الأمير في قصر بجوار المسجد يسمى دار الإمارة، وكان الأئمة يسكنون أسماءهم على العملة بالإضافة إلى اسم الخليفة، وكذلك على الطراز. وظل لقب الأمير يطلق على ولاة الأسر التي استقلت بولاياتها مثل الطولونيين والأخشيديين في مصر، وبنى حمدان وبنى مرداس في حلب «القرن الخامس هـ» وبنى مروان في ميافارقين وأمد «ق٤ هـ» وبنى عقيل في العراق وبين النهرين. والطاهريين والسامانيين وغيرهم<sup>(٢)</sup>.

كما أطلق أيضاً على الولاية من بنى بويه والذين أنشئت بظهورهم إمارة ثانية في قلب الخلافة العباسية نفسها، إذ تحكموا في بغداد وصار الخليفة بالنسبة لهم في المرتبة الثانية من الإدارة والسياسة فصار لهم الوزارة وللخلفاء الكتاب.

وكان أبناء الخلفاء وولاة عهدهم إذا ولوا ولايات أطلق عليه لقب الأمير، وقد أطلق على الأمير محمد بن أمير المؤمنين على سكة بتاريخ سنة ١٨٣ هـ. وكذلك على المأمون حينما ولـى حاكماً فخرياً على نيسابور فيما بين سنتي ١٨٧ هـ و ١٩١، وعلى سكة بتاريخ سنة ١٨٧ هـ من بلخ باسم «الأمير المأمون عبد الله بن أمير المؤمنين ولـى

(١) الماوريدي: الأحكام السلطانية، من ٢٨، ٢٩.

(٢) دكتور حسن الباشا: دراسات في العمارنة من ٤٦.

عهد المسلمين «كما أطلق أيضا على الأمير الرضا ولـى عهد المسلمين على بن موسى على سكة بتاريخ سنة ٢٠٢ هـ من مدينة سمرقند . ومن المعروف أنه ولـى هو الآخر حاكما فخريا من قبل العباسيين .

وـعرف «الأمير» أيضا كـاسم لـوظيفة الوالى في الأندلس والمغرب. ومن المعروف أن ولـى الأندلس الذي كان يتـبع الوالى العام للمغرب صـار يـسمى بعد فـتح إـسبانيا بالأمير، وـصار بنـو أـمية يتـلقـبون بالإـمارة مـنـذـ أنـ استـقـرـ عبدـ الرـحـمـنـ بنـ مـعاـوـيـةـ بالـأنـدـلـسـ عـامـ ١٣٨ـ هـ حـتـىـ تـولـىـ الأـمـيرـ عبدـ الرـحـمـنـ بنـ مـحـمـدـ إـمـارـةـ قـرـطـبـةـ فـأـمـرـ فـيـ ٢٨ـ ذـىـ الـقـعـدـةـ سـنـةـ ٣١٦ـ هـ أـنـ يـخـطـبـ لـهـ بـأـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ .

وـفيـ المـغـرـبـ عـرـفـ الـوـلـاـةـ بـاسـمـ الـأـمـرـ،ـ بـلـ إـنـ أـولـىـ الـأـمـرـ مـنـ الـمـرـابـطـينـ تـلـقـبـواـ بـالـإـمـارـةـ فـيـ أـولـ الـأـمـرـ،ـ وـظـلـ لـقـبـ الـأـمـيرـ يـنـقـشـ عـلـىـ السـكـةـ إـلـىـ أـنـ أـلـ الـأـمـرـ إـلـىـ يـوـسـفـ بـنـ تـاشـفـيـنـ فـاتـخـذـ لـقـبـ أـمـيرـ الـمـسـلـمـيـنـ بـعـدـ فـتـرـةـ مـنـ حـكـمـهـ<sup>(١)</sup>ـ .

### ثـانـيـاـ - الدـوـاـوـيـنـ :

الـدـيـوـانـ فـيـ الأـصـلـ كـلـمـةـ فـارـسـيـةـ،ـ مـعـنـاـهـ الـكـتـابـ وـالـحـسـابـ ثـمـ سـمـىـ بـهـ السـجـلـ الـذـيـ يـكـتـبـونـ فـيـهـ،ـ ثـمـ سـمـىـ بـهـ الـمـكـانـ الـذـيـ يـجـلـسـونـ فـيـهـ،ـ وـلـمـ يـكـنـ الـعـرـبـ يـعـرـفـونـ الدـوـاـوـيـنـ،ـ وـقـدـ كـانـ الـمـسـلـمـوـنـ فـيـ أـولـ نـشـأـةـ الـدـوـلـةـ إـلـاـمـيـةـ يـجـاهـدـوـنـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ،ـ وـلـاـ يـبـغـوـنـ مـنـ جـهـادـهـمـ سـوـىـ رـضـاـ رـبـهـمـ،ـ وـلـمـ يـفـرـضـ رـسـوـلـ اللـهـ- ﷺ -ـ،ـ وـلـاـ أـبـوـ بـكـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ عـطـاءـ مـقـرـرـاـ لـجـنـدـ،ـ وـلـكـنـهـ كـانـوـاـ إـذـاـ غـزـوـاـ وـغـنـمـوـاـ أـخـذـوـاـ نـصـيـبـهـمـ مـنـ الـغـنـيـمـةـ،ـ وـإـذـاـ وـرـدـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ مـالـ مـنـ بـعـضـ الـبـلـادـ،ـ وـضـعـ فـيـ الـمـسـجـدـ وـوـزـعـ عـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ حـسـبـ مـاـ يـرـاهـ الرـسـوـلـ عـلـيـهـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـاـمـ،ـ وـكـذـلـكـ كـانـ الـحـالـ عـلـىـ عـهـدـ أـبـيـ بـكـرـ،ـ فـلـمـ تـوـالـتـ الـفـتوـحـ وـكـثـرـ الـأـمـوـالـ فـيـ عـهـدـ عـمـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ،ـ رـأـيـ أـنـ يـوزـعـ هـذـهـ الـأـمـوـالـ عـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ،ـ وـكـانـ شـيـنـاـ كـثـيـرـاـ،ـ وـلـمـ يـعـرـفـ كـيـفـ يـضـبـطـ عـلـمـيـةـ التـوزـيـعـ،ـ وـكـانـ بـالـمـدـيـنـةـ بـعـضـ أـعـيـانـ الـفـرـسـ الـذـيـنـ أـسـرـهـمـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـ الـحـرـوـبـ،ـ فـلـمـ رـأـيـ أـحـدـهـمـ حـيـرـةـ الـخـلـيـفـةـ قـالـ لـهـ :ـ يـاـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ إـنـ لـلـأـكـاسـرـةـ شـيـنـاـ يـسـمـونـهـ دـيـوـانـاـ،ـ جـمـيـعـ دـخـلـهـمـ وـخـرـجـهـمـ مـضـبـوـطـ فـيـهـ لـاـ يـشـذـ مـنـهـ شـيـءـ،ـ وـأـهـلـ الـعـطـاءـ مـرـتـبـوـنـ فـيـهـ مـرـاتـبـ،ـ لـاـ

(١) دـكتـورـ حـسـنـ الـيـاشـاـ:ـ درـاسـاتـ فـيـ الـحـضـارـةـ إـلـاـمـيـةـ صـ ٤٤ـ ـ ٤٧ـ .

يتطرق إليها خلل، فقال له الخليفة: صفة لي، فوصفه الفارسي له، فأعجبه ودون الدواوين.

وابتدأ الخليفة بالعباس بن عبد المطلب، عم النبي - ﷺ -، ففرض له أثني عشر ألف درهم، وقيل: خمسة وعشرون ألفاً، وفرض لكل واحدة من زوجات النبي - ﷺ - عشرة آلاف درهم، وفرض لكل من شهد بدوا خمسة آلاف ولزوجة الواحد منهم خمسة وعشرين ألفاً، وألحق بهم أربعة من لم يشهدوا، هم الحسن والحسين وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسي، ثم فرض لمن بعد بدر إلى صلح الحديبية أربعة آلاف درهم.

وكان الذي أنشأ عمر رضى الله عنه من الدواوين هو:

أولاً: ديوان الجندي لتدوين أسماء المجاهدين.

ثانياً: ديوان الخراج أو الجباية، لتدوين ما يرد إلى بيت المال، وما يصرف لكل مسلم من العطاء.

وظل الحال على ذلك بقية عهد الخلفاء الراشدين، وفي عهد بنى أمية زاد عدد الدواوين الرئيسية إلى أربعة هي:

ديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان الخراج، وديوان المستغلات «الإيرادات المتنوعة»، وفي العصر العباسى زيد عدد دواوين أهمها ديوان الزمام.

وقد علا شأن موظفى الدواوين، منذ عهد العباسيين، واتخذوا لأنفسهم شارات تميزهم عن غيرهم من موظفى الدولة، مثل الدواة والمخددة والمسند والمرتبة والكرسى، وغيرها من الأدوات التى تستخدم فى الكتابة أو تستعمل للجلوس فى الديوان، كما يلبسون العمائم الكبيرة، حتى أطلق عليهم « أصحاب العمام».

ويمكننا تحديد مهمة دواوين الدولة فى أمرتين: الأمر الأول، ما تختص بشئون التراسل، والأمر الثانى ما تختص بالشئون المالية.

دواوين التراسل،

المعروف أن النبي - ﷺ - والخلفاء الراشدين من بعده كانوا يتبادلون الرسائل مع ولاة الأقاليم، ومع رؤساء الدول، كما كانوا يصدرون الأوامر بأنفسهم ولا يكلفون بهذا العمل موظفاً مختصاً به، فكان الرسول يعلى على من بحضرته من الصحابة ما

يريد أن يكتبه، ويدفع الأوامر على الناس بالمسجد، وكذلك كان الخلفاء الراشدون، فلما آلت الخلافة إلى الأمويين تطور نظام التراسل، وأنشئت له عدة دواوين أهمها :

#### ١- ديوان الرسائل،

ومهمته إذاعة الأوامر التي يصدرها الخليفة، وتحرير الرسائل التي توجه إلى ولايات الدولة، والنظر فيما يرد منها العاصمة، وتحرير الرسائل التي توجهها الدولة إلى الدول الأخرى، والنظر في الرسائل التي ترد من هذه الدول.

وقد ظل هذا الديوان يعرف بهذا الاسم في عهد العباسيين، أما في مصر، فقد أطلق على هذا الديوان منذ عهد الفاطميين «ديوان الإنشاء والمكاتب» وظل يحمل هذا الاسم في عهد الدول التي جاءت بعدهم.

وأهم ما يشترط في موظفي هذا الديوان، هو أن يكونوا متفوقين في البلاغة، وأن يكون مستواهم اللغوي عالياً، وأن تكون لبعضهم معرفة بلغات الحكومات التي تتراسل معها الدولة. وقد كثر عدد موظفي هذا الديوان وتنوعت أعمالهم فكان كبارهم يكتبون مسودات الرسائل كل فيما يخصه، ويقوم الذين يلونهم في المرتبة بتلخيصها، ويقوم الآخرون بنسخها ثم تعرض على الخليفة للتتوقيع عليها.

#### ٢- ديوان الخاتم،

ترسل الرسائل بعد ختمها بخاتم الخليفة إلى ديوان الخاتم، لنسخ صورة منها تحفظ في هذا الديوان، ثم يلف الأصل ويربط بالخيط ويختم بالشمع، وهو يشبه في العصر الحاضر قلم السجلات «الأرشيف» ويعزى إلى معاوية أنه أول من أنشأ هذا الديوان حتى لا يزداد في الرسائل ولا ينقص منها.

#### ٣- ديوان البريد،

تسلم الرسائل بعد حزمها وختمتها إلى ديوان البريد ليتولى نقلها إلى الجهة التي يراد إرسالها إليها، وينسب إدخال نظام البريد في الدولة الإسلامية إلى معاوية كذلك، وهو تقسيم الطريق إلى مسافات محددة، وإقامة محطات عند نهاية كل مسافة، وابتداء أخرى. في هذه المحطة جماعة من موظفي البريد وخيل سريعة العدو، فإذا وصل البريد إلى محطة منها، ترك الفرس الذي معه وركب غيره، وعدها به إلى المحطة التي تليها.

وهكذا ، أو سلم ما معه من البريد إلى رجل آخر يركب فرسا مستريحا، ويعدو به إلى المحطة التي تلى محطة، ثم يسلمه إلى غيره ليعدو به إلى المحطة الأخرى، وهكذا إلى أن يصل البريد إلى الجهة التي يراد توصيله إليها في أسرع وقت ممكن، وربما استعملت بدل الخيل جمال أو بغال - وكان البريد مقصورا على نقل الرسائل الحكومية، وفي بعض الأحوال كان ينقل رسائل الأهالى ، ولكن على نطاق ضيق جدا.

وقد تطور نظام البريد في عهد العباسين وعهد إلى صاحبه بمراقبة سير العمال في ولاياتهم، ونقل ما يعلمهم عنهم إلى الخليفة. واستعمل العباسيون حمام الزاجل في نقل الرسائل، ويغلب على الظن أن أول رسالة حملها الحمام كانت في عهد الخليفة المعتصم بالله العباسي «٢١٨ - ٢٢٧هـ» وهي خبر التغلب على باب الخرمي، والقبض عليه، وقد استعمل الفاطميين في مصر حمام الزاجل ثم استعمله الأيوبيون والمماليك في نقل الرسائل التي يراد نقلها بغاية السرعة .

#### دواوين العمال :

هي التي تتولى تحصيل الموارد المالية للدولة وتضبط حسابه، وتتولى توزيعها على أوجه المصرف المختلفة في الدولة.. وتنقسم موارد الدولة الإسلامية الثابتة إلى ثلاثة أقسام، يختص بها ديوان الخراج وما يتبعه من فروع، وهذه الأقسام هي : -

#### ١- الفيء وخمس الغنائم :

الفيء هو ما استولى عليه المسلمون من أموال الكفار من غير حرب، وقد جعله الله لرسوله يصرفه في وجوه الخير التي يراها، ولم يجعل للمجاهدين فيها حقا، لأنهم لم يبذلوا في سبيل الحصول عليه جهدا، أما الغنائم فهي ما استولى عليه المسلمون من أموال الكفار وسلامهم وسببيهم واسراهم، وقد جعل الله أربعة أخماسها للمجاهدين وخمسها للرسول ينفقه في وجوه الخير، وقد آل حق الرسول عليه الصلاة والسلام في الفيء وخمس الغنامية بعد وفاته إلى الدولة ينفقه رئيسها في وجوه الخير التي بينتها الشريعة .

## ٤- الخراج :

ويشمل ضريبة الأرض الخراجية وهي الأرض التي صالح المسلمين أهلها عند الفتح، على أن يتركوها تحت أيديهم، أو استولى عليها المسلمين بالحرب، ولكن الخليفة لم يقسمها على الفاتحين، وأبقاها بيد أصحابها، وفي كلتا الحالتين يدفع المنتفع بالأرض جزءاً من محصولها، أو مبلغاً معيناً من المال عنها في كل سنة، وتشمل العشر، وهو عشر محصول الأرض التي أسلم أهلها عليها، والأرض التي قسمها الخليفة على الفاتحين عند الفتح، ولم يبقها بيد أهلها، كما تشمل جزية أهل الذمة، وهي مبلغ معين من المال يفرض على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على الدفع من اختاروا البقاء على دينهم من الكفار، ويفrei منها العاجزون عن الكسب والرعبان، إلا إذا كانوا من ذوي اليسار الظاهري، والنساء، وكانت تجمع عن كل سنة هلالية، كما تشمل أيضاً العشور التي تحصل من التجار غير المسلمين الذين يأتون بتجارتهم من بلادهم لبيعها في بلاد المسلمين إذا شرط عليهم ذلك، وهذه الضريبة تساوي عشر قيمة البضائع التي معهم، أو قيمة عشرها من النقد .

## ٤- الصدقات :

وتشمل الزكاة الواجبة، وهي قدر معين بينه التشريع الإسلامي، ينخذل من أغذية المسلمين على ما يمتلكون من نقد أو عرض تجارة أو زرع أو ثمر أو ماشية، أو غير ذلك بما تجب فيه الزكاة، والمراد بالأغذية هم الذين يمتلكون نصاباً معيناً من هذه الأصناف بينته الشريعة، كما تشمل الصدقة والمال الذي يتبرع به المسلمين زائداً عما هو مفروض عليهم تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى .

أما ديوان المستغلات فيتولى تحصيل المستغلات الأخرى وهي ما يفرض من ضرائب على الأسواق أو المنازل أو الطواحين أو السفن وغيرها، ويغلب على الظن أنها لم تكن موارد ثابتة

أما أوجه صرف تلك الموارد كلها فهي باختصار، دفع مرتبات الموظفين والجند وبناء المساجد، وإصلاح ما يحتاج منها إلى إصلاح، والصرف على تطهير الترع وحفر ما يلزم منها، والإنفاق على المسجونين وأسرى الحرب الذين أسرهم جيش المسلمين

من الأعداء لأطعامهم، وكسوتهم ومن يموت منهم، وما يعطى للعلماء والأدباء من العطايا.

وفي العصر العباسي وجدت عدة دواوين جديدة أهمها ديوان الزمام الذي يشبه الأن ديوان المحاسبة، وقد أنشأه الخليفة المهدى «١٥٨-١٦٩هـ»، ومهمته مراجعة حساب إرادات الدولة ومصروفاتها، وفي مصر أنشئ في عهد الفاطميين - ديوان مماثل لديوان الزمام أطلق عليه اسم ديوان التحقيق.

وكان في كل إمارة من إمارات الدولة دواوين تشبه دواوين الدولة العامة التي كان مقرها العاصمة، وكانت هذه الدواوين تتولى تحصيل دواوين الإمارة ودفع مرتبات موظفيها، والإتفاق على المصالح العامة للولاية ثم ترسل ما يتبقى من الأموال إلى عاصمة الخلافة.

وأجرت العادة أن يكون مكان الديوان بالمسجد الجامع في العاصمة، ثم نقلت الدواوين من الجامع إلى دار الإمارة أو دار الوزير أو القصر، أو إلى دار كانت تسمى بدار الملك في العصر الفاطمي.

وفي عهد المقتدر «٢٩٥-٢٩٢هـ» كانت الدواوين تطلق في دار الخلافة يومي الجمعة والثلاثاء.

وكان لهذه الدواوين رؤساء يسمون أصحاب الدواوين، وكانت تختلف درجاتهم ومرتباتهم بحسب أهمية دواوينهم، وأحياناً بحسب نفوذهم.

وكان بكل ديوان كتاب وخزان وبوابون وأعون، وكان يمد بالصحف والقراطيس، وكانت الأرزاق تطلق في الأسبوع الأول من كل شهر، وكانت وظائف الدواوين وقفا على الأحرار.

وكان المشتغل بإدارة الدواوين يمثل الثقافة الأدبية ولا يعالج العلوم الدينية إلا بمقدار ما يتطلب عمله وثقافته، وكان يلبس في العادة دراعة في حين كان العالم يلبس الطيلسان<sup>(١)</sup>.

(١) دكتور حسن الباشا : دراسات في الحضارة الإسلامية من ٥٦-٦٠

كان المجتمع الإسلامي على عهد رسول الله وأبى بكر وعمر وشطرا من خلافة عثمان مجتمعا مثاليا يندر فيه التخاصم، فقد نقل إلينا أكثر المؤرخين أن أبا بكر عهد بالقضاء بين الناس إلى عمر فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان.

وفى خلافة عمر كثرت الفتوح واحتللت العرب بغيرهم من أهالى البلاد المفتوحة فعين الخليفة القضاة للفصل فى المنازعات بما يقتضى به الكتاب والسنة، فإذا عرضت على القاضى قضية لم يرد حكمها فى القرآن ولا فى السنة ولم يكن قد تقدم صدور حكم فيها بإجماع الصحابة قاسها على ما يشبهها من القضايا التى بين حكمها بالكتاب والسنة أو بالإجماع.

وكان القضاة فى العاصمة يعينون من قبل الخليفة، وفى الولايات يعينون من قبل الوالى إذا كانت ولايته عامة، ولم يكن للقضاة سجل تسجل فيه الأحكام، لأن المتخاصمين كانوا يتقادون للحق إذا تبين لهم وينفذونه بأنفسهم من غير حاجة إلى حملهم على تنفيذه.

وفى عهد الأمويين وجدت السجلات لأن المجتمع الإسلامي تغير بما كان عليه فى عهد الخلفاء الراشدين وتناكر الخصوم فوجدت الحاجة إلى تدوين الأحكام وكان القضاة مستقلة عن السياسة.

وكان الخلفاء الراشدون يختارون القضاة من العلماء الملمعين بأحكام الشريعة الإسلامية والمعروفين بتقواى الله وتحري العدل وغير ذلك من الصفات التى يجب توافرها فيمن يتصدر الحكم فى الدماء والأموال. وفيما بعد وضع الفقهاء شروطا يجب توافرها فيمن يختار لهذا المنصب وهى أن يكون مسلما ذكرا بالغا عاقلا حرا قويم الخلق صحيح البصر والسمع ضليعا فى علوم الفقة وملما بها.

وظل القضاء بخطورته فى عصر الأمويين . جاء فى كتاب كتبه عبد الحميد الكاتب عن الخليفة مروان بن محمد لبعض من ولاه: «واعلم أن القضاة من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ولا بمثل محله أحد من الولاة لما يجري على يديه من مفاليظ الأحكام ومجارى الحدود»

وفي هذا العصر كان الخليفة يعين قاضياً لكل ولاية، ولكن نظراً لازدياد أعباء القاضي كان يختار خلفاء ونواباً له. ومهما يكن من أمر فقد كان القضاء إحدى الوظائف الأساسية في الولايات الإسلامية، وهي الصلة والشرطة والقضاء والمال والولاية<sup>(١)</sup>.

وفي العصر العباسي وجدت المذاهب الأربع، وكان يحكم في الإقليم وفق المذهب الذي يتبعه أهله، ففي العراق كانت الأحكام تصدر على مذهب أبي حنيفة، وفي الشام والمغرب والأندلس على مذهب الإمام مالك، وفي مصر على مذهب الإمام الشافعى.

وفي العهد العباسي تدخلت السياسة في القضاء إذ حاول الخلفاء حمل القضاة على إصدار الفتاوى التي تبرر أعمالهم فامتنع كثير من الفقهاء عن تولي منصب القضاء حتى لا يحملهم الخلفاء على الفتيا بما يخالف الشريعة.

وظهرت في العصر العباسي أيضاً وظيفة قاضي القضاة، وأول من أطلق عليه لقب قاضي القضاة هو أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم تلميذ أبي حنيفة وصاحب كتاب الخراج، وأحد أقطاب المذهب الحنفي، وتولى القضاة في عهد المهدى وولديه الهادى والرشيد وأطلق عليه اللقب في عهد الرشيد.

ومنذ ذلك الوقت صار لقب قاضي القضاة يطلق على كبير القضاة، وكان مقره عاصمة الخلافة العباسية وصار منذ القرن الرابع الهجري يقوم بتعيين القضاة في سائر الولايات وله حق الإشراف عليهم ومراقبتهم.

ومنذ البداية لم تقف سلطة القاضي عند حد النظر في الأحكام والفصل في الخصومات، ولكنها امتدت أيضاً إلى النظر على الأوقاف والوصاية على الإيتام.

وفي العصر العباسي لم يقتصر عمل القاضي على المهام السابقة بل زادت له اختصاصات أخرى: فأضيف إليه أحياناً الشرطة والمظالم والحسابه ودار الضرب والعيار وبيت المال والنظر في أموال المحجور عليهم، وفي وصاية المسلمين وتزويج الأيتامى عند فقد الأولياء، بالإضافة إلى الإفتاء والولاية على المساجد والخطابة.

(١) دكتور حسن البasha: دراسات في الحضارة الإسلامية من ٦٨-٦٧

والإمامية والتدريس. بل إن يحيى بن أكثم القاضى تولى فى عهد المأمون قيادة الجنود الصائفة، وكذلك أحمد بن داود قاضى القضاة فى عهد الواثق.

وفي الدولة الغزنية كان القاضى يشرف على جباية الأموال وكان يطالب أحياناً بأن تكون له السالارية والجند، وكان يتبعه صاحب البريد والمشرف ويقوم بإرسال الأخبار إلى السلطان.

وكان القضاة فى العصر العباسى يسند إليهم أحياناً الإشراف على تشيد ممؤسسات الدولة كما يتضح من الكتابات الأثرية التى وصلتنا.

وصارت وظيفة القضاة فى عصر السلاجقة وخلفائهم الأتابكة إقطاعاً يطبع فيه الطامعون كما كان القضاة يمنحون الإقطاعات فى مقابل قيامهم بأعمالهم، فمثلاً عندما عين زنكي بهاء الدين الشهريزوري قاضى القضاة زاد من تفویضاته وأملاكه الخاصة<sup>(١)</sup>.

وقد اتسعت سلطة القاضى - على مر الزمن - فعهد إليه بالإشراف على الأوقاف وتعيين الأوصياء على البتامى والمحجور عليهم من لا يحسنون التصرف مثل المجانين والسفهاء وغيرهم، وقد كان الخلفاء من قبل يضيغون إليه النظر فى المظالم.

وكان القاضى لا يتدخل فى شئون غير المسلمين، فقد كان أهل الذمة من رعايا الدولة الإسلامية يتلقاون أمام رؤسائهم الدينين، وفي هذا أكبر دليل على سماحة الإسلام، وأبلغ رد على من يزعم أن المسلمين أكرهوا مخالفיהם فى الدين على اعتناق الإسلام.

وفي أول الأمر كان القضاة يجلسون للقضاء فى المساجد، ولكن المسلمين رأوا أن ذلك يحدث من الضوضاء ما يتنافى مع حرمة المساجد، فمنع الخليفة العباسى المعتصم «٢٧٩-٢٩٢هـ» القضاة من الجلوس للقضاء فيها.

وكان القضاة يبحثون حالة الشهود بحثاً دقيقاً، فمن عرف عنه الاستقامة قبلت شهادته ومن ثبت عليه الانحراف ردت شهادته. وقد كان من بين القضاة من ضرب المثل الأعلى فى العفة والتزاهة وحفظ للمنصب جلاله وهيبته.

(١) دكتور حسن الباشا دراسات فى الحضارة الإسلامية ٦٧-٦٩.

وقد كانت خطة القضاة في الأندلس تختلف اختلافاً جوهرياً عن خطة القضاة في المشرق. فقاضي القضاة في المشرق متاثر بالمنصب السياسي «مويدان مويد» وتعريبه قاضي القضاة، فهو قاضي الدولة كلها، ومن سواه من القضاة في الأمصار نواب عنه، فهو المتصرف فيهم تعيناً وعزل، لهذا كان يلقب بقاضي القضاة ومن عاده بالقاضي فقط، أو قاضي بلد كذا، أما قاضي الجماعة في الأندلس فهو قاضي الحضرة أو العاصمة وكان مقره الدائم في قرطبة، والجماعة هنا تفسر بالجماعة الإسلامية التي استقرت في العاصمة الجديدة. ولهذا فإن سلطته كانت مقصورة على العاصمة قرطبة ونواحيها فقط بمعنى أنه لم يكن له سلطان على بقية القضاة في الكور والمدن الأندلسية، فهم مستقلون بأنفسهم وليسوا نواباً عنه، بمعنى أن قاضي الجماعة لا يمتاز عن بقية القضاة إلا من الناحية الأدبية فقط، بحكم كونه قاضياً للعاصمة ومستشاراً للخليفة وإماماً للصلوة في أيام الجمعة والأعياد<sup>(١)</sup>، وهكذا نجد أن القضاة في العصر المشرق اتسم بطابع المركزية بينما في الأندلس نظام الامركزية الذي يناسب بيته المحلية.

وأقام المرابطون نظامهم القضائي مستندين في ذلك إلى نفس النظام القضائي المتبع في الأندلس<sup>(٢)</sup>، كما أنسدوا مهمة القضاة لكتير من الأندلسين<sup>(٣)</sup>، الذين وقع على عاتقهم ترسية هذا النظام في المغرب ومارس القضاة اختصاصهم في المسجد حيث كان مجلس حكمهم<sup>(٤)</sup>، فقد أورد النباهي في ترجمته للقاضي أبي عبد الله محمد بن سليمان قاضي مالقة والمتوفى سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م كيف كان يقضى في مسجد مدینتة يقول: «وكان قعود القاضي أبي عبد الله المذكور لتنفيذ الأحكام بالمسجد المذكور من داخل مالقة»<sup>(٥)</sup>.

(١) د. أحمد مختار العبادي: الإسلام في أرض الأندلس، مجلة عالم الفكر-المجلد العاشر العدد الثاني- بوليو-أغسطس- سبتمبر ٧٩ ص ٣٦٩، ٣٦٨

(٢) حركات: المغرب عبر التاريخ (دار البيضاء ١٩٦٥) ص ٢١٥  
د. حسن على حسن: المغاربة الإسلامية ص ١٦٤

(٣) حركات: المرجع السابق، ص ٢١٧

(٤) Histoire du maroc (paris 1949)p. 309

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس. نشر ليفي بروفنسال (مصر ١٩٤٨) ص ١٠٠

وكان للقضاة حجاب ينظمون دخول المتخاطفين عليهم<sup>(١)</sup>، كما كان لهم كتاب يقumen بكتابه ما يصدره القاضى من أحكام<sup>(٢)</sup>، وقد كان من بين هؤلاء الكتاب الأندلسيون مثل على بن عبد الله بن ابراهيم بن عبد الله الانصارى من الجزيرة الخضراء، وقد استوطن مدينة سبتة وكتب للقاضى أبي موسى عمران بن عمران وتوفى سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٤م<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم من استعانة خلفاء الموحدين بقضاة من خريجي مدرسة الحفاظ التى أنشأها الخليفة عبد المؤمن للتخرج طبقة من الموظفين الذين شغلوا مناصب الإدارية في الدولة منها وظيفة القضاة<sup>(٤)</sup>، إلا أنه مع ذلك استعان ولاة الأمر في دولة الموحدين بعدد كبير من قضاة الأندلس<sup>(٥)</sup>. كأبى القاسم أحمد بن محمد بن بقى قاضى الجماعة فى مراكش وهو من أهل غرناطة<sup>(٦)</sup>، والقاضى أبي جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة والذي تولى القضاة لل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى فاس ثم تولى قضاة الجماعة بحاضرة الدولة مراكش<sup>(٧)</sup>. وأبى العباس أحمد بن محمد بن أحمد البكري من أهل شريش وقد استوطن مدينة سلا بال المغرب وتولى القضاة بها ثم انتقل إلى مكناسة لتولى القضاة بها<sup>(٨)</sup>.

وكتيرا ما انتقل هؤلاء القضاة الأندلسيون بين المدن الأندلسية والمغربية، فالقاضى أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن حوط الله الانصارى ولى القضاة بأشبيلية وميورقة ومرسية وقرطبة بالأندلس، ثم ولى القضاة سبتة وسلا ثم عاد من سلا إلى مرسية وتوفى بغرناطة سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م<sup>(٩)</sup>،

(١) حرکات : المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس من ١١٤، ١١٣.

(٣) نفس المصدر من ٣٠٥.

(٤) أشباح : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥٢.

(٥) Terrasse : Histoire, P.309.

(٦) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ١١٧.

(٧) المراكشى : المعجب ص ٢٤٧، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٣. ابن أبي زرع : الأنفيس ج ١٧٥ ص ٢.

(٨) د. حسن على حسن : الحضارة الإسلامية ص ١٧٠.

(٩) النباهى : المصدر السابق، ص ١١٢.

والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران بن دافال الوردمىشى ولى القضاء بأشبيلية ثم بمراكش وتوفى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م<sup>(١)</sup>.

ومن قضاة الأندلس من جمع بين وظيفتى القضاء بالمغرب والأندلس كالقاضى ابن رشد قاضى الأندلس حين استدعاءه الخليفة عبد المؤمن ليضيف إليه قضاة المغرب بجانب قضاة الأندلس<sup>(٢)</sup>.

### العدالة، الشروط،

عرفت الأندلس العدالة<sup>(٣)</sup>، منذ عهد مبكر، وهذه الوظيفة كما يقول ابن خلدون: «هي وظيفة دينية تابعة للقضاء، ومن مواد تصريفه وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملًا عند الإشهاد وأداء عند التنازع وكتبا فى السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم. وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية، والبراء من الجرح ثم القيام بكتب السجلات، والعقود من جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلّق بذلك من الفقه والأجل ذلك هذه الشروط وما يحتاج إليه من مران على ذلك، والمارسة له اختص ذلك ببعض العدول، ومسار الصنف القائمون بها كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك. وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة<sup>(٤)</sup>.

وقد كان لتك الوظيفة فى دولة الموحدين خطة قائمة بذاتها نظرا لأهميتها ودقتها، ويقوم ب مهمتها الفقهاء المؤثرون<sup>(٥)</sup>، وكان المؤثرون يقومون بإنجاز عقود الميراث والبيع والشراء والزواج والطلاق طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية، فكان عملهم مزيجا من عمل المحاكم والمؤذنين وإدارة المساحة فى عصرنا الحاضر<sup>(٦)</sup>. وقد تولى هذا المنصب فى عهد الموحدين طائفة كبيرة من فقهاء التوثيق الأندلسىين نذكر منهم

(١) ابن القاضى: جذوة الاقتباس من ١٥٧.

(٢) د. حسن على حسن: ص ١٦٦.

(٣) العدالة هي الوظيفة التي عرفها الشرق باسم الشروط، أو التوثيق.

(٤) ابن خلدون: المقدمة من ٢٠٠.

(٥) د. عبد الله على علام: الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على (مصر ١٩٧١) ص ٢٦٧ .٣١٥، ٣١٤.

(٦) د. عبد الله على علام: المرجع السابق، ص ٣١٥.

على سبيل المثال : الفقيه ببيش بن محمد بن أحمد بن ببيش العبدري، نشأ بمدينة بلنسية ودرس الفقه حتى نبغ فيه ثم قام بتدريسه، ثم تلى خطة الأحكام، كان بصيراً بعقد الشروط مدركاً لصحة الأحكام ثم تطوع لحرب النصارى في جيش الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين سار لغزو مدينة وبيدة سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ثم توفي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م.

ثم إبراهيم بن الحاج أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد خالد الفرناطي الذي درس على أقطاب عصره بغرناطة وقرطبة وبرغ فى الفقه والحديث، ومارس عقد الشروط وتولى القضاء فى عدة جهات، ثم توفي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، ومنهم محمد بن أيوب بن محمد بن وهب من أهل بلنسية وكان من أشهر الفقهاء، وانتهت إليه الرياسة فى عقد الشروط والفتيا

### النظر فى المظالم :

فى عهد الدولة الأموية وجدت سلطة قضائية علياً تشبهـ إلى حد كبيرـ محكمة الاستئناف ومجلس الدولة فى العصر الحاضر، تعرض عليها القضايا التى يرفعها الأفراد والجماعات على ولاة الأقاليم إذا بادا منهم جور أو ظلم، وعمال الخراج إذا بالغوا فى تقديره، وتعسفوا فى تحصيله وكتاب الدواوين إذا فوتوا على أحد حقاً بتعديهم عدم إثباته فى سجلاتهم أو إهمالهم فى ذلك والنظر فى تظلم الموظفين إذا أنقصت مرتباتهم أو تأخر صرفها . ولم يكن فى عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده ما يدعو إلى وجود هذه السلطة القضائية لأن المجتمع الإسلامي فى هذا العصر كان يغلب عليه الورع، وكان الناسـ كما قدمنا يتقادون للحق إذا تبين لهم وينصفون من أنفسهم من غير حاجة إلى حملهم على الإنصاف بالزجر أو العقاب، وفي خلافة على رضى الله عنه وجدت حالات من المظالم كان ينظرها بنفسه بمجرد عرضها عليه .

## الحسبة والشرطة

### أولاً - الحسبة :

كانت الحسبة وظيفة دينية خلقية أساسها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم اتسعت دائرة اختصاصها بتطور المجتمع الإسلامي، ولم تصبح وظيفة يتولاها موظف مختص يسمى بالمحتسب إلا في عهد الخليفة العباسي محمد المهدي «١٥٨-١٦٩هـ» وقد أجمل ابن خلدون عمل المحتسب في البحث عن المنكرات ومعاقبة مرتكبيها وحمل الناس على رعاية المصالح العامة في المدينة، مثل المنع مما يعوق السير في الطرق ومنع الحمالين وأصحاب المباني المتداعية بهدمها وإزالة أنقاضها حتى لا تعيق السير في الطريق، ومنع المعلمين من مجاوزة الحد في تأديب تلاميذهم، والنظر فيما يتعلق بالغش والتديليس في المعاملات، ومراقبة المكاييل والموازين وحمل المماطلين على أداء ما عليهم من الديون، وغير ذلك مما لا يحتاج إلى بينة ولا إمضاء حكم .  
ولا يتوقف حكم المحتسب على رفع دعوى من ناله ضرر بل عليه أن ينظر فيما يصل إلى علمه من الأمور التي تقع في اختصاص وظيفته .

وكان المحتسب يختار من بين رجال الدين والقلم الملمين بأحكام الشريعة والأشداء في الحق وذوى الثقة والأمانة، وربما كان القضاة وأحياناً كانت تضاف أعمال الحسبة إلى القاضي أو إلى الوالي أو صاحب الشرطة، وقد يجمع المحتسب بين نظر الحسبة ونظر الوقف .

وكان المحتسب يولي عنه نواباً فيسائر المدن والأقاليم التابعة له. وكانت اختصاصات المحتسب تشتمل على نواح عدّة : منها ما كان يتعلق بمراعاة تأدية العبادات مثل الأمر بتأدبة صلاة الجمعة والمحافظة على صلاة الجمعة وأداء الزكاة وردع أهل البدع .

ومنها ما يتعلّق بمراعاة آداب السلوك والتمسك بأهداب الفضيلة والمحافظة على الأخلاق العامة: فكان يحث على أن يراعي العرف بين الرجال والنساء وي العمل على منع المقامرة، وعلى مراعاة ارتداء الزي المناسب، وعلى إلزام ذوي الهيئات بالصيانة التي تناسب مناصبهم ومراتبهم، ومنع التسول، ومنع المعلمين من المغالاة في ضرب التلاميذ. ومنع معلمى السباحة من التغريب بالصفار، وأمر السقائين بليس السراويلات الساتر لعوراتهم، ومنع المضائقات في الطرق، ومراعاة المحافظة على الآداب في الحمامات والمحافظة على حقوق العبيد، ومنع التعدي على أهل الذمة، والتحث على الرفق بالحيوان وكفالة الصغار، ورد الحقوق لأربابها، واستيفاء الديون.

وبالإضافة إلى ذلك كان عمل المحتسب أن ي العمل على المحافظة على صحة المواطنين وسلامتهم، ومنع ما يعكر الأمن: فكان عليه أن ي العمل على منع أحمال الحطب والتبن وكل ذي رائحة كريهة من الدخول إلى الأسواق حتى لا يضر بصحة الناس وثيابهم، ومنع الحمالين وأصحاب السفن من الإكثار في الحمل حرصا على سلامتهم، وتکلیف أصحاب المباني الأيلة للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها، وإزالة بروز مصاطب الحوانيت في الأسواق وإماتة الأذى عن الطريق، والاحتراز في سقاية المياه، وأمر السائقين بتفطية الروايا والقرب، والإبعاد بتنظيف الجوامع والمساجد وإنارتها ومراعاة نظافة الحمامات، وملاحظة المباني العامة والتحث على تعميرها، وتأديب المفترين ومروجي الشائعات المفروضة الكاذبة، ومنع القصاصين من تعمد الكذب في قصصهم.

ومن جهة أخرى كان على المحتسب أن يشرف على أن يقوم التجار والصناع بأداء الواجب عليهم، وأن ينال كل أجره دون مماطلة أو تأخير، وأن يمنع الجهات من مزاولة صناعة لا يجيدونها، وأن يمنع متعاطى الطب عن مزاولته إلا عن علم، وأن يباشر محال الجزارية والمطاعم، ويفتش قدور الأطعمة وختم اللحوم، وأن يراعي تنفيذ الشروط الواجبة المفروضة على أصحاب المصانع والصناعات المقلقة أو الضارة بالصحة، مثل المدايغ وسبائك الزجاج والجديد ومعامل الصابون وأمائن الجير والأجر وكان المحتسب أيضا يشرف على تثمير أموال الأحباس وإمساء مصارفها على شروط واقفيها.

وإلى جانب ذلك كله كان من عمل المحتسب النظر في الأسواق، والإشراف على الموازين والمكاييل، ومراقبة عيار الماء، ومراقبة الأسعار ومنع الاحتكار، والإشراف على دور العرض والعيار، ومراقبة إثباتات اسم الخليفة على العملة الذهب والفضة والثياب والفرش والأعلام.

والإشراف على سوق الرقيق، ومراقبة مواد الطعام والبضائع المصنوعة، ومراقبة الصاغة حتى لا يبيعوا الأشياء بجنسها ليحل فيها التفاضل وحتى لا يبيعوا الحلى المغشوشة إلا بعلم المشتري، ولا يسرقوا من الحلى أثناء سبکها أو لحامها، وحتى يلاحظ ضرب العيار.

وكان على المحتسب أن يراقب طوائف أصحاب الحرف على اختلافهم، ونظراً إلى أنه كان من رجال الدين وليس لديه إلمام بأسرار الصناعات والحرف المختلفة كان يختار لكل صنعة عريضاً من بين أفرادها يشرف على أحوال طائفته، ويطلعه على أخبارهم وحيلهم وطرق غشهم حتى يتسرى له مراقبتهم<sup>(١)</sup>.

وكانت الحسبة في الأندلس نوعاً من أنواع القضاء الذي تميز بسرعة البت، وبيمه وبين القضاء الذي تطورت عنه، أوجه انتلاف واختلاف<sup>(٢)</sup> وترجع نشأة الحسبة في الأندلس لما قبل عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن، أي قبل سنة ١٧٧هـ/٧٨٨م لأن الحسبة كانت معروفة في عصر هذا الأمير الأموي.

وقد ارتبطت نشأة هذه الخطة وفصلها عن القضاء بالحاجة إلى تغيير المناكر في الطرق والأسواق بصورة أكثر فاعلية، لذلك كان المحتسب يعرف بصاحب السوق نظراً لأن أكثر نشاطه ينحصر في الأسواق، والأماكن العامة، وكان يتقلد وظيفته من القاضي بعدأخذ موافقة الأمير أو والي المدينة.

وكانت الجولات التفتيشية التي يقوم بها المحتسب في الأسواق تتم على نحو معلوم، فيركب المحتسب دابته، وحوله أعوانه، ومعهم المكاييل والموازين المعتمدة، فيزين الخبر، لأن الخبر عند الأندلسيين معلوم الأوزان، محدد الأسعار فلربع الدرهم

(١) دكتور حسن الهاشا: دراسات في الحضارة الإسلامية من ٧٥ - ٧٧.

(٢) د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٦٣٩، د. أحمد مختار العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس ص ١٦٢

رغيف على وزن معلوم، ولثمن الدرهم رغيف يناسبه - كما كان اللحم يجري بيعه بسعر محدد مكتوب على ورقة، والويل لمن أهمل التسعير أو تلاعب فيه بالزيادة أو بالنقص، فكان المحتسب إذا استراب في بائع اللحم يرسل صبيا صغيرا للشراء، ثم يختبر الكمية فإذا وجد فيها نقصا ترصد معاملته لأناس آخرين، فإذا تأكد لديه عزره على حسب جرمه بالتجريض - وهو التشهير بالمطuff في الأسواق أمام جمهور من الناس وبالضرر، فإن تاب بقى حاله يمارس نشاطه في الأسواق ، وإذا عاد إلى التطفيق، أخرج من السوق، وقد ينفى من البلد<sup>(١)</sup>.

وقد لاحظ المقرى - أن الحسبة في الأندلس - تحتوي على مجموعة قوانين وأحكام ، يتدارسها أهل الأندلس، كما يتدارسون أحكام الفقه لتعريف القضاة والإفتاء بسبب أهميتها - وتعلقها بالحياة العامة.

ولا شك أن محور هذه الدراسة كان كتب الأندلسيين الذين اهتموا بالحسبة، وكتبوا عنها خلاصة تجاربهم العلمية، مثل ابن عبدون الأشبيلي والسفطي المالقى، وابن عبد الرؤوف، وعمر بن عثمان الجرسيقى، فهذه المؤلفات، وخاصة منها كتاب السقطى، تعتبر من خير ما ألف في ميدان الحسبة نظرا لصيغته العملية التي تميز الكتاب، والتجربة الطويلة، التي أكتسبها مؤلفه من رحلاته وممارسته للخطة في بلده مالقة في القرن السادس الهجري .

على أن جميع كتب الحسبة في الأندلس كانت تعالج الموضوع في إطار المذهب المالكى الذي عليه جمهور المسلمين في الأندلس<sup>(٢)</sup>، وإذا كان السقطى المالقى على رأس أعلام رجال الحسبة في القرن السادس الهجري فقد كان من أعلام رجال الحسبة في عصر المرابطين بالأندلس : محمد بن مكى بن أبي طالب القىسى ت ٤٧٤ هـ / ١٠٨٠ م الذي جمع بين وظيفتي الشرطة والنظر في الأحباس والسوق بقرطبة<sup>(٣)</sup>.

ومن أشهر رجال الحسبة في دولة الموحدين بالأندلس : عبد المنعم بن محمد الخزرجي الغرناطى ت ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م الذي اشتهر بين الناس بباب الفرس، وقد ولى

(١) المقرى : نفح الطيب، ج ١ ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) sanvaget et Cahen : Introduction kistroire. d.orient nusulman (Paris 1961) p. 223.

(٣) ابن مشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٢٣.

خطة القضاء في عدة مدن منها شفرو، وجيان ووادي آش وغرناتة، وجمع له النظر في الحسبة والشرطة<sup>(١)</sup>.

أما في المغرب الأقصى فيبدو أن البذور الأولى لنشأة نظام الحسبة ترجع إلى العهد الإدريسي في مدينة فاس، ويظهر أن الحسبة اكتسبت أهمية خاصة في تأهيرت وفي واحات الصحراء التي إتجأ إليها الأبااضية بعد سقوط الدولة الرستمية على يد أبي عبد الله الشيعي المحتسب.

وطبعاً أن يهتم المرابطون في المغرب بالحساب وخاصة أن زعيم المرابطين الروحي عبد الله بن ياسين كان ينكر على الناس بعض عاداتهم، وواصل مهمته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان يؤذن الذي لا يسعى لصلوة الجمعة ضربه خمسة أسواط<sup>(٢)</sup>، وعندما استولى المرابطون على مدينة سجلماسة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م قطعت المزامير وأحرقت المتاجر التي كان يباع فيها الخمر وقضى على مظاهر الجور والعنف<sup>(٣)</sup>.

وكان لوظيفة الحسبة عند الموحدين أهمية خاصة في سلم الإدارة حيث يأتي في أول السلم، ويظهر أنه كان يرأس المجموعة التي كان يقف معها في التشريف، ثم يأتي بقية الموظفين، وأولهم على الترتيب صاحب السكة ثم رجال الجيش، ثم المؤذنون، ثم أهل الحزب «الحافظ»، ثم الرماة، وأخيراً العبيد<sup>(٤)</sup>.

وبلغ من اهتمام الموحدين بتلك الوظيفة بأن المنصور الموحدي أمر أن يدخل عليه أمناء السوق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم<sup>(٥)</sup>.

ومن أشهر من تولى الحسبة في مراكش من الأندلسيين الشاعر ميمون بن على ابن عبد الحق<sup>(٦)</sup>. ولكن على الرغم من اهتمام المرابطين والموحدين بخطة الحسبة في

(١) ابن الزبيدي، صلة الصلة تنشر ليفي بروفسال (الرباط ١٩٣٨) القسم الأخير ص ١٧، ١٨.

(٢) السلاوي: الاستقصاء ج ١٠٠، ٩٩.

(٣) ابن أبي زرع: الأنبياء المطرب ص ٨٠.

(٤) المراكشي: المعجب ص ١٨٨، ٢٢٩.

(٥) المراكشي: المعجب ص ٢٨٥.

(٦) ابن القاضي: قسم ١٠ ص ٤٣٨-٤٥٧.

المغرب فإن أصحاب السوق في تلك الفترة اعتمدوا فيما يبذلو على المؤلفات الأندلسية لأنه لم يعثر حتى الآن على أى كتاب للحسبة من تأليف أحد المغابة، وربما كان ذلك لأن الحسبة كانت في الأندلس في تلك الفترة تمثل عهدها الذهبي كما سبق الإشارة إلى ذلك، وربما كان أيضا لأن أغلب من تولوا الحسبة في المغرب في تلك الفترة كانوا أندلسيين.

## ثانياً - الشرطة:

من الوظائف الرئيسية في الدولة الإسلامية وقد أشار الفقشندي إلى قولين في اشتقاقيها: أحدهما أن شرطة مشتق من الشرط بفتح الشين والراء بمعنى العلامة لأن الشرطة كانوا يتذمرون علامات يتميزون بها، والثاني أنها مشتقة من الشرط بفتح الشين وسكون الراء بمعنى الدون اللثيم السافل لأن الشرطة يحتكون بأرامل الناس وسفلتهم من اللصوص ونحوهم. وإن كان القول الأول هو الأصح عندنا، لأن الشرطة حتى يومنا هذا مازالوا يمتازون بتلك (الشرانط) المميزة لملابسهم.

وكان رئيس الشرطة يسمى صاحب الشرطة، وربما سمي أيضا عامل الشرطة ومتولى الشرطة وولي الشرطة.

والشرطة هم الجنود المكلفوون بالمحافظة على الأمن الداخلي، بمنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة، وعمل التحريات الالزامية، وتنفيذ العقوبة التي يحكم بها القضاة، وإقامة الحدود.

وظهرت وظيفة صاحب الشرطة في عهد على بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين الذي نظمت الشرطة في عهده، وكان صاحب الشرطة مختاراً من عليه القوم، وذوي العصبية.

ووضحت مهمة الشرطة في العصر الأموي وزاد تنظيمها وتنسيقها في العصر العباسى، إذ صار لكل مدينة شرطة خاصة بهذه المدينة، وكان صاحب الشرطة يتخذ له نائباً ومساعدين يسمون الأعوان. وكانت الشرطة يتذمرون أعلاماً خاصة ويلبسون زيها خاصاً، ويحملون مطارد وترسة تحمل كتابات باسم صاحب الشرطة ويحملون في الليل الفوانيس ويصطحبون كلاب الحراسة. وكان صاحب الشرطة يجمع بين الشرطة

والأحداث، وقد أدخل نظام الأحداث في عهد هشام بن عبد الله «١٢٥-١٠٥هـ» وكان صاحبه يقوم بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطاً بين أعمال صاحب الشرطة وقائد الجيش. ويبدو أن الإدارتين ضمتا معاً في العصر العباسي إذ صار لهما ديوان يعرف بديوان الأحداث والشرطة.

ويظهر من هذا العهد أن تعيين صاحب الشرطة كان من اختصاص الوالي أو الأمير، ومن ثم كان عزل الوالي يتبعه في معظم الأحيان عزل صاحب الشرطة، وكان الوالي يختار لهذه الوظيفة من بين أبنائه أو أقاربه، وكان صاحب الشرطة يخلف الوالي في السلطة إذا غاب في الحج أو حرب أو غير ذلك كما يتبين عنه كثيراً في إماماة الصلاة.

وكان صاحب الشرطة يولي أحياناً الإمارة، كما كان الأمير يولي الشرطة في بعض الأحيان بعد عزله من الإمارة.

وعرفت وظيفة صاحب الشرطة في الدول الإسلامية المختلفة التي تفرعت من الخلافة العباسية فعرفت مثلاً في الدولة الغزنوية وعرفت في دول السلجوقية حيث كان يوكل حكم المدن الرئيسية إلى صاحب الشرطة الذي كانت وظيفته من الوظائف الإدارية العامة في الدولة وكان يتلقى راتباً كبيراً أو كان ولـي الأمر يتخذه أداة في بعض الأحيان لايذاء منافسيه أو أعدائه أو مصادرة أموالهم.

ومنذ عصر الولاة في مصر كانت وظيفة صاحب الشرطة من أكبر الوظائف وأهمها، وكان صاحب الشرطة في عصر الولاة الأمويين والعباسيين يسمى مع الوالي وعامل الخراج في ضمان تحصيل الجزية والخراج على وزن بيت المال الذي كانت تقرره صنف السكة الزجاجية، وكان صاحب الشرطة يتولى نيابة عن ديوان الخراج «إصدار دنانير حسب الصنف الزجاجية إما عدداً أو وزناً، وظهرت أسماء أصحاب الشرطة على صنف السكة الزجاجية المصرية بالإضافة إلى أسماء الولاة وعمال الخراج، وكان اسم صاحب الشرطة يرد على الصنف عادة مسبوقاً بعبارة «على يدي» وتعني أن صناعة الصنف تمت تحت إشراف صاحب الشرطة.

وكان صاحب الشرطة في مصر يقوم أيضاً بالإشراف على الأحباس، وتنظيم

مرتبات الجندي، وأدت أعماله في بعض الأحيان إلى إثارة قلاقل بين الجنديين بما ذهب ضحيتها في بعض الأحيان.

وكان صاحب الشرطة يسمى في عصر الولاية في أعمال الحسبة التي كانت موزعة في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين وأوائل العباسيين بين القاضي وصاحب الخراج وصاحب الشرطة، وظلت كذلك إلى أن اجتمعت أعمال الحسبة كلها لموظف واحد هو المحاسب في عهد المهدى.

وكانت وظيفة صاحب الشرطة في عصر الولاية في مصر تسمى بخلافة الفسطاط؛ وذلك أن صاحب الشرطة كان ينوب عن الوالي غير أن هذا اللقب اختفى منذ عصر الطولونيين، ومن المعتقد أن وظيفة صاحب الشرطة كان يشغلها في عصر الطولونيين بعض الأتراك.

وفي عصر الولاية كان صاحب الشرطة يقيم في الفسطاط مع الوالي، وعندما أُسست العسكرية وجدت سرطان في شرطة الفسطاط وكانت تسمى الشرطة السفلية، وشرطة العسكرية وكانت تسمى الشرطة العليا، وكانت الشرطة العليا تقيم في دار تقع تقريباً في موضع جامع ابن طولون الحالي، وكانت دار الشرطة تعرف في مصر باسم الشرطة. وكانت تعرف في بغداد وسامراء ودمشق حتى نهاية القرن ٤ هـ باسم مجلس الشرطة أو مجلس صاحب الشرطة.

وظل نظام الشرطتين العليا والسفلى معروفاً في عهد الفاطميين، غير أن صاحب الشرطة العليا كان يقيم بالقاهرة، وكان صاحب الشرطة يسمى أيضاً في عصر الفاطميين باسم حاكم القاهرة.

أما في عصر المماليك فقد انتفت وظيفة صاحب الشرطة وأُسندت مهامها إلى موظف سمي باسم الوالي أو والي القاهرة أو والي المدينة أو صاحب العسكرية، غير أن بعض المؤلفين أطلق عليه اسم والي الشرطة أو والي<sup>(١)</sup>.

وقد عرفت الأندلس نظام الشرطة منذ عهد مبكر، إلا أنه لم يعظم أمر الشرطة إلا في دولة بنى أمية<sup>(٢)</sup>، وصاحب الشرطة هو الموظف الموكل إليه إقامة القضايا وتطبيق

(١) دكتور حسن الباشا: دراسات ص ٧١-٧٢.  
Levi-provencal : Histoire, p. 89. (٢)

العقوبات<sup>(١)</sup>، ومنذ أن تأسست دولة المرابطين اتخذ ولاة الأمر الشرطة، ولكنهم أطلقوا على هذه الوظيفة اسم «صاحب الليل» حيث يشير التادلى فى تعريف أبي العباس بن العريف أحد متصوفى المغرب بقوله: أن أصل أبي العباس بن العريف من طنجة، وإنما سمي والده بالعريف لأنه كان بطنجة صاحب الليل<sup>(٢)</sup>.

ولما جاء الموحدون اهتموا بوظيفة الشرطة فكانت عندهم من المناصب الإدارية العامة<sup>(٣)</sup> وفي ذلك يقول ابن خلدون فى مقدمته: «وأما فى دولة الموحدين بال المغرب فكان لها - أي وظيفة الشرطة - حظ من التنويع وإن لم يجعلوها عامة وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكباراً منهم<sup>(٤)</sup>».

وظهر اهتمام الموحدين بالشرطة فى عهد يوسف بن عبد المؤمن الذى زود المدن المغربية بأحسن الرجال الممتازين من الشرطة<sup>(٥)</sup>.

وأشار ابن عبدون إلى بعض التنظيمات المتعلقة بصاحب الشرطة ومنها اتخاذه للأعوان كى يساعدوه فى تأدية وظيفته<sup>(٦)</sup>.

كذلك خصص للأسواق رجال من الشرطة لحمايتها من اللصوص والمتسللين، وقد أشار إلى ذلك التادلى فى ترجمته لأبي عبد الله محمد بن حسام التاونتى المعروف بابن الميلى، وأصله من تاونت من عمل تلمسان وتوفى فى سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، يقول التادلى: «إن أبا عبد الله خرج بالليل فقبض عليه حرس السوق وظنوا أنه سارق فأوجعوه ضرباً إلى أن قيل: هذا ولى من أولياء الله تعالى فخلوا عنه<sup>(٧)</sup>».

Levi - Provencal: Histoire, p.89. (١)

(٢) التادلى: التلوف إلى رجال التصوف، نشرة أدولف فور (الرباط ١٩٥٨) ص ٩٧

(٣) محمد العزيز: الأبحاث السامية في المحاكم الإسلامية (تطوان ١٩٥٢) ج ٢ ص ٦٥

(٤) ابن خلدون: المقدمة. ٢٢٤

Scott: History, Vol. 2 p. 305. (٥)

(٦) ابن عبدون: ثلاث رسائل أندلسية في أداب الحسبة والمحاسب. تحقيق ليلى بروفنسال (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٧

(٧) التادلى: المصدر السابق ص ٣٧٥



### الفصل الثالث

## الحضارة الإسلامية وتربيّة اللسان العربي

• الإسلام واللسان العربي .

• تطوير تثقيف اللسان العربي .

• تفسير حركة التعرّيب .



## الإسلام واللسان العربي

طبيعي أن ترتبط اللغة العربية بالدين الإسلامي، فهي لغة القرآن الكريم، وهي أيضاً لغة الفطرة، كما تحظى اللغة العربية بجميع الأصوات الموجودة في كل لغات العالم. الأمر الذي يجعل اللغة العربية هي اللغة الأم، بل واللغة الأمثل لأخر كتاب سماوي، وعامة إذا كنا لم نكتشف بعد كل أسرار اللغة العربية التي رشحتها لتكون لغة كتاب الله عز وجل المنزل على خاتم النبيين سيدنا محمد - ﷺ - فإن من المؤكد أن اللغة العربية لابد أنها تتفوق على كل لغات العالم في أنها قادرة على أن تكون أداة ل التربية الانسان تربية نفسية تعجز عنها أيه لغة بما يكمن فيها من قدرة على التعبير، وقوة في التأثير لم تحظ بهما لغة أخرى.

واللغة العربية التي تمتاز من بين لغات العالم الكبرى بتاريخها الطويل المتصل، وثروتها الفكرية والأدبية الخصبة.

وهذه الحقيقة يؤيدها التاريخ تأييداً قاطعاً، فإن حياة العروبة منذ نشأتها في شبه الجزيرة قد ارتبطت باللغة العربية ارتباطاً وثيقاً في كل أدوار تاريخها الطويل: فاستندت إليها في مهدها، وفي نموها واتساعها، واعتمدت بها في فترات انكماسها. لقد ظل عرب شبه الجزيرة العربية زماناً في جاهليتهم، وهم قبائل متفرقة، لكل منها لهجتها وخصائص لسانها. ثم أخذت تلك اللهجات تتقرب، وتعمل فيها عوامل الامتزاج والتفقيح والاختبار، حتى برزت من بينها لغة موحدة اصطنعها كبار الشعراء في المواسم والأسواق العامة، وتناقل الرواة أجود الشعر بها في سائر أنحاء الجزيرة، وأصبح ذلك الأدب الموحد اللسان ديواناً للعرب في معارفهم، وفي نماذج أخلاقهم ومثلهم الفردية والأجتماعية، وتمهيداً ضرورياً للانطلاقـة الكبرى التي حققها العرب تحت راية الإسلام.

وجاء الإسلام فأعطانا بتلك اللغة ذاتها معجزاً، ودستوراً خالداً للحياة والسلوك، ومعيناً لا ينضب للدرس والتأمل، وحارساً أميناً على اللغة وعقريتها<sup>(١)</sup>.

فقد كشفت الدراسة التي قمت بها على مدار خمسة عشرة سنة عن معجزة جديدة من الإعجاز البباني للقرآن الكريم. حيث كشفت الدراسة أن القرآن الكريم قد حوى في نصوصه الكريمة تفسيراً لمعانٍ كل الفاظه. أى أن القرآن الكريم قد اعتمد في تفسير معانٍ لفاظه على ديوانه أو معجمه الخاص به. وهذا وإن كان في حد ذاته معجزة مبهرة وغير مسبوقة ومحفظاً للغة القرآن، فإنه في الوقت ذاته يعد تأصيلاً جديداً للغة العربية، ودافعاً للإنطلاق باللغة العربية.

وقد كشفت الدراسة التي ضمنتها معجماً كاملاً لكل لفاظ القرآن الكريم، أن اللفظ في القرآن الكريم لا تفسره كلمة، وإنما تفسره جملة قرآنية تشرح معنى اللفظ. وقد تكون هذه الجملة جزءاً من آية كريمة.

مثال:

الأجر: هو جزاء العمل.

لقوله تعالى: ﴿وَلَنْجِزِينَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

وقد تكون الجملة التي تفسر اللفظ القرآني أكثر من آية متتالية.

مثال:

البعل: هو ما تلد امرأته.

لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأُهُمْ قَانِمَةٌ فَضْحَكَتْ فِي بَشْرَنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتِي أَلَدْ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلٌ شَيْخًا﴾<sup>(٣)</sup>

وقد تكون الجملة التي تفسر اللفظ القرآني موزعة في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم.

(١) محمد خلف الله أحمد: دور اللغة العربية الفصحي في التربية العربية. أسس التربية في الوطن العربي. الجمهورية العربية المتحدة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأداب والعلوم الاجتماعية. لجنة التربية وعلم النفس. الحلقة الدراسية الأولى من ٨٧ وما بعدها.

(٢) سورة النحل، الآية ٩٧.

(٣) سورة هود، الآيات ٧١، ٧٢.

مثال:

الباء: هو الفعل أول مرة.

لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدهُ وَعِدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كَنَا فَاعِلِينَ﴾<sup>(١)</sup>.  
﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكْثَرُوا إِيمَانَهُمْ وَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بِدَمِكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

مثال آخر:

البصّر: هو نظر العين بالنور.

لقوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظَرُونَ إِلَيْكُمْ وَهُمْ لَا يَبْصِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.  
﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصِرُونَ بِهَا﴾<sup>(٤)</sup>.  
﴿مِثْلَهُمْ كَمَثْلُ الْذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَاتٍ لَا يَبْصِرُونَ﴾<sup>(٥)</sup>.

ويمكن أن نستنتج من حرص القرآن الكريم على أن اللفظ لا تفسره كلمة، وإنما تفسره جملة – كما هو واضح من الأمثلة السابقة – أن اختلاف الألفاظ موجب لاختلاف المعانى في اللغة الواحدة. وأن ما نعده ترادفا، هو في الحقيقة كلمات تفصل بينها فروق لغوية دقيقة.

مثال:

السنة: هي العلم بمنازل القمر (أى العلم بالشهور شهرا شهرا).

لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدْرَهُ مَنَازِلٌ لَتَعْلَمُوا عَدْدَ السَّنِينَ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.

(٢) سورة التوبة، الآية ١٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٩٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٩٥.

(٥) سورة البقرة، الآية ١٧.

(٦) سورة يونس، الآية ٥.

أما العام: فهو كل العدة (أى إجمالي عدد شهور السنة).

لقوله تعالى: ﴿أَوْلَا يرَوْنَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرْتَبٍ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿يَحْلُونَهُ عَامًا وَيَحْرُمُونَهُ عَامًا لِيَوْاْطِنُوا عَدَةً مَا حَرَمَ اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولذلك يقول سبحانه: ﴿فَلَبِثْتُ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾<sup>(٣)</sup>.

و واضح من الآية الكريمة أن السنين قد علم بها شهراً شهراً. أما الأعوام فهو لم يعلم بها، وتؤكد الآية الكريمة الآتية نفس المعنى: ﴿أَوْ كَذَلِكَ سِرَّ عَلَىٰ قَرِيبٍ وَهِيَ خَاوِيَّةٌ عَلَىٰ عِرْوَشَهَا قَالَ أَنِّي يَحِيِّي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مَائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعْثَثَهُ قَالَ كُمْ لَبَثْتُ قَالَ لَبَثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبَثْتَ مَائَةً عَامٍ ...﴾<sup>(٤)</sup>، (ونلاحظ هنا حرص القرآن الكريم على النص بمائة عام، ولم ينص بمائة سنة لعدم العلم).

كما كشفت الدراسة عن أمر آخر لا يقل خطورة عما سبق. وهو أن أصل أي كلمة (الجزء) ثابت المعنى في كل الآيات التي وردت فيها الكلمة من أول القرآن الكريم إلى آخره.

مثال:

الأمد: هو سنين عددها يحصى.

لقوله تعالى: ﴿فَضَرَبَنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سَنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعْثَثَنَا لَنَعْلَمَ أَمْ حَرَبَنَا أَحَصَّ لَمَا لَبَثُوا أَمَدًا﴾<sup>(٥)</sup>.

في المثال السابق نجد معنى أصل الكلمة (أم د) ثابت في كل الآيات التي وردت بها الكلمة في السور الثلاثة التي وردت في القرآن الكريم:

﴿وَمَا عَمِلْتُ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنْ بَيْنَهَا وَبَيْنِهِ أَمْدَا بَعِيدًا﴾<sup>(٦)</sup>.

﴿ثُمَّ بَعْثَثَنَا لَنَعْلَمَ أَمْ حَرَبَنَا أَحَصَّ لَمَا لَبَثُوا أَمَدًا﴾<sup>(٧)</sup>.

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٦.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣٧.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ١٤.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

(٥) سورة الكهف، الآيات ١١، ١٢، ١٣.

(٦) سورة آل عمران، الآية ٣٠.

(٧) سورة الكهف، الآية ١٢.

﴿فَقُلْ أَنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تَوَعَّدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِي رَبِّي أَمْدَأ﴾<sup>(١)</sup>

مثال آخر:

الترف: هو كثرة الأموال والأولاد.

لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتَهُمْ بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْذِبِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

يمكنك التأكد من أن أصل الكلمة (ترف) ثابت المعنى أيضاً في كل سورتى التي وردت فيها الكلمة في الآيات الكريمة:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءَ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفُنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿لَا تُرْكِضُوا وَارْجِعُوهُمْ إِلَى مَا أَتَرْفَتُمْ فِيهِ﴾<sup>(٤)</sup>.

﴿وَاتْبِعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرْفَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾<sup>(٥)</sup>.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتَهُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾<sup>(٦)</sup>.

﴿إِلَّا قَالَ مُتَرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أَمْةٍ﴾<sup>(٧)</sup>.

﴿أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مُتَرْفِينَ﴾<sup>(٨)</sup>.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُتَرَفِّيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾<sup>(٩)</sup>.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَنَا مُتَرَفِّيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَأِرُونَ﴾<sup>(١٠)</sup>.

(١) سورة الجن، الآية .٢٥

(٢) سورة سباء، الآيات ٢٤ - ٢٥

(٣) سورة المؤمنون، المؤمنون .٣٣

(٤) سورة الأنبياء، الآية .١٢

(٥) سورة هود، الآية .١١٦

(٦) سورة سباء، الآية .٣٤

(٧) سورة الزخرف، الآية .٢٢

(٨) سورة الواقعة، الآية .٤٥

(٩) سورة الإسراء، الآية .١٦

(١٠) سورة المؤمنون، الآية .٦٤

وإذا كان البيان القرآني قد كشف أن أصل معنى كلماته ثابت في كل آياته وسورة فإن هذا لا يعني أن خطئ المفسرين الذي لم يعتمدوا على المعانى الحقيقية للكلمات، واعتمدوا في كثير من الأحيان على المعانى المجازية لها. فباختلاف عندهم معنى الكلمة من آية إلى آية، ومن سورة إلى سورة وذلك لأن تفسيرهم للقرآن الكريم، إنما يمثل وجهة نظر كل منهم. والآن نحن بحق نستطيع أن نحصل على تفسير للقرآن بالقرآن الكريم<sup>(١)</sup>.

---

<sup>(١)</sup> دكتور محمد عادل عبد العزيز: معجم معانى ألفاظ القرآن من القرآن الكريم. معجزة البيان القرآني. من <sup>٥</sup> وما بعدها (تحت الطبع).

## تثقيف اللسان العربي

علم اللسان العربي: «أركانه أربعة»: وهي اللغة والنحو والبيان والأدب. ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة، وتتفاوت في التأكيد بتفاوت مراتيبها في التوفيق بمقصود الكلام حسبما يتبيّن في الكلام عليها فنا فنا. والذي يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو، إذ به يتبيّن أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولو لا جهل أحصل الإفادة. وكان من حق علم اللغة التقدم، لو لا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند إليه فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر. فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة، إذ في جهله الإخلال بالتفاهم جملة، وليس كذلك اللغة ...<sup>(١)</sup>.

### النحو:

أغلب الروايات التاريخية على أن أول من وضع علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي طالم بن عمرو العربي الأصل. وقد نقل عنه أنه قال: دخلت على أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه فوجدت بين يديه رقعة فقلت: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء «الأعاجم» فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه. ثم ألقى إلى الرقعة فإذا فيها مكتوب الكلام كله اسم و فعل فالاسم ما أثبأ عن المسمى والفعل ما أثبأ به والحرف ما أفاد معنى، وقال لي: إنك هذا النحو وأضف إليه ما وقع لك ... إلخ.

(١) ابن خلدون: المقدمة من ٥١٤

وكان أبو الأسود من سكان مدينة البصرة فوضع بها أول أساس لمدرسة اللغة العربية، ثم تلتها مدرسة الكوفة بعد نحو قرن من الزمان، وكانت البصرة والكوفة قد أنشئتا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الأولى سنة ١٧هـ. والثانية سنة ١٨هـ، وقد ساعدهما موقعهما الجغرافي على أشتغال أهلها بالتجارة، فتدفقت الثروة على المدينتين حتى صارت من أغنى البلاد، وكثرت مجرة الناس إليهما حتى عمرتا بالسكان وازدهرت فيهما الحركة العلمية والثقافية وبخاصة علوم اللغة.

ومن علماء البصرة الخليل بن أحمد الذي وضع أول مجمع عربي وهو «كتاب العين» وقد رتبه على المخارج الصوتية للحروف الهجائية، كذلك كان الخليل أول من وضع علم العروض، وجاء بعده تلميذه سيبويه الفارسي الذي ألف أول كتاب مدرسي في النحو المعروف بذلك الاسم المشهور «الكتاب».

ومن أئمة مدرسة الكوفة على بن حمزة الكساني المتوفى سنة ٢٨٣هـ وهو أحد القراء السبعة، وأحد مؤدبى الأمين والمأمون، وقد أخذ عنه يحيى بن زياد المعروف بالفراء الذى كان أعلم الكوفيين- في عصره- بالنحو واللغة والأدب، وقد قال فيه تلميذه ثعلب «لولا الفراء لما كانت العربية لأنه لخصها وضبطها» وللقراء تأليف كثيرة منها: كتاب «معانى القرآن»، وهو تفسير لغوى شرح فيه دقائق النحو واللغة وهو أشهر كتبه.

ومن مشهورى النحويين أحمد بن محمد المرادى المصرى المعروف بالناحاس، وقد رحل إلى العراق وتلقى النحو على أشهر علمائه وعاد إلى مصر وتوفي بها، ومن مؤلفاته «كتاب تفسير أبيات سيبويه» و«كتاب التفاحة في النحو» و«شرح المعلقات السبع» ومنهم يوسف بن يعقوب البجيرمي اللغوى البصرى نزيل مصر الذى يرجع إليه الفضل في رواية أكثر الكتب القديمة، في اللغة والشعر وأيام العرب فيها.

ومن ألف في فقه اللغة إسماعيل ابن حماد الجوهرى المتوفى سنة ٢٩٢هـ صاحب كتاب «الصحاب في اللغة» ولم يثبت في كتابه إلا ما صح نقله عن العرب اقتداء بالبخارى الذى لم يدون في صحيحه إلا ما صح نقله عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وقد رتب الجوهرى كتابه على الحروف الهجائية من غير نظر إلى المخارج الصوتية.

وقد اتبع طريقته في ترتيب الحروف أكثر من جاء بعده من مؤلفي كتب فقه اللغة، وهي أن ترتب المادة اللغوية على الحروف أب ت ث ج .. الخ. على أن يكون الحرف الأخير في الكلمة هو الباب، والحرف الأول منها هو الفصل.

وهذه الطريقة تسهل الرجوع إلى الكلمة التي يراد معرفة معناها كما تُسهل على الكتاب والشعراء العثور على الألفاظ التي يريدها الكاتب في الأسجاع، والشاعر في القوافي .

ولم يقتصر علماء اللغة على تأليف المعاجم وإنما ألفوا في الاستدراك والتصريف وأصول النحو واللغة كثيراً من الكتب وعلى رأس هؤلاء أبو على الفارسي المتوفى سنة ٣٣٧هـ مؤلف كتاب «الخصائص» الذي يعتبر أعظم الكتب في أصول اللغة والنحو .

أما في الجناح المغربي فقد بدأ اهتمام علماء الأندلس بعلوم اللسان العربي مبكراً حيث قاموا بالرحلة إلى المشرق للدراسة وإحضار الكتب الرئيسية حتى أنه حينما وصل أبو على القالي إلى الأندلس كان مستوى أهلها اللغوي طيباً ووجد بها من يستحق تقديره واحترامه مثل محمد بن القوطيه<sup>(١)</sup> .

ولقد كان لابي القالي ٩١٠هـ-٢٨٨م دوراً كبيراً في رفع مستوى الأندلس من الناحية اللغوية إلى أقصى حد ممكن، فقام بتدريس اللغة العربية وأدابها، وأملأ كتابه المشهور «الأمالي»<sup>(٢)</sup> .

ويعتبر أبو بكر الزبيدي قمة تطور هذه العلوم في الأندلس، ومن بعده ابن سيده المتوفى سنة ٩٩٣هـ-٢٨٣م<sup>(٣)</sup> .

أما في المغرب فإن اللغة العربية لم يتسع انتشارها إلا بعد ظهور المرابطين على مسرح الأحداث وتوحيد المغرب والأندلس في كيان سياسي واحد<sup>(٤)</sup> ، فمن المعروف أن يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية كان يجهل اللغة العربية إبان حكمه<sup>(٥)</sup> .

(١) المقري: نفح الطيب ج ٤ ص ٧٣.

(٢) د. محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم من ٢١١.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس- تحقيق. محمد بن تاويت (القاهرة ١٩٥٣هـ/١٣٧١م) ص ٣٨١.

(٤) عبد العباس إبراهيم حمادي: الحركة الفكرية ص ٣٠٨.

(٥) المرجع السابق الصفحة ذاتها.

وعلى الرغم من ذلك فإنه يتخد من اللغة العربية لغة رسمية في الدواوين التي أنشأها بال المغرب .

ويذكر بعض الباحثين أن المغاربيين كانت لهم عناية خاصة بدراسة اللغة العربية وعلومها<sup>(١)</sup> .

أما العهد الموحدى فقد نضجت فيه دراسة علوم اللسان العربي مع ازدياد هجرة الكثير من علماء الأندلس إلى المغرب<sup>(٢)</sup> .

وقد وردت في كتب التراجم والطبقات إشارات تشير للدراسة النحوية بال المغرب على العهد المغاربي غير أننا نجهل طبيعة ذلك النشاط، والسبب في ذلك يعود إلى أن الجهود التي بذلت في هذا المضمار من الدراسات كانت جهوداً فردية لم ترق إلى مستوى الدراسات المتخصصة المستقلة في المعاهد العلمية المغاربية، ومن كتب النحو التي كانت تدرس في المؤسسات العلمية بمراكش كتاب سيبويه والإيضاح لأبي على الفارسي<sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن الدراسات اللغوية المتخصصة المستقلة لم تظهر بال المغرب إلا في العهد الموحدى لأن العهد المذكور شهد ورود عدد كبير من العلماء النحوين المتخصصين على مراكش استقروا بها وتصدروا للتدريس النحو<sup>(٤)</sup> .

ومن أوائل العلماء الأندلسيين الذين استوطنوا عاصمة الموحدين وأسهموا في إقامة المدرسة النحوية فيها محمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس العبدري الذي أسهم في الأنشطة العلمية المختلفة في مراكش على العهد الموحدى<sup>(٥)</sup> ومن مصنفاته مشاذن الأفكار في مأخذ النظر<sup>(٦)</sup> وشرحه الكبير والصغير على جمل الزجاج وشرح أبيات الإيضاح العضدي ومقامات الحريري، وشرح معشراته الفزلية ومكفرتها

(١) محمد عثمان المراكشي : الجامعة اليوسفية ص ٢٠٥ .

(٢) عبد العباس إبراهيم حمادي : الحركة الفكريّة، ص ٣٠٨ .

(٣) الجامعة اليوسفية ص ٢٠٤، ٢٠٥ : عثمان الكعاك، مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، (القاهرة ١٩٨٥) ص ٤٩ .

(٤) ابن عبد الملك المراكشي، الذي وتكلمه ج ٦ ص ٣١٩ .

(٥) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢٢ .

(٦) المصدر السابق ج ٦ ص ٣١٩ .

الزهدية<sup>(١)</sup> توفي بمراكش سنة ١١٧١ هـ / ١٥٦٧ م<sup>(٢)</sup>.

ومن الأندلسيين النحويين الذين كان لهم أثر كبير على الدراسات النحوية بال المغرب في عهد الموحدين أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي الذي التحق بخدمة الموحدين منذ سنة ٥٤٠ هـ<sup>(٣)</sup> و عامر عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده المنصور، وتولى قضاء الجماعة بمدينة مراكش<sup>(٤)</sup> وصنف كتابا في النحو سماه «المشرق» ضم منه الآراء النحوية التي كان يعتقد بها والتي خالفة فيها نحاة عصره<sup>(٥)</sup> كما صنف كتابا آخر في النحو سماه تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان<sup>(٦)</sup> وقد أحدث هذا الكتاب ضجة بين النحويين الذين عملوا بالعاصمة الموحدية فتصدوا له وردوا عليه، ومن رد عليه على بن محمد بن خروف حيث صنف كتابا سماه «تنزيه أئمة النحو عما نسب إليهم من الخطأ والسلوٰه»<sup>(٧)</sup> كما صنف ابن مضاء اللخمي كتابا ثالثا سماه «الرد على النحاة»<sup>(٨)</sup> وفي كتابه هذا يعتبر صاحب نظرية جديدة حمل فيها لواء التجديد في النحو العربي<sup>(٩)</sup> فقد ذكر في مقدمة الكتاب: «قصدى في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه»<sup>(١٠)</sup> فمن هذا يظهر أن ابن مضاء صاحب دعوة جديدة في عالم النحو، وما زالت دعوته تشغل بالنحويين حتى عصرنا هذا<sup>(١١)</sup> توفي في أشبيلية سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م<sup>(١٢)</sup> ومن علماء النحو الأندلسيين الذين انتفعت مدينة مراكش بعلمهم في العهد الموحدى على بن محمد بن خروف الخضرمي

(١) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكلمة ج ٦ ص ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢٢، عبد العباس إبراهيم حمادي: المراجع السابق ص ٣١٦.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكلمة ج ١ ص ٢١٨.

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢١.

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٧.

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٨، ٢١٧.

(٧) المصدر السابق والصفحات ذاتها.

(٨) أحمد أمين: ظهر الإسلام (القاهرة ١٩٦٦) ج ٣ ص ٩٥-٩٧ فوزي مسعد عيسى: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ص ٨٧.

(٩) ابن مضاء اللخمي: الرد على النحاة تحقيق: د. محمد إبراهيم البنا (القاهرة ١٩٧٩) ص ٦٩.

(١٠) ابن مضاء اللخمي: الرد على النحاة مقدمة الكتاب ص ٥-١١.

(١١) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكلمة من ٢٢٣، ٢١٢ ابن القاضي، جذوة الاقتباس ق ١ ص ١٤٢، ١٤٣، العباس بن إبراهيم: الإعلام ج ٢ ص ٩٢-٩٩.

النحوى الذى كان إماماً فى صناعة العربية انقطع لتدريسها وصرف جل اهتمامه إلى كتاب سيبويه الذى تناوله بالشرح فى كتاب: *تنقىح الألباب فى شرح غواصون* الكتاب<sup>(١)</sup>.

ويقع فى أربعة مجلدات، وقد كافأه عليه محمد الناصر بن يعقوب المنصور الموحدى بأربعة آلاف درهم موحدة<sup>(٢)</sup> ومن الذين بروزاً فى هذا العلم فى ذلك العصر محمد بن موسى السلوى المتوفى سنة ١٨٦هـ/١٨٥ م والذى تفوق فى تدريسه لهذا العلم على كتاب سيبويه وذاع صيته بمدينة فاس<sup>(٣)</sup>.

ويتصدر ابن أجرؤ قائمة وأشهر علماء النحو فى العصر المرينى، وهو صاحب المقدمة المشهورة باسم «الأجرؤمية» وقد وصفه الذين تولوا شرح مقدمته هذه كالراعى والمسكودى وغيرهما بالإمامية فى علم النحو<sup>(٤)</sup> وكما استفاد أهل المغرب من ابن أجرؤ استفاد منه آخرون من أهل البلاد الإسلامية الأخرى كالسيوطى حيث ينص فى كتابه «بغية الوعا» على ذلك صراحة فيقول: «وهو أنا استفدت من مقدمته «يعنى مقدمة ابن أجرؤ» أنه كان على مذهب الكوفيين فى النحو لأنه عبر بالخوض مرة وهو عبارتهم وقال: الأمر مجزوم وهو ظاهر فى أنه معرب هو رأيهم»<sup>(٥)</sup>.

كما وصل إلى المغرب فى العهد المرينى ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام، استوفى فيه أحكام الإعراب مجلمة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما فى الصناعة من المتكلر فى أكثر أبوابها أطلق عليه «المغنى» فى الإعراب فوقف منه أهل المغرب على علم جم<sup>(٦)</sup>.

ومن علماء المغرب الذين تألقوا فى عصر بنى مرين فى علم النحو محمد بن على بن حياتى الغرناطى المحقق المتوفى سنة ٥٧٨١هـ/١٣٧٩ م ومحمد بن على البقال المتوفى سنة ٥٧٨١هـ/١٣٧٩ م الذى كان له تحقيق فى علم النحو. ومن هؤلاء النحاة

(١) ابن القاضى: ق ٢ ص ٤٨٢.

(٢) ابن عبد الملك المراكشى: *الذيل والتكميل* ج ٢ ص ٢٢١.

(٣) السيوطى: *بغية الوعا* فى طبقات اللغويين النحاة، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم ج ١ ص ٢٥٣.

(٤) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٢٨.

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٨.

(٦) ابن خلدون: *المقدمة* ص ٥٦.

أيضا عبد الرحمن بن صالح بن على المسكودي المتوفى سنة ١٤٠٤هـ/١٨٠٧م وهو أحد النحاة الذين ذاع صيتهم بمدينة فاس وله شرح آخر على مقدمة ابن أجرؤم، كما أن له نظاما في التصريف. والجاديرى صاحب كتاب «المذكر والمؤنث» والمتوفى سنة ١٤١٥هـ/١٨١٨م.

الأدب:

«هو علم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه ثمرته، وهو الإجادة في المنظوم والمنتور على أساليب العرب ومناجيهم<sup>(١)</sup> انصرفة الناس في صدر الإسلام إلى حفظ القرآن وجمع الحديث وشغلهم الجهاد في سبيل الله وتعلم أحكام الدين عن إجاده القول. وفي أوائل القرن الثاني للهجرة ظهرت حركة تمرد بين الشعوب الخاصة لحكمهم، قد عرفت هذه الحركة بالشعوبية».

فمن الناحية السياسية نفي الخوارج - وأكثراهم من غير العرب - اشتراط النسب القرشي، بل اشتراط العروبة فيمن يتولى منصب الخلافة، ومن الناحية الدينية نزع الفرس إلى الزندقة وأخذوا يثيرون الشبه حول الإسلام.

على أن الحركة العامة للشعوبية اتجهت إلى الناحية الأدبية واستخدمت الجدل في تجريد العرب من التفوق العقلي وإثباته لغيرهم في الأدب والشعر، وقاد حركة التعصب ضد العرب جماعة من الكتاب دانوا بالإسلام ولكنهم ظلوا متتعصبين لقوميتهم . ومن أشهرهم أبو الريحان البيروني وحمزة الأصفهاني.

بينما تعصب العرب وأشاد بتفوقهم العقلي كثير من العرب، ومن الفرس نذكر منهم الجاحظ والبلاذري وأبن قتيبة. وكانت هذه الحركة عاماً مهماً فهى ازدهار الأدب العربي.

ويعتبر الجاحظ المتوفى سنة ٣٥١هـ مؤسس مدرسة النثر العربي، وقد امتاز بسرعة اطلاعه وغزاره علمه ووضوح بيانه وقوه حجته، حتى أن ثابت بن قرة المترجم أعجب به وعده من عظماء الأمة الإسلامية، حيث قال: ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أولهم عمر بن الخطاب والثاني الحسن البصري والثالث أبو عثمان الجاحظ.

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٥٢١

وقد وصل الأدب العربي إلى قمة مجده في القرنين الرابع والخامس للهجرة، وتالق في سمائه عدد من الأدباء من أشهرهم إبراهيم بن هلال الصابي الذي تقدّم ديوان الرسائل في عهد معاذ الدولة بن بويه وابنه عز الدولة بختيار والصاحب ابن عياد وزير ركن الدولة البوبي وآبوبكر الخوارزمي، وهو ابن أخت المؤرخ المشهور محمد بن جرير الطبرى، ومنهم بديع الهمذانى وأبو منصور الثعالبى والنیسابورى والحريرى، وقد بلغت كتابة الرسائل على أيدي هؤلاء وأمثالهم من الروعة ما أثار الإعجاب وأخذ بالآباء.

وظهرت في هذه الفترة كتابة المقامات، وهي نوع من القصص ينطوى على عبرة أخلاقية ويخفى وراءه نقداً لاذعاً للنظام الذي يسود المجتمع في عصر الكاتب، وأول من كتب المقامات هو بديع الزمان الهمذانى، ثم صار على نهجه الحريرى البصري في كتابة مقاماته التي نالت شهرة فائقة في عالم الأدب.

أما في الجنان المغربي فقد شهدت عاصمة المرابطين بداية نهوض وتفتح في العلوم الأدبية ولا سيما النثر الذي لم تعرفه من قبل مدن القطر المغربي، وذلك بفضل تحول نخبة من فرسان البلاغة والفصاحة الأندلسية إلى عاصمة المرابطين الذين كانوا قبل ذلك يعملون بخدمة ملوك الطوائف الذين نفاهم يوسف بن تاشفين عن مراكز السلطة والنفوذ فانقطع إليه بعد ذلك من بلاد الأندلس من أهل كل علم فحوله، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لا يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار<sup>(١)</sup> وذلك لأن المرابطين بعد توسيع سلطانهم وجدوا أنفسهم أمام متطلبات جديدة اقتضتها حاجة دواوين ودواوين دولتهم التي كانت تفتقر إلى الخبرة والتجربة في الشئون السياسية والعسكرية والإدارية والكتابية، فعمدوا إلى توفيرها من حواضر بلاد الأندلس فاستدعوا مجموعة من الأدباء والكتاب الذين سهروا على تنظيم شئون دولتهم<sup>(٢)</sup> ومن أشهر أدباء الأندلس وكتابها الذين خدموا في بلاط مراكش المرابطي، عبد الرحمن بن أسباط الذي كان من أوائل الكتاب الأندلسية الذين عملوا في البلط المرابطي، وذلك قبل عبور يوسف بن تاشفين إلى بلاد الأندلس، وقد توفي فجأة في

مدينة سبتة سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م<sup>(٣)</sup>.

(١) المرکشی: المعجب من ١٦٣، ١٦٤.

(٢) عبد العباس إبراهيم حمادى: الحركة الفكرية من ٢٢٤.

(٣) د. محمود على مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد السابع والثامن ١٩٥٩، ١٩٦٠، من ١١٥.

وابن القصيرة، ومحمد بن سليمان : الكلاعي الاشبيلي، يكنى أبا بكر وهو الذى ذكر عنه أنه كان أحد رجال الفصاحة والحانز على قصب السبق فى البلاغة، كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل الألفاظ وصحىح المعانى<sup>(١)</sup> وقد استدعاه لكتابه بالعاصمة المرابطية يوسف ابن تاشفين بعد وفاة عبد الرحمن بن أسباط وبقى يشغل هذا المنصب حتى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين إلى أن توفي بمراكش سنة ٥٥٠٨هـ/١١١٤م<sup>(٢)</sup> ويبدو أن الكاتب المذكور كان من أبرز كتاب عصره لاتفاق كتب الترجم على أنه رأس أهل البلاغة فى وقته إضافة إلى إمامه بعلوم كثيرة أخرى<sup>(٣)</sup>.

وهناك طائفة كبيرة من الكتاب الفحول المجيدين من جمعوا بين النظم والنشر وعملوا فى بلاط المرابطى كابن الجد الفهرى المعروف بالأحدب<sup>(٤)</sup> الذى استدعاه على بن يوسف بن تاشفين إلى مدينة مراكش وألحقه بديوان الكتابة إلى أن توفي سنة ٥٥١٥هـ/١١٢١م<sup>(٥)</sup> وابن عبدون وهو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون من الكتاب الأندلاد الذين خدموا الدولة المرابطية والذى تربى فى بلاط بنى الأفطس<sup>(٦)</sup>.

وابن أبي الخصال محمد بن مسعود بن طيب بن فرج الذى وصفه الفتح ابن خاقان بأنه حامل النبامة<sup>(٧)</sup>.

وقد تخرج على يد هؤلاء الكتاب الأندلسيين نخبة من الكتاب من أبناء المغرب من تصدوا لهذا الفن وبلغوا فيه شأوا بعيدا وخدموا فى بلاط الدولتين المرابطية والمحمدية كأحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاوى وأخيه أبي عقيل بن أبي جعفر بن عطية القضاوى .

(١) الفتح بن خاقان : قلائد العقبان من ١٠٧-١١٠، المجلة ٥٦٩/٢، العباس بن إبراهيم . الإعلام ج ٤ ص ٤٩.

(٢) ابن بسام : الذخيرة فى محسان أهل الجزيرة تحقيق د. إحسان عباس (بيوت ١٩٧٨)

(٣) ابن بشكوال الصلة ترجمة رقم ١٢٦٧ ص ٥٧٤

(٤) الفتح بن خاقان ص ١١٣، ابن بسام ق ٢ ج ١ ص ٢٨٥-٣٢٢ ابن بشكوال الصلة ترجمة رقم ١٢٦٧ ص ٥٧٤

(٥) الفتح بن خاقان ص ١٥١-١٦٠ ابن بسام ق ٢ ص ٦٦٨ المراكشى : المعجب ص ٧٤، ٧٥.

(٦) الفتح بن خاقان، ص ١٨٨-١٨٩، ابن الأبار : المعجم ١٤٩-١٥٤ ترجمة رقم ١٢٥

(٧) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٦٣-٢٧١

أما حركة النثر في العهد الموحدى فقد كانت امتداداً لحركة النثر في عهد المرابطين مع ميلها إلى شيء من التكليف الذي يمكن في الإسهاب وذكر الألقاب السلطانية ولا سيما في الرسائل الديوانية<sup>(١)</sup> مع الاحتفاظ ببروعة الأسلوب والمعنى، وقد واصلت الحركة المذكورة تقدمها وازدهارها تبعاً لازدهار الحركة الفكرية والعلمية.

ومن الأدباء والكتاب الأندلسيين الذين استكثبهم الدولة الموحدية أيام عبد المؤمن بن على وابنه يوسف، عبد الملك بن عياش بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدي القرطبي، كان مع تقدمه في الآداب وبراعته في الكتابة شاعراً ومن أبرز الناس خطأ وأحسنهم ورقة، نال عند الموحدين منزلة عالية، وتوفي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م أما أسلوبه في تحرير الرسائل فلا يختلف عن أسلوب سلفه الكاتب ابن عطية. وقد كتب للموحدين كثير من الأدباء الأندلسيين الذين يطول العقام بذكرهم<sup>(٢)</sup>.

وقد شهد عصر بنى مرين حركة أدبية واسعة النشاط، ساعد على ازدهارها البيت المريني الحاكم، حيث شجع سلاطين بنى مرين وأمراؤهم الأدباء والشعراء مكانة مرموقة في بلاد بنى مرين، وتولوا الوظائف الكبرى، فهناك مثلاً بيت بنى أبي مدين العثماني الذي انحصرت فيه كتابة الإنشاء وخطبة العلامة مدة طويلة منذ أيام السلطان أبو يوسف يعقوب المريني وأبنائه من بعده<sup>(٣)</sup>. وهناك أيضاً الكاتب أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي، الذي ارتفت صناعة الإنشاء والترسل على يديه، ونذكر أيضاً الكاتب العالقى أبا القاسم عبد الله بن يوسف ابن رضوان التجارى الحضرمي . الذي شغل منصب الكتابة وانتمن على خطبة العلامة، وكانت له مراسلات عديدة مع صديقه الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب، كما توجد له نسخة خطية بالخزانة العامة بالرباط لكتابه «الشهب اللامعة في السياسة النافعة» وهو كتاب في السياسة ونظم الحكم<sup>(٤)</sup>.

(١) د. محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة من ١٢١٠-١٢٢١.

(٢) ابن عبد الملك المراكشى: الذيل والتكميل ق ج ٥ من ٢٦-٣٠.

(٣) المراكشى: المعجب من ٢٤٤-٣١٢، ٣١١-٢٦٣.

(٤) ابن الأحمر: روضة النسرين من ١٨-٢٩.

وهناك الكاتب الأديب عبد الله بن جزى الذى كان من أهم أعماله الأدبية التى أثارت إعجاب معاصريه من أهل المشرق والمغرب، صياغته لكتاب «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» الذى وضع مسودته صديقه ابن بطوطة<sup>(١)</sup>. كما عرف عصر بنى مرين من فنون الكتابة التثريية أيضاً ما يعرف بالمناظرات الأدبية<sup>(٢)</sup>.

وإذا كانت حركة النشر عامة تميل إلى شيء من التكلف الذى يمكن فى الإسهاب وذكر الألقاب السلطانية، لا سيما فى الرسائل الديوانية إلا أن النثر فى عصر بنى مرين كان يمتاز بروعة الأسلوب والمعنى .

### الشعر:

كان الشعر فى الجاهلية يدعو إلى الإباحية ويشير الأحقاد بين القبائل فلما جاء الإسلام وجده وجهة صالحة وجعله نوعاً من الجهاد فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية، ومن أشهر الشعراء الذين نشأوا فى الجاهلية واعتنقوا الإسلام حسان بن ثابت وعبد الله بن مالك وكتب بن زهير، الذين ردوا على هجاء شعراء المشركين للإسلام ونبهوا وحثوا من قيمة الشرك، ودعوا الناس إلى اتباع دين الحق والإيمان بما جاء به سيد الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي العصر الأموى ضعف الوازع الدينى فى نفوس طائفة من الشعراء، فمنهم من غلب على شعرهم الغزل الفاجر من أمثال عمر بن أبي ربيعة وكثير عزة وجميل بثينة ومنهم من غلب على شعرهم الهجاء المقدع والتعصب الممقوت والمدح المغرق والتکسب الوضيع أمثال الفرزدق وجرير والأخطل الشاعر المسيحي الذى كان صاحب حظوة فى بلاط عبد الملك بن مروان، حتى أنه كان يدخل عليه من غير استئذان مرتدياً الملابس الحريرية الفاخرة وفي عنقه سلسلة ذهبية يتدلل منها صليب من الذهب.

وقد ترتب على ظهور التحذب السياسى فى هذا العصر، ظهور نوع من الشعر السياسى، فقد كان لكل حزب شعراء يويندون مبادئه ويدعون إليها ويدفعون ما يوجه

(١) المقرى: *فتح الطيب* ج ١ ص ١٦٦ . د. أحمد مختار العبارى: دراسات فى تاريخ المغرب ص ٢١٨ .

(٢) المقرى: *المصدر السابق* ج ٢ ص ٥٥-٧١ .

إليها من نقد نذكر منهم عمران بن حطان وقطري ابن الفجاءة من شعراء الخوارج، والكميت زيد الأسدى، والسيد الحميرى من شعراء الشيعة وعبد بن قيس الرقيات شاعر الزيبريين.

وفي العصر العباسى تطور الشعر تبعاً لتطور حياة المجتمع ووُجِدَت أغراض لم تكن موجودة من قبل، وانتهت الشعراة مناهج جديدة في الموضوعات والأساليب والمعانى، وأمتاز الشعر في هذا العهد برقعة العبارة وجودة الوصف والتعمق في النقد والتفنن في اختيار الأنفاظ.

ومن أشهر شعراء هذا العصر أبو نواس شاعر الرشيد وأبو حامد الأنطاكي شاعر الفاطميين.

وفي الجنان المغربي شهدت مراكش على عهد المرابطين والموحدين كثيراً من الشعراء الذين تزايد عددهم في العهد الموحدى حتى غصت بهم عاصمة الموحدين.

وقد شغل الأندلسيون الشعراء ببلاد المرابطين مراكز حساسة منذ عهد يوسف بن تاشفين أمثال: ابن القصيرة<sup>(١)</sup> وابن الجد<sup>(٢)</sup> وابن عيدون<sup>(٣)</sup> وابن القبطنة<sup>(٤)</sup> وابن أبي الخصال<sup>(٥)</sup> وغيرهم ومن الأمراء المرابطين الذين شجعوا الشعر والشعراء الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين مما جعل الفتح بن خاقان يصنف كتابه الموسوم بـ«قلائد العقبان»<sup>(٦)</sup>.

ومن الشعراء الأندلسيين البارزين في بلاد الموحدى أبو يكرب بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الأندلسي المرسي، والذي من شعره يصف خيل المنصور الموحدى<sup>(٧)</sup>.

(١) الفتح بن خاقان: قلائد العقبان ص ١٠٧-١٠٧.

(٢) المصدر السابق ص ١١٣-١١٩، ابن بسام: الذخيرة ق ١٢/٢٨٥-٢٢٢.

(٣) ابن خاقان: ص ١٥١-١٥٤، ابن بسام: الذخيرة ق ١٢/٧٧٧-٦٦٨ المقرى ج نفح الطيب ج ٣ ص ٤٥٤-٢٩٣.

(٤) ابن خاقان ص ١٦١، ابن بسام: الذخيرة ق ١٢/٧٥٣-٧٧٣ المقرى ج نفح الطيب ج ٣ ص ٤٥٤-٢٩٣.

(٥) ابن خاقان ص ١٨٣-١٨٨، ابن بسام: الذخيرة ق ١٢/٧٨٤-٨٠٩ المقرى ج نفح الطيب ج ٣ ص ٤٥٤-٢٩٣.

(٦) ابن خاقان ص ٣.

(٧) المقرى: نفح الطيب ج ٣ ص ٤٣٨-٢٣٩.

له حلبة الخيل العتاق كأنها  
نشاوى تهافت تطلب العزف والقصفا  
عرانس أغنتها الحجول عن الحلى  
فلم تبع خلخالا ولا التمسك وقفا

ومن أشهر شعراء القطر المغربي من المغاربة الذين عملوا في البلاط الموحدى  
أبو العباس أحمد الجراوى<sup>(١)</sup> أديب المغرب على الإطلاق في زمانه<sup>(٢)</sup> الذي ابتدأ دراسته  
في مدينة مراكش وأتمها في الأندلس<sup>(٣)</sup>.

ولم تقل حركة الشعر في عصر بنى مرين عن حركة النثر فيه، حيث واصلت  
حركة الشعر تقدمها وازدهارها تبعا لازدهار الحياة الثقافية عامة، فاحتشد في ذلك  
العصر عدد كبير من الشعراء، نذكر منهم محمد بن عبدون الذي أطلق عليه شاعر أهل  
العدوة<sup>(٤)</sup>.

وأحمد بن محمد بن شعيب الكرياني الذي اشتهر بمراثيه في جاريته صبع  
الرومية<sup>(٥)</sup> ومالك ابن المرحل المتوفى سنة ١٢٩٩-١٦٩٩ م، والذي كانت له أنظمة  
بديعة، وتأليف حسنة، منها التوسيعات النبوية على حروف المعجم، وقد عرف عنه أنه  
كان شاعرا رقيقا مطبوعا نافذ الذهن، رشيق العبارة حلو الدعابة<sup>(٦)</sup>.

ومن الشعراء من امتاز بقريحة تتجاوز مع الأحداث والمناسبات، فهناك مثلا  
لسان الدين بن الخطيب صاحب النونية المشهورة، وهي القصيدة الطويلة التي تزيد  
على المائة بيت والتي مدح فيها السلطان أبا سالم المريني حين فتح تلمسان والتي  
يقول في مطلعها<sup>(٧)</sup>.

(١) عبد العباس إبراهيم حمادى: الحركة الفكرية ص ٣٢٩.

(٢) ابن سعيد: المقرب في حل المغرب من ٩٨-١٠٢، ابن عبد الملك المراكشي النذير: ق ١ ج ١ ص ٩٣، ٩٤.

(٣) محمد الفاسي: الشاعر الكبير أبو العباس الجراوى، مجلة رسالة المغرب العدد الخامس ١٩٤٣، ص ١١، ١٢، العدد السابع ١٩٤٣، ص ١١، ١٣.

(٤) ابن القاضى: جذوة الاقتباس ص ١٤٦.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة في أعيار غرناطة ج ١ ص ٢٧٢.

(٦) الكتانى: سلوة الأنفاس ج ٣ ص ٩٩.

(٧) المقرى: نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦-٣٧.

## أطاع لسانى فى مدحهك إحسانى

### وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كان من بين سلاطين بنى مرين وأمرائهم شعراء موهوبون ينظمون كثيرا من الشعر، وإن كان الغالب على قصائدهم القصر، ومن هؤلاء السلاطين أبو العباس أحمد المرينى الذى اعتلى عرش المغرب سنة ١٣٨٧هـ/١٧٨٩ م ومن شعره<sup>(١)</sup> .

### يا عازلى دع عذارى العاذل

### وأخلع عذارك فى الحبيب الواصل

### وإذا ذكرت عشية بمحاسن

### فاذكر عشائىانا بدار العاشر

ولقد كان لسقوط معظم الإمارات الإسلامية فى الأندلس، وقع أليم فى نفوس المغاربة..ملوكهم، وعلمائهم، وأدبائهم، فلا غرابة إذا وجدنا شعراء المغرب يتناولون فى شعرهم هذه القضية، ويعبنون الناس من أجل الدفاع عن الأندلس .. فهذا مالك بن المرحل، ينظم قصيدة، يدعى فيها المغاربة إلى مساعدة إخوانهم الأندلسيين، وهى قصيدة مؤثرة تحكى قصة الأمة الجريحة ومساواتها فى معالم دينها، قال فى مطلعها<sup>(٢)</sup> .

فابنكم إن تسلموه يسلم  
استنصر الدين بكم فأقدموا  
لا تسلمو الإسلام بإخواننا  
 وأنسروا النصرة وألجموا

كما كان للمعارك الحربية التى خاضها الجيش المرينى فى الساحة الأندلسية  
صداء فى الشعر فقد ذكر ابن الخطيب عدة أبيات لكاتب دولة بنى مرين أبى القاسم بن  
رضوان النجاري المالقى فى مدح الأسطول المرينى<sup>(٣)</sup> :

(١) الكتانى : سورة الأنفاس ج ٣ ص ١٦٦.

(٢) ابن أبى زرع : الذخيرة السننية ص ٩٨.

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ج ٣ ص ٤٤٧ .د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس من ٣٨٦

ولما استقامت بالزقاق أساطيل له  
واستقامت للسعود محاملا  
رأها عدو الله وانقض جمعه  
وأبصر أمواج البحر أساطيلا  
ومن جندكم هبت عليه عواصف  
تدمراً ذناماً الصلب الجنادلا  
الموشحات والأزجال :

كان من أهم مظاهر انتشار ازدواجية اللغة بين الأنجلوسيّين أو اللاتينيّين العرب والرومانسيّة<sup>(١)</sup> Romancو ابتكار فن شعبي أنجلوسي جديد هو فن الموشحات والأزجال، وهو طراز شعري مختلط، متزج فيه مؤثرات شرقية وغربية. ويقال أن مبدع فن الموشحة، شاعر ضرير من بلدة قبرة Cabra على بعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من قرطبة، واسمه مقدم بن معافي القبرى، وكان من شعراء الأمير الأموي عبد الله بن محمد في أواخر القرن الثالث الهجري (٩٤م)<sup>(٢)</sup>.

ويعتبر هذا الفن الجديد ثورة في الشعر العربي، وحركة من حركات التجديد التي حررته من كثير من قواعد العروض الصارمة إذ يلاحظ في الموشحة أنها لم تلتزم نظام القوافي الموحدة كالقصيدة الشعرية وإنما اشتغلت على قواف متنوعة. كذلك لم تكن وحدتها البيت الشعري وإنما المقطوعة الشعرية التي تتكون من غصن وقل، فكانت الموشحة عبارة من أغصان وأقفال، ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة. ومن شروط هذه الخروج أن تكون إما باللغة الأسبانية، أو باللغة العامية، الدارجة كما يشترط فيها أن تكون حادة محرقة، حارة منضجة، على حد القول ابن سناء الملك<sup>(١)</sup>

(١) الرومانسية لهجة عالمية مشتقة من اللاتينية ومنها تكونت اللغة الأسبانية ويسمى بها العرب الأعجمية أو العجمية أو اللاتينية. (د. أحمد مختار العبادى. الإسلام فى أرض الأنجلوس. مجلة عالم الفكر. المجلد العاشر انعدد الثاني - بوليو - أنططس - سبتمبر ١٩٧٩ من ٣٥٠).

(٢) د. أحمد مختار العيادي: الإسلام في الأندلس ص ٣٥٤

(٣) ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل المشحات. تحقيق د. جودت الركابي (دمشق ١٩٤٩) ص ٣٩.

كذلك جرت العادة أن تكون الخروجة على لسان فتاة تتغزل في الفتى ، على عكس القصيدة العربية التي تجد فيها الرجل هو المحب بينما المرأة قاسية ومتكبرة معرضة، فكان الوشاح يأخذ هذه العبارة الأسبانية أو العامية لتكون مركز الخروجة ويسمي القفل الأخير منها بالخروجة، ثم يبني عليها بقية المنشحة، فكان المنشحة تبدأ من آخرها، على عكس القصيدة الشعرية التي تهتم بمطلعها أى بالبيت الأول منها وفيما يلى مثال لهذا الفصن الأخير من المنشحة بما فيه الخروجة :

ليل طويل  
ولا معين

يا قلب بعض الناس  
لا تلين  
أنا قول قوقو  
ليس بالله تذوقو

الخروجة هنا أسبانية قوقو Cucó و معناها الماكر. فالوشاح سمع من محبوبته هذه العبارة : أنا أقول أنت مكار ولن تذوق طعم قبلي، فاهتزت لها نفسه وجعلها مركزاً أو خروجة لمنشحته<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن هذه الخروجات العامية أو الأعجمية، الدليل الواضح على أنها نمط مختلف عن الشعر العربي التقليدي. ومهما قيل أن فن المنشحة بدأ من قديم فالشيء الثابت أن ذيوع هذا الفن بدأ في الأندلس وانتشر من هناك منذ القرن الرابع الهجري<sup>(٢)</sup>. وما يقال عن المنشحات يقال أيضاً عن فن الأزجال الذي انتشر بعد ذلك في الأندلس في القرن السادس الهجري (١٢) م) ويلاحظ أن المنشحة والزجل فن شعرى واحد مع فارق أساسى هو أن المنشحة عربية صميمه ما عدا الجزء الأخير منها وهو الخروجة، فباللغة الأسبانية أو العامية الأندلسية، أما لغة الأزجال كلها، فهي اللغة العامية الدارجة الجارية على ألسنة عامة الناس في البيوت والأسواق، وتتداخلها كلمات

(١) د. أحمد مختار العبادى : الإسلام في أرض الأندلس من ٣٥٤

(٢) ليقى بروفنسال : محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها. ترجمة : محمد عبد الهادى شعيرة من ٢٤-

وعبارات من عجمية أهل الأندلس، وممثل هذا اللون من الشعر الشعبي أى الأزجال هو أبو بكر بن محمد بن ق Zimmerman القرطبي الذى عاش فى القرن السادس الهجرى على عهد المرابطين وتوفى سنة ٥٥٤هـ/١١٦٠م وله ديوان أزجال كان يتغنى بها فى الأسواق والحدائق بمساعدة بعض الآلات الموسيقية وجوقة من المنشدين لتردد الخرجة أو المركز عقب كل فقرة ينشدها. وتتجذر الإشارة هنا إلى أن الخرجة ليست شرطاً من شروط الزجل كما هو الأمر فى المنشادات الأندلسية، غير أن عدداً كبيراً من الأزجال الق Zimmermanية لها خرجات توافرت وفيها كل شروط خرجة المنشادة<sup>(١)</sup>.

وطبيعى أن يسير أبناء المغرب من الشعراء - أو بعضهم على الأقل - فى نفس التيار الجديد لفن المنشادات والأزجال، تأثراً بتيار الشعر الأندلسى اعتباراً من الوحدة السياسية بين المغرب والأندلس فى عهد المرابطين حتى إذا بدأ عهد الموحدين كان من بين أبناء المغرب من اشتهر بالتوشيح والزجل، مثل الشاعر ابن غرلة الذى كان معاصرال الخليفة عبد المؤمن ومحباً لابنته رميلة التى قال فيها منشدته التى مذهبها<sup>(٢)</sup>:

من يصيد يدا فليكن كما صيدى

صيدى الغزال فى مراتع الأسد

كما أن رميلة ابنة عبد المؤمن كانت بدورها شاعرة فصيحة اللسان تنظم

الأزجال الرائعة ومنها هذا الزجل الذى مطلعه<sup>(٣)</sup>:

مشى السهر حيران حتى رأى إنسان عينى وقف

وفى خرجته تقول واصفة خالا بخد حبيبها<sup>(٤)</sup>:

أسيمر جنان فى شقة من نعمان قد التحف

(١) د. أحمد مختار العبادى: الإسلام فى أرض الأندلس من ٣٥٤

(٢) د. عباس الجارى: الأمير الشاعر أبوالربيع سليمان المودى. (الدار البيضاء ١٩٧٤) ص ١١١.

(٣) د. عباس الجارى: منشادات مغربية (الدار البيضاء ١٩٧٣) ص ١٤٧.

(٤) د. عباس الجارى: الأمير الشاعر ص ١١١.

ومن شعراء المغرب أيضاً الذين لمع اسمهم في سماء التوشيح في العصر الموحدي الشاعر أبو حفص عمر السلمي الأغماتي المتوفى سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م والذى كانت له موشحات يغنى بها في الأقطار تذكر منها<sup>(١)</sup>:

غانفه منها البانه	حسانة رخيمه
واشوقى لحسانه	والنقى الرجراج

---

(١) ابن سعيد: الفصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة. تحقيق إبراهيم الإبياري (القاهرة ١٩٧٧م) ص ٩٣.

## تفسير حركة التعرّب

اتفق كل من كتبوا في قضية التعرّب على أن أهم أسباب التعرّب كانت: انتشار الإسلام، وهجرة القبائل العربية إلى البلدان المفتوحة وتعرّب الدواوين، وتفوق الحضارة الإسلامية ..

وإذا كان انتشار اللغة العربية يعني تسرب الكثير من الألفاظ والمفردات العربية إلى اللغات الأخرى الأعجمية خارج الجزيرة العربية.

فإن التعرّب يعني تحول لسان الأهالي خارج الجزيرة العربية إلى اللسان العربي، وهجر لغاتهم المحلية. وقد حدث هذا أيضاً بعد الفتوحات الإسلامية في المنطقة المحصورة بين الخليج والمحيط والمعروفة حالياً بمنطقة الدول العربية. فقد هجر أهالي تلك البلدان لغاتهم الأعجمية وحلت اللغة العربية محل الآرامية والسريانية في الشام والعراق، والقبطية في مصر، والبربرية في بلدان المغرب ..

وإذا كانت أسباب انتشار اللغة العربية تمثل عاماً مهماً من عوامل التعرّب فإن ذلك لا يعني أن نجمد عند هذه الأسباب وكفى، بل يجب علينا أن نبحث عن العوامل التي سمحت لأسباب انتشار اللغة العربية أن تأخذ مسيرتها نحو التعرّب في مناطق معينة، ولم تسمح بذلك في مناطق أخرى ..

وفي هذه الصفحات سنحاول التعرف على العوامل التي عبر بها انتشار اللغة العربية الحواجز إلى التعرّب في منطقة دول العالم العربي، والعوامل التي منعت انتشار اللغة العربية من أن تأخذ مسيرتها نحو التعرّب في بقية المناطق التي فتحها المسلمون. وذلك في ضوء الدراسات الحديثة للغات، والتي كشفت أخيراً عن جانب على قدر عظيم من الأهمية أطلق عليه «القرابة اللغوية».

و قبل أن نتعرض لتلك الدراسة اللغوية الحديثة سنحاول بداية مناقشة العوامل التي اتفق عليها الكتاب أنها أهم أسباب التعرير لنضعها في موضعها الصحيح، والله سبحانه و تعالى ولي التوفيق .

#### أولاً - انتشار الإسلام :

كان من أهم الأسباب التي مكنت الإسلام من الانتشار، تلك السياسة العامة التي اتبعتها الدولة الإسلامية في الدول المفتوحة، هذه السياسة كانت تتألف من أركان كثيرة، أهمها معاملة أهل الذمة، لأن هذه المعاملة كانت من أهم الأسباب التي هيأت الذميين نفسياً لتقبل الدعوة إلى الإسلام والإقبال على الحضارة الإسلامية. والمعروف أن سياسة الدولة الإسلامية كانت تنبع من المعاهدات وعقود الصلح التي عقدت مع المدن المفتوحة<sup>(١)</sup> . هذه المعاهدات وعقود الصلح التي عقدت مع المدن المفتوحة<sup>(٢)</sup> . كانت كلها تتجه اتجاهها واحداً تقريراً وتنبع من مصدر واحد. فقد تضمنت جميعها منع أهل الذمة حرياتهم الدينية حتى أن المجوس في إيران عدواً من أهل الذمة، فكانوا على قدم المساواة مع الديانات الأخرى<sup>(٣)</sup> .

و فوق هذا نالوا حريات المدنية وتکفل المسلمين بحمايتهم وتوفير أسباب الطمأنينة لهم، وذلك مقابل دفع الجزية التي كانت تتراوح كثرة وقلة حسب الغنى والفقير، وكانت تعفى منها طبقات كبيرة من الناس، ونحن إذ ما تدبرنا قيمة الجزية أدركنا أنها ليست بالثقل الذي يغري إنساناً على التخلّي عن دينه وعقيدة آباه واجداده تهرباً منها. ذلك أن أقصى ما كان يؤخذ من الرجل الثرى لم يتجاوز ثمانية وأربعين درهماً في العام، أى أقل من دينارين<sup>(٤)</sup> . ولا أدل على أن المسلمين لم يتخذوا الجزية أداة للضغط على أهل الكتاب من القصة الشهيرة التي رويت عن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز «٩٩-١٠٢هـ/٧٢٠-٧١٧م»، عندما أرسل إليه على مصر

(١) دكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي. دار الفكر العربي من ٢٢.

(٢) البلاذري : كتاب فتوح البلدان (القاهرة ١٩٠٩) من ٨٧.

(٣) الدكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة من ٢٢.

(٤) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعرير. مقال بمجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام بالكويت ١٩٨٣ من ٤١.

يشكوله تناقض خراج البلاد بسبب تزايد الدخول في الإسلام ويقترح عليه عدم اعفاء من يدخلون الإسلام من الجزية. ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز رد عليه قائلاً:-

«إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعث جابياً»<sup>(١)</sup>

ومهما يكن من أمر فإن انتشار الإسلام بتلك السرعة والسهولة اللتين تم بهما جاء ظاهرة فريدة من نوعها في التاريخ، ذلك لم تكن تتحقق على وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مائة سنة حتى كان الإسلام قد ثبت ركائزه في بلاد متعددة من المحيط الأطلسي وشبه جزيرة أيبيريا غرباً حتى بلاد الهند وحدود الصين شرقاً.

وهكذا يرى كل من كتبوا في قضية التعرّيف أنه كان لابد أن يأتي انتشار الإسلام مصحوباً بالتعريب، لأن معتقديه كانوا مطالبين بأداء فروضه، ومن الواضح أن النطق بالشهادتين يتطلب نطق بعض الألفاظ العربية وفهم معناها، فضلاً عن أن أداء شعائر الصلاة يتطلب معرفة فاتحة الكتاب وحفظ بعض قصار السور من القرآن الكريم، ثم إن الإسلام يتطلب من المسلم الإنصات للقرآن الكريم إذا قرئه على مسمع منه وترتيله، وتذكرة ما فيه من آيات بينات، وهذه كلها أمور ترتبط بمعرفة اللغة العربية وفهمها. وطبعاً أن يكون من المتذر على اللغات المحلية أن تستمر في صمودها، فأخذت تتقلص تدريجياً، وتتكمّل دائرة استعمالها لتفسح المجال أمام العربية وفهمها. ولهذا اعتبر كل من تعرض لقضية التعرّيف أن انتشار الإسلام كان على رأس أسباب التعرّيف .

ولكن هذا القول مردود عليه بأن هناك حالات ترتبط ببلاد فتحها المسلمون وحكمها بضعة قرون ومع ذلك لم تعرب أي منهم، ونعني بهذه البلاد فارس وأسبانيا والتركستان.

والغريب أننا نتصفح تاريخ الأدب العربي فنجد خيراً من أثرى أدب الكتابة وفنهما كانوا من أصل فارسي، وعلى رأسهم عبد الحميد الكاتب وابن قتيبة وابن المقفع والفضل بن سهل ابن هارون. بلغ، في حين برع في الشعر العربي أمثال بشار بن برد

(١) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير (طبعة ليدن) ص ١٨٢.

(٢) دكتور سعيد عاشر: الإسلام والتعرّيف من ٢٤٢، ٢٤٨.

من خلدوا أسماءهم على صفحة الشعر العربي . يضاف إلى هؤلاء جميعا علماء أذذان أمثال الطبرى وابن سينا والخوارزمى . ومع ذلك كله اعتقد الفرس الإسلام ، ولكنهم احتفظوا بلغتهم ، وإن جاء هذا الاحتفاظ جزئيا غير كامل ، حيث إن اللغة الفارسية غدت تكتب وتدون بأحرف عربية من ناحية ، كما أن كثيرا من الألفاظ العربية ، وخاصة تلك المرتبطة بالإسلام وعلوم الدين دخلت الفارسية من ناحية أخرى<sup>(١)</sup> .

أما الحالة الثانية وهى أسبانيا فهى تمثل - على حد تعبير الدكتور سعيد عاشر - حالة من الحالات الغريبة فى التاريخ الإسلامى التى استرعت أنظار الباحثين ، واستأثرت بجهود المفكرين . وذلك أن الحضارة العربية الإسلامية كانت لها ركيزة أساسية فى بلاد الأندلس تجلت فى كافة الميادين سواء الدينية والفكرية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية وغيرها ، حتى لقد غدت مدن الأندلس - مثل قرطبة وطليطلة وأشبونة وغرناطة - مراكز إشعاع حضارى قصدها طلاب العلم والمعرفة من شتى أنحاء الغرب ، لينهلوا من مناهلها ، ومع ذلك فإن الحقيقة التى تركها المسلمون لا تتناسب مع أمجاد تلك الحضارة وعظمتها . ومهما قيل فى هذا من اعتبارات فإنه لا يفسر لنا الأسباب التى وقفت حائلأ أمام تعریب هذا الجزء من العالم الإسلامي فى العصور الوسطى ، مهما غدت مئات من الكلمات العربية تمثل جزءا أساسيا فى قاموس اللغتين الأسبانية والبرتغالية .

ولما دخل العرب مصر سرعان ما انتشرت لغتهم بين المصريين حتى أصبحت لغة التخاطب بينهم ، وقد استهل كثير من المصريين كتابة العربية بحروفهم القبطية ، وقد بقى لنا عدد من الوثائق العربية التى كتبواها بالحروف القبطية<sup>(٢)</sup> . ثم تأتى بعد ذلك المفاجأة وهى تعریب مصر على الرغم من عدم انتشار الإسلام بين كل أبناء مصر . وقد اتضحت هذه الظاهرة فى القرن الرابع الهجرى عندما تجد بعض المؤرخين المسيحيين يدونون كتاباتهم التاريخية - وببعضها فى تاريخ الكنيسة نفسه - باللغة العربية ومن هؤلاء البطرق الملكانى سعيد بن بطريق - المعروف باسم «أوتيخا»

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥١ .

(٢) دكتور محمد حمدى البكرى : وثائق عربية بأبجدية غير عربية . مقال بمجلة كلية الآداب . جامعة القاهرة . المجلد السابع عشر - الجزء الأول . مايو سنة ١٩٥٥ من ٢٨ .

المتوفى سنة «٣٢٨هـ-٩٤٠م» قد دون بالعربية كتاباً تاريخياً كبيراً في جزءين أسماه «كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق»<sup>(١)</sup> وكذلك ساويرس بن المقفع - أسقف الأشمونيين - المتوفى في أواخر القرن الرابع للهجرة «العاشر للميلاد» والذي دون كتاب «سير الآباء البطاركة» وقال في مقدمته ما نصه «فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوان المسيحيين، وسألتهم نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي، الذي هو معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر، لعدم معرفة اللسان القبطي واليوناني»<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا لا بد لنا من وقفة لنتساءل: لقد كان للمصريين لغتهم الخاصة بهم منذ قديم الأزل، ورغم أن الاحتلال الإغريقي ومن بعده الاحتلال الروماني طال أمدهما في مصر حتى قارب الألف عام، إلا أن المصريين لم يتحولوا عن لغتهم رغم طول هذا الألفاً، مما هو السبب الذي أدى إلى أن يتنازل المصريون عن لغتهم بعد الفتح الإسلامي، على الرغم من عدم انتشار الإسلام بين كل أبناء مصر؟

ومثال آخر من التركسان. فقد كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموي التي مكنت السيادة الإسلامية من بلاد ما وراء النهر. وأضافوا إلى هذه الجهود جهوداً أخرى في ميدان الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة العربية في البلاد. وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الأول، فقد كان قتيبة بن مسلم يبني المساجد في بخارى وسمرقند، ولم تكن المساجد دوراً للعبادة فحسب، إنما كانت مدارس الثقافة العربية الإسلامية. وأتبع ذلك بتوطين القبائل العربية في المدن الكبرى، وتتابعت هذه الجهود في عهد عمر بن عبد العزيز الذي اسقط الجزية عن أسلم وأمر عماله بالدعوة إلى الإسلام، واستمرت هذه الجهود بعد عمر وخاصة في عهد الوالي أشرس بن عبد الله السلمي «١٠٨-٧٢٩هـ/١١٠-٧٢٧م» إذ كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية في

(١) سيدة إسماعيل كاشف: مصر في قبر الإسلام من ٢٣١ الطبعة الثانية ١٩٧٠م دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب ص ٢٥٨.

(٢) ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطاركة (المقدمة).

البلاد<sup>(١)</sup>. ومع كل ذلك فإن اللغة العربية لم تستطع أن تنتصر على اللغة التركية رغم إسلام الأتراك وحماسهم الشديد لها، وكل ما عمله الأتراك أنهم انتحلوا الخط العربي بحيث لا تجد تركيا على شيء من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغة القرآن في سهولة<sup>(٢)</sup> وهنا لابد أن نأتى إلى تلك النتيجة المنطقية، وهي أن انتشار الإسلام قد أدى إلى انتشار اللغة العربية، ولكنه لم يزد بالضرورة إلى التعرّيب.

### ثانياً - هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة

يرى كل من كتبوا في قضية التعرّيب أنه:

ساعد على تعرّيب البلاد المفتوحة أن العرب الذين نزحوا إلى الأرض الجديدة استقرّ معظمهم فيها، ولم يستمرّوا طويلاً في حالة عزلة، وإنما أخذوا يندمجون تدريجياً مع الأهالي الأصليين. ولعلّ أول موجة نذكرها هي التي جاءت إلى مصر مع عمرو بن العاص، وعدها يتراوح بين ٤٠٠٠، ٣٥٠٠ مقاتل، ثم تبعتها امدادات عمر بن الخطاب وعددها أربعة آلاف، ثم أربعة آلاف أخرى، ثم بعض المتطوعين، فكان مجموعهم عند الفتح زهاء اثنى عشر ألفاً وثلاثة، هم الذين بعث بهم عمر بن الخطاب إلى مصر وقيل غير ذلك<sup>(٣)</sup>.

وفي سنة «٦٤٢هـ-٢٢٦م» كان عثمان بن عفان قد أرسل عبد الله بن أبي سرح لغزو النوبة، وكان معه عشرون ألف مقاتل، وهذا يعني إرسال عدد آخر من العرب إلى مصر<sup>(٤)</sup>.

وفي عهد معاوية كان عدد من في الفسطاط وحده من العرب أربعين ألف مقاتل إبان ولاية مسلمة بن مخلد<sup>(٥)</sup>.

(١) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ١٢٩، ١٢٠.

(٢) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعرّيب ص ٢٥٥.

(٣) ابن تفرى بربى: الترجمون الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طسنة ١٩٣٧) ج ١ ص ٩ البلاذري: فتح السودان ص ٢١٣.

(٤) عبد العال محمد عبد العال الجبري: حركة التعرّيب في مصر حتى القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة سنة ١٩٧٧ تحت رقم ٤٧٤٥ ص ١٠١.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ط المعارف الفرنسية ١٨١٤م تحقيق ماسية ص ١٠٢ المقريزى: الخطط المقريزية المسماة المواعظ والاعتبار يذكر الخطط والأثار ط النيل الأهلية سنة ١٤٤٤ ج ١ ص ٩٤ نزار الحديثى: أهل اليمن في مصدر الإسلام ١٦٩.

وكان عدد اليمنيين وحدهم في الإسكندرية زهاء سبعة وعشرون ألفاً معظمهم من الأزد، ثم جاء من بعدهم جماعة من لخم بن عدى التي كان المقربى منها<sup>(١)</sup>.

وفي عهد هشام بن عبد الملك إبان ولاية الوليد بن رفاعة الفهمي على مصر ١٠٩-١١٧هـ، وهو من قيس استقدم من قيس مائة أهل بيت من بنى نصر، ومائة أهل بيت من بنى سليم، فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع، فشد ذلك أقاربهم فجاء منهم إلى مصر خمسة مائة بيت آخر وانتشرت الهجرة وفداً بعد وفده حتى بلغت عدتهم في عام واحد<sup>(٢)</sup> ١٥٠٠هـ بيت في بلبيس وضواحيها، وأكثراً من سليم، وفي عهد مروان بن محمد دخل القيسيون في بلبيس وضواحيها ثلاثة آلاف بيت، وقد كانت القبائل الواقفة على مصر حتى آخر عهد بنى أمية سنة ١٣٢هـ-٧٥٠م ببطونها وعشائرها<sup>(٣)</sup> ٢٢ قبيلة: سبع قبائل من قريش معظمهم من بنى أمية، وسبعين من قيس عيلان، وقبيلة من جهينة، وثلاث من الأزد وثلاث من حمير، وواحدة من لخم، وواحدة من أفتاء، وكل قبيلة ألف. وفي العصر العباسي الأول من ١٣٢-٢٤٢هـ كانت القبائل العربية التي وفدت إلى مصر ٣٣ قبيلة<sup>(٤)</sup> وقد أدت كثرة هؤلئك إلى أن ثار عرب قيس على الضرائب وحرضوا الأقباط على رفض دفع الضرائب سنة ٢١٦هـ-٨٣١م ولم يتمكن الوالي من إخضاعهم، الأمر الذي اضطر الخليفة المأمون إلى المجيء إلى مصر بنفسه لتفقد الموقف وكان ذلك في محرم سنة ٢١٧هـ، وفي عهد الدولة الطولونية كان الواقدون العرب يتزايدون باستمرار<sup>(٥)</sup>.

بالإضافة إلى هذا أن العرب أقاموا لأنفسهم مراكز جديدة في الولايات التي فتحوها مثل الفسطاط والقيروان والبصرة والكوفة.

ولم يتخدوا من هذه المراكز موقع يتحصنون داخلها وإنما غدت هذه المدن بعد قليل موطننا للعرب<sup>(٦)</sup>. وما زالت محلة كثير من العرب تحمل أسماءها العديدة من مدن

(١) ابن هلالون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعمجم والبربر ومن عاصرهم ط بيروت ١٩٥٦ ج. ٢ ص. ٢٥٦. المقربى: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراش. ط أولى عالم الكتب سنة ١٩٦١ ص. ٣٥.

(٢) عبد العال محمد عبد العال الجبرى: حركة التعرّف من ١٠٢، ١٠٣.

(٣) أحمد لطفي السيد: قبائل العرب في مصر،الجزء الأول ط أولى من ١٠٩.

(٤) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعرّف من ٢٤٩.

كما يرى هؤلاء الذين كتبوا في قضية التعرّيب أنه ساعد على تعرّيب البلاد المفتوحة أن العرب الذين نزحوا إلى الأرض الجديدة واستقروا فيها لم يستمروا طويلاً في حالة عزلة، وإنما أخذوا يندمجون تدريجياً مع الأهالي الأصليين، ومع بداية القرن الثاني المجري أخذ هؤلاء العرب يختلطون بأبناء البلاد الأصليين وشاركتهم حرفهم التقليدية من زراعة وغيرها، بل لقد تزاوجوا معهم، مما أضعف من حدة العصبية العربية من ناحية، وساعد على تعرّيب البلاد المفتوحة من ناحية أخرى، وفي تلك يقول المقريزى: «لم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبّاب مولى ملوك قيسا بالحوف الشرقي فلما كان بالمائة الثانية من سني الهجرة كثُر انتشار المسلمين بقرى مصر وضواحيها<sup>(٢)</sup>».

لكن هذا القول مردود عليه بأن العرب مهما بلغ عددهم في بلد من البلدان فهم قلة بالنسبة لأهالي كل بلد من البلدان، وسأكتفى في هذا الصدد بضرب مثل واحد يستدل منه على ذلك وهي رسالة أرسلها علقة بن يزيد والي الإسكندرية إلى معاوية بن أبي سفيان في عهد خلافته يقول له فيها ما نصه: «إنك خلقتني بالإسكندرية وليس معنى إلا اثنا عشر ألفاً ما يكاد بعضاً يرى بعضاً من القلة»<sup>(٣)</sup>. وربما كان ذلك قبل أن يرسل معاوية بالمدد من القبائل إلى الإسكندرية، لكننا نعلم أن القبائل العربية قد انساحت في كل البلدان، وكان منهم في فارس ما يفوق عددهم في مصر، فقد كانت طلائع القوات التي دخلت العراق هي جيش خالد بن الوليد الذي كان يضم صفوة المسلمين من المهاجرين والأنصار، كانت تلك هي النواة الأولى لجيش العراق، وقد أصابها بعض التغيير، فقد أذن خالد بالعودة لمن أراد، فعاد أهل المدينة ومن حولها، واضطرب خالد أن يطلب المدد من أبي بكر، وكتب إلى الأمراء الأربع: حرملة وسلمى والمثنى ومذعور باللهاق به، فكانوا في ثمانية آلاف من ربيعة وميس، وكان هو في ألفين معه فبلغ الجيش عشرة آلاف. ودعا عمر الناس للقتال مع المثنى، وبدأت طبقات

(١) سمير عبد الرازق القطب، أنساب العرب ط بيروت مكتبة دار البيان للطباعة والنشر ص ٤٤.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج ٢ ص دكتور سعيد عاشور: الإسلام وانتداب ٢٤٨.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٦٨.

جديدة من المقاتلية تنضم إلى جيش العراق، كان البعث الأول من أهل المدينة وما حولها ألف رجل بقيادة أبي عبيد بن مسعود. وكان البعث الثاني من أهل الردة .

وبعد الجسر بذل عمر جهداً كبيراً في استئثار القبائل للقتال فخرجت الإمدادات الآتية: جرير ابن عبد الله البجلي في قوم من بني بجيلة. عصمة بن عبد الله فيمن تبعه من بني ضبة. ونفر من أهل الردة. كنانة والأزد في سبعمانة. هلال بن عقبة التميمي فيمن اجتمع إليه من الرباب، ابن المثنى الجشمي ومعه قوم من بني سعد. عبد الله بن السهمني في قوم من جثعم. ريعي وابنه شبيث في أناس من بني حنظلة. ريعي بن عامر بن خالد المعنود في بني عمرو. ابن الهويري والمتذر بن حسان في بني ضبة. قرط بن جماح في عبد القيس. أنس بن هلال النمرى في أناس من النمر. ابن مردى التغلبى في بني تغلب، وبهذه الإمدادات تحقق نصر البويب<sup>(١)</sup> .

أما بعثة القادسية فكان فيها سعد بن أبي وقاص على مساقات هوازن وألف من قيس عيلان عليهم بشر بن عبد الله، وثلاثة آلاف من قدم عليه من اليمن والسراة. كما أمد عمر سعداً بعد خروجه بآلف يمني وألفي نجدي من غطفان وقيس . وانتخب سعد من بني تميم والرباب أربعة آلاف. وكان المثنى في ثمانية آلاف من ربعة. كما قدم سعد الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من اليمن، وقد بلغ جيش القادسية بضعة وثلاثين ألفاً .

وتولت الإمدادات بعد القادسية، وقدم هاشم بن عتبة ومعه قيس بن المكشوح المرادي في سبعمانة، ثم تتابع أهل العراق من أصحاب الأيام مدرداً لأهل القادسية<sup>(٢)</sup> . تلك هي الطلائع الأولى التي انتشرت في جميع أنحاء إيران وكانت النواة الأولى للمهاجرة الذين استقروا فيها بعد أن تحقق لهم النجاح العظيم. وقد استمرت الهجرة العربية بعد عمر بن الخطاب، ووضحت في عهد عثمان، واستمر تيار الهجرة طوال العصر الأموي، ففي عهد معاوية مثلاً تمت هجرة الأزد الذين استقروا بخراسان، وأصبحوا عاملًا مهمًا في الحياة السياسية والاجتماعية هناك. وفي خراسان وحدها

(١) دكتور حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص ٣٩.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

تجمع نحو مائتي ألف أسرة عربية. ولما فتح المسلمون أذربيجان وطنوا فيها فريقاً من العرب من أهل العطاء والديوان وأمرؤهم بدعاء الناس إلى الإسلام<sup>(١)</sup>.

وعلى كل حال اتجه الأمويون اتجاهها واضحاً إلى توطين العنصر العربي في مختلف أنحاء إيران. ووضحت هذه السياسة على الخصوص في عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي. وما كاد القرن الأول الهجري ينتهي حتى انتشر العنصر العربي في إيران كلها من الشرق إلى أقصى الغرب<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من تلك المقارنة بين العرب الذين استقروا في مصر وبين العرب الذين استقروا بإيران، والتي يمكن أن تتبين منها بسهولة تفوق الأعداد التي استقرت في إيران على الأعداد التي استقرت بمصر، ومع ذلك فقد تم تعريب مصر ولم يتم تعريب إيران !!.

نخلص مما سبق أن هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة وإندماجهم مع الأهمال الأصليين لتلك البلاد أدى إلى انتشار اللغة العربية ولكن لم يؤد إلى التعريب ثالثاً - **تعريب الدواوين** :

ومن الآراء التي ظهرت في تفسير ظاهرة التعريب في البلاد المفتوحة حرص الخليفة الإسلامية ابتداء من عهد الخليفة عبد الملك بن مروان «٦٥-٦٨٦هـ / ٧٠٥م» على تعريب الدواوين<sup>(٣)</sup>.

الأمر الذي أدى إلى تعريب اللسان ونشر الخط العربي في كل البلدان التي تواли فيها بعد ذلك نقل دواوينها إلى اللغة العربية، ذلك أن «استخدام اللغة العربية في الشؤون الإدارية كان وسيلة فعالة كبرى إلى نشر العلم بطرز معهود في الكتابة العربية، ومن الثابت أيضاً أن هذا الطراز لم يتم تطويره الكامل بتحقيق حروف الهجاء حتى أواخر القرن الأول بعد الهجرة»<sup>(٤)</sup>.

(١) البلاذرى : فتح البلدان ص ٢٣٦.

(٢) دكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والحضارة العربية ص ٤٠.

(٣) دكتور سعيد عاشور : الإسلام والتعريب ص ٢٥٧، عبد العال محمد عبد العال الجبري : حركة التعريب من ٣٨٣.

(٤) جب : خواطر في الأدب العربي، بحث نشره صلاح الدين المنجد في المتنقى في دراسات المستشرقين (القاهرة ١٩٥٩) ج ١ ص ١٢٩.

لكن هذا القول مردود عليه بأننا نعلم أن الإغريق غزوا الشام ومصر أيام الإسكندر الأكبر وحكموها بعد ذلك مدة طويلة، وأن الرومان غزوا كافة البلاد الواقعة في شرق حوض البحر المتوسط وحكموها أيضاً بعد ذلك بضعة قرون، وأن اللغة الرومانية كانت لغة الإدارة والحكم في عهد البطالمة، كما كانت اللغة اللاتينية أيضاً لغة الإدارة والحكم في عهد الرومان، ومع ذلك لم تحل اللغة اليونانية أو اللغة اللاتينية محل اللغات المحلية التي كانت بمثابة لغات شعبية<sup>(١)</sup>.

مثال آخر من العصر الإسلامي، وهو فارس، الذي حرص الأمويون على تعريب ديوانه وإن تأخر ذلك إلى سنة ١٢٤ هـ حيث تم بالفعل تعريب ديوان فارس بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك. وقد استخدم العرب في هذا الديوان بعض أهالي فارس من غير المسلمين وخصوصاً في الوظائف المالية، لأن فارس كانت بها طبقة الدهاقين التي عرفت بمهاراتها المالية ونبوغها في أعمال الخراج ومعرفتها بالأسرار الإدارية والسياسية، وقد استخدم أفراد هذه الطبقة في عهد الراشدين وبنى أمية<sup>(٢)</sup>.

ومع ذلك لم يتم تعريب فارس في يوم من الأيام. وإن أدت مثل هذه الإجراءات إلى انتشار اللغة العربية، ولكنها لم تؤد إلى التعريب.

#### رابعاً - تفوق الحضارة الإسلامية:

يتفق كل من كتبوا في قضية التعريب أن ازدهار الحضارة الإسلامية، واتساع نطاقها وتنوع آفاقها كان من العوامل التي أدت إلى التعريب. فهذه الحضارة لم تترك ميداناً من الميادين ذات الخبرة الإنسانية لم تسهم فيه بسهم وافر، سواء الدراسات النظرية والعملية والأطعمة والأشربة والعقاقير والأسلحة والفنون والصناعات والنشاط التجاري والبحري.. ثم إن هذه الحضارة امتدت ليستظل بها كثير من بلاد الشرق والغرب جميعاً. ويعنينا في هذا المقام أن اللغة العربية كانت أداة تلك الحضارة العظيمة<sup>(٣)</sup>.

(١) دكتور سعيد عاشور: الإسلام والتعريب ص ٢٤٧.

(٢) البلذري: كتاب فتوح البلدان ص ٣٠٩، ٣٠٨ دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ٣٢.

(٣) دكتور سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٢٥٣.

لكن هذا القول مردود عليه بأن الملاحظ في بناء الحضارة الإسلامية أن العرب اضطروا إلى الأخذ من الحضارات السابقة عليها والتي دخلت ضمن نطاق الخلافة الإسلامية<sup>(١)</sup> فالعرب عندما دخلوا مصر والشام والعراق وفارس إبان حركة الفتوح العربية الإسلامية في القرن السابع للميلاد كانوا أقل خبرة في النظم الادارية، وأقل ترفا في الحياة الاجتماعية من شعوب هذه البلاد التي فتحوها.

ثم لماذا تم تعريب مصر والشام والعراق، ولم يتم تعريب بلاد فارس، فإذا قيل لأنهم أصحاب حضارة عريقة راسخة فإن مصر والشام والعراق كانوا أعظم عرافة وأقدم رسوخاً عن حضارة فارس.

وهكذا ننتهي بأن تفوق الحضارة الإسلامية قد أدى إلى انتشار اللغة العربية في ربوع العالم، ولكنه لم يؤد إلى التعريب.

#### خامساً - لغة الغاليين الفاتحين

اتفق معظم الذين كتبوا في قضية التعريب أن اللغة العربية كانت هي لغة الغاليين الفاتحين، سادة البلاد وحكامها الجدد، فالمفروض أن ثمة علاقات متبادلة بين الحاكم والمحكم تتطلب قدرًا من التفاهم المشترك الذي لا يتحقق إلا داخل إطار لغة متفق عليها بين الطرفين، ولما كان الحكام الجدد لا يعرفون لغة إلا العربية، فلم يبق أمام الشعوب التي خضعت لهم سوى تعلم العربية، هذا فضلاً عما يقال من أن ثمة عقدة نفسية عند البشر تجعل الضعف شغوفاً بمحاكاة القوى، والمغلوب مولعاً دائمًا أبداً بتقليد الغالب.

لكن هذا القول مردود عليه بأن ثمة أمثلة عديدة في التاريخ - قبل حركة الفتوح الإسلامية وبعدها - تثبت أن تحول شعوب بأكملها إلى لغة الحكام الفاتحين، وبنهاية لغة الآباء والأجداد ليست القاعدة الغالية في التاريخ، ونحن نتفق مع الدكتور سعيد عاشر في الأمثلة التي أوردها رداً على مثل هذا القول: «فالإغريق غزوا الشام ومصر أيام الإسكندر الأكبر، وحكموها بعد ذلك مدة طويلة، ومع ذلك لم تنجي اللغة اليونانية في محو اللغات القديمة القائمة في البلاد - مثل الأرامية والمصرية.

(١) احمد أمين: فجر الإسلام (الطبعة العاشرة ١٩٦٥) ص. ٩٦. دكتور سعيد عاشر ص. ٢٥٦.

والروماني غزوا كافة البلاد الواقعة في شرق حوض البحر المتوسط، ومع ذلك فإن الحكم الروماني الذي استمر بضعة قرون لم يسفر عن إحلال اللغة اللاتينية محل اللغات المحلية القديمة التي كانت بمثابة لغات شعبية، أو محل اللغة اليونانية التي غدت إلى حد كبير - لغة خاصة ب رجال العلم والفكر. وكل ما هناك أن اللغة اللاتينية غدت لغة الإدارة والحكم فضلاً عن الجيش. فإذا ما انتقلنا إلى أواخر العصور الوسطى ومشارف العصور الحديثة وجدنا الأتراك العثمانيين يغزون الوطن العربي ويحكمونه بضعة قرون، ومع ذلك لم تنجع لغتهم في أن تحظى ببعض السيادة<sup>(١)</sup>.

وهنا تنتهي إلى أن اللغة العربية برغم أنها كانت لغة الغالبين الفاتحين فإن ذلك لم يؤدي إلى التعرّب، وإن أدى ذلك إلى انتشار اللغة العربية في تلك البلاد المفتوحة. وهنا لا بد لنا من البحث عن السبب الرئيسي الذي أدى إلى أن تحل اللغة العربية محل اللغات المحلية في بعض البلدان بعد الفتح الإسلامي، بينما امتنعت بلدان أخرى في أن تحل العربية محل لغاتها المحلية.

أشهر النظريات الحديثة في مجال تقسيم اللغات إلى فصائل هي نظرية مكس مولر Max Muller والتي تراعي في تقسيم اللغات إلى فصائل بينها صلات قرابة لغوية فتتفق في أصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل.. وما إلى ذلك ويكون من الأمم الناطقة بها مجموعة إنسانية متميزة ترجع إلى أصول شعبية واحدة أو متقاربة، وتتألف بينها من الروابط الجغرافية والتاريخية والاجتماعية. وعلى هذه الأسس ترجع نظرية مكس جميع اللغات الإنسانية إلى ثلاثة فصائل :

الفصيلة السامية الحامية.

الفصيلة الهندية الأوروبية.

الفصيلة الطورانية<sup>(٢)</sup>.

(١) الدكتور سعيد عاشور : الإسلام والتعرّب من ٢٤٧.

(٢) الدكتور علي عبد الواحد وافي : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل من ٦١، ٦٢.

## أولاً : الفصيلة السامية الحامية:

تشمل هذه اللغة مجموعتين من اللغات : إحداهما مجموعة اللغات السامية وثانيتها مجموعة اللغات الحامية .

١ - اللغات السامية الشمالية وتشمل اللغات الأكادية أو الأشورية البابلية واللغات الكنعانية «العبرية والفينيقية» واللغات الأرامية .

٢ - اللغات السامية الجنوبية وتشمل العربية واليمنية القديمة واللغات الحبشية السامية .

وأما مجموعة اللغات الحامية، فتنتظم ثلاثة طوائف

١ - اللغات المصرية، وتشمل المصرية القديمة والقبطية.

٢ - اللغات الليبية أو البربرية، وهي لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا «طرابلس - تونس - والجزائر - ومراكش - والصحراء والجزر المتاخمة لها»

٣ - اللغات الكوشية «نسبة إلى كوش وهو أحد أولاد حام» وهي لغات السكان الأصليين للقسم الشرقي في أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب الاستواء وحدود مصر «ما عدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية» فتشمل اللغات الصومالية ولغات الجالا والبدجا ودنقلة، والأجاو، والأفار أو الساهو والسيداما... إلخ .

## صلة اللغات السامية باللغة الحامية:

تنظم اللغات الحامية ثلاثة طوائف: اللغات المصرية (المصرية القديمة والقبطية)، واللغات البربرية (اللغات القديمة لسكان شمال أفريقيا، طرابلس وتونس والجزائر ومراكش والصحراء والجزر المتاخمة لها)، واللغات الكوشية (لغات السكان الأصليين للقسم الشرقي من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر، ما عدا المناطق الحبشية الناطقة بلغات سامية وما عدا المناطق السودانية الجالا والبدجا ودنقلة والأجاو والأفار أو الساهو والسيداما ... إلخ). ولا يوجد بين هذه الطوائف الثلاث من وجوه الشبه أكثر مما يوجد بين كل طائفة منها

ومجموعة اللغات السامية. فاعتبارها مجموعة متميزة هو مجرد اصطلاح لا يتفق في شيء مع حقائق الأمور.

أما وجوه الشبه بينها وبين اللغات السامية فيظهر في نواحي كثيرة من أهمها ما يلى:

١ - تشبه اللغة المصرية القديمة اللغات السامية في الضمائر (التاء للمخاطب المفرد والثون لجمع المتكلمين ... إلخ) وأسماء العدد وكثير من أسماء الذوات وخاصة الأسماء المؤلفة من صوتين (يم، فم، ماء..). وفي كثير من قواعد الصرف والتنظيم (ومن ذلك تأنيث الاسم والصفة بالثاء، وتكوين المضارع بوضع الضمير في أول الفعل)، وتشترك معها كذلك في أن أهمية الأصوات الساكنة تزيد كثيراً على أهمية أصوات اللين في دلالة مفرداتها ونطقها.

٢ - اكتشف شمليون أن الحروف الساكنة هي وحدتها التي تكتب في اللغة الهيروغليفية مع إغفال الحروف المتحركة شأنها في ذلك شأن العربية القديمة والعبرية<sup>(١)</sup>.

٣ - وجود بعض أوجه الشبه بين الخط العربي القديم والخط الديموطيقي، وهو خط مختصر للهiero-غليفيية شاع استخدامه في الوثائق الشعبية في مصر القديمة<sup>(٢)</sup>. ولذلك ذهب كثير من العلماء إلى اعتبار اللغة المصرية واللغات السامية مجموعتين من فصيلة واحدة. وقد يفسر ذلك السبب في تنازل المصريين عن لغتهم بعد الفتح الإسلامي بينما احتفظوا من قبل بلغتهم أثناء خضوعهم للإغريق ثم الرومان من بعد ذلك.

وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فاعتبر المصرية القديمة لغة سامية. ومن مؤلاء العلماء إرمان Erman الذي يعد حجة في الدراسات المصرية القديمة. فقد رأى أن اللغة المصرية القديمة التي وصلتنا هي لغة الغزاة من الساميين الذين أخضعوا السكان الأصليين وتغلبوا لغاتهم على لغاتهم. غير أن تأثير لغتهم بهذه اللغات في أثناء

(١) جان فيركرتيير: مصر القديمة. ترجمة ماهر جوبياتي، ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق من ١٤.

صراعها معها، والازدهار السريع للحضارة المصرية، وما أحاط بالمصريين من ظروف خاصة تختلف عن ظروف بقية الساميين في النواحي المادية والجغرافية والاجتماعية... كل ذلك وما إليه قد عمل توسيع مسافة الخلاف بين المصرية القديمة ومن جهة وبقية اللغات السامية من جهة أخرى.

ولقد كان عدم وجود حروف متحركة في الكتابة المصرية القديمة سبباً في تقييد حرية اللغة وحرمانها من تقبل الألفاظ الجديدة، فظلت جامدة لا تساير التطور، وخاصة بعد أن افتتح إليها العالم القديم. الأمر الذي أدى بالمصريين أن يحاولوا اقتحام تلك العقبة بأن اتخذوا الحروف الأغريقية لكتابتهم، ولما وجدوا أن الأبجدية الأغريقية لا تفي بحاجة جميع أصوات اللغة المصرية القديمة أضافوا إليها ستة حروف من الكتابة الديموطيقية وهكذا ولدت اللغة القبطية في القرن الثالث الميلادي. وربما يفسر لنا ذلك الجمود اللغوي الذي أصاب اللغة المصرية القديمة، بعد افتتاح العالم عليها. السبب في توقف الحضارة الفرعونية عن التطور.

٤ - وقد ظهر للباحثين وجوه شبه كثيرة بين اللغات السامية من جهة وكل من مجموعتي اللغات البربرية والكوشية من جهة أخرى، وخاصة في النواحي المعلقة بالصرف والاشتقاق. غير أن وجوه شبههما باللغات السامية أقل كثيراً من وجوه الشبه بين السامية والمصرية القديمة، وقد اختلف العلماء في تعليل ذلك:

فبعضهم يرى أن اللغات السامية والمصرية والبربرية والكوشية هي أربع مجموعات لفصيلة واحدة. غير أن إنفصال البربرية والكوشية عن السامية قد حدث قبل انفصال المصرية عن السامية بزمن طويل، ولذلك كانت مسافة بعدهما عن السامية أكثر من مسافة بعد المصرية عنها .

.....

## ثانياً : الفصيلة الهندية الأوروبية

تشمل هذه الفصيلة ثمانى طوائف من اللغات، وهى :

- ١ - اللغات الآرية «إحداها شعبية اللغات الهندية والأخرى شعبية اللغات الإيرانية القديمة والحديثة» ولكثرة وجود الشبه بين هاتين الشعبتين عددهما علماء اللغة طائفة واحدة .
- ٢ - اللغات الأرمنية .
- ٣ - اللغات الإغريقية .
- ٤ - الألبانية .
- ٥ - اللغات الإيطالية .
- ٦ - اللغات الكلتية «التي كانت لشعوب الكلت، وقد طفت عليها الآن اللغات الفرنسية والإنجليزية والأسبانية، ولكن بقى بعض أشكال منها فى كثير من اللهجات المحلية بابيرلندا وويلز ومنطقة البرينون فى الشمال الغربى من فرنسا على سواحل الأطلانطىقى»
- ٧ - اللغات الجermanية .
- ٨ - اللغات البلطية السلافية «إحداها شعبية اللغات البلطية، وهى الليتوانية والليتونية والبروسية القديمة، والأخرى شعبية اللغات السلافية أو الصقلبية : وهى السلافية القديمة والروسية والبولونية والتشيكية والسربية والكرواتية، والبلغارية الحديثة» .

ما سبق يتضح أنه مهما أدت العوامل إلى انتشار اللغة العربية بين أهالى الفصيلة الهندية الأوروبية فإنه سيظل عامل اللغة وهو الابتعاد اللغوى حائلاً بين انتشار اللغة العربية والتعريب، لذلك كان من الصعب على أهل فارس وأهل أسبانيا رغم انتشار اللغة العربية فيهما - كما سبق القول - أن يتحول عندهم هذا الانتشار للغة العربية إلى تعريب .

### ثالثاً : اللغات الطورانية :

أطلق مكس مولن، وأيضاً بونسni اسم اللغات الطورانية على طائفة من اللغات الآسيوية والأوروبية التي لا تدخل تحت فصيلة من الفصيلتين السابقتين، كالتركية والتركمانية والمغولية والمنشورية والفينية وهلم جرا. فاللغات الطورانية ليست إذن فصيلة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة أى مجموعة ترجع إلى أصول واحدة، ويجمع بين أفرادها صفات تشابه وقاربة، بل هي أمم شاج من لغات لا ينلف بينها إلا صفة سلبية وهي عدم دخولها في إحدى الفصيلتين السابقتين.

وأحدث نظرية بهذا الصدد هي ما ذهبت إليها جمعية علم اللغة بباريس في موسوعتها «لغات العالم» إذ قسمت جميع اللغات الإنسانية الخارجة عن الفصيلتين السامية والهامية والهندية والأوروبية إلى تسع عشرة فصيلة، وهي :

- ١ - فصيلة اللغات اليابانية.
- ٢ - فصيلة اللغات الكورية.
- ٣ - لغة الاینو «وهي لغة جزر هوكانو وساخلين وشكوتان».
- ٤ - فصيلة اللغات الصينية.
- ٥ - فصيلة اللغات الأسترالية الآسيوية « التي يتكلم بها القسم الآسيوي الجنوبي المنحدر إلى أستراليا».
- ٦ - فصيلة اللغات الدرافيدية «لغات بعض الشعوب التي تقطن جنوب بلاد الهند قبل أن يهاجر إليها الأربيون».
- ٧، ٨ - اللغات القوقازية التي ليست سامية ولا هندية إوروبية.
- ٩ - فصيلة اللغات الآسيوية القديمة غير سامية ولا هندية أوأوروبية «ومن أهم لغات هذه الفصيلة السومرية».
- ١٠ - فصيلة اللغات التركية والمغولية والمنشورية.
- ١١ - فصيلة اللغات الفينية والأجرية والساموبيدية « ويتكلم بهذه اللغات في الحوض الأوسط لنهر الفولجا ويدخل في هذه الفصيلة اللغات الفنلدية».
- ١٢ - لغة الباشك أو الأسكارا.

١٣- اللغات الهبيبربورية أو لغات أقصى الشمال، وهي لغات سيبيريا وما يليها من أقاليم المنطقة المتجمدة الشمالية.

١٤- اللغات الملايوية «وتشمل هذه الفصيلة اللغات الأندونيسية، واللغات الميلانيزية، واللغات الميكرونيزية، واللغات البولينيزية، ولغات البابو».

١٥- لغات سكان أستراليا الأصليين.

١٦- لغات سكان أمريكا الأصليين.

١٧- لغة السودان وغانا «ومنها لغات النوبة».

١٨- اللغات البنطولية «ويتكلم بها سكان القسم الجنوبي من أفريقيا في منطقة واسعة على شكل مثلث ينطبق رأسه على رأس الرجاء الصالح، ويمتد ضلعه على الساحل الشرقي لأفريقيا حتى حدود بلاد الصومال، وضلعه الأيسر على الساحل الغربي حتى مدينة دوالا ببلاد الكمرون».

١٩- لغات البوشيمان والهوتنتوب والنigeriens «وهي لغات القبائل الأفريقية الجنوبية التي تقطن الغابات الاستوائية والمناطق الصحراوية»<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا العرض السريع للغات الطورانية نستطيع أن نتبين الأسباب العلمية التي منعت اللسان التركي أو اللسان النبوي من أن يتحول إلى اللسان العربي، وذلك لعدم وجود قرابة لغوية بين اللسان التركي الذي يتبع الفصيلة اللغوية الطورانية وبين اللسان العربي الذي يتبع الفصيلة اللغوية السامية- الحامية. وكذلك الحال بالنسبة للسان النبوي الذي يتبع الفصيلة الطورانية.

هنا نأتي إلى النتيجة النهائية من هذه الدراسة فنقول إن القرابة اللغوية التي كشفت عنها الدراسات اللغوية الحديثة هي التي سمحت لانتشار اللغة العربية أن يتحول إلى تعليل، كما أنها يمكن أن تتبناً من خلال تلك الدراسة أن الصومال يمكنها التحول إلى اللسان العربي حيث إن اللغة الصومالية وهي الكوشيتية تتبع الفصيلة السامية الحامية.

(١) الدكتور على عبد الواحد وافي نشأة اللغة، ص ٨٣، ٨٩.



#### الفصل الرابع

### الحضارة الإسلامية وتربيّة العقل

\* طلب العلم فريضة

\* نشأة العلوم النقلية : علم التفسير . علم القراءات . رسم المصحف .  
علوم القرآن . علوم الحديث . علم أصول الفقه . علوم الفقه . علم  
الكلام . علم التاریخ .

\* نشأة العلوم العقلية : علم المنطق . علم الإلهيات . علم الطبيعيات . علم  
التعاليم . علم تقويم البلدان



## طلب العلم فريضة

رغم أن قضية التوحيد في القرآن الكريم هي قضية القرآن الكبرى، والتي استحوذت على أكثر من تسعين سورة من سورة القرآن الـ ۱۱۴، ورغم أن الدين الإسلامي لا يقبل مبتدئها إسلام أي إنسان إلا إذا شهد بالتوحيد : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ». .

رغم كل هذا فإن القرآن الكريم، لم يرفع عند مبدأ الوجى إلا شعار العلم: (اقرأ)!؟  
ولماذا اقرأ بالذات؟!

يفهم من القرآن الكريم أن العلم : هو الإحاطة بشيء، لقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾<sup>(١)</sup> والعلم ليس فطريا في الإنسان، لقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾<sup>(٢)</sup> لذلك يقول رسول الله - ﷺ - : « إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم ». .

وتكمن أهمية العلم في العقل، لقوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأُمَّالُ نَصْرِيهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

والعقل : هو تبين الآيات وتفصيلها.  
لقوله تعالى :

﴿قَدْ بَيَّنَ لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) سورة الطلاق، الآية ۱۲.

(٢) سورة النحل، الآية ۷۸.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ۴۳.

(٤) سورة آل عمران، الآية ۱۱۸.

ولما كان العقل يقوم على ركنتين أساسين، وهما العلم والهدي، لقوله تعالى :  
﴿ولَكُنَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذْبَ وَأَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقُلُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَى إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ الرَّسُولُ قَالُوا حَسِبْنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ إِبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ إِبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْنَا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وهكذا يتبيّن أن القراءة هي مفاجأة العلم ، والعلم هو مفتاح العقل، والكتاب - أي كتاب - ما فائدته إن لم يقرأ ؟!

حقا إن القراءة تحتاج إلى صبر، ولكن عدم القراءة يحتاج إلى صبر أكبر، لما سيترتب على ذلك من مشاكل لا بد أن يواجهها الإنسان الذي لم يعود نفسه على القراءة. لذلك يقول النبي - ﷺ - طلب العلم فريضة على كل مسلم كما يقول أيضا عليه الصلاة والسلام: «لَا شُرُفَ كَالْعِلْمِ وَلَا عَزَّ كَالْحَلْمِ».

ولا عجب بعد ذلك أن تعرف البشرية أول ثورة تعليمية في التاريخ. فقد بدأت حركة التعليم في المجتمع الإسلامي منذ نشأته فمن المعروف أن الإسلام قد جاء وليس في قريش إلا سبعة عشر رجلا فقط هم الذين يعْرِفُون القراءة والكتابة، ولم تمضي إلا سنوات قليلة ويتعلم كل المسلمين، فقد جعل رسول الله - ﷺ - فداء بعض أسرى غزوة بدر أن يعلم الواحد منهم عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة، ونفهم من هذا أن أبناء المهاجرين لم يهاجروا إلى المدينة إلا وكانتوا جميعاً يعلمون القراءة والكتابة . فـأي ثورة تعليمية هذه التي تجعل الأمة كلها متعلمين! لم يحدث هذا في التاريخ البشري منذ آدم عليه السلام حتى يومنا هذا إلا في المجتمع الإسلامي.

### قيام أول ثورة تعليمية :

كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو المعلم الأول في الإسلام، وكان هو المثل الأعلى، وكان على من يأتي بعده أن يتولى نفس المهام التي كان عليه توليتها، ولذلك فالخليفة هو الإمام الروحي، ومسئوليتهم عن تعليم شعوبهم، نابعة من كون إمامهم الأول، الرسول، كان هو المعلم الأول، والمسئولية أيضاً في هذا المجال، هي مسئولية كل

(١) سورة العنكبوت، الآياتان ١٠٤، ١٠٣.

من تولى الحكم سواء كان خليفة أم أميراً أم مجرد حاكم في منطقة ما، تلك هي القاعدة، ولكن الخلاف هنا في ممارسة هذه المسؤولية، وإن كانت الممارسة قد تبأنت من فترة إلى أخرى، ومن إقليم إلى آخر.

وإذا كانت الأحداث السياسية أو غيرها، قد حجبت مسؤولية الحاكم عن العملية التعليمية، أو أن الحاكم في فترة من الفترات أهملوا هذا الواجب الديني، فإن ذلك لا يعني انتفاء المسؤولية أو عدم وجودها.

وإذا كان الرسول قد مارس التعليم، بمعنى تعليم الإسلام للناس، إلا أنه أعطى هذا المعنى بعدها آخر تجلٍ في مسؤولية الحاكم تجاه تعليم شعبه، أقصد بذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد جعل تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فداء لأسرى معركة بدر. كما يتجلٍ فيه أيضاً أجر من يعلم عشرة من الأولاد القراءة والكتابة، وهو ما يساوى النجاة بنفسه.

وفي بلاد العهد الحديث بالإسلام، تجلٍ مسؤولية الحاكم في هذا المجال، فعليه مسؤولية تعليم الناس قواعد الدين الجديد، ولا يقتصر الأمر على الحاكم فقط، إنما يتعداه إلى كل مسلم عالم، إلى كل إنسان يمكن له أن يعلم «كلم راع، وكلم مسؤول عن رعيته». ولعل ذلك يعطينا تفسيراً لتلك العملية المعقّدة التي تنقلها لنا كتب التراث والتي تصور لنا حلقات التعليم، ومجالس المناقضة، وجلسات المعلمين، وكأنها خلايا نحل، لا ينفض الطلبة من حولها، وحرض الناس، من كافة الطبقات على أن يكون معلماً أو متعلماً، وعلى أن يقول لغيره ما يعلمه وما سمعه، وأن يسمع من ذلك أيضاً ما يعلمه وما يسمعه، امثلاً لأمره عليه السلام في وصيته له لابن عمه على بن أبي طالب حيث يقول: «يا على، كن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، ولا تكن الرابع فتهلك».

### علاقة المسلمين بالتعليم:

إن العلاقة بين المسلمين والتعليم تنبع من الدين الإسلامي ذاته فالعلاقة بين الدين الإسلامي والتعليم هي علاقة أساسية، فالدين في حد ذاته ليس إلا عملية تعليمية، فقد كانت أول كلمة تنزل من القرآن الكريم «اقرأ» شعار أول ثورة تعليمية عرفتها البشرية، لذلك فقد أقبل المسلمين على التعليم إقبالاً منقطع النظير، وتنافس

الفقراء والأغنياء على توفير كل متطلبات التعليم، وحتى لا يكون هناك مكان لمستغل فكان الوقف الخيري من حسنات العصر، وقد كشف لنا التاريخ الإسلامي أن علاقة الشعب بالتعليم تتناسب تتناسب طردياً، أي أنه كلما ارتبطت الحركة التعليمية بالشعب ارتفع مستوى التعليم.

## علاقة الحكومة الإسلامية بالتعليم:

لم تقم الحكومة ديواناً للتعليم حينما أقامت الدواوين، وذلك أن التعليم كان يدور أساساً حول القرآن الكريم، فلم يتخيل المسلمون الأوائل أنه سوف يكون هناك مسلمون تكون علاقتهم بالقرآن علاقة هامشية، لذلك فقد تركت الحكومة الإسلامية أمر التعليم للشعب واكتفت هي بالرقابة على ما يعرف اليوم «بالتّعليم العام» من خلال مسؤوليات المحتسب.

ومنذ انتشار المدارس والمؤسسات التربوية في القرن الخامس الهجري أخذ رجال السلطة - كأفراد - «يتنافسون في إنشاء المدارس وبيوت الحكم ودور العلم ، ويرصدون لها الأراضي والممتلكات للإنفاق عليها وصيانتها، كما يأمرون بتوزيع الأرزاق على الطلاب والمعلمين لسد مطالبهم في الحياة. وقد روحت هذه الطريقة أيام العباسيين والفاطميين والأيوبيين والملوك لضمان معاش الطلاب والمعلمين وطمأنتهم على حياتهم . ولم يتوقف الأمر على رجال السلطة بل سارع كثير من النساء والتجار والعلماء والقضاة، وكثير من فضليات النساء، فأنشأوا المعاهد ورصدوا لها الأوقاف الدارة، لضمان مورد دائم، للصرف على المؤسسات التعليمية وطلبتها».

وعندما جاء المماليك إلى السلطة بعد منتصف القرن السابع الهجري، لم يدخل سلاطينهم وأمراؤهم طوال عهودهم على العلم والعلماء بما توافر لديهم من ثروات طائلة وأراضٍ واسعة، وعلماء وفدو إلى مصر من المشرق والمغرب، كانوا أهم ركيزة في الحركة التعليمية في العصر المملوكي في مصر. فانتشرت المدارس، والمكاتب والمؤسسات التعليمية الأخرى.

وربما يبدو لأول وهلة، أن مساهمة السلاطين تلك، في نشر التعليم وتعزيزه كانت مساهمة إدراة وإشراف، ولكن واقع الحال ينبيء أن السلطة المملوكية، لم تكن لها أية سياسة تعليمية واضحة، كما لم تكن هناك جهة رسمية مسؤولة عن نشر التعليم وتوجيهه. والدليل على ذلك أن السلطة الحاكمة لم تضع قواعد للانتظام في الدراسة، ولم تنس مناهج دراسية معينة، أو تشتغل شرطاً معيناً في المدرسین ومؤهلاتهم ... وإنما كان حماسهم لنشر العلم يصدر بصفة شخصية لأسباب عديدة منها: الرغبة في اكتساب الأجر والثواب عند الله ومنها أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية.

وربما اقتصر إشراف الدولة المملوكية على تلك المدارس والمساجد والخوانق وغيرها، التي أسست قبل العصر المملوكي أو خلال ذلك العصر، ولم يعد لها ناظر يرعاها، فآل أمر أوقافها إلى الدولة المملوكية، فتبدلت الدولة الإشراف عليها إدارياً وعلمياً ومالياً.

ولا تختلف هذه الإدراة والإشراف على إدارة أي واقف من غير المماليك لمدرستة التي بناها ورصد لها الأوقاف الدارة، والدليل على أن إشراف الدولة وإدارتها اقتصرت على المدارس الموروثة التي لا ناظر لها ما ذكره القلقشندي أن وظائف التدريس، وهي على اختلاف أنواعها من الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغير ذلك لا يولي السلطان فيها إلا فيما يعظم خطره، ويرتفع شأنه بما لا ناظر له خاص كالمدرسة الصلاحية بجوار تربة الإمام الشافعى، والزاوية الصلاحية بالجامع العتيق بالفسطاط، وهي المعروفة بالخشابية، والمدرسة المنصورية بالبیمارستان المنصوري ودرس بالجامع الطولوني، ونحو ذلك.

يفهم من العبارة السابقة أن تلك المدارس والجواامع - وهي ميراث الدولة الأيوبيية - خلت إدارة أوقافها من ناظر فتولت الدولة تعيين من يشرف على الأوقاف

الخاصة بكل مدرسة، كما تولت تعيين المدرسين فيها. مثال ذلك أن الملك المنصور قلاوون فوض إلى الصاحب برهان الدين السنجاري، النظر والتدريس بمدرسة الإمام الشافعي. وكانت هذه المدرسة خلت من مدرس ثلاثين سنة، واكتفى فيها بالمعددين وهم عشرة. وقرر السلطان الأشرف برسباي محب الدين الأقصراوي بدلاً من سعد الدين الديري للتدريس في جامع المارداني. كما خلع عن عز الدين بن يوسف العجمي، واستقر في خانقاه شيخو عوضاً عن أكمل الدين... إلخ.

هذا ولم يعرف مبدأ تدخل الدولة في قطاع التعليم في تاريخ التعليم الإسلامي إلا في ظروف معينة حينما كانت الدولة تتدخل أحياناً عند الحاجة - بوصفها ممثلة للجماعة الإسلامية - لتحارب الدعاوى الدينية المنحرفة التي ظهرت في عصر الدولة العباسية كدعوى الحلاج الألوهية، وادعاء الشاعراني حول روح الإله فيه. كما تدخلت الدولة أحياناً لفرض مذهب فقهي أو اتجاه سياسي، كما فعل الفاطميون حين أنشأوا الجامع الأزهر ودار العلم بالقاهرة لنشر المذهب الشيعي في مصر. وكما فعلت الدولة الأيوبيية في محاربتها للمذهب الشيعي في مصر بزعامة صلاح الدين الأيوبي.

أما الدولة المملوکية فقد اكتفت بالدعم المادي والأدبي للمؤسسات التعليمية ورجال العلم من جهة، وبما سلمت بصلاحية العلماء والفقهاء للنهوض بالناحية العلمية من جهة أخرى. كما كانت القاعدة والقمة متتفقين على الأهداف التربوية، فلم يعد هناك مبرر لتوجيه المناهج التعليمية وجهة خاصة، لتحقيق أغراض معينة.

ولم يكن التعليم في الجناح المغربي أيضاً مقيداً بقوانين تفرضها الدولة، إنما كان حراً لا قيود عليه غير القيود التي يقررها ويفرضها العرف والعادة. فكان التدريس أمراً مباحاً لكل راغب فيه متى وجد في نفسه الكفاءة لمزاولة مهنة التدريس، بشرط ألا يكون ذلك في مسجد من تلك المساجد الجامعة التي لها صفة المساجد الرسمية للدولة، والا تطلب الأمر حينئذ الإذن بالتدريس من القاضي. كما أنه لم تكن هناك أية رقابة على المدرسين أو الطلبة من جهة الحكومة سوى ما يدخل في وظائف الحسبة، حيث كانت من أهم وظائف المحتسب رعاية التربية وجعلها تسير في إطار الشريعة الإسلامية، ووفق الأخلاق الفاضلة والذوق السليم. فكان المحتسب يزور المدارس

والكتاتيب بين حين واخر ليتأكد من سلامة المباني، ومراعاة قواعد الشريعة الإسلامية في تعليم الصبيان، والضرب على أيدي المعلمين في الكتاتيب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم لطلابهم. ومنع أدعية العلم من التصدي لتعليم الناس أو علاجهم أو الفتوى لهم في الأحكام أو الجلوس للفصل في قضياتهم، وربما كانت جولات التفتيشية في معاهد التعليم تتناول أيضا حضور بعض الدروس والأطلاع على مناهج التعليم، والكتب التي يقررها المدرسوون على طلبتهم - كما كان في اختصاصه الأمر بإصلاح مباني معاهد التعليم المتداعية.

كما أن المحتسب هو الممثل لمذهب الجماعة، فيمتنع البدع والأهواء ويضطهد أهل المذهب الشاذ عن مذهب الأغلبية، ويعزلهم عن المجتمع وعن الأماكن العامة، ويحظر عليهم ممارسة أي نشاط ادعائي أو ثقافي.

وقد كشف لنا التاريخ الإسلامي أن علاقة الحكومة بالتعليم تتناسب عكسيا، أي أنه كلما ابتعد الشعب عن التعليم ازداد تدخل الحكومة، وكلما ازداد تدخل الحكومة ارتبط التعليم بإمكانيات الحكومة التي قد تتذبذب قدرتها على توفير متطلبات التعليم فينعكس هذا على مستوى التعليم بالإيجاب أو السلب.

كما كشف لنا التاريخ الإسلامي أن علاقة التعليم بالتغيرات السياسية تتناسب عكسيا، أي أنه كلما ارتبط التعليم بالتغيرات السياسية أدى هذا إلى ضعف مسيرة التعليم، بل إلى توقفها أحيانا، والأمثلة على ذلك كثيرة، وسأكتفي بالإشارة إلى ما أصاب التعليم، في عصر الموحدين في المغرب، وما أصاب الأزهر في العصر الأيوبي.  
**التعليم والمسجد :**

ارتبط التعليم بالمسجد ارتباطا كاملا، فقد كانت المساجد محل ما يعرف حاليا بالتعليم العام، إلى جانب الكتاتيب التي اختصت بتعليم الصبيان، أما المساجد الجامعية وهي المساجد الرسمية التي كانت لا تقام صلاة الجمعة إلا فيها حتى القرن الثامن الهجري فكانت محل التعليم العالي، ومنها كانت كلمة «جامعة»، وحينما عرف المسلمون المدرسة وانتشرت في ربوع العالم الإسلامي اعتبارا من القرن الرابع الهجري فقد جاء تصميم المدرسة مطابقا لتصميم المسجد، ولكن تتحقق به بيوت

الطلبة، لذلك فقد ارتبط التعليم بالمسجد لأن المساجد شعائر وأداباً كان على الطالب أن يلتزم بها.

### التعليم وقدر العلماء :

العالم في المفهوم الإسلامي يستمد قوته من علمه، لذلك فقد تمتع العلماء في القرون الأولى من الهجرة بمستوى علمي مرتفع ومعرفة موسوعية ونظرة شاملة، فتعددت على يديهم العلوم، وتشعبت وحينما عجز كل منهم أن يبدأ من حيث انتهى من سبقه اقتصرت مناهج التعليم على التلخيص أو الشروح المطولة لنصوص السابقين دون إضافة جديدة، الأمر الذي جعل ابن خلدون في أواخر القرن الثامن الهجري يوجه إلى علماء عصره نقداً لاذعاً.

وهكذا تجمد الفكر الإسلامي وتختلف التعليم بعد أن أثبتت التجربة الإسلامية أن التعليم يتاسب تناسباً طردياً مع قدر العلماء، كما أثبتت التجربة أيضاً أن قوة الأمة تناسب بتناسب قدر علمائها.

### الرحلة في طلب العلم :

كان الاهتمام بالرحلة في طلب العلم ضرباً من ضروب التحقيق العلمي، فلم يظهر كتاب لإمام في فنه إلا سارع إليه طلاب العلم ليقرءوه عليه بغية الانتماء وتحقيق إسناده إليه ونسبته له، ولنتمكن طالب العلم أيضاً من الاستفادة بتمييز الاصطلاحات بعد لقاء العديد من شيوخ العلم لما يراه من اختلاف طرقوهم في البلاد المختلفة التي يرحل إليها.

ولا ريب أن مما أعاد على كثرة الرحلات ما يلقاء طلاب العلم من رعاية أثناء رحلتهم، نتيجة لما أوصى به الإسلام من البر بأبناء السبيل، ورعاية المسافر والعطف عليه، فainما ذهب الغريب في أنحاء العالم الإسلامي في العصور الوسطى وجده المكان الذي يبيت فيه، والموضع الذي يرؤيه، وكانت المساجد والمدارس - حيث الأماكن معدة ليواء الطلاب بالمجان وبالنفقة عليهم - خير مكان يقصده الغريب، كذلك كانت الربط والزوايا والخوانق مفتوحة للمسافرين والقادمين<sup>(١)</sup>.

(١) دكتور محمد عادل عبد العزيز: التربية الإسلامية في المغرب. أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦. ص ٣٠ وما بعدها.

وأخيراً، إذا كانت هناك أسباب متعددة لتدحرج التعليمية في العالم الإسلامي فإنه يأتي على رأس تلك الأسباب، الجمود الفكري، ومركزية التعليم في العصر الحديث والتي أدت إلى ارتباط التعليم بقدرة الدولة المالية، وانفصال التعليم عن البيئة، كما أن فرنجة التعليم اعتباراً من عصر محمد على، وإن أدت إلى ازدواجية التعليم في مصر، فإنها أدت إلى ما هو أخطر من هذا، ألا وهو فصل التعليم عن المسجد، الذي أدى بدوره إلى فصل الدين عن العمل به، بل وتدحرج الأمر أكثر من ذلك حينما فصلنا درجة مادة الدين في التعليم العام عن المجموع الكلي .

## نشأة العلوم النقلية

لما كان العقل يقوم على الهدى والعلم فقد أدى التطور العلمى إلى أن تنقسم العلوم إلى صنفين: الصنف الأول منها أطلق عليه اسم : العلوم النقلية أو العلوم الشرعية<sup>(١)</sup> ، والصنف الثاني أطلق عليه اسم : العلوم العقلية أو الحكمة<sup>(٢)</sup> .

والعلوم النقلية أو الشرعية هي تلك العلوم التى يرجع الأصل فيها إلى الشريعات من الكتاب والسنة، والتى هى مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يسنتبعها من علوم لازمة ل تمام الإفادة منها<sup>(٣)</sup> .

أما العلوم العقلية أو الحكمة فهى تلك العلوم التى يهتدى إليها الإنسان بالعلم عن طريق إعمال الفكر والتجريب . وتتفرع علوم كل صنف من هذين الصنفين إلى علوم أخرى فرعية تتفرع في بعضها مرة أخرى إلى فروع للفروع<sup>(٤)</sup> .

### أولاً : العلوم النقلية :

اشتملت العلوم النقلية أو الشرعية على :

علم التفسير، علم القراءات، رسم المصحف، علوم القرآن، علوم الحديث، علم أصول الفقه، علوم الفقه «ويتفرغ عنه علم الفرائض»، علم الكلام، علوم اللسان العربى، علم التصوف، علم التاريخ، علم تعبير الرؤيا<sup>(٥)</sup> .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠١.

(٢) المصدر السابق : ص ٤٠٠.

(٣) المصدر السابق : ص ٤٠١.

(٤) المصدر السابق : ص ٤٥٢.

(٥) خلدون : المقدمة ص ٤٠١.

هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بالألفاظ القرآن، وموضوعه القرآن من حيث إنه كيف يقرأ، ويعتبر هذا العلم من أول العلوم التي اهتم بها المسلمين، غير أنهم اختلفوا في عدد القراءات، فبعضهم جعلها سبع قراءات وبعضهم جعلها أكثر، غير أن الراجح هو سبع قراءات تواتر نقلها بأدائها. ونسبت كل طريقة من هذه الطرق إلى من اشتهر بروايتها من بين الرواة الكثرين فصارت هذه القراءات السبع أصولاً لقراءة القرآن الكريم.

والمشهورون السبعة الذين أضيفت هذه الطرق إلى أسمائهم كل واحد منهم أضيفت إلى اسمه طريقة هم: نافع من أهل المدينة وابن كثير من مكة وابن عامر من الشام وأبوعمر من البصرة وحمزة والكسانى من الكوفة، وقد أضيفت ثلاث قراءات لكل من حفص وأبى جعفر ويعقوب، فصارت القراءات عشراً وما زاد عليها اعتبر شاداً.

وقد استند كل إمام من هؤلاء الأئمة في طريقة قراءته إلى ما نقله عن يوثق به من الصحابة مثل ابن عباس وعائشة وعثمان بن عفان، وكذا من اشتهر بجودة الحفظ والقراءة مثل عبد الله ابن مسعود وأبى بن كعب.

أما القراءة بالألحان فقد اختلف العلماء في الوقت الذي ظهرت فيه، فبعضهم قال إنها ظهرت في عصر النبوة، وبعضهم قال: إنها ظهرت في القرن الرابع الهجري، كما اختلف الأئمة في حكمها، فقد أنكرها الإمام مالك رحمة الله لأنها تناهى الخشوع والعبرة، وأباحها الإمام الشافعى رضى الله عنه إذا التزم القارئ حد الاعتدال في الأداء لأنها ترغب في الاستماع.

وقد كان علم القراءات في الأندلس صورة مطابقة للقراءات في المشرق، ولكن بحلول القرن الخامس الهجرى أصبح لهذا العلم في الأندلس شخصيته المتميزة على يد عدد من علماء الأندلس، وهذا ما يمكن أن نفهمه من كلام ابن خلدون حيث يقول: ولم يزل القراء يتدالون هذه القراءات ورواياتها، إلى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيها كتب من العلوم، وصارت صناعة مخصوصة وعلمًا مفردًا، وتناقله الناس في المشرق والأندلس - مجاهد من موالى - العامريين، وكان معننياً بهذا الفن من فنون القرآن.

لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر، واجتهد في تعليمه، وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته. فكان سهمه في ذلك وافرا، واحتضن مجاهد بعد ذلك بإمارة دانية والجزائر الشرقية فنفقت بها سوق القراءة لما كان هو من أئمتها، وربما كان له من العناية بسائر العلوم وبالقراءات خصوصاً، فظهر لعهده أبو عمرو الداني وبلغ الغاية فيها، وعول الناس عليها، وعدلوا عن غيرها، واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له. ثم ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال، أبو القاسم بن فيرة من أهل شاطبة، فعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله في قصيدة لشخص فيها أسماء القراء بحروف «أ ب ج د» ترتيباً أحكاماً، وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها، فاستواع فيها الفن استيعاباً حسناً، وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس<sup>(١)</sup>.

ولقد ألف الأندلسيون في هذا العلم كثيراً وبلغ منهم عدد كبير حتى أنشأ نجد أسماءهم تلمع في كثير من مناطق العالم الإسلامي، وتكتفى الإشارة إلى أن كتاب معرفة القراء الكبار، الذي تناول أكبر طبقات القراءة ضم من الأندلسيين ١٢٧ قارئاً مشهوراً<sup>(٢)</sup>.

وتدين العاصمة مراكش إلى رجال العلم الأندلسيين الذين بذروا فيها البذرة الأولى الخاصة بالاشتغال بعلم القراءات إبان الحكم المرابطي، بل إنهم ظلوا يشكلون العمود الفقري للنهوض بهذا اللون من الدراسات الشرعية حتى في العهد الموحدى، ويفتخر ذلك جلياً من تتبع ترجم الشخصيات العلمية التي تصدت لتدريس علم القراءات بمراكم، فمن الذين بذلوا جهوداً علمية لتدريس العلم المذكور وتطويره من الأندلسيين عندما كانت تحت المظلة المرابطية محمد ابن أغلب أبي الدروس الذي كان يمارس مهنة التعليم والإقراء داخل مراكش وتوفي بها سنة ٥١١هـ/١١١٧م<sup>(٣)</sup>.

ومنهم أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صقر الأنصاري الخزرجي، الذي كان مقرنا ومجوداً مع إمامه بعلوم أخرى قد تولى أحكام

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٠٢، ٤٠٣.

(٢) د. محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم من ٢٨٦-٢٩٢.

(٣) ابن سعيد: المغرب في حل العغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٨٠.

الصلوة وإمامية مسجد على بن يوسف بن تاشفين، وعاصر الدولتين المرابطية والموحدية حيث توفي بمراكش سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م<sup>(١)</sup>.

وقد شهد علم القراءات والتجويد في عهد الموحدين تطوراً كبيراً لم يشهد له مثيل من قبل، ويمكن أن يعزى ذلك إلى عدة أسباب منها أن أغلب أولئك الحكام كانوا من المهتمين بدراسة هذا العلم حتى عدوا من أكابر الحفاظ والخطاطين<sup>(٢)</sup>.

كما استدعي الموحدون فطاحل المقرئين في الأندلس مثل محمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس بن محمد بن عبد الله العبدوي الذي استوطن مراكش وانتصب للتدريس فيها<sup>(٣)</sup>.

وقد اعتمدت الدراسات الخاصة بعلم القراءات في عصر بنى مرين على مصنفات أبي عمرو عثمان سعيد بن عثمان الداني المتوفى سنة ٤٤٤هـ و خاصة كتابه «التسير» الذي لخصه بعد ذلك أبو القاسم بن فيرة الشاطبى ونظمه في قصيدة شعرية اشتهرت «بالشاطبية»، رتب في تلك القصيدة أسماء القرآن بحروف «أ ب ج د» تسهيلاً لحفظها<sup>(٤)</sup>.

وقد شهد علم القراءات في عصر بنى مرين اهتماماً من العلماء المغاربة، ونبغ فيه عدد كبير من أبناء المغرب، مثل: أبي عبد الله الشريشى الخراز المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٤١٥م<sup>(٥)</sup> وأبى الحسن على بن سليمان الأنصارى القرطبي المتوفى سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م والذى له عدد من المؤلفات في هذا الفن منها: التجويد ومحترمه، المنابع في قراءة نافع، ترتيب الأداء، الجمع بين الروايات في الإقراء وتبين طبقات العد وترتبها<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن عبد الملك المراكشى: *الذيل والتكميل لكتابي الموصول والصلة* تحقيق: د. إحسان عباس. بيروت قسم ١ ج ١ من ٢٢٢-٢٢٢.

(٢) ابن صاحب الصلاة: *المن بالإمامية* ص ٢٢٢، المراكشى: *المعجب* ص ٢٢٧.

(٣) ابن عبد الملك المراكشى: *المصدر السابق*، ج ٦ من ٣١٩، ٢٢٠.

(٤) د. عبد الفتيم ماجد: *تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى* القاهرة ١٩٧٨ م من ١٦٩، ١٧٠.

(٥) ابن خلدون: *المقدمة* من ٤٠٢، ٤٠٣.

(٦) الكتابى: *سلوة الأنفاس وحادثة الأكياس* بمن أقرب من العلماء والصلحاء بفاس. فاس ١٣١٦هـ ج ٢ من ١١٤.

ومنهم أيضاً محمد بن إبراهيم الصفار المراكشي، وهو من علماء القراءات السبع الذي كان كثيراً ما يستدعيه السلطان أبو عنان المريني ليقرأ عليه برواياته السبع<sup>(١)</sup>. ومن هؤلاء أيضاً ميمون الفخار المتوفى سنة ١٤١٢هـ/٨١٦م الذي كانت له مؤلفات عدّة في علوم القرآن ورسم المصحف، والقراءات منها التحفة والدرة، والمورة في نقط المصحف العلی<sup>(٢)</sup> ومن تلاميذه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الجاديري الذي له كتاب: النافع في أصل حروف نافع<sup>(٣)</sup>. ومن علماء القراءات أيضاً محمد بن علي البقال المتوفى سنة ١٣٧٩هـ/٧٨١م<sup>(٤)</sup> وأحمد بن محمد الزواوي الذي كان إماماً في القراءات، وكان أحد أعضاء مجلس السلطان أبي الحسن المريني العلمي<sup>(٥)</sup>.

### علوم القرآن :

هو علم يتكون من عدة مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وجمعه وترتيب سورة، وبيان الوجه الذي نزل عليها وأسباب النزول، وشرح غريبه، ودفع الشبهات عنه، وكل ما هو يختص به<sup>(٦)</sup>.

ولعل السر في أن العلماء سموا هذا العلم بصيغة الجمع «علوم القرآن» وليس بصيغة الإفراد هو رغبتهم في الإشارة بهذه التسمية إلى أن كل مبحث من مباحثه جدير بأن يكون علمًا قائماً بذاته إذا جمعت مادته على سبيل الاستيعاب والأستقصاء<sup>(٧)</sup>.

وترجع مباحث هذا العلم في جملتها إلى مصادر ثلاثة، كانت كلها معروفة للMuslimين الأوائل في صدر الإسلام، وهي ترجع إلى لغتهم العربية، وإلى الوحي من الله تعالى، وإلى أحداث وقعت على مسامعهم وأعينهم، فالذى يرجع إلى لغتهم منه مبحث

(١) الكتاني: سلوة الأنفاس، ج ٣ من ٢٧٦، ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق ج ٢ من ٣٠٢.

(٣) الكتاني: المصدر السابق ج ٢ من ١٥٧، ابن القاضي: جنوة الاقتباس، ص ٢٥٩.

(٤) الكتاني: المصدر السابق ج ٢ من ١٤٧.

(٥) المصدر السابق ج ٢ من ٢٧٧.

(٦) عبد الوهاب عبد المجيد غزlan: البيان في مباحث من علوم القرآن. للقاهرة من ٢١.

(٧) المرجع السابق. من ٣١، ٣٢.

غريب القرآن، ومبحث إعجازه وجده، وحقيقة ومجازه ونحو ذلك بما يرجع إلى اللغة، وهذا كله كان يدركه المسلمون الأوائل تمام الإدراك لتمكنهم من لغتهم، وما كان مرده إلى الوحي، كالوجوه التي نزل عليها ومعرفة ما نسخ من القرآن، وبيان ما كان يحتاج إلى بيان في القرآن فكل ذلك كان يوحى به إلى النبي - ﷺ - وكان النبي يبلغه لأصحابه. أما ما هو من قبيل الحوادث فيتمثل فيما كان يقع بين ظهورهم مثل أسباب النزول، والنزول في وقت كذا، أو مكان كذا فإن هذا أيضا كانوا يعرفونه بأنفسهم، ويحيطون به بمجرد وقوعه. لكن الصحابة - رضي الله عنهم - لم يدروا كل هذه العباحث لأن رسول الله - ﷺ - كان قد نهى عن كتابة أي شيء غير القرآن، فروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه» <sup>(١)</sup>.

لهذا لم يدون الصحابة هذه الأبحاث، ولكنهم لم ينقطعوا عن روایتها لنشرها بين المسلمين، وظل الأمر على هذه الحال يتناقله الرواة طبقة عن طبقة دون أن يدونوا شيئاً حتى ظهر خلال القرن الثاني الهجري عدد قليل من المؤلفات في هذه الأبحاث، كالذى يروى عن قتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة ١١٨هـ من أنه كتب مؤلفاً في الناسخ والمنسوخ <sup>(٢)</sup>.

وبازاه علم التفسير كان التأليف الموضوعى في موضوعات تتصل بالقرآن ولا يستغنى المفسر عنها.

فألف على ابن المدينى شيخ البخارى المتوفى سنة ٢٢٤ هجرية في أسباب النزول. وألف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤ هجرية في الناسخ والمنسوخ، وفي القراءات.

وألف ابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هجرية في مشكل القرآن.

وألف محمد بن خلف بن المرزيان المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية الحاوى في علوم القرآن.

(١) عبد الوهاب عبد المجيد غزلان: البيان من ٣٣٠٣٤.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٤.

وألف أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨ هجرية في علوم القرآن.

وألف أبو بكر السجستاني المتوفى سنة ٣٣٠ هجرية في غريب القرآن. وألف محمد بن علي الأدفوبي المتوفى سنة ٢٨٨ هجرية، الاستفباء في علوم القرآن. ثم تتابع التأليف بعد ذلك.

فألف أبو بكر الباقياني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ في إعجاز القرآن، وعلى بن إبراهيم بن سعيد الحوفي المتوفى سنة ٤٣٠ هجرية في إعراب القرآن والماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ في أمثال القرآن. والعز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هجرية في مجاز القرآن. وعلم الدين السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ هجرية في علم القراءات. وابن القيم المتوفى ٧٥١ هجرية في «أقسام القرآن».

وهذه المؤلفات يتناول كل مؤلف منها نوعاً من علوم القرآن ويفحصها من مباحثه المتصلة به.

أما جمع هذه المباحث وتلك الأنواع - كلها أو جلها - في مؤلف واحد فقد ذكر الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان في علوم القرآن» أنه ظفر في دار الكتب المصرية بكتاب مخطوط لعلى بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي، اسمه «البرهان في علوم القرآن» يقع في ثلاثين مجلداً يوجد منها خمسة عشر مجلداً غير مرتبة ولا متعاقبة، حيث يتناول المؤلف الآية من آيات القرآن الكريم بترتيب المصحف فيتكلم عما تشتمل عليه من علوم القرآن، مفرداً كل نوع بعنوان، فيجعل العنوان العام في الآية «القول في قوله عز وجل» ويدرك الآية، ثم يضع تحت هذا العنوان «القول في الإعراب» ويتحدث عن الآية من الناحية النحوية واللغوية، ثم «القول في المعنى والتفسير» ويشرح الآية بالتأثير والمعقول، ثم «القول في الوقف والتمام» ويبين ما يجوز من الوقف وما لا يجوز، وقد يفرد القراءات بعنوان مستقل فيقول «القول في القراءة» وقد يتكلّم عن الأحكام التي تؤخذ من الآية عند عرضها.

والحوفي في بهذا النهج يعتبر أول من دون علوم القرآن، على النمط الخاص

الأنف الذكر، وهو المتوفى سنة ٥٩٧ هجرية في كتابه «فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن»<sup>(١)</sup>.

ثم جاء بدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ هجرية وألف كتاباً سماه «البرهان في علوم القرآن»<sup>(٢)</sup>.

ثم أضاف إليه ببعض الزيادات جلال الدين البلقيني المتوفى سنة ٨٢٤ هجرية في كتابه «موقع العلوم من موقع النجوم».

ثم ألف جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية كتابه المشهور «الإتقان في علوم القرآن»<sup>(٣)</sup>.

### التفسير :

نزل القرآن بلغة العرب ففهمه الصحابة وأدركوا أسرار بلاغته. وقد فصل لهم رسول الله المجمل من تراكيبيه وأياته، وقيد المطلق منها، وخصص عامتها، وعرفهم أسباب النزول، وميزلهم الناسخ من المنسوخ، فاتسعت معلوماتهم عن القرآن، ونقل عنهم التابعون كل هذه المعلومات.

ولما اتسعت الفتوح الإسلامية ودان كثير من أهل البلاد المفتوحة بالإسلام وجدت الحاجة إلى تفسير القرآن حتى يفهمه هؤلاء المسلمين من الأعاجم، فأخذ بعض كبار الصحابة من أمثال على بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب على ضوء ما سمعوه من رسول الله وما اهتدوا إليه من فهم، ويعتبر هؤلاء وأمثالهم مؤسسي مدرسة التفسير في الإسلام.

وقد سار التابعون على هديهم ونسجوا على منوالهم أمثال زيد بن أسلم ومحمد بن كعب القرظي من أهل المدينة، وسعيدي بن جبیر وعطاء بن أبي رياح من أهل مكة، والحسن البصري ومسروق بن الأجدع من أهل العراق، وغيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى.

(١) توجد منه نسخة مخطوطة غير كاملة في المكتبة التيمورية.

(٢) نشره وحققه الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم في أربعة أجزاء.

(٣) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن ص ١٢-١٤.

وقد اتجه العلماء في تفسير القرآن اتجاهين أطلق على أحدهما التفسير بالتأثر وهو الاعتماد في تفسير القرآن على ما أثر عن النبي ﷺ وكبار الصحابة رضي الله عنهم، وأطلق على الثاني التفسير بالرأي وهو ما يعتمد فيه على العقل علاوة على ما صح من النطق. ومن أشهر المفسرين بالتأثر عبد الله بن عباس الذي تحرى الدقة في قبول الأحاديث والآثار التي استند إليها في تفسيره، وعلى مر الزمن اتسع التفسير بالتأثر بسبب ما أضيف إليه من أقوال أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام من أمثال: وهب بن منبه وكتب الأحبار وعبد الله بن سلام وغيرهم فيما يتعلق بيده الخليقة وأسرار الوجود وأسباب المكونات وغير ذلك مما لا يعد من أحكام الدين التي تتوقف على معرفتها صحة العقيدة ويترتب عليها التكليف.

أما أول من دون في التفسير بالتأثر أو بالرواية فنجد من أقدمهم عبد الرزاق بن نافع الحميري «المتوفى بصنعاء سنة ٢١١هـ» فقد دون من روایته عن شيوخه تفسيراً كاملاً توجد نسخة مخطوطة منه بدار الكتب المصرية بالقاهرة، ويعتبر أصلاً لكل كتب التفسير بالتأثر بعده. كذلك نجد من بين القدامى في المشرق الإسلامي: محمد بن جرير الطبرى في تفسيره «جامع البيان، عن تأويل آى القرآن» و هو مطبوع ومشهور.

أما المحدثون فنحن نجد منهم عناية بإيراد الآثار التي صحت روایتها في التفسير في أبواب كثيرة يجمعها اسم «كتاب التفسير» نجد ذلك في الجامع الصحيح لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري «المتوفى سنة ٢٥٦هـ» وجامع الصحيح لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري «المتوفى سنة ٢٦١هـ»، وسنن كل من الترمذى عيسى بن سورة السلمى «المتوفى سنة ٢٧٥هـ» وموقىيل ٢٧٩هـ وأبى داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستانى «المتوفى سنة ٢٧٥هـ»، وابن ماجة محمد بن يزيد القزوينى «المتوفى سنة ٢٧٥هـ» والمجتبى أبى عبد الرحمن بن شعيب «المتوفى سنة ٣٠٣هـ» أما أقدم المدونين في التفسير بالرأي فهو مقاتل بن سليمان الأزدي الخراسانى «المتوفى سنة ١٥٠هـ».<sup>(١)</sup>

(١) الدكتور مصطفى زيد: دراسات في التفسير. دار الفكر العربي من ١١، ١٢.

ومن أهم كتب التفسير بالرأي مفاتيح الغيب للرازي، والكتشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري «المتوفى سنة ٥٣٨هـ».

وقد اعتمد علماء الفقه على القرآن في بيان الأحكام الشرعية وفسروا الآيات التي تستنبط منها الأحكام وألفوا كتبًا في ذلك سموها «أحكام القرآن» كما وجد علماء اللغة في القرآن مادة خصبة يعتمدون فيها على استنباط قواعد اللغة العربية، وقد اهتدوا بالأعراب إلى فهم تركيب القرآن واستعنوا بما يعرفون من فقه اللغة على كشف غوامض بعض الألفاظ، ساعدتهم ذلك كله على تفسير القرآن، ووضع بعضهم مثل الكسائي والمبرد والفراء كتبًا في التفسير سموها «معانى القرآن».

ولما كان القرآن يعتبر من أهم المصادر التاريخية فقد عنى بعض المؤرخين بتفسير الآيات التي تستمد منها المعلومات التاريخية مثل الآيات التي بينت موقف اليهود من النبي عليه الصلاة والسلام في سورة البقرة والأحزاب وما جاء عن مملكة سبا في سورة النمل وما ورد في بعض سور القرآن من آيات يستدل منها على كثير من جوانب حياة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد سلك الشيعة في تفسير القرآن سبيلاً مختلفاً تماماً عن الطريق التي سلكها غيرها، وادعوا أن العلم نوعان علم الظاهر وهو: ما يعرفه عامة الناس، وعلم الباطن وهو: ما اختصوا وحدهم بمعرفته، ولذلك أطلق عليه اسم «الباطنية»، وقد خرجن بالألفاظ عن كدلولاتها الظاهرة إلى مدلولات خفية.

ومدرسة التفسير بالرأي هي المدرسة التي سادت في الأندلس وإن لم يخل الأمر من وجود بعض بذور مدرسة التفسير بالرأي<sup>(١)</sup>.

وأشهر المفسرين الذين ظهروا في الأندلس هو أبو عبد الرحمن بقى بن مخلد

المتوفى ٢٧٦هـ/٨٨٩م<sup>(٢)</sup>.

(١) د. محمد عبد الحميد عيسى تاريخ التعليم في الأندلس دار الفكر العربي، مكتبة التربية الإسلامية. الكتاب الرابع. الطبعة الأولى ١٩٨٢م: من ٢٨٤.

(٢) المقري: نفح الطيب: ج ٤ ص ١٦٢.

وأبو محمد مكي بن أبي طالب ٤٣٧هـ/١٠٤٥ م الذي كتب تفسيره المعنى  
«الهداية» وهو من عشرة أسفار، ويعرف أيضا باسم تفسير القرطبي<sup>(١)</sup>.

وقد عرف المغرب على عهد دولة المرابطين بعض النشاط المتعلق بدراسة  
تفسير القرآن الكريم، حيث نهض بأعباء هذه الدراسة رجال الفكر والمعرفة الأندلسية  
الذين انتقلوا إلى المغرب وهم يحملون معهم كثيرا من المعاويف والعلوم ولا سيما  
الدينية<sup>(٢)</sup>.

ولما كان المرابطون متمسكين بالإسلام على مذهب الإمام مالك فقد نهض  
فقهاؤهم وعلماؤهم منهج التفسير الحرفي للقرآن الكريم والحديث الشريف، ورفضوا  
الأخذ بتأويل المتشابه من الآي والحديث، وينهض دليلا على ذلك أن الإمام مالك  
عندما سئل عن تفسيره «الرحمن على العرش استوى» قال: الاستواء معلوم والكيفية  
مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة<sup>(٣)</sup>.

أما كتب التفسير التي اعتنقت عليها الدراسات المذكورة في المغرب في العهد  
المرابطي فهي بعض كتب التفسير الذي صنفها العلماء الأندلسية المالكية مثل:  
كتاب التفسير الذي صنفه أبو عبد الرحمن بقى بن مخلد توفي ٢٧٦هـ/٨٨٩ م  
بالأندلس والذي قيل فيه أنه لم يوْلِف في الإسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير  
الطبرى ولا غيره<sup>(٤)</sup>.

ومن كتب التفسير الأخرى التي طار صيتها في بلاد المغرب والأندلس وفي  
المشرق وكان صاحبها من الأندلسية الذين عاصروا الدولة المرابطية كتاب التفسير  
لأبى محمد بن عطية الغرناطى ت ١٤٢هـ/٥٤٢ م والذي قال عنه الضبى «ألف فى  
التفسير كتابا ضخما أربى فيه على كل مقدم»<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرى: نفح الطيب ج ٤ من ١٧١.

(٢) عبد العباس إبراهيم حمادى: المركبة الفكرية من ٢٦٣.

(٣) الشهريستاني: العمل والتحل (القاهرة ١٩٧٧ م) ص ٣٩، الفرق بين الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي.

(٤) بنغازي ١٩٦٩ ص ٢٤١.

(٥) ابن بشكوال: الصلة من ١١٦.

(٦) الضبى: بقية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس (القاهرة سنة ١٩٦٧ م) ص ٣٨٩.

ومن العلماء الأندلسيين ابن الخصال الغافقي الذى سكن مراكش ما يقرب من ثلاثةين عاما فى عهد الدولة المرابطية، واستغل بعلم التفسير بها، والذى كان أنه علماء البلاط المرابطى عند على بن يوسف بن تاشفين ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م<sup>(١)</sup>.

وقد تطورت الدراسات الخاصة بعلم التفسير على عهد الدولة الموحدية تطورا كبيرا قياسا إلى ما كانت عليه فى عهد أسلافهم المرابطين، والدليل على ذلك كثرة الشخصيات العلمية التى استغلت بهذا العلم والتى ذكرتها كتب التراجم علما بأن أغلب الشخصيات المذكورة تم استدعاؤها من بلاد الأندلس من قبل الحكام الموحدين لأغراض علمية<sup>(٢)</sup>.

وقد نهج الموحدون نهجا فى دراسة علم التفسير يختلف عن المنهج الذى سار عليه المرابطون المالكيون حيث إنهم كانوا ينولون المتشابه من الآيات والأحاديث<sup>(٣)</sup>، إضافة إلى ذلك أن أحد علماء التفسير وهو أبو القاسم السهيلي الذى كان مكرما عند الموحدين<sup>(٤)</sup> صنف كتابا فى التفسير سماه «التعريف والإعلام فيما أبهم فى القرآن من أسماء الأعلام» وعند تفسيره لبعض الآيات أولها تأويلا شيعيا حيث قال: فقوله تعالى: «إِنَّمَا أَنْتَ مِنْذُرٌ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادِيٌّ»، دروى ابن الأعرابى عن طريق سعيد.. قال: لما نزلت منذر ولكل قوم هاد، قال رسول الله - ﷺ - أنا المنذر وأنت يا على هاد بك يا على اهتدى المهدتون<sup>(٥)</sup>.

ومن أشهر علماء التفسير الأندلسيين فى عهد الموحدين، أبو الحسن على بن محمد الغرناطى الذى سكن فى الجانب الشرقي من مدينة مراكش وتوفى بها سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م وكان من العلماء الذين بلغوا فى علم التفسير إلى درجة أن أستاذه أبا بكر بن العربي المعاورى كان يتوقع له هذه المنزلة العلمية الرفيعة بالعلم المذكور، إذ

(١) المراكشى: المعجب ص ١٧٣، ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ ص ٢٨٨.

(٢) الغربيني: عنوان الرابية، تحقيق: عادل نويهض (بيروت ١٩٦٩) ص ٢٠٣، ٢٩٧، ٢٩٨.

(٣) ابن تورت: أعز ما يطلب ص ٢٢٢-٢٣٤.

(٤) عبد العباس إبراهيم الحمادى: الحركة الفكرية ص ٢٦٦.

(٥) أبو القاسم السهيلي: التعريف والإعلام فيما أبهم فى القرآن من أسماء الأعلام (القاهرة ١٩٣٨) ص ٥٧، ١٠١.

أقبل عليه المراكشيون لغرض دراسة علم التفسير فكان «يفسر لهم القرآن من أوله إلى آخره فنفع الله به خلقاً كثيراً»<sup>(١)</sup>.

ومنهم أبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب السهيلي الذى استدعاه المنصور الموحدى إلى عاصمة مراكش لكي ينتفع سكان العاصمة بما لديه من علم، وتصدر فيها للتدريس إلى أن توفي بمراكش سنة ١١٨٥هـ/١١٨٥م<sup>(٢)</sup>.

وعرف من علماء التفسير فى عصر بنى مرين بأنهم كانوا يعتمدون اعتماداً كبيراً على الحديث، وخاصة النوع النقلى منه، وهو الذى يعتمد على المأثور<sup>(٣)</sup>. وبهذا يكون علماء التفسير فى عصر بنى مرين قد نهجوا نهجاً مخالفًا فى دراسة التفسير عن النهج الذى سار عليه علماء التفسير فى عصر الموحدين الذين كانوا ينولون المتشابه من الآيات والأحاديث<sup>(٤)</sup>.

وطبيعى أن تنشط حركة التفسير فى عصر بنى مرين لما عرف عن سلاطين بنى مرين من الاهتمام البالغ بالقرآن باعتباره المصدر الأول للتشريع الإسلامى<sup>(٥)</sup>.

لذلك برز فى علم التفسير العديد من العلماء، تذكر منهم محمد بن على المعروف بابن البقال المتوفى سنة ١٣٢٤هـ/١٢٥٢م<sup>(٦)</sup>، ومحمد بن على العابد الأنصارى المتوفى سنة ١٣٦٢هـ/١٧٦٢م والذى من أهم أعماله فى هذا المجال اختصاره لتفسير الزمخشري وتجريده له من مسائل الاعتزال<sup>(٧)</sup>.

ومن هؤلاء المفسرين ابن البناء العددى، الذى كانت له عدة موضوعات فى التفسير وحاشية على الكشاف للزمخشري<sup>(٨)</sup> ومحمد بن أبي البركات السكاك المتوفى

(١) ابن الموقت : السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية (الدار البيضاء) ص ٨٤.

(٢) عبد العباس إبراهيم حمادى : الحركة الفكرية من ٢٦٨.

(٣) د. على عبد الواحد وافق : عبد الرحمن بن خلون من ٢٧٥.

(٤) ابن تومرت : أعز ما يطلب. الجزائر من ٢٣٢-٢٢٤.

(٥) السلاوى : الاستقصاج ٢ ص ١٠١.

(٦) الكتانى : سلوة الأنفاس ج ٢ ص ١٥٩، ١٥٨.

(٧) ابن القاضى : جذوة الاقتباس من ١٤٤، عبد الله كنون : النبوغ المغربي ج ١ ص ١٩٤.

(٨) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ١٤٤.

سنة ١٤١٥هـ/١٣٩٧م<sup>(١)</sup>، وأيضاً محمد بن أبي غالب بن أحمد السكاك المتوفى سنة ١٤١٨هـ/١٣٩٠م<sup>(٢)</sup>.

ولم تنحصر حركة التفسير على نشاط علماء المغرب وحدهم، لكنها شملت هؤلاء الوافدين على دولة بنى مرين من علماء الدول الأخرى. أمثال محمد الهاشمي بن أبي القاسم بن نفيس الشريفي، الذي خرج السلطان أبو سعيد عثمان المريني للقائه والترحيب به حين قدومه من العراق إلى فاس<sup>(٣)</sup>، ومنهم أيضاً الخطيب بن مرنوق الذي رحل من الأندلس وكان له نشاط ملحوظ في التفسير أثناء إقامته بالمغرب. كما شملت حركة التفسير تداول الكتب الواردة من خارج المغرب، والتي أحتل بعضها مكاناً مرموقاً بين الخاصة وال العامة، مثل التأليف الخاص بشرف الدين الطيبى من أهل العراق، والذي تناول فيه شرح كتاب الزمخشري، وتتبع فيه الفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بالأدلة التي تبطلها، وتوضح أن البلاغة إنما تكون في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة<sup>(٤)</sup>

#### علم الحديث :

هو «علم تعرف به أقوال رسول الله - ﷺ - وأفعاله من قول، أو فعل، أو تقرير أو صفة، وهو مرادف للسنة، كما أنه أصل من التشريع الإسلامي ومرتبته تلى مرتبة القرآن في الاستدلال<sup>(٥)</sup>».

وقد عنى الصحابة رضي الله عنهم برواية الحديث. وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: سمعت على بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: خرج علينا رسول الله - ﷺ - فقال: «اللهم ارحم خلقائي» قلنا : يا رسول الله، ومن خلفاوك؟ قال «الذين يرون أحاديثي ويعلمونها الناس».

(١) الكتاني: سلوة الأنفاس ج ٢ ص ١٤٦.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٤، ١٤٥، ابن القاضي: المصدر السابق ص ١٤٨.

(٣) الكتاني: المصدر السابق ج ٢ ص ١٧.

(٤) ابن حذرون: المقدمة ص ٤٠٥.

(٥) المصدر السابق: المقدمة ص ٤٠٦، ٤٠٥.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يتحرون الدقة في قبول كل ما يروى عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ومن أمثلة ذلك ما رواه الحافظ الذهبي من أن عمر بن الخطاب قال لأبي موسى الأشعري - وقد روى له حديثاً - لتأتيني على ما تقول ببینة، فخرج أبو موسى فإذا ناس من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا: سمعنا هذا من رسول الله، وذهب إلى عمر من شهد عنده بأنه سمع هذا الحديث من رسول الله فقال عمر لأبي موسى: «أما إني لم أتهمك ولكنه الحديث عن رسول الله»، وفي رواية: «ولكنني أردت أن أثبّت».

كما كان كبار الصحابة يقلون من رواية الحديث ويتحرجون من الإكثار منها مخافة الكذب على رسول الله، ولنلا يشغل الناس برواية الحديث عن تلاوة القرآن وحفظه.

وبعد عهد الخلفاء الراشدين شاعت رواية لدراسة أحوال الرواية وتكوين فكرة صحيحة عن حال كل واحد منهم، ووصفه بما ثبت عنه من عدالة أو جرح أو إتقان وضبط أو غفلة، وغير ذلك من الأوصاف التي تجعل روایته مقبولة أو مردودة.

كما بحثوا في الإسناد ووضعوا اصطلاحات متعددة تدل على مدى صحة الحديث، مثل المتواتر والصحيح والحسن والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب، وغير ذلك من الأسماء التي اصطلحوا عليها. وسمى هذا النوع من الدراسة «علم الحديث دراسة» كما سمي نقل الحديث وهو ما يعرف عنه بالمعنى «علم الحديث رواية».

وكان كبار الصحابة ينهرن عن كتابة الحديث مخافة أن يلتبس بالقرآن، روى الزهري عن عمر أنه رد من اقترح عليه تدوين الحديث بقوله «إني والله لا ألبس كتاب الله بشيء» وكان بعض الناس قد كتبوا أحاديث سمعوها من أبي موسى الأشعري فلما علم أبو موسى بذلك أخذ ما كتبوه ومحاه وقال لهم: احفظوا عنا كما حفظنا.

وقد كان العرب يمتازون بقوة الحفظ، ويعتمدون على ذاكرتهم في تحصيل العلم، فلما اختلطوا بغيرهم من أهل البلاد المفتوحة الذين كانوا يعتمدون على التدوين في التحصيل أكثر من اعتمادهم على الحفظ اتجه الرأي إلى تدوين الحديث مخافة أن ينسى، وحتى لا يزداد عليه أو ينقص منه، ويقال إن عمر بن عبد العزيز هو أول من أمر بتدوينه ثم شاع التدوين بعد ذلك.

ومن أشهر أنمة الحديث في القرن الثاني للهجرة الإمام مالك بن أنس بالمدينة، وهو الذي جمع كتاب الموطأ في الحديث استجابة لطلب الخليفة العباسى أبي جعفر المنصور، وقد عاصره وحماد بن سلمة في البصرة وسفيان الثورى في الكوفة والأوزاعى في الشام، واللith ابن سعد في مصر، وابن المبارك في خراسان، وغيرهم من الأنمة.

ومن أشهرهم في القرن الثالث الإمام أحمد بن حنبل جامع كتاب المسند المتوفى سنة ٢٤١هـ، وقد أخذ عنه الإمام محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ. ولقد اشتهر البخاري بشدة التحرى في الأحاديث، وتفوق على من سبقه من المحدثين في قوة الحفظ ومعرفه أقمار الرواية، وطوف البخاري في كثير من البلاد يتلقى الحديث من أشهر المحدثين بها، وقد استغرقت رحلاته ست عشرة سنة تنقل في أنحائها بين عدد كبير من المدن المشهورة وجمع في كتابه «صحيحة البخاري» مائتين وتسعة آلاف حديث متكررة ورتبه على سبعة وتسعين كتابا كل كتاب يحتوى على عدد من الأحاديث تدور حول معنى واحد أو معانٍ متقاربة متصل بعضها ببعض ، كتاب بهذه الوحي وكتاب الإيمان والإسلام، وكتاب الوضوء وكتاب الصلاة إلى غير ذلك من الأبواب، وكان البخاري يتوضأ ويصلى قبل أن يدون الحديث.

ثم جاء بعد البخاري تلميذه مسلم بن الحجاج القشيري المتوفى سنة ٢٦١هـ، وقد امتاز مثل أستاذه بكترة رحلاته في طلب الحديث وجمع كتابه «صحيحة مسلم» وهذا في جمده حذو أستاذه في نقل المجمع على صحته من الأحاديث، وبوبيه على أبواب الفقه، ولكنه لم يكرر ذلك الحديث في عدد من الأبواب لمناسبة كل منها، بل يقتصر على ذكره في باب واحد فقط.

ولم يستوف البخاري ومسلم كل الصحيح من الأحاديث، وجاء بعدهم من أنمة الحديث أبو داود والترمذى وابن ماجة والنمسانى، وجمع كل واحد منهم كتابا سماه الصحيح، وبذلك كمل عدد كتب الصحاح ستة وهى أهم مراجع السنة.

ثم اهتم العلماء بعد ذلك بشرح الأحاديث، ومن أشهر من عنى بشرح كتب الحديث البغوى والنورى والعسقلانى والعزيزى والسيوطى والقسطلانى وغيرهم.

ونهج الشيعة في قبول الأحاديث منهجاً يختلف عن منهج أهل السنة، فلم يقبلوا من الأحاديث إلا روى عن أنتمهم، ومن أشهر جامعي الحديث من الشيعة الكليني وابن حبوب والطوسى ونجم الدين المحقق.

ولما كان علم الحديث<sup>(١)</sup> المصدر الثاني من مصادر التشريع فقد أدى ذلك إلى تعدد أساتذة الحديث ومدارسه في مختلف مراكز الثقافة في الأندلس كما هو الحال في كافة بلدان العالم الإسلامي<sup>(٢)</sup>.

يقول ابن عبد البر القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م: إن أول ما نظر فيه الطالب، وعنى به العالم، بعد كتاب الله عز وجل، سنة رسوله - ﷺ -، فهي المنبنة لمراد الله عز وجل من مجلات كتابه، والدالة على حدوده، والمفسرة له والهادبة إلى الصراط المستقيم<sup>(٣)</sup>.

لذلك فقد تعدد أساتذة الحديث ومدارسه في مختلف مراكز الثقافة في الأندلس منذ وقت مبكر، واشتهر من هؤلاء عدد كبير.

وأول من ظهر من علماء الحديث في الأندلس محمد بن وضاع المتوفى ٢٨٧هـ / ٩٠٠م، مولى عبد الرحمن بن معاوية، وكان قد رحل إلى المشرق رحلتين في طلب الحديث، وكان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه، متكلماً على عله وبفضل جهوده وجهود بقى بن مخلداً المتوفى ٢٧٦هـ / ٨٨٩م أصبحت الأندلس دار حديث<sup>(٤)</sup>. فقد كان بقى بن مخلد القرطبي من أساطير علماء الحديث بقرطبة زمن الإمارة، رحل إلى المشرق ولقي جماعة من آئمة المحدثين وكبار السندين بلغ عددهم ٢٨٤ رجلاً، وهو الذي ملا الأندلس حديثاً ورواية، وصنف عدداً من الكتب<sup>(٥)</sup>، ومن كبار علماء الحديث

(١) تعددت العلوم المتشعبة عن الحديث فكان: النسخ والمنسخ، وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها، والنظر في الأسانيد، ومعرفة شروط السند، ومعرفة الرواية، ومراتب الصحابة والتابعين وتقاويمهم في ذلك، والألفاظ، الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والشاذ والغريب، والخلافات بين آئمة الشأن، والوفاق بين آئمة الشأن، وغير ذلك من الألقاب وكيف أخذ الرواية بعضهم عن بعض: قراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة، وتقاويم رتبها، وأحوال النقلة، ... إلخ ابن خالدون: المقدمة ص ٤٠٥.

(٢) د. محمد عبد العميد عيسى: تاريخ التعليم من ٢٠٠.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ص ٢.

(٤) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس قسم ٢، ص ١٦، ترجمة رقم ١١٣٦.

(٥) المصدر السابق: قسم ١، ص ٩٢، ترجمة رقم ٢٨٣.

في عهد الناصر قاسم بن أصيغ البياني تلميذ بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح وكان بصيرا بالحديث والرجال، وصنف على كتاب السنن لأبي داود كتابا في الحديث سماه المجتني<sup>(١)</sup> وأبو عبد الله محمد بن أحمد القنطوري القرطبي المتوفى سنة ٩٥٩هـ/١٤٤٨م وكان عالما بالحديث، صحيح، النقل حافظا، وألف عدة مصنفات في فقه الحديث، منها فقه الحسن البصري في سبعة مجلدات، وكتاب فقه الزهرى<sup>(٢)</sup> ومنهم في زمن الطوائف عثمان بن سعيد بن عمر الأموي القرطبي المتوفى سنة ١٠٥٢هـ/٤٤٤م صاحب المقنع والتيسير، وكان أحد الأئمة في علوم القرآن ورواياته وتفسيره وفي الحديث وطرقه وأسماء رجاله<sup>(٣)</sup>، وأبو الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضي المتوفى ١٠١٢هـ/٤٤٣م صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس<sup>(٤)</sup>.

وفي المغرب لم يكن لعلم الحديث حظ يذكر قبل ظهور المرابطين<sup>(٥)</sup> ومن ثم كان تطور علم الحديث في العصر المرابطي بطينا، ومن الشخصيات الأندلسية التي هاجرت إلى عاصمة المرابطين واستوطنتها واستغلت بتدريس الحديث : عبد الله بن محمد بن قاسم بن منصور اللخمي الذي ولى قضاء الجماعة بمدينة مراكش وكان من رجال الحديث، روى عنه وناظر عنده أبو الفضل بن عياض توفي سنة ٥١٣هـ/١١١٩م<sup>(٦)</sup>.

ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الأنصاري الذي استوطن عاصمة المرابطين وكان من رجال العلم والمعرفة، وله عناية خاصة بعلم الحديث ورواياته عارفا بطرقه وصحيحه وسقيه، فضلا عن إمامه بعلوم أخرى درس عليه علم الحديث بمراكش جماعة منهم ابنه أبو العباس وتوفي بمراكش سنة ٥٢٣هـ/١٢٨١م<sup>(٧)</sup> ومنهم مالك بن يحيى بن وهب سكن مراكش وتوفي بها سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م وكان يحيط بعلوم كثيرة منها علم الحديث الذي اشتغل بتدريسه بمدينة مراكش، كما أنه هو الذي

(١) المقرى: نفح الطيب ج ٢ ص ٤١٨.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٤١٨.

(٣) المصدر السابق: ج ٢ ص ٣٣٥.

(٤) المصدر السابق ص ٣٣٠.

(٥) محمد عثمان المراكشي: الجامعة اليوسفية (الرباط ١٩٣٧) ص ١٨٤.

(٦) ابن الأبار: المقتضب من كتاب تحفة القارئ، تحقيق: إبراهيم الإباري (القاهرة ١٩٥٧).

(٧) ابن القاضي: جذوة الاقتباس ق ٢ ص ٤٠٨، ٤٠٩، ٤٠٨ العباس بن إبراهيم: الأعلام من حل بمراكش وأعمال

من الإعلام (الرباط ١٩٧٤) ج ٨ ص ٥٦، ٥٥.

ناظر المهدى بن تومرت بحضور على بن يوسف بن تاشفين بمسجد ابن يوسف<sup>(١)</sup>.  
هذا فضلاً عن شخصيات علمية أندلسية أخرى سكنت المغرب في العهد  
المرابطي واستقلت بتدريس الحديث<sup>(٢)</sup>.

ومن العلماء الأندلسيين الذين وفدوا على العاصمة المرابطية مراكش واستغلوا  
بتدريس الحديث منهم محمد بن إسماعيل بن عبد الملك الصدفي الذي توفي بمراڭش  
سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م، ومحمد بن أبي عمرو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن  
أحمد الأندلسي الذي حدث بمراڭش فنفع الله بعلمه كثيرين وتوفي بمدينة أشبيلية سنة  
٥٤٣هـ/١١٤٨م<sup>(٣)</sup>.

وفي العصر الموحدى يبدو أن اهتمام الموحدين بدراسة علم الحديث كان نابعاً  
من مذهبهم الديني حيث فرضت الدولة على المواطنين الدراسات الإجبارية للحديث،  
وقد جعل لمن يحفظ حديث الرسول ﷺ الجوائز السنوية<sup>(٤)</sup>.

ومن علماء الحديث الأندلسيين الذين سكنا المغرب في العهد الموحدى: محمد  
بن إبراهيم ابن الفخار الانصاري استدعا إلى العاصمة الموحدية من قبل ملوكها  
الموحدين وتوفي بها سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م<sup>(٥)</sup>. وقد كان من أحفظ علماء زمانه  
لل الحديث والفقه واللغات والأداب والتاريخ آية في ذلك من آيات الله<sup>(٦)</sup>.

ومن هؤلاء أيضاً: محمد بن عبد العزيز بن خلف بن عبد العزيز المعاافري، سكن  
مدينة مراكش باستدعاء من المنصور الموحدى، عالم بعلوم كثيرة منها علم الحديث،  
فقد كان محدثاً راوياً عدلاً مكثراً صحيحاً السماع ثقة متقدماً في النحو، تصدر  
للتدرис بجامع المنصور الموحدى لما له من معارف، صنف بعض الكتب التي أقبل

(١) ابن بشكوال: الصلة ج ٢ ص ٦٢١ المراكشي: المعجب من ١٨٤، ١٨٥ المقري نفح الطيب ج ٣ ص ٦٢١.  
المراكشي: المصدر السابق من ١٨٤، ١٨٥ المقري نفح الطيب ج ٣ ص ٤٧٩، ٤٨٠ العباس بن إبراهيم  
ج ٨ ص ٥٤.

(٢) ابن بشكوال: الصلة ج ٢ ص ٥٨٠.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكلمة ج ٦ ص ٣٥٦-٣٦١.

(٤) المراكشي: المصدر السابق من ٢٧٨، ٢٧٩ التویری: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٢٥، ١٢٦.

(٥) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكلمة ج ٦ ص ٩٠-٨٧.

(٦) المصدر السابق: ج ٦ ص ٨٧ - ٩٠.

عليها المراكشيون قراءة ونسخا لأهميتها العلمية، وتوفي بمدينة مراكش سنة ١٢٠٤هـ / ١٩٨١م<sup>(١)</sup>.

ولقد لقى علم الحديث في عصر بنى مرين اهتماما كبيرا من أهل المغرب بصفة عامة، لذلك كانت كتب الحديث أوسع انتشارا من غيرها من الكتب الأخرى، وكان الأهالى يحرصون على تعليم الحديث لأبنائهم - فكان عبد الله محمد العبدوس، وهو أحد علماء الحديث في عصر بنى مرين يحفظ وهو صغير في كل يوم خميس أحاديث من صحيح مسلم، وكان والده يعطيه على حفظها درهما<sup>(٢)</sup>.

ومن العلماء الذين بربوا في هذا العلم في عصر بنى مرين محمد بن عبد الرحمن التميمي الذي كان يروي الحديث بأسانيده ومتونه، ويستظره مطولااته<sup>(٣)</sup>.

ويعتبر ابن رشد المتوفى سنة ١٢٢١هـ / ١٧٦٢م شيخ المحدثين في عصر بنى مرين، والذي اشتهر بأنه عالى الإسناد، صحيح النقل أصل الضبط تمام العناية بالصناعة الحديثية، فيما عليها بصيرا بها<sup>(٤)</sup>. كما كان على دراية كبيرة بعلم الجرح والتعديل المتصل بعلم الحديث<sup>(٥)</sup>.

ومن أنمة الحديث في ذلك العصر أيضا الحافظ عبد المهيمن الحضرمي، الذي كان حجة في حفظه ورجاله، كانت له أربعينات في الحديث، ومجلس لتدريس هذا العلم بتونس أيام بسط النفوذ المريني عليهما<sup>(٦)</sup>.

ويعتبر محمد بن عبد الرزاق الجزوئي من أشهر علماء الحديث في عهد السلطان أبي عنان حيث كان يأخذ السلطان عنه الحديث<sup>(٧)</sup>.

ومن اشتهروا أيضا بهذا العلم في عصر بنى مرين : محمد بن سعيد بن محمد

(١) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكميل: ج ٦ ص ٣٨٢.

(٢) الكتани: سلوة الأنفاس ج ٢ ص ٣٠٢.

(٣) ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص ١٣٩.

(٤) الكتاني: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٩١.

(٥) ابن القاضي: المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٦) ابن مرزوق: المسند الصحيح من ١٤٤، ابن القاضي: المصدر السابق من ٢٧٩. الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والغشصية. تحقيق: محمد ماسور. تونس ١٩٦٦ م من ٨٦.

(٧) الكتاني: المصدر السابق ص ٨٦.

بن عثمان الأندلسي المتوفى سنة ١٣٧٦هـ/١٢٧٨م الذي ألف في علم الحديث كتابه : «تحفة الناظر ونرفة الحاضر في غريب الحديث»، وكتابه «الجامع» الذي أعده في جزءين <sup>(١)</sup>.

ومن هؤلاء أيضاً أَحْمَدُ بْنُ قَاسِمَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَعْرُوفِ «بِالْقَبَابِ» وَالْمَتَوْفِي سنة ١٣٧٨هـ/١٢٧٨م حيث كانت له مجالسه في الفقه والأصول، وقد أخذ عنه عدد من جلة علماء المغرب كالشاطبى <sup>(٢)</sup>.

### أصول الفقه :

علم أصول الفقه هو النظر في الأدلة الشرعية من حيث الاستدلال بها على الأحكام والتکاليف، والأدلة الشرعية هي القرآن ثم السنة المبينة له، وفي عهد النبي -  - كانت الأحكام والتکاليف ينزل بها القرآن ويبينها الرسول للصحابة مشافهة أو بفعله معاينته، فلم تكن هناك حاجة إلى نقل ولا إلى نظر وقياس <sup>(٣)</sup>.

فلما أنتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، كان القرآن قد حفظ بالتواتر، وكانت السنة قد وعها الصحابة أفراداً وجماعات، وأجمعوا على وجوب العمل بما صح نقله منها، ثم جدت أمور لم يرد حكمها في الكتاب والسنة فلجأوا إلى الإجماع في تقرير حكمها لعصمة الجماعة من الخطأ واستحالة تواطئهم على الباطل، فأصبح الإجماع مصدراً ثالثاً من مصادر التشريع.

ثم قاسوا الأشباه على الأشباه والنظائر على النظائر وألحقو ما لم يبين حكمه بما بين حكمه بشرط اتحاد العلة في الشبيهين والنظيرين، وعرف ذلك بالقياس واعتبر مصدراً رابعاً من مصادر التشريع. وألحق بهذه الأدلة الرأى، وهو ما يراه القلب بعد إعمال الفكر والتجدد من الميل والهوى، والإخلاص في تحرى الحقيقة. ثم استند بعض الأئمة إلى مصادر أخرى في التشريع مثل رعاية المصالح المرسلة والاستحسان وسد الزرائع، وليس هنا مجال شرحها.

(١) الكتاني: سلوة الأنفاس، ج. ٣ من ٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص. ٦٠.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص. ٤١٨.

وأصول الفقه المتفق عليها ثلاثة: كتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله ﷺ،  
وأجماع الأمة، والمختلف فيها ثلاثة: القياس، والاستحسان، والاستصلاح<sup>(١)</sup>.

وأول مباحث هذا العلم هو الاستدلال على أن ما ذكر هو الأدلة. أما القرآن فدليله  
المعجزة القاطعة في متنه والتواتر في نقله، وأما السنة فالإجماع الصحابة على  
وجوب العمل بما صرحت به نقله منها، وأما الإجماع والقياس فلاتفاقهم رضي الله عنهم  
على الأخذ بهما، وأما الرأي فلإقرار النبي - ﷺ - معاذًا حين أرسله قاصدًا إلى اليمن  
على الاستعانة بالرأي في الحكم.

ثم إن المنقل من السنة يحتاج إلى البحث في طرق النقل وعدالة الناقلين،  
ومعرفة الناسخ من المنسوخ. وهذا مبحث آخر من مباحث العلم، ثم يأتي بعد ذلك  
البحث في دلالة الألفاظ على المعانى، وذلك يتوقف على معرفة الدلالات الوضعية  
للمفردات والجمل، ثم معرفة ما يفيده الأمر من الوجوب أو التدب أو التراخي، وما  
يقتضيه النهي من التحرير أو الكراهة، وتلك مباحث أخرى لذلك العلم.

ومن مباحثه أيضًا النظر في القياس والتحقق من أوجه الشبه بين المقياس  
والمقيس عليه، ومن اتحادهما في العلة، والتأكد من عدم وجود مانع من القياس في  
كل من المتماثلين. وهذه أهم المباحث التي يحتوى عليها علم أصول الفقه.

وأول ما دون في هذا العلم الإمام الشافعى، أملأ فيه رسالته المشهورة التي  
تكلم فيها عن الأوامر والنواهى والبيان والخبر والنحو وحكم العلة المنصوصة من  
القياس. ثم كتب فيها فقهاء الحنفية بتوسيع، وعلماء الكلام، ومنهم سيف الدين الأمدي،  
وقد لخص أبو عمرو بن الحاجب كتاب الأمدي في كتاب سماه «المختصر الكبير».  
ويبدو أن علم أصول الفقه في الجناح المغربي لم يحظ باهتمام العلماء  
المغاربة، وكان اعتمادهم الأساسي في هذا العلم على كتاب «الأحكام» للأمدي بن  
الحاجب المعروف «بالمختصر الكبير»، وذلك لأنهم كانوا ينتظرون إلى هذا العلم على  
أنه من العلوم الكمالية وليس من الضرورية<sup>(٢)</sup>.

(١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، القاهرة، ص ١٤.

(٢) ابن خلدون: المقدمة من ٤١٩-٤٢٢.

ولكن على الرغم من ذلك فإن عصر بنى مرين لم يخل من بعض الأسماء التي سطعت في سماء هذا العلم، والتي تناولت علم أصول الفقه بجانب دراستها لعلوم الفقه. ومن هؤلاء أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجزايمي المعروف «بالقىباب» والمتوفى سنة ١٣٧٦هـ/١٩٧٨م حيث كانت له مجالسه في الفقه والأصول، وقد أخذ عنه عدد من جلة علماء المغرب كالشاطبى، ومن مؤلفاته: «اختصار أعمال النظر لابن العطاف» وشرح على قواعد عياض، وشرح آخر على بيوغ ابن جماعة<sup>(١)</sup>.

#### الفقه :

ويسمى بعلم الدرأة وهو معرفة النفس ما لها وما عليها<sup>(٢)</sup>. لم يدرس الفقه كعلم مستقل في عهد النبي - ﷺ - وعهد الصحابة والتابعين، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يبين للناس أحكام دينهم بما ينزل عليه من القرآن وما يوحى إليه من السنة، وكان كبار الصحابة يفهمون القرآن والسنة حق الفهم، ويستنبطون منها الأحكام الشرعية، وما لم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة استندوا في تقرير حكمه إلى الاجماع وهو اتفاق آراء جميع مجتهدى الأمة على أمر من الأمور.

وكانت أول مسألة لجأ فيها الصحابة إلى الاجماع هي مسألة الخلافة، وكان الإجماع ميسوراً في صدر الإسلام لوجود كبار الصحابة في المدينة: ثم لجأوا بعد ذلك إلى القياس، وهو قياس ما لم يرد حكمه في الكتاب والسنة على ما ورد حكمه فيهما لاتفاق المقىيس والمقيس عليه في علة الحكم، ثم بعد ذلك إلى الرأي وهو ما يراه القلب بعد إعمال الفكر بشرط التجرد من الميل والهوى، وإخلاصه في تحري الحقيقة. وقد استندوا في ذلك إلى ما يروي من حديث دار بين النبي - ﷺ - وبين معاذ بن جبل حين أرسله النبي إلى اليمن ليقضى بين أهلها، فقال له رسول الله: «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟ قال معاذ: أقضى بما في كتاب الله. قال النبي: فإن لم يكن في كتاب الله، قال معاذ: فيسنة رسول الله. قال النبي: فإن لم يكن في سنة رسول الله، قال

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس من ٦٠.

(٢) التهانوى: كشاف اصطلاحات الفنون. تحقيق: د. طلفى عبد البديع. القاهرة: ١٩٦٣م. ص ٤١

معاذ: أجيته رايني لا آلو، ثم قال: فضرب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صدرى وقال: الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله: وبذلك أصبحت مصادر التشريع فى عهد الخلفاء الراشدين هى الكتاب والسنّة والإجماع والقياس والرأى، وقد سار التابعون على نهج الصحابة.

ولما كثرت الفتوح الإسلامية ودخل المجتمع الإسلامي عنصر جديد، وهم المسلمون من غير العرب بما كان لهم من عادات وتقالييد. ولم يكن لأكثربهم معرفة كاملة بمعانى ألفاظ اللغة العربية، ولا دراية تامة بفهم أساليبها المتنوعة، لذلك وجدت الحاجة إلى إفراد الأحكام الشرعية بالتدوين حتى تكون مرجعاً يرجع إليه الناس لمعرفة أحكام العبادات التي يتبعدها الفرد، والمعاملات التي يتعامل بها الناس بعضهم مع بعض، وغير ذلك من أحكام الميراث والزواج والطلاق والقصاص والحدود، وكل ما ينظم حياة الفرد والجماعة.

وقد بدأ التدوين في الفقه منذ القرن الثاني للهجرة، ومن أشهر العلماء الذين تخصصوا في دراسته: الإمام النعمان بن ثابت المكنى بأبي حنيفة، وهو فارسي الأصل، ولد بالكوفة سنة ٨٠، ومات ببغداد سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ مـ، ويقال إنه حج وهو في السادسة عشر من عمره وكان في صحبة أبيه وسمع عبد الله بن الحارث الصحابي<sup>١</sup> يحدث عن رسول الله، ورأى في المدينة الإمام مالك بن أنس وسمع منه. ولما رجع أبو حنيفة إلى الكوفة جلس إلى العلماء يتعلم منهم، وأخذ عن عطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة، ونافع مولى عبد الله بن عمر، وتلقى أكثر علمه عن أستاذه حماد بن أبي سليمان الأشعري.

وكان أبو حنيفة - مع اشتغاله بالعلم - يتاجر في الخز، ويجلس في الأسواق يبيع ويشتري، وقد أفاده ذلك علماً واسعاً بحقيقة ما يجري في الأسواق من معاملات الناس بعضهم ببعض، ولم يتخلى عن عمله في التجارة بعد إنتقاله إلى بغداد. وكانت التجارة تدر عليه ربحاً موفوراً يعيش منه.

وكان أبو حنيفة يعتمد على القياس والرأى في استنتاج كثير من الأحكام الفقهية، ويتحرى الدقة في قبول الحديث، ولا يقول الخبر عن رسول الله إلا إذا ثبت لديه عدالة رواته وضبطهم، أو اتفق فقهاء الأمصار على العمل به.

ويقال إنه ألف عدة كتب، منها كتاب الفقه الأكبر، وكتاب العلم والمتعلم، وكتاب الرد على القدرية، ولم يصل إلينا منها إلا الأول، وقد نقل تلميذه أبو يوسف في كتابه المسمى «كتاب الخراج»، أشهر راء الإمام في الفقه، وبخاصة ما يتعلق منها بالمعاملات، ويتبع مذهب أبي حنيفة ما يقرب من نصف أهل السنة في العالم الإسلامي الآن.

ومن فقهاء القرن الثاني للهجرة كذلك الإمام مالك بن أنس العربي الأصل. وقد اختلف المؤرخون في تاريخ مولده، فمنهم من روى أنه ولد سنة 93هـ، ومنهم من ذكر أنه ولد سنة 97هـ، وتوفي 179هـ/773م. وقد عاش الإمام مالك حياته كلها في المدينة وسمع الكثير من شيوخها كابن هشام الزهري ونافع مولى ابن عمر وغيرهما. وقد اتاحت لمالك معيشته في المدينة فرصة لم تتح لغيره من أئمة الفقه، حيث لم تتغير صورة الحياة في المدينة كثيراً مما كانت عليه في عهد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما أتاحت معيشته في المدينة أيضاً أن تتسع معرفته بما روى عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من أحاديث، ولذلك كان أكثر اعتماده في استنباط مذهبة على الحديث، وعلى السلوك العام لأهل المدينة، وقد جمع كتابه «الموطأ» بين الحديث والفقه، ويعتبر أقدم كتاب دون في الشريعة بعد كتاب «مجموع الفقه» المنسوب لزيد بن علي .

ثم جاء ثالث الأئمة المشهورين الإمام بن إدريس الشافعى القرشى من «١٥٠-٢٠٤هـ» وكان مولده في غزة بالشام، ثم انتقل في صباحه إلى المدينة وتلتمذ على الإمام مالك بها، ثم ارتحل إلى بغداد وأقام بها، ثم غادرها إلى الفسطاط وظل بها إلى أن توفي .

وقد جمع الشافعى بين طريقة أهل الحجاز الذين أكثروا على الاعتماد على السنة، وطريقة أهل العراق الذين أكثروا من الاعتماد على القياس والرأى، حيث عاش في كل من البيوتين وعرف مسلك هؤلاء وأولئك، فلم يبالغ في الاعتماد على السنة، ولم يغال في الأخذ بالقياس والرأى، ولكن سلك طريقة وسطاً بين الطرفتين .

وينسب إلى الشافعى أنه أول من وضع علم أصول الفقه، كما سبق الإشارة إليه، وللشافعى كتب كثيرة منها كتاب «المبسوط» وكتاب الأم الذي أملأه على تلاميذه في

مصر وهو ما في الفقه، ورسالة في أصول الفقه، وقد روی عنه كثیر من الفقهاء كأبی ثور وابن الجنید والبويطي وابن سریع وغيرهم.

اما رابع أصحاب المذاهب الاربعة المشهورة فهو الامام احمد بن حنبل الذي عاش من «١٦٤-٢٤١هـ» وهو تلميذ الامام الشافعی، وقد قال فيه أستاذہ عند خروجه من بغداد إلى مصر «خرجت من بغداد وما خلقت بها أتفى ولا أفقه من ابن حنبل».

وقد كان ابن حنبل من كبار المحدثین، ومذهبه في الفقه مبني على الحديث، ولم يكن يلجأ إلى القياس إلا عند الضرورة القصوى، وكان يقدم الحديث الضعیف عليه، ومسنده في الحديث كتاب جمع بين الحديث والفقہ مثل كتاب الموطأ الذي كتبه من قبل - الإمام مالک.

ولم يدون ابن حنبل في الفقه كتابا مفصلا، ولكن رویت عنه عدة مسائل في الفقه كانت عبارة عن أسئلة وجهت إليه، ثم دون تلاميذه وأتباعه مذهبة الفقہی وبویویه بعد وفاته.

على أن هناك طائفة أخرى من أئمۃ الفقه لم يقدر لذماثبهم البقاء لأسباب كثيرة، منها عدم تدوین أتباعهم ومحافظتهم عليها.

ومنهم الإمام الليث بن سعد الذي ولد بمصر وعاش بها حتى توفي سنة ١٧٥هـ، وقد قال عنه الإمام الشافعی الذي جاء إلى مصر بعد وفاته بربع قرن: إن الليث أفقه من مالک إلا أن أصحابه لم يقوموا به، يعني أن أصحابه لم يدونوا مذهبة في الفقه، ولم يحافظوا عليه. وكان يتأسف على فوات لقائه.

ونفهم من هذه الرواية، أن فقه الإمام الليث بن سعد كان يقوم على منهج أهل الحديث، حيث يذكر الإمام الشافعی أنه كان (أفقه من مالک)، ولم يقل، كان أفقه من أبي حنيفة مثلا.

ومنهم سفيان الثوری المتوفى بالبصرة سنة ١٦١هـ، وعبد الرحمن الأوزاعی إمام أهل الشام المتوفى سنة ١٥٧هـ، ومنهم داود بن على بن خلف المتوفى ببغداد سنة ٢٧٠هـ أخذ فقه الشافعی عن بعض تلاميذه ثم اتبع في الاجتهاد طریقة الأخذ بظاهر القرآن والسنة، وعدم قبول التأویل والقياس والرأی، ولهذا عرف بدارو

الظاهري، وعرف أتباع مذهبة بالظاهريه. وكان ابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦هـ من أتباع المذهب الظاهري، ولذلك أطلق عليه ابن حزم الظاهري.

وقد تفرق الشيعة إلى نحو ثلاثة فرق، اشتهر منهم عشرون في مقدمتهم الإمامية والاثنا عشرية والإسماعيلية. ومعظمهم يعتقد أن استنباط أحكام الفقه من الأدلة الشرعية مقصور على الإمام وحده، فهو المجتهد المطلق الذي يلهمه الله تأويل القرآن والحديث.

وهما المصدران اللذان استمد الشيعة أحكامهم الفقهية منها . كما أنهم لم يقبلوا من التفسير إلا ما كان صادراً عن أنتمهم، ولا من الحديث إلا ما كان مرويا عنهم، كذلك ولم يعتبروا الاجماع العام مصدرًا من مصادر التشريع، لأنه يترتب عليه الأخذ بأقوال غيرهم، وكذلك القياس والرأي، لأنهما من تفكير البشر والدين لا يؤخذ إلا من الله ورسوله وأئمتهم المعصومين، الذين تعتبر أقوالهم نصوصا شرعية لأنها صادرة عن إلهام من الله عز جل.

وكما خالفوا أهل السنة في أصول الفقه، خالفوهم في كثير من المسائل الفرعية، فهم يحرمون على المسلم نكاح الكتابية، ويبحثون نكاح المتعة، وهو الزواج المؤقت بوقت محدود، ولم يقتصروا على إباحته بل اعتبروه قربة إلى الله تعالى، ويررون أن تشميذ العاطس لا يبطل الصلاة، ويقدمون ابن العم الشقيق في الميراث على العم لأب، يقصدون بذلك تقديم على كرم الله وجهه على العباس في استحقاق الإمامة إلى غير ذلك من المسائل الكثيرة التي خالفوا فيها فقهاء أهل السنة.

وقد تأثر الأندلس في الفترة الأولى من حياته كما هو معروف بحضارة دمشق، فكان من الطبيعي أن يعتنق مذهب الأوزاعي<sup>(١)</sup> بحكم كونه شاميًا مواليا للأمويين وخاصة أن مذهب الأوزاعي كان يهتم بصفة خاصة بالتشريعات العسكرية وأحكام الحرب، وهو ما يناسب وضع الأندلسبيين في هذه الفترة الأولى من حياتهم القائمة على الحرب والقتال<sup>(٢)</sup>.

(١) الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، ولد عام ٨٨٨هـ / ٧٠٧م وقضى معظم حياته في الشام وتوفى عام ١٥٧هـ / ٧٧٧م ودفن في بيروت. (د). محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم من ٧٤).

(٢) د. أحمد إبراهيم الشعراوى: دراسات في تاريخ أسبانيا في العصور الوسطى، الجزء الثاني، سنة ١٩٧٩ ص. ١١٣.

ثم ما لبث الأندلس أن انتشر بها المذهب المالكي في فترة وجيزة حتى أصبح المذهب الرسمي لدولة الأندلس. بل وكان فقهاء الأندلس أحقر على مذهب مالك من فقهاء أى إقليم إسلامي آخر، ويمكن لنا أن نبين ذلك إذا وضعنا في الاعتبار تلك الترجمة الصغيرة التي أوردها الغبريني في دراسته لمدونة سحنون، فنجد أن سلسلة الرواية من سحنون إلى الغبريني تمر في ثمانية أئمة كلهم ما عدا الأخير من الأندلسيين وهم كالتالي :-

- ١- عبد السلام بن سعيد التنخوي «سحنون»، ١٦٠-٢٤٠ هـ/٨٥٤-٧٧٦ م.
- ٢- محمد بن وضاح، ١٩٩-٢٨٦ هـ/٨٩٩ م.
- ٣- محمد بن عبد الله بن أبي دليم، توفي سنة ٩٤٢ هـ/٥٣٢ م.
- ٤- عبد الوارث بن سفيان، ٣١٧-٩٢٩ هـ/٥٣٩٥ م.
- ٥- أبو عمر أحمد بن محمد بن الحذاء، ٢٨٠-٩٩٠ هـ/١١٧٤ م.
- ٦- يونس بن الصفار، ٤٤٧-١٠٥٥ هـ/٥٣٢-٤٤٧ م.
- ٧- محمد بن عبد الحجرى، ٥٠١-١١١١ هـ/١١٩٥ م.
- ٨- أبو بكر محمد بن محرن، ٥٦٩-٦٥٥ هـ/١٢٥٥-١١٧٣ م.
- ٩- عبد العزيز بن عمر القيس «أفريقي»، ٦٠٢-٦٨٦ هـ/١٢٠٥-١٢١٥ م.<sup>(١)</sup>
- ١٠- أبو العباس الغبريني «أفريقي»، ٦٤٤-٧١٤ هـ/١٢٦٦-١٣١٥ م.

ولقد أنجبت الأندلس في الفقه علماء مشهورين بالفضل، فظهر بها طائفة كبيرة من كبار الفقهاء على المذاهب الأربعة: فمن أئمة فقهاء المذهب المالكي يحيى بن يحيى الليثي ت ٢٢٤ هـ/٨٤٨ م وأستاذة زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون أول من أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس<sup>(٢)</sup>.  
وتولى يحيى بن يحيى الليثي فتيا الأندلس برأى مالك بن عيسى بن دينار،

(١) الغبريني: عنوان الدرية ص ٣٧٥ د. (٢) محمد عبد العميد عيسى: تاريخ التعليم ص ٢٩٧، ٢٩٨.

(٢) المقري: نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٨، ٢١٩، ٢١٩.

ونذكروا أنه لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخولها الإسلام من الحظوة وعظم  
القدر ما أعطاه يحيى بن يحيى<sup>(١)</sup>.

ومن دعائمن الفقه على المالكية بقرطبة في عصر أمراء بنى أمية بن إبراهيم بن  
مزين القرطبي ت ٢٥٩هـ/٨٧٢م الذي صنف كتاباً منها كتاب تفسير الموطاً، وكتاب  
تسمية الرجال المذكورين فيه، وكتاب المستقصية، وكتاب في فضائل العلم<sup>(٢)</sup>، وقاسى  
ابن أصبغ البيانى ويحيى بن مضر القيس، ومنهم في عصر الخلافة محمد بن يحيى  
ابن عمر لبابة المعروف بالبوجون ت ٩٤١هـ/١٣٢٠م<sup>(٣)</sup> ومحمد بن يقى بن محمد  
زرب ت ٩٩١هـ/٣٨١م وكان أحفظ أهل عصره لمسائل على مذهب مالك  
وأصحابه<sup>(٤)</sup>، يحيى بن عبد الله ابن يحيى بن الليثى ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م<sup>(٥)</sup>.

ويرى من فقهاء المالكية بقرطبة زمن المرابطين أبو الوليد محمد بن أحمد بن  
رشدى ٥٢٠هـ/١١٢٦م جد الفيلسوف بن رشد وكان عارفاً بالفتوى على مذهب مالك  
وأصحابه بصيراً بآرائهم<sup>(٦)</sup>.

ومن بين الفقهاء المالكيين الأندلسيين الذين ترددوا على المغرب في العهد  
المرابطي، ومن مارسوا فيها نشاطاً علمياً ابن رشد «الجed» الذي كان يحظى باحترام  
كبير لدى حكام مراكش<sup>(٧)</sup> وقد صنف في الفقه عدة كتب يبدو أنها كانت من بين الكتب  
المعتمدة في عهد المرابطين، من تلك الكتب التي مازالت مخطوطة في الخزانة العامة  
بالرباط «الأجوبة لابن رشد» ويتضمن كتاباً عن الجهاد وكتاباً عن الصحابة، وكتاباً  
عن الحج وكتاباً عن مسائل النكاح، وكتاباً عن السلم.

وكتاب «المقدمة» يتضمن فصلاً في شروط التكليف، وفصلاً في تحقيق حدود  
الأوقات، وفصلاً في الصلاة، وفصلاً في سبب شرع الضحايا وكتاب «البيان

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس قسم ٢ ص ١٨٠ ترجمة رقم ١٥٥٦.

(٢) المصدر السابق، قسم ٢ ص ١٨١ ترجمة رقم ١٥٥٨.

(٣) ابن الفرضي قسم ٢ ص ٥١ ترجمة رقم ١٢٣١.

(٤) المصدر السابق قسم ٢ ص ٩٤ ترجمة رقم ١٣٦٣.

(٥) المصدر السابق قسم ٢ ص ١٩١ ترجمة رقم ١٠٩٧.

(٦) ابن بشكوال، الصلة ترجمة رقم ١١٤٥.

(٧) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكميل ج ٦ ص ٣٠٧ - ٣٠٨.

والتحصيل والشرح والتوجيد والتعليق» ، ويكتون من سبعة مجلدات كبيرة تناولت الجهاد والنكاح والطلاق والوضوء والصلوة والوكلالات وكراء الدور والأراضي والوديعة والقراض والبيوع ... إلخ<sup>(١)</sup>، وقدر ذكر أن اشتغال ابن رشد في هذا الكتاب كان سبباً في إقالته من قضاء قرطبة بأمر حكمة على بن يوسف بن تاشفين<sup>(٢)</sup>.

ولما كانت الأصول المعتبرة عند الموحدين في الفقه، وهي القرآن والسنة والإجماع<sup>(٣)</sup>. أما القياس فلا يأخذون إلا بالقياس الشرعي<sup>(٤)</sup>، لذلك فقد أزدهرت على عهدهم دراسة أصول الفقه وأصول الدين في المغرب إلى درجة أن بعض الأندلسين كانوا يرحلون إلى المغرب لدراسة هذين العلمين<sup>(٥)</sup>.

وفي عصر بنى مرين استعاد المذهب المالكي مكانته التي كان عليها قبل عصر الموحدين الذين صادروا كتب الفقه المالكي وأحرقوها<sup>(٦)</sup>.

وقد بلغ من هيمنة المذهب المالكي في عصر بنى مرين أن أحد علمائه وهو عبد الرحمن بن عفان الجزوئي كان يحضر مجلسه العلمي أكثر من ألف فقيه مالكي معظمهم يستظهر المدونة<sup>(٧)</sup>.

وطبيعي أن تتفق علوم الفقه في عصر بنى مرين تقدماً ملحوظاً، يدل على ذلك كثرة الفقهاء الذين في هذا المجال، وأيضاً كثرة المؤلفات التي وضعت في علوم الفقه<sup>(٨)</sup>.

(١) عبد العباس إبراهيم حمادي: الحركة الفكرية من ٢٩٠.

(٢) ابن القاضي: جنوة الاقتباس، قسم ٢ من ٤٦٠.

(٣) ابن تومرت: أعز ما يطلب (الجزائر ١١٣) من ١٨٠.

(٤) المصدر السابق: من ١٧٣، ١٧٤.

(٥) السنوفي: العلوم والأداب والفنون على عبد الموحدين (الرباط) ١٩٧٧ من ٥٨.

(٦) ابن مرنوق: السند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن، مخطوط بالديكور فيلم بمتحف المخطوطات بجامعة تلول العربية، عن الخزانة العامة بالرباط برقم ١٨٥ بكشف البعثة الأولى إلى المغرب من ٢٠٥.

(٧) الفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ترجمة: عبد الرحمن بدوى، بنغازى من ٣٢٣.

(٨) عبد الله كنون: النبوغ المغربي ج ١ من ١٨٩، ١٩٠.

ومن أشهر علماء الفقه في عصر بنى مرين محمد بن محمد بن أحمد المقرى المعروف «بالمقرى الكبير» المتوفى سنة ١٢٤٩هـ/١٩٣٠م<sup>(١)</sup>، وأحمد بن قاسم ابن عبد الرحمن الجزامي المعروف «بالقباب»، ولقد كان نبيوغ القباب في علوم الفقه مثاراً للتأليف بعض الكتب، حيث ألف العقاباني : لب اللباب في مناظرات القباب<sup>(٢)</sup> .

ومما يلفت النظر أن كبار علماء الفقه في عصر بنى مرين كانوا يعيبون على بعض علماء الفقه حرصهم على وضع المختصرات في هذا المجال، وقد عبر عن ذلك القباب حين التقى بابن عرفة في تونس وعرض ابن عرفة عليه مختصرة الفقهى<sup>(٣)</sup>، فقال له القباب : «تأليفك هذا لا نفع به للمبتدئ لصعوبته، ولا يحتاج إليه الشهير<sup>(٤)</sup> .

### علم الكلام :

هو علم يتضمن الاستدلال على العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، في الرد على من خالف طريقة السلف الصالح، ومذهب أهل السنة في تلك العقائد<sup>(٥)</sup> . وربما سمي هذا العلم «علم الكلام» لأن أهم مسألة احتج فيها الجدل بين العلماء هي مسألة كلام الله «القرآن» وهل هو قديم أو مخلوق، أو لأن علماء المسلمين أباحوا لأنفسهم الكلام في موضوعه على حين أمسك السلف عن الخوض فيه.

وهذا العلم يبحث في مسائل عقائدية دقيقة مثل حقائق الصفات الإلهية والقدر والخير والشر وأعمال العباد والحياة الآخرة وحقيقة النبوة، وقد كان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم يؤمنون بما جاءهم من الكتاب وما علمهم النبي من السنة، ويتحرجون عن الخوض في متشابه القرآن والسنة تحاشيا للزلل والخطأ.

ولما اختلط المسلمين بغيرهم من أهل العقائد الأخرى وأثار هؤلاء بعض الشبه حول العقيدة الإسلامية اضطر علماء المسلمين إلى الرد عليهم بمثل منطقهم. غير أن ذلك أدى إلى الخوض في مسائل ما كان أغنى المسلمين عن أن يزجو بأنفسهم في

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس من ١٨٨، ١٨٩، الكتابى : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٧١، ٢٧٢.

(٢) ابن القاضى : المصدر السابق من ٦٠.

(٣) عبد الله كنون : المرجع السابق ج ١ ص ١٩٢، ١٩٣.

(٤) ابن القاضى : المصدر السابق ج ٦٠.

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٢٣.

الكلام عنها، وأنار الفرقـة بين أفراد الأمة وجعلها طوائف مختلفة ما بين أهل السنة ومعتزلة ومرجنة ورافضة وقدرية إلى غير ذلك من الطوائف. وجر إلى محنة خلق القرآن التي أهين بسبب إنكارها عدد من أفاضل العلماء، وحبسوا وعذبوا حتى ذهب بعضهم ضحية تلك الفتنة، وقد بالغ الخليفة الواثق بالله في السخط على من لم يقل بخلق القرآن، حتى أنه - عند تبادل الأسرى مع البيزنطيين - كان يرد الأسير المسلم الذي لا يعترف بخلق القرآن إلى الأعداء لاعتباره خارجا على الإسلام.

ومن أشهر علماء الكلام من أهل السنة أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤هـ وقد ألف فيه كتاب الإبانة عن أصول الديانة ورسالة في استحسان الخوض في الكلام وكتاب «مقالات الإسلاميين» والتستري المتوفى ٣٨٣هـ. وله كتاب المعارضات والرد على أهل الفرق.

والغزالـي المتوفى سنة ٥٠٥هـ. وله كتاب: فيصل التفرقة بين الإسلام والزنـدة، وكتاب المنـذـنـ من الضلال، وكتاب مشـكـةـ الأنـوارـ.

ومن أشهر متكلمي المـعـتـزـلـةـ أبوـالـهـذـيلـ العـلـافـ المتـوفـيـ سنـةـ ٢٣٥ـهـ، وله كتاب يـعـرـفـ بـمـيـلـاسـ، وـمـيـلـاسـ اـسـمـ رـجـلـ مـجـوسـيـ حـضـرـ مـنـاقـشـةـ بـيـنـ أـبـيـ الـهـذـيلـ وـجـمـاعـةـ مـنـ الثـنـوـيـةـ فـأـقـامـ أـبـيـ الـهـذـيلـ الـحـجـةـ عـلـىـ صـحـةـ الـإـسـلـامـ وـبـطـلـانـ مـذـهـبـهـمـ فـاعـتـنـقـ مـيـلـاسـ الـدـيـنـ إـلـاـمـيـ. وـمـنـ أـشـهـرـهـمـ كـذـلـكـ الـجـاحـظـ المتـوفـيـ سنـةـ ٢٢٥ـهـ. وـلـهـ عـدـةـ كـتـبـ فـيـ عـلـمـ الـكـلـامـ مـنـهـاـ كـتـابـ الـاسـطـاعـةـ وـخـلـقـ الـأـفـعـالـ، وـكـتـابـ خـلـقـ الـقـرـآنـ وـكـتـابـ فـضـيـلـةـ الـمـعـتـزـلـةـ.

وـمـنـ الـفـرـقـ الشـيـعـيـةـ الـتـيـ بـحـثـتـ فـيـ عـلـمـ الـكـلـامـ الـفـاطـمـيـوـنـ وـهـمـ مـنـ فـرـقـةـ الـإـسـمـاعـيـلـيـةـ، تـكـلـمـواـ عـنـ اللـهـ سـبـحـانـهـ وـتـعـالـىـ وـوـصـفـوـهـ بـالـعـقـلـ، وـعـنـ الـوـحـىـ وـالـرـجـعـهـ، وـغـيـرـ ذـلـكـ مـنـ الـمـسـائـلـ الـعـقـيـدـيـةـ وـسـمـواـ مـثـلـ هـذـاـ الـكـلـامـ «ـعـلـمـ الـحـقـانـقـ»ـ وـمـنـ أـشـهـرـ مـتـكـلـمـيـهـمـ الـقـاضـيـ النـعـمـانـ بـنـ حـيـوانـ المتـوفـيـ سنـةـ ٣٦٣ـهـ. وـلـهـ كـتـابـ «ـالـمـجـالـسـ وـالـمـسـاـيـرـاتـ»ـ.

وـبـيـدـوـ أـنـ الدـارـسـيـنـ لـهـذـاـ الـعـلـمـ فـيـ الـجـنـاحـ الـغـرـبـيـ كـانـواـ يـعـتـمـدـونـ عـلـىـ كـتـابـ الـإـلـمـ الـفـارـزـيـ الـذـيـ وـضـعـهـ فـيـ عـلـمـ الـكـلـامـ وـسـمـاءـ «ـمـحـصـلـ أـنـكـارـ الـمـتـقـدـمـيـنـ

والمتاخرين»<sup>(١)</sup> وينظر لسان الدين بن الخطيب في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» أن ابن خلدون قد لخص «محصل» الإمام فخر الدين الرازي في كتاب سماه: «باب المحصل في أصول الدين». إذ كان هذا الكتاب يدل دلالة واضحة على مبلغ تعنّك ابن خلدون من مسائل هذا العلم وإحاطته بمختلف فروعه، إلا بهذا على مكانة هذا العلم في عصر بنى مرين، وخاصة أنه لم تقع تحت يدي أسماء أخرى يمكن الإشارة بها إلى مكانة هذا العلم.

### علم التاريخ :

التاريخ إذا كان أخبارا في تسلسلها الزمني كان فنا من فنون العلوم النقلية، أما إذا كان التاريخ ليس مجموع وقائع وإنما إعادة تحليل وبناء الأخبار بحثا عن العلل والأسباب التي كانت وراء الأحداث التاريخية والكشف عن نسيج العلائق الثابتة في وقائع الحياة كان التاريخ علما عقليا أو حكيمأ، وهذا ما يفهم من قول ابن خلدون «فإن فن التاريخ من الفنون التي تتناولها الأمم والأجيال. وتشد إليه الركائب والرجال. وتسمو إلى معرفته السوقه والأغفال. وتتنافس فيه الملوك والأقيال. ويتساوى في فهمه العلماء والجهال. إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول... وفي باطن نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق»<sup>(٢)</sup>.

ولم ترد مادة (تاريخ) في القرآن الكريم، وقد قيل أن المادة قد ترجع إلى أصل سرياني<sup>(٣)</sup>.

وقيل أن لفظ «التاريخ» مشتق من اللفظ الفارسي «ماه روز» التي تعنى حساب الشهور والأعوام، وهذا خطأ جلي.

(١) د. على عبد الواحد وافي عبد الرحمن بن خلدون ص ٢٧٧.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٧.

(٣) هرتشن: علم التاريخ. ترجمة عبد الحميد العبادى، القاهرة ١٩٣٧م، ٢، ص ٨.

واستنتج بعض المستشرقين أن لفظة التاريخ قد تكون عربية جنوبية اعتماداً على رواية تقول إن أول من أرخ التاريخ هو يعلى بن أمية حيث كان باليمن فكتب إلى عمر كتاباً من اليمن مورحاً فاستحسن عمر وقال: «هذا حسن فارخو».

أما المستشرق حب فيرى أنها مشتقة من الكلمة السامية التي تعنى القمر أو الشهر وهي في اللغة العربية (يرخ) <sup>(١)</sup>.

مما سبق نرى أن كلمة (تاریخ) ترجع لأصل سامي عرف في العربية في اليمن، وعرف في العبرية.

أما ما يقابل مادة (تاریخ) في القرآن الكريم باعتباره المصدر الأساسي للغة العربية فهو مادة (أنباء).

والنبا: هو خير يعلم بعد حين لقوله تعالى:

﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ <sup>(٢)</sup>.

﴿ولتعلمن نباء بعد حين﴾ <sup>(٣)</sup>.

### مقومات التاريخ ومنهج البحث:

الأنباء (التاریخ) تقوم على العلم والخبر لقوله تعالى:

﴿قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير﴾ <sup>(٤)</sup>.

أما منهج البحث فيعتمد أساساً على (القصص الحق).

لقوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ <sup>(٥)</sup>.

والقص: هو البتداد على الأثر.

لقوله تعالى: ﴿قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهمما قصصا﴾ <sup>(٦)</sup>.

وهكذا كان التاريخ تحقيقاً وتدقيقاً.

(١) الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيف: المدخل إلى علم التاريخ. دار المريخ. الرياض ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤ م من ١٧.

(٢) سورة التوبية، الآية ٩٤.

(٣) سورة من، الآية ٨٨.

(٤) سورة التحرير، الآية ٣.

(٥) سورة الكهف، الآية ١٣.

(٦) سورة الكهف، الآية ٦٤.

## فوائد التاريخ:

أولاً، التاريخ يثبت الفواد لمن يسير على نفس الدرب، لقوله تعالى: ﴿وَكُلَا نَقْصَنَ عَلَيْكُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نَثَبَتْ بِهِ فَوَادِكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

ثانياً، التاريخ فيه العظة والذكرى، لقوله تعالى: ﴿وَكُلَا نَقْصَنَ عَلَيْكُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا نَثَبَتْ بِهِ فَوَادِكُمْ وَجَاءَكُمْ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِذَةٌ وَذَكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً، التاريخ يدعو إلى التفكير، لقوله تعالى: ﴿فَاقْمِصُ الْقَصْصَنَ لِعِلْمِهِ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>. ولذلك فإن التاريخ ينمى الوعى السياسي وإدراك حفائق العصر، والوعى الاقتصادي، والوعى الاجتماعي، والوعى العسكري.. إلخ.

رابعاً، في التاريخ العبرة، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصْصَهُمْ عِبْرَةٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

خامساً، في التاريخ مزدجر لمن يرتكب نفس أخطاء السابقين، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مَزْدَجَرٌ﴾<sup>(٥)</sup>.

سادساً، التاريخ يعلم الحكمة، لأنه من يزدجر من الأنبياء فهو حكيم، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مَزْدَجَرٌ حَكْمَةٌ﴾<sup>(٦)</sup>.

لذلك قالوا عن علم التاريخ أنه (علم المستقبل) بسبب قدرة دارس التاريخ على الرؤية المستقبلية والشمار التي يجنيها الوعى بالتاريخ مستقبلاً.

وقد اهتم المسلمون في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة بجمع سيرة الرسول - ﷺ -، ومعرفة أنساب الرعيل الأول من المجاهدين لتحديد العطاء المخصص لكل واحد من بيت المال، كما درسوا أحوال رواة الحديث وما تميزوا به من صفات لتلقي حديث رسول الله عنهم.

(١) سورة هود، الآية ١٢٠.

(٢) سورة هود، الآية ١٢٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٧٦.

(٤) سورة يوسف، الآية ١١١.

(٥) سورة القمر، الآية ٤.

(٦) سورة القمر، الآيات ٤ - ٥.

وكان حفاظ الأخبار ورواتها يلقىون «القصاص» أو «الأخباريين» وأقدم من اشتهر منهم عبيد بن شرية من عرب اليمن الذي يقال إن معاوية استدعاه إلى دمشق ليروي له أخبار ملوك العرب الأولين وأحوالهم . ومنهم عروة بن الزبير المتوفى سنة ١٢٤هـ وأبيان بن عثمان المتوفى سنة ١٠٥هـ وابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ . وكان المؤرخون لمسلمون يعتمدون فيما يدونونه من السير أو الحوادث على السماع والرواية عن الحفاظ الموثوق بهم، وتعرف هذه الطريقة بالإسناد، وهو رفع القول إلى قائله . وهذه الطريقة نفسها هي التي اتبعت في تدوين الحديث.

وكما كان من أهم دراسة التاريخ الإسلامي معرفة أحوال رواة الحديث ووصف كل راوٍ بما عرف عنه من حفظ وتبسط وصدق أو سوء حفظ وغفلة وكذب .

وبعد انتشار التدوين اكتفى المؤرخون بنقل الحقائق التاريخية دون ذكر السندي تجنبًا للإطالة واختصارًا للوقت، وبذلك تغير أسلوب الكتابة التاريخية عن أسلوب تدوين الحديث، ثم توسيع المؤرخون في كتابة الحوادث فاتسع نطاق دائرة علم التاريخ.

وكان من أوائل الكتب التي دونت سيرة الرسول - ﷺ - على طريقة السندي، هو كتاب محمد بن إسحاق المدني المتوفى سنة ١٥١هـ . وقد كان جده يسار من الفرس الذين أسرهم خالد بن الوليد في موقعة عين التمر بالعراق، على أن سيرة ابن إسحاق لم تصل إلينا مباشرة، وإنما وصلتنا مقتطفات منها عن طريق ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨هـ، في كتابه «سيرة رسول الله ﷺ» .

ومن أشهر مؤرخي القرن الثالث الهجري أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٢هـ . وقد كان شيعياً متھمساً، ولذلك أسهب في الكلام عن الأئمة العلوبيين، ونقل كثيراً من الأقوال المأثورة عنهم . ويعتبر كتابه المعروف بتاريخ اليعقوبي من أهم المصادر التاريخية، كما يعد كتابه «البلدان» من أشهر الكتب الجغرافية .

ومنهم أبو محمد بن عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة، المتوفى سنة ٢٧٦هـ . وقد ترك عدة كتب منها «المعارف» الذي اشتمل على مجموعة مختصرة من

ال المعارف، وكتب «عيون الأخبار» كما ينسب إليه كتاب «الإمامية والسياسة» الذي ينسب إليه أقوال عن على كرم الله وجهه مشكوك فيها<sup>(١)</sup>.

ومنهم أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب «فتح البلدان» الذي يعتبر من أحسن المصادر في الفتوح الإسلامية.

ويعتبر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ من أوفق المؤرخين وأكثربهم دقة وتحقيقاً، ويعد كتابه «تاريخ الأمم والملوک» موسوعة تاريخية قيمة.

ومن أشهر مؤرخي القرن الرابع الهجري أبو الحسن على المسعودي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ الذي ينسب إلى عبد الله بن مسعود الصحابي المشهور، ويعتبر كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» من أهم المصادر التاريخية، وبخاصة في الناحية الاجتماعية - كما يعتبر كتابه «التنبيه والإشراف» من المصادر المهمة في تاريخ القرامطة وعلاقتهم بالدولة العباسية بوجه خاص.

ومن أشهر مؤرخي القرن الخامس الهجري محمد بن القاسم المعروف بالمبغي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ وقد كتب عن مصر كتاباً مستفيضاً عرف بكتاب «تاريخ مصر» غير أنه لا يوجد منه إلا الجزء الأربعون في مكتبة الأسكوريال باسبانيا، وله مؤلفات كثيرة تناهز الثلاثين، لم يبق منها غير مقتطفات توجد في ثنايا كتب المؤرخين.

ومن أشهر مؤرخي القرن السادس الهجري ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧٢ هـ، ومن أشهر مؤرخي القرن السابع الهجري ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ. ومن القرن الثامن أبو الفداء إسماعيل، ومن القرن التاسع المؤرخان المشهوران عبد الرحمن بن خلدون وتقى الدين المقرizi، ومن مشهوري القرن العاشر السخاوي وجلال الدين السيوطي، ومن أعلام القرن الحادى عشر المقرى وحاجي خليفة.

أما في الجناح المغربي فقد كان التاريخ الأندلسي في مظهره وأسلوبه تأريخاً عربياً إسلامياً، يسلك سلك المشارقة في منهجه وروايته : فهناك طريقة الحوليات أي الكتاب على ترتيب السنين، وهناك تواريخ الخلفاء والملوک التي تعالج دولة كل قطر

(١) راجع من ٤٥ وما بعدها من هذا الكتاب.

منهم على حدة، وهناك كتب الترجم والطبعات وما يتبعها من ذيول وصلات، هذا إلى جانب تواريخ المدن المحلية التي فاق الأندلسيون فيها إخوانهم المغاربة، ولعل ذلك يرجع إلى ظاهرة اللامركزية التي تميزت بها طبيعة الأندلس. كذلك اتبع الأندلسيون في معالجة تاريخهم تلك الطرق التي اتبعها إخوانهم المغاربة أيضاً، والتي تقوم على النقل والاقتباس، أو المشاهدة العينية وتحري الحقائق في جمع المعلومات، أو الاستعانة بالوثائق والمراسلات والآثار المادية، أو على تحليل الأحداث والتعرف على عللها والتفاذه إلى أسرارها<sup>(١)</sup>.

على أن أهم ما تميزت به الكتابة التاريخية في الأندلس هو دقة الأخبار التي أوردتها المؤرخون الأندلسيون عن العمالك المسيحية في شمال إسبانيا وما وراءها، ومعرفتهم التفصيلية الواسعة بأخبارها، مما يدل على أنهم اطلعوا على مدونات لاتينية مسيحية قديمة، أو أنهم استمدوا هذه الأخبار من أهل الذمة من النصارى واليهود المقيمين في الأندلس والعارفين بأخبار هذه العمالك المسيحية التي في الشمال، وهو في كلتا الحالتين أمر يدل على تأثر مؤرخينا الأندلسيين بالثقافة اللاتينية المسيحية، فضلاً عن إمكانية معرفتهم باللغة الإسبانية التي كانت شائعة بين معاصرיהם من مسلمي الأندلس، وكان هذا أمراً طبيعياً بحكم الجوار والمعايشة، بالإضافة إلى ما عرف من الأندلسيين من ولع شديد بعلم التاريخ، إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أثيل علم عندهم على حد قول ابن سعيد المغربي، ولهذا أقبل الأندلسيون بدافع هذه الحاستة التاريخية إلى تلمس الأخبار وتقضي الحقائق من مختلف مظانها اللاتينية واليونانية القديمة لمعرفة تاريخ وحضارة الأمم المجاورة لهم منذ أقدم العصور<sup>(٢)</sup>.

ويعتبر «كتب الاتواريخت السبعة في الرد على الوثنين»<sup>(٣)</sup> *H istoriarum Septemadversos paganos Pauli Horosius* للراهب الروماني الأسباني المولد

(١) د. أحمد مختار العبادى: الإسلام فى أرض الأندلس من ٣٥٦.

(٢) أحمد مختار العبادى: الإسلام فى أرض الأندلس، من ٣٥٧، ٣٥٦.

(٣) هذا الكتاب عبارة عن ذيل على كتاب (مدينة الله) لاستاذه القديس أوغسطين وخاصية الجزء الثالث منه المتعلق بالتاريخ، وهو تاريخ للعالم القديم منذ بدء الخليقة حتى أيامه سنة ٤١٦م (حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس (مدريد ١٩٦٧) ص ١٩.

والنَّشَأَةُ هُرُوشِيشُ الَّذِي عَاشَ أَوْلَى الْقَرْنِ الرَّابِعِ وَأَوْلَى الْخَامِسِ المِيَالَدِيِّ، هُوَ الْمُصْدِرُ الْلَّاتِينِيُّ الْأَسَاسِيُّ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ نَطْمَنَنَّ إِلَى اسْتِخْدَامِ الْمُؤْرِخِينَ وَالْجَفَرَافِيِّينَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ لَهُ وَالنَّقْلُ عَنْهُ<sup>(١)</sup> وَنَظَرًا لِأَلْهِمَةِ تَارِيَخِ هُرُوشِيشِ فَقَدْ قَامَ بِتَرْجِمَتِهِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ الْمُحَدَّثِ الْفَقِيْهِ الْأَنْدَلُسِيِّ قَاسِمُ بْنُ أَصْبَحِ الْبَيَانِيِّ فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ بِالاشْتِرَاكِ مَعَ قَاضِيِ النَّصَارَى وَمُتَرَجِّمِهِ الْوَلِيدِ بْنِ الْخَيْرَزَانَ الْمُعْرُوفِ بِابْنِ مُغِيْثِ<sup>(٢)</sup>.

وَقَدْ أَنْجَبَتِ الْأَنْدَلُسَ عَدْدًا كَبِيرًا مِنَ الْمُؤْرِخِينَ كَانُوا أَنْدَمُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَبِيبٍ تَوْفَى ٤٢٨هـ/٨٥٢م، حَاولَ أَنْ يَكْتُبْ تَارِيَخًا عَالَمًا لِلْعَالَمِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَكْتُبْ الطَّبَرِيُّ تَارِيَخَهُ بِحَوْالَى قَرْنِ مِنَ الزَّمَانِ<sup>(٣)</sup>، وَمِنْ بَعْدِهِ ثَلَاثَةٌ يَحْمِلُونَ اسْمَ الرَّازِيِّ، اسْتَغْلَوْا جَمِيعًا بِالْكِتَابَةِ التَّارِيَخِيَّةِ، أَوْلَاهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الرَّازِيُّ تَوْفَى ٤٧٣هـ/٨٨٦م الَّذِي صَنَفَ «كِتَابَ الرَّaiَاتِ» وَهُوَ كِتَابٌ تَارِيَخِيٌّ وَجَفَرَافِيٌّ، وَثَانِيهِمْ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ مُوسَى الرَّازِيِّ الْمُلْقَبُ بِالْمُلْقَبِ بِالْتَّارِيَخِيِّ تَوْفَى ٤٣٤هـ/٩٣٥م الَّذِي أَلْفَ كِتَابَيْنِ أَحَدَهُمَا فِي صَفَةِ قَرْطَبَةِ وَخَطَطِهَا وَمَنَازِلِ الْأَعْيَانِ بِهَا<sup>(٤)</sup> وَالثَّانِي فِي أَخْبَارِ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ<sup>(٥)</sup> وَثَالِثُ آلِ الرَّازِيِّ الْمُؤْرِخِينَ عَيْسَى بْنُ أَحْمَدَ بْنُ مُوسَى الرَّازِيِّ الَّذِي أَلْفَ كِتَابًا فِي تَارِيَخِ الْأَنْدَلُسِ مِنْهَا «تَارِيَخُ الْأَنْدَلُسِ» وَ«حِجَابُ خَلْفَاءِ الْأَنْدَلُسِ»<sup>(٦)</sup> وَلَا شَكَ فِي أَنَّ آلَ الرَّازِيِّ هُمُ أَوَّلُ مَنْ كَتَبُوا تَارِيَخًا مُوْضِعِيَا لِلْأَنْدَلُسِ الْمُسْلِمَةِ، وَعَلَيْهِ اعْتَدَمَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْرِخِينَ وَالْمُؤْلِفِينَ<sup>(٧)</sup> وَإِلَى جَانِبِ آلِ الرَّازِيِّ ظَهَرَ فِي عَصْرِ الْخِلَافَةِ عَدْدٌ مِنْ كِبَارِ الْمُؤْرِخِينَ نَذَرُوكَ مِنْهُمْ أَبَا بَكْرَ مُحَمَّدَ بْنَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمُعْرُوفِ بِابْنِ الْقَوْطَنِيِّ الْقَرْطَبِيِّ تَوْفَى ٤٦٧هـ/٩٧٧م وَالَّذِي يَعْتَبِرُ كِتَابَهُ «تَارِيَخُ افْتَاحِ الْأَنْدَلُسِ» مِنَ أَهْمَ مَصَادِرِ تَارِيَخِ

(١) د. أَحْمَدُ مُخْتَارُ الْعَبَادِيِّ الْإِسْلَامِ فِي أَرْضِ الْأَنْدَلُسِ: ص ٢٥٨.

(٢) الْمَرْجَعُ السَّابِقُ: ص ٣٥٩.

(٣) الْمَقْرَى، نَفْحُ الْطَّبَبِ ج ٢ ص ٢١٥، دَكْتُورُ مُحَمَّدُ عَبْدُ الْحَمِيدِ عَيْسَى، تَارِيَخُ التَّعْلِيمِ ص ٣٣٨.

(٤) الْمَقْرَى: ج ٤ ص ١٦٦ وَجِئْنَاثَ بَالْتَّهِيَا: تَارِيَخُ الْفَكَرِ الْأَنْدَلُسِيِّ ص ١٩٦.

(٥) د. السَّيِّدُ عَبْدُ الْعَزِيزِ سَالِمٌ: قَرْطَبَةُ حَاضِرَةُ الْخَلَافَةِ (بِرْبُوتٌ ١٩٦٢) ج ٢ ص ٢٠٢.

(٦) جِئْنَاثَ بَالْتَّهِيَا ص ١٩٨، د. السَّيِّدُ عَبْدُ الْعَزِيزِ سَالِمٌ قَرْطَبَةُ ج ٢ ص ٢٠٣. تَارِيَخُ الْفَكَرِ الْأَنْدَلُسِيِّ، ص ٢٠٦٥.

(٧) دَكْتُورُ مُحَمَّدُ عَبْدُ الْحَمِيدِ عَيْسَى: تَارِيَخُ التَّعْلِيمِ ص ٣٣٩.

الأندلس زمن الولاة، وفي عصر الإمارة الأموية كذلك نبغ في هذه الفترة من مؤرخي قرطبة عريب بن سعد توفي ١٣٦٩هـ/٩٧٨م وكان قرطبياً من أصل مسيحي، وكتب مختبراً لكتاب تاريخ الطبرى فيما يتعلق بأخبار المشرق من سنة ٢٨٩ إلى ٢٣١هـ ضمنه أخبار المغرب والأندلس<sup>(١)</sup>.

وأعظم ما أنجبتهم قرطبة في عصرى الخلافة والطوانف من المؤرخين بلا منازع أبو مروان حيان بن خلف بن حيان المعروف بابن حيان توفي ٤٦٩هـ/١٠٧٦م الذي يعتبر أعظم مؤرخي الأندلس وشيخهم وإمامهم<sup>(٢)</sup>.

وأهم ما صنفه من كتب التاريخ أربعة هي : المقتبس، والمتين، وأخبار الدولة العاميرية، والبطشة الكبرى، وكلها تؤلف ما يعرف باسم التاريخ الكبير لابن حيان، الذي كان موضع اعتزاز ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس<sup>(٣)</sup>.

وقد توافر عدد من الأندلسيين الذين عاشوا في العصر المرابطي أمثال : عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الأنصاري الذي سكن مدينة مراكش وتوفي بها سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م<sup>(٤)</sup> حيث صنف عدة كتب تاريخية منها «مختصر السير والمغازي» من سير ابن إسحاق<sup>(٥)</sup> ومختصر تاريخ أبي جعفر الطبرى في سفر متوسط<sup>(٦)</sup>، ومنتخب سيرة المصطفى لأبي سعد عبد الملك بن محمد الخراسانى الواقع<sup>(٧)</sup> وأبى الحسن على بن بسام الشنترىنى، صاحب كتاب «الذخيرة في محسن أهل الجزيرة» المتوفى سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م وكتابه هذا بين كتب التاريخ والأدب القيمة الشهيرة في عصرنا الحاضر.

إن هذا العمل العلمي الذي قام به العالم ينهض دليلاً على أن المصنفات

(١) جنثالث بالثنية ص ١٩٨، د. السيد عبد العزيز سالم قرطبة ج ٢ ص ٢٠٣. تاريخ الفكر الأندلسي. ص ٢٠٦٥.

(٢) محمود على مكي : تمهيد: المقتبس من أبناء أهل الأندلس (القاهرة ١٩٧١) ص ٢١. المقرى: نفح الطيب ج ٤ ص ١٦٧.

(٤) ابن القاضى: جذوة الاقتباس ق ٢ ص ٤٠٩.

(٥) العباس بن إبراهيم، الإعلام ج ٨ ص ٥٦.

(٦) ابن القاضى ق ٢ ص ٤٠٩.

(٧) المصدر السابق نفس الصفحة.

التاريخية التي اضطلع بها الأندلسيون كانت متداولة بين أيدي الباحثين والدارسين المغاربة في العهد المرابطي.

ومن الأندلسيين الذين أرخوا للدولة المرابطية يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الصيرفي المتوفى بغرناطة سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م<sup>(١)</sup> والذي صنف كتابه المسمى ««الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية»»<sup>(٢)</sup> وكتاب «قصص الأنبياء وسياسة الرؤساء»<sup>(٣)</sup> والمؤرخ الكبير ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة<sup>(٤)</sup> الذي فرغ من تأليفه سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م<sup>(٥)</sup>.

أما في العهد الموحدي فقد نشطت عملية التأليف التاريخي بين أبناء المغرب وظهر منهم عدد كبير، وطبعي أن تتأثر الكتابة التاريخية في المغرب بالكتابة الأندلسية للتاريخ نظراً لاستاذية مؤرخي الأندلس لبناء العدوة المغربية وتداول كتبهم فيما بينهم. فنجد في العصر الموحدي مجموعة من المؤلفات التاريخية المهمة يأتي في مقدمتها: المعجب في أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي، ونظم الجمان لابن القطان، وتاريخ المن بالإمامية لابن صاحب الصلة<sup>(٦)</sup>، كما يظهر ميل المغاربة للكتابة في تاريخ المدن المغربية متأثرين في ذلك بمؤرخي الأندلس مثل كتاب القاضي أبي الخطاب سهل بن القاسم زغبوش المكناسي في تاريخ مدينة مكناس<sup>(٧)</sup> وما زال المغاربة إلى يومنا هذا يميلون إلى الكتابة في تاريخ المدن.

ولا شك في أن سلاطين بني مرين في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، كانوا يشجعون كتابة التاريخ، إذ ليس من قبيل المصادفة أن تزدهر المدرسة التاريخية في فاس في ذلك الوقت ويصبح سلاطين بني مرين عدد من المؤرخين الرسميين ويحتشد العصر بعد كبير من المؤرخين وكتاب السير والرحلات، تألق منهم

(١) ابن سعيد: المغربي في حل المغرب ج٢ ص١١٨، عبد الله كنون: النبوغ المغربي ج١ ص٧٣.

(٢) المقرى: نفح الطيب ج٢/١٨١.

(٣) محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، العصر الثالث ق من ٤٤٣، ٤٤٤.

(٤) ابن حلكان، وقيمات الأعيان وأئماء الزمان. تحقيق د. إحسان عباس (بيروت ١٩٧٧) ج٢ ص٢٤١، ٢٤٣.

(٥) ابن بشكوال: الصلة ج٢ ص٦٦٧، ابن حلكان: ج٢ ص٢٤.

(٦) د. حسن على حسن: الحضارة الإسلامية ص٥٠٣.

(٧) محمد المنوني: العلوم والأداب ص٦٩.

الكثير، فهناك بن مرزوق الخطيب صاحب المسند الصحيح الحسن في مأثر أبي الحسن، ولسان الدين بن الخطيب صاحب الإحاطة في أخبار غرناطة، والجزناني، الذي وضع كتابه التاريخي المهم: «زهرة الآس في تاريخ بناء مدينة فاس»، وابن أبي زرع صاحب كتاب «الأنيس المطرب» و«الذخيرة السننية»، وابن عذاري المراكشي صاحب كتاب «البيان المغرب»، وإسماعيل بن الأحمر الذي رحل من الأندلس وعاش في كنفبني مرين، والذي من مؤلفاته «النفحه التسريحية واللمحة المرينية»، و«روضه النسرين»، وابن القنند صاحب كتاب «الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية»<sup>(١)</sup>، وابن عبد الملك المراكشي، وهو من كتاب السير والتراث، وأبو عبد الله الزرعبي السبتي الذي وضع مؤلفه الضخم الذي يقع في أربعين سفراً مرتبة على حروف المعجم في أخبار العلماء والأدباء والتعريف بهم<sup>(٢)</sup>.

ومن مؤرخي الحضارة الإسلامية أبو الحسن على الخزاعي التلمساني الذي ألف كتاب: «تخریج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية»<sup>(٣)</sup>، وفي هذا الكتاب لم يترك أبو الحسن خطة ولا وظيفة ولا مرتبة ولا صناعة أو عملاً آخر من أعمال المجتمع الإسلامي إلا وأثبت أصله في الإسلام ودليله من السنة، وعمل الخلفاء الراشدين، وأول من باشر تلك الأعمال من الصحابة أو من ولادة الرسول - ﷺ -.

ويضاف إلى هؤلاء المؤرخين الرحالة، فهناك محمد بن عبد الله محمد بن أحمد ابن موسى بن هذيل العبدري الذي سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج في سنة ٦٨٨هـ، واخترق المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط وأفريقياً ثم اخترق ليبيا براً حتى الأسكندرية، ثم سلك الطريق البري من مصر إلى مكة المكرمة، وكانت عودته إلى المغرب عن طريق فلسطين ومصر وليبيا، وقد وصف العبدري مدن المغرب ومصر وذكر أثارها ومعالمها، واهتم بوجه خاص بالمواحي الثقافية والاجتماعية، فذكر الخصائص البارزة في سكان الأقاليم التي مر بها.

(١) ابن القاضي. جذوة الإقتباس من ٧٨

(٢) عبد الله كنون: المصدر ذاته ج ١ من ١٩٧

(٣) محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. الجزائر ١٩٦٩، ص ٢٠٩

وهناك أيضاً من الرحالة المغاربة في عصر بنى مرين أبو عمر عبد الله بن رشيد النوشريسي، وابن رشيد السبتي الفهري<sup>(١)</sup>.

على أن أهم هؤلاء الرحالة المغاربة وأشهرهم هو ابن بطوطة وتسمى رحلته: تحفة الناظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار<sup>(٢)</sup>، وقد ولد بن بطوطة في مدينة طنجة عام ١٣٠٧هـ/١٢٠٧م وأقام بها حتى سنة ١٣٢٥هـ/٧٢٥م وعندئذ قام بثلاث رحلات واسعة النطاق جاب فيها كثيراً من البلاد: الرحلة الأولى استغرقت ٢٤ سنة مر فيها بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس والمغرب ومصر وفلسطين والشام والحجاج، حيث حج حجته الأولى ثم رحل إلى العراق وفارس والأناضول ثم إلى الحجاز مرة أخرى ليحج حجته الثانية، ومن الحجاز سافر إلى اليمن وأفريقيا الشرقية فالخليج الفارسي ثم إلى مكة المكرمة حيث حج للمرة الثالثة، وبعد ذلك اتجه إلى الهند وخارزم وتركستان وأفغانستان والستان والصين حتى عاد إلى بلاد المغرب عن طريق جزيرة سومطرة سنة ١٣٤٨هـ/٧٤٨م، ثم زار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين، ومنها إلى بلاده مارا بمصر وتونس والجزائر حتى وصل إلى فاس سنة ١٣٤٩هـ/٧٥٠م.

ولكن لم يلبث أن قام برحلته الثانية فرحل إلى الأندلس حيث زار مالقة وغرناطة ثم عاد إلى فاس حيث أوفده السلطان أبو عنان المريني في سفارة إلى بلاد السودان الغربي في أول سنة ١٣٥٢هـ/٧٥٣م، واستمرت رحلته الثالثة هذه ما يقرب من عام<sup>(٣)</sup>، ثم بعد عودته إلى فاس، وفي بلاط السلطان المريني أملى بن بطوطة كتاب الرحالة «تحفة الناظار» لمحمد بن جزى الكلبي بإشارة من السلطان<sup>(٤)</sup>.

ولم تقف حركة التاريخ في عصر بنى مرين عند هذا النشاط الذي تميز به هذا العصر فحسب، وإنما تعداه إلى أمور أخرى في غاية الأهمية. كان أولها: ظهور النهج الجديد في الكتابة التاريخية، وثانيهما: التجديد في الفن «الأتوبيوغرافيا» - Biographic وهو ترجمة المؤلف لنفسه، وقد كان على رأس أبطال هذا السبق العلامة

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤذخون العرب الإسكندرية من ٢٢٦-٢٢٩.

(٢) د. سعفان محمد ربيع: محاضرات في مناهج البحث في التاريخ. مطبوعات كلية آداب القاهرة ١٩٧٤م من ٤٧.

(٣) المرجع السابق، الصفحة ذاتها.

(٤) المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ١٦٦.

ابن خلدون الذي استطاع أن يجسّد تلك التجديّدات في فن كتابة التاريخ في كتابه «العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، والذي جرت العادة باختصار اسمه في كلمتي «كتاب العبر»، وهناك أيضاً لسان الدين بن الخطيب في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»<sup>(١)</sup>، ويتلخص هذا السبق في ذلك النهج الذي اتبّعه هؤلاء المؤرخون حيث عمدوا إلى تقسيم مؤلفاتهم إلى كتب، وقسموا كل كتاب إلى فصول متصلة، تتبعها فيها تاريخ كل دولة على حدة من البداية إلى النهاية، مع مراعاة نقط الوصل والتدخل بين مختلف الدول، بينما كان نهج كثير من كتبوا التاريخ قبل ذلك هو الحرص على وضع مؤلفاتهم في صورة جداول تاريخية مرتبة وفق السنين، وتجمع حوادث كل سنة في جدول واحد على الرغم من تباعد مواطنها، وعدم ارتباطها بعضها ببعض فجاء هذا النهج الجديد أقرب إلى الدقة والتنسيق<sup>(٢)</sup>.

صحيح أن ابن خلدون ليس أول من ابتدأ هذه الطريقة، فقد سبقه إليها منذ القرنين الثالث والرابع عدد من المؤرخين كالواقدي، والبلذري، وابن عبد الحكم المصري والمسعودي، ولكن ابن خلدون يمتاز عن أسلافه من سلكوا هذا النهج في الكتابة التاريخية ببراعة التنظيم والربط وحسن السبك، كما يمتاز عنهم بالوضوح والدقة في تبويب الموضوعات والفهارس، وهذا ما دعا المؤرخ الانجليزي «روبرت فلينت» أن يقول:

«إذا نظرنا إلى ابن خلدون كزوج وجدنا من يتفوق عليه من كتاب العرب أنفسهم، وأما كواضع لنظريات في التاريخ، فإنه منقطع النظير في كل زمان ومكان»<sup>(٣)</sup>.

أما ما نشره الدكتور محمود إسماعيل في كتابه «نهاية أسطورة نظريات ابن خلدون، مقتبسة من رسائل إخوان الصفا» الصادر في القاهرة سنة ١٩٩٦ م، فذلك لم

(١) د. على عبد الواحد وافي: عبد الرحمن بن خلدون من ٢٣٦، ٢٣٥

(٢) المرجع السابق. من ٢٣٦

(٣) د. على عبد الواحد وافي: عبد الرحمن بن خلدون من ٢٣٦

يقضى على أسطورة نظريات ابن خلدون لأن الدكتور محمود إسماعيل قد بين في كتابه المشار إليه أن هذه الأفكار التي وضعها ابن خلدون موضع النظريات كانت مجرد أفكار منتشرة في رسائل إخوان الصفا، ولم ترق إلى مستوى نظريات. ومعنى هذا أن ابن خلدون هو أول من أكتشف هذا الكنز الدفين في رسائل إخوان الصفا . فهل العبرية شيء غير هذا عند الدكتور محمود إسماعيل !! .

## نشأة العلوم العقلية

أ. ا. ب.

العلوم العقلية أو الحكمة هي تلك العلوم التي يهتدى إليها الإنسان بفكرة ومداركه البشرية. فالمعنى الدقيق لكلمة «الحكمة» هو أنها تعنى المنسوبة إلى الحكمة. وقد اشتغلت العلوم العقلية أو الحكمة على: علم المنطق وعلم الإلهيات «ماوراء الطبيعة»، علم الطبيعيات، وعلم التعاليم، وعلم تقويم البلدان «الجغرافيا»<sup>(١)</sup>.

### علم المنطق:

هو: «قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في حدود المعرفة للماهيات، والحجج المفيدة للتصديقات»<sup>(٢)</sup>.

ولم يلق علم المنطق اهتماما من علماء عصر بنى مرين، لذلك فقد كانوا لا يتداولون إلا كتب المتأخرین: «وهجروا كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن»، وهي ممتلئة من ثمرة المنطق وفائدته<sup>(٣)</sup>.

ومما يلاحظ أيضا على العلماء في ذلك العصر أن من اهتم منهم بهذا العلم كان كضرورة لتناول علوم أخرى، كالفلك والرياضيات مثل ابن البناء العددي الذي وضع عدة مؤلفات في المنطق منها «الكلبات في المنطق» وشرح عليه، و«القوانين» الذي ألفه ابن القاضي العمراني، وكتابه «الأصول والمقدمات»<sup>(٤)</sup> وطبعي إذا كان هذا هو حال علم المنطق في عصر بنى مرين فإنه يكون الاعتماد على المختصرات لهذا العلم مثل «الموجز» و«المجمل» الذي في قدر أربع ورقات. وكلا المختصرين كانوا لكتاب «كشف

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٥١، ٤٥٢، ٤٦٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٦١.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٦٣، ٤٦٤.

(٤) الكتани: سلوة الأنفاس ج ٣ ص ٢٧٧، ٢٧٨.

الأسرار» لأفضل الدين الخرجي<sup>(١)</sup> كما ورد أن المقرى الكبير كان من المشاركين في الأصلين الجدل والمنطق<sup>(٢)</sup>. مترتبة على

### علم الالهيات، «الفلسفة في مصلطحنا الحديث»

هو: «علم ينظر في الوجود المطلق»<sup>(٣)</sup> وهو ما نسميه حالياً بالميافيزيقاً أي ما وراء الطبيعة<sup>(٤)</sup>: Metaphysi que-du grec Metea Apres, et phusika = physique والفلسفة كلمة يونانية الأصل معناها «الحكمة». وكلمة فيلسوف اليونانية تفسيرها بالعربية محب الحكمة. وكان من أثر حركة الترجمة أن اشتغل المسلمون بدراسة الفلسفة اليونانية فشرحوها شرعاً وافياً وأضافوا إليها من تفكيرهم إضافات قيمة، وقد شجع المسلمين على دراسة الفلسفة ما أباحه الإسلام من حرية التفكير فلم يجد المسلمون حرجاً في إشباع نهمهم العلمي وإرواء ظمائمهم إلى المعرفة.

وكان للهجمات التي وجهها أعداء الإسلام إلى الإسلام والشبهة التي أثاروها حول بعض عقائده، كان لذلك كله أثره البالغ في دفع كثير من العلماء المسلمين إلى تعلم الفلسفة اليونانية حتى يتمكنوا من الرد على أعداء دينهم بنفس السلاح الذي هاجموا به.

أقبل العلماء المسلمين على تعلم تلك الفلسفة التي كانت مراكز دراستها قد انتقلت إلى الإسكندرية والرها ونصيبين وحران وجند يسابور وغيرها من المدن التي دخلت في حوزة الدولة الإسلامية، ولم يكتف الخلفاء العباسيون بما وجد في هذه المدن من كتب فلسفية، بل استحضاروا المخطوطات الفلسفية النادرة من بلاد الروم وكلفوا المתרגمين بترجمتها إلى العربية.

ومن أوائل العلماء العرب الذين تعمقوا في دراسة الفلسفة يعقوب بن إسحاق الكندي المتوفى سنة ٢٦٠هـ، وهو عربي من قبيلة كندة اليمنية التي ينسب إليها أمرؤ

(١) ابن خلدون: المقدمة من ٤٦٣.

(٢) ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بقلمسان. الجزائر ١٩٠٨ ص ١٥٥

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٤٦٦.

(٤) د. علي عبد الواحد وافي: عبد الرحمن بن خلدون ص ٣٠٨.

القيس، ولذلك أطلق عليه «فيلسوف العرب» وقد نشأ الكندي في الكوفة وتعلم في البصرة ثم انتقل إلى بغداد التي ازدهرت فيها النهضة العلمية حتى نافست الكوفة والبصرة في البحث والدرس. ولم تكن جهود الكندي مقصورة على دراسة الفلسفة والكتابة فيها، بل كتب في كثير من العلوم مثل المنطق والهندسة والحساب والموسيقى والنجوم.

ومن أشهر الفلسفه أبو النصر محمد الفارابي المتوفى سنة ٤٣٩هـ ، وهو من أصل تركي، ولد بفاراب على نهر جيحون، ونشأ ببغداد ورحل إلى مصر والشام، واتصل بسيف الدولة بن حمدان، وتوفي بدمشق ، وقد صنف الفارابي كتبه في الفلسفة على نسق كتب أرسطو، ولذلك عرف بالمعلم الثاني، لأن أرسطو كان يطلق عليه المعلم الأول. وإلى الفارابي يرجع الفضل في تقرير الفلسفة اليونانية إلى الفكر الإسلامي، وقد كتب في الأخلاق والمنطق وعلم النفس وفيما وراء الطبيعة، وكتب عدة رسائل في التوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون، وكتب رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة .

ومن أشهر الفلسفه أيضاً «إخوان الصفا» الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري، اتخذوا البصرة مركزاً لنشاطهم العلمي وكان لهم فرع في بغداد، وكونوا جماعة سرية تتألف من طبقات تفاوتت عن بعضها البعض وقد أخذوا من مبادئ الفلسفة الطبيعية، وتأثروا بالفيثاغورثية الجديدة، واتبعوا طريقة التأويل المجازي في تفسير القرآن، وهي الطريقة التي اتبعها الباطنية في التفسير.

وتتألف رسائلهم من إحدى وخمسين رسالة. وتبعد فلسفتهم بالنظر في الرياضيات ثم تنتقل إلى المنطق والطبيعيات فترد كل شيء إلى النفس وما لها من قوى وتنتهي أخيراً إلى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفي. وقد ضمنوا تلك الرسائل نزعتهم السياسية، وأشاروا فيها إلى معاناة أسلافهم من اضطهاد في سبيل التمسك بمبادئهم، وتوافصوا فيها بالصبر والاخلاص في نشر أفكارهم.

ومن فلاسفة المسلمين المشهورين الحسين بن علي المشهور بابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ . نشأ في مدينة بخاري ، وتنقل في كثير من المدن مثل نيسابور وطوس والري وقزوين وهمدان، ودرس كتب الفارابي وغيرها من كتب الفلسفة، وحاول

التوافق بين نزعته الفلسفية والمنطق، وترك ما يقرب من مائة كتاب من أشهرهم كتاب الشفاء وكتاب الإشارات.

وقد درس الإمام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ علوم الفلسفة، ونعني على فلاسفة المسلمين إقحام الفلسفة في الدين، وألف في ذلك كتابه المشهور «تهافت الفلسفه».

وقد شهد علم الإلهيات في الأندلس فترات ازدهار وفترات خمود نتيجة لاضطهاد الحكم، فقد ازدهر على عهد المستنصر، ثم تعرض لاضطهاد على يد المنصور ابن أبي عامر، وعاد إلى الازدهار على عصر الطوائف، ثم خمد على عهد المرابطين، وعاش أزهى أيامه على الأرض الأندلسية على عهد الموحدين<sup>(١)</sup>.

وأول من عرف بالاشغال بعلم الإلهيات في الأندلس، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي توفي ٢١٩ هـ / ٩٣١ م وهو أول مفكر أصيل أنجبته الأندلس، وكان يستر آراءه وراء ستار من آراء المعتزلة والباطنية، وتنعكش في مذهبه الحقيقي آراء الأفلاطونية الحديثة<sup>(٢)</sup>. وقوامها الأفكار التي قال بها فيلون الإسكندرى وأفلاطون وفوفوريوس الصورى وبروقلتيس، ونسبت إلى أندروقليس، وتعتمد على وجود مادة روحانية ويشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية واعتبرت هذه المادة أول صورة بروزت للعالم العقلى<sup>(٣)</sup> واتهم ابن مسرة بالزندقة، فخرج فارا من الأندلس وتردد بالمشرق فترة اشتغل خلالها بخلافة أهل الجدل وأصحاب الكلام، ثم انصرف عائدا إلى الأندلس<sup>(٤)</sup> وخلف ابن مسرة تلاميذ حملوا لواء آرائه من بعده من بينهم رشيد بن فتح الدجاج القرطبي توفي ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م الذي اتهم بمذهب ابن مسرة<sup>(٥)</sup> ، والياس بن يوسف الطليطي، وخليل بن عبد العنك<sup>(٦)</sup> . ومحمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيس<sup>(٧)</sup>

(١) د. محمد عبد العميد عيسى: تاريخ التعليم ص ٣٣٧، محمد لطفى جمعة: تاريخ فلاسفة الإسلام فى المشرق والمغرب.

(٢) جناث بالنتيا: تاريخ الفكر ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٣) نفس المرجع، ونفس المقدمة

(٤) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس قسم ٤ ص ٤٠ ترجمة رقم ١٢٠٤.

(٥) نفس المصدر قسم ١ ص ١٤٧ ترجمة رقم ٤٣٩.

(٦) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسالجزء الثاني من المكتبة الأندلسية بيروت ١٩٦٠ ص ٥٢-٥٨.

(٧) د. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة ج ٢ ص ٢١٨.

واشتغل بعض المفكرين بعلم الإلهيات في زمن الحكم المستنصر بجانب  
اشغالهم بالطب، ومنهم أحمد بن حكيم بن حفصون، وأبو بكر أحمد بن جابر، وأبو عبد  
الله محمد بن الحسين الكناني<sup>(١)</sup>.

وأهم ما تميز به علم الإلهيات في الأندلس وبغداد هو التوفيق بين العقيدة  
والعقل أو الدين والعلم، فكان أرسطاطاليس في نظر علماء الإلهيات حقاً وأفلاطون حقاً  
والقرآن الكريم حقاً، ولكن الحق يجب أن يكون واحداً، ومن هنا ظهرت ضرورة التوفيق  
بين الثلاثة، ولقد كان لما أضافوه المكان الأول إذا راعينا ما كان له أثر على التفكير  
العلمي والفلسفـي<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من أن علم الإلهيات لم يزدهر في ظل حكم المرابطين باعتبار أن  
مجتمع المرابطين كان مجتمع الفقهاء والعلماء الذين يتزرون بأحكام الدين  
ويتشددون في تفزيـذ مبادئه وتعاليمـه<sup>(٣)</sup> إلا أنه كان يوجد في عهد المرابطين بعض  
علماء الإلهيات الذين كان على رأسهم رجل من رجال البلاط المرابطي هو أبو بكر  
محمد بن يحيى بن الصائـع المعـروف بـابـن باجـة<sup>(٤)</sup> والمعـروف عند الأفـرنـج باسم  
Avenpace Avempase الفـيلـيـسـوـفـ والعـالـمـ وـالـطـبـيـبـ وـالـمـوـسـيـقـ وـشـارـحـ أـرـسـطـوـ، الـذـي  
أـزـدـهـرـ فـيـ غـرـنـاطـةـ وـسـرـقـسـطـةـ بـالـأـنـدـلـسـ وـتـوـفـيـ فـيـ فـاسـ سـنـةـ ٥٣٣ـهـ / ١١٣٨ـمـ<sup>(٥)</sup>. ولقد  
كتـبـ ابنـ باجـةـ عـدـةـ مـوـلـفـاتـ فـيـ الـفـلـكـ اـنـتـقـدـ فـيـهـ آـرـاءـ بـطـلـيـمـوسـ، فـمـهـ بـذـلـكـ الـطـرـيـقـ أـمـامـ  
ابـنـ طـفـيـلـ، وـالـبـطـرـوـجـيـ، وـكـتـبـ مـوـلـفـاتـ أـخـرـىـ فـيـ الـمـادـةـ الـطـبـيـةـ، الـتـيـ نـقـلـ عـنـهـ اـبـنـ  
الـبـيـطـارـ، وـلـهـ مـوـلـفـاتـ غـيـرـ هـذـهـ فـيـ الـفـلـكـ كـانـ لـهـ أـثـرـ قـوـيـ فـيـ اـبـنـ رـشـ، مـثـلـ كـتـابـهـ  
إـصـلـاحـ الـأـخـلـاقـ. وـلـكـنـ أـهـمـ كـتـبـ هـوـ تـدـبـيرـ الـمـوـتـوـدـ، وـالـذـيـ بـيـنـ فـيـهـ كـيـفـ أـنـ الـأـنـسـانـ  
دـوـنـ أـيـةـ مـاـسـاـعـدـةـ فـيـ طـوـقـةـ أـنـ يـصـلـ إـلـىـ الـاتـحـادـ مـعـ الـعـقـلـ الـأـوـلـ، وـتـعـلـيمـهـ كـيـفـ أـنـ  
الـكـمـالـ الـتـدـرـيـجـيـ لـلـرـوـحـ الـإـنـسـانـيـ عـنـ طـرـيـقـ الـاتـصـالـ بـالـمـلـأـ الـأـعـلـىـ هـوـ غـرـضـ

#### الفـلـسـفـةـ<sup>(٦)</sup>

(١) د. السيد عبد العزيز سالم. قرطبة ج. ٢، ص. ٢١٨.

(٢) محمد مبروك نافع: تاريخ العرب (الكتاب الرابع ١٩٤٩) ص. ٧٥٤.

(٣) د. حسن على حسن: الحضارة الإسلامية ص. ٥٠٦.

(٤) د. محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم من ٢٣٧.

(٥) محمد مبروك نافع: المرجع السابق. ص. ٧٥٥.

(٦) محمد مبروك نافع: تاريخ العرب ص. ٧٥٦، ٧٥٥.

وقد احتضنت مراكش بعض علماء الإلهيات من الأندلسيين البارزين مثل ، مالك بن وهيب الذي شغل منصب هامة في البلاط المرابطي<sup>(١)</sup> . إلا أنه عندما تحول إلى مدينة مراكش تجنب ممارسة علم الإلهيات، ولم يظهر من العلوم فيها إلا ما كان ينسجم مع رغبات الحكام المرابطين<sup>(٢)</sup> . إلى أن توفي بمراكم سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م<sup>(٣)</sup> . ثم ازدهر علم الإلهيات في عصر الموحدين، وانطلق من عقاله كنتيجة طبيعية للتحرر الفكري، ومحاربة الجمود العقلي الذي دعت إليه دعوة ابن تومرت، فازدان البلاط الموحدي بكتاب فلاسفة الأندلس، كان من أهمها شخصيتان كانتا تمثلان قمة فلاسفة العرب والمسلمين إذ كان لهما أبلغ الأثر في دفع عجلة حركة ذلك العلم وهم: أولاً: أبو بكر بن طفيل ، محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد طفيل القيس<sup>(٤)</sup> الذي ولد حوالي سنة ٩٤هـ/ ١١٠٠م<sup>(٥)</sup> وتوفي بمراكم سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م وحضر المنصور الموحدي تشيع جنازته<sup>(٦)</sup> .

ويبدو أن منصب ابن طفيل كطبيب خاص ليوسف بن عبد المؤمن الذي خصص له راتباً شهرياً<sup>(٧)</sup> قد هيأ له الفرصة للتفرغ العلمي والانصراف للتأليف والبحث والإشراف على المؤسسات العلمية الموحدية في مراكش لرفع مستواها العلمي، واما يؤكد ما ذهب إليه الباحث أن ابن طفيل كان ينتقي خيرة العلماء من الأقطار التابعة للموحدين إدارياً ويشير على يوسف بن عبد المؤمن باستقدامهم وإكرامهم بغية الاستفادة منهم في العمل بالمؤسسات العلمية بالعاصمة الموحدية<sup>(٨)</sup> .

ولقد كان ابن طفيل موسوعة علمية قابلة جانب كونه طبيباً حازقاً<sup>(٩)</sup> وفيلسوفاً

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ من ٤٩-٥٠، المقرى: نفح الطيب ج ٣ من ٤٨٦، ٧٥٦.

(٢) المراكشي: المعجب من ١٨٥.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ج ٢ من ٦٢١.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ من ٤٧٨، دائرة المعارف، المجلد الأول العدد الرابع، ص ٢١٢-٢٢٦.

(٥) العباس بن إبراهيم: الأعلام ج ٤ من ١١٧.

(٦) ابن الأبار: المقتضب من ٧١، ابن الخطيب: الإحاطة ج ٢ من ٤٨٢.

(٧) المراكشي: المصدر السابق من ٢٤٠.

(٨) المراكشي: المعجب من ٢٤٢، ٢٣٩.

(٩) ابن سعید: المغرب في حل المغرب ج ٢ من ٨٥، ابن عبد الملك المراكشي: الذيل ج ٦ من ٤٠٧، المقرى: نفح الطيب ج ٢ من ١٩٢.

متحققا بجميع أنواع الفلسفة<sup>(١)</sup> التي بذل فيها جهدا كبيرا في سبيل التوفيق بينهما وبين الشريعة<sup>(٢)</sup> صنف عدة مصنفات في علوم مختلفة<sup>(٣)</sup> لم يصل منها إلى أيدي الباحثين والدارسين في الوقت الحاضر غير رسالة «حي بن يقطان»<sup>(٤)</sup> وهي تلخيص فلسفى لأسرار الطبيعة والخلقة<sup>(٥)</sup>.

ثانيا: أبوالوليد، محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن رشد الحفيد<sup>(٦)</sup> الذي ولد في قرطبة سنة ١١٢٦هـ/٥٥٢٠ م من عائلة عرفت باهتمامها بالقضايا العلمية والبحث والدراسة، وتوفى بمراكش سنة ١١٩٨هـ/٥٥٩٥ م اتصل بالبلاط الموحدى عن طريق أستاذه أبي بكر بن طفيل الذي أشار على يوسف بن عبد المؤمن باستدعائه من الأندلس إلى العاصمة الموحدية<sup>(٧)</sup> ثم طلب منه بعد ذلك يوسف بن عبد المؤمن أن يقوم بشرح فلسفة أرسطو وتبسيطها<sup>(٨)</sup>.

وقد نهض بهذه المهمة التي جعلته من أبعد فلاسفة العرب صيتا وأعظمهم تأثيرا. وقد حظى ابن رشد بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن عند أبيه يعقوب المنصور الموحدى بمكانة رفيعة، حيث خصص المنصور له مكانا في مجلسه إلى جانبه، وذلك سنة ١١٩٤هـ/٥٩١ م<sup>(٩)</sup>.

ويبدو أن تناول هذا العلم لم يحظ باهتمام علماء المغرب في عصر بنى مرين، وربما كان ذلك لما واجهته الفلسفة في هذا العصر من عدم ارتياح عند السلطات

(١) المراكشى: الم Gambier من ٢٤٠.

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة.

(٣) المصدر السابق من ٢٤٠، محيى الدين عزوز: التطور المذهبي بالمغرب من ٥٩٠.

(٤) عبد العباس إبراهيم حمادى: الحركة الفكرية من ٣٦٦.

(٥) المرجع السابق الصفحة ذاتها.

(٦) ابن عبد الملك المراكشى: الذيل ج ٦ من ٢١.

(٧) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ج ٤ من ٣٢٠.

(٨) الضبى: بقية الملensis من ٥٤.

(٩) المراكشى المصدر السابق: من ٢٤٢.

(١٠) المصدر السابق: من ٢٤٢، ٢٤٣.

(١١) ابن أبي اصبعية: عيون الأنباء ج ٢ من ٧٦.

الحاكمة، وذلك يعكس ما واجهته باقي العلوم الأخرى من تشجيع، ويدرك ابن الخطيب أنَّ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدَ بْنَ شَعِيبَ الْكَرْبَلَيْتِيَ قد مقت بسبب اشتغاله بهذا العلم<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك فقد اهتم بهذا العلم في عصر بنى مرين عدد من العلماء ووضعوا فيه عدة تأليف، ومن هؤلاء محمد بن سعيد بن محمد النجاشي الفاسى المتوفى سنة ١٣٧٨هـ / ١٧٧٨م، وهو الذي اختصر المقدمات لابن رشد، ومن مؤلفاته التي وضعها في هذا العلم «الأستلة والأجوبة»، واختصار «الحدود للشیرازی»<sup>(٢)</sup>.

ومن هؤلاء العلماء أيضاً الذين اهتموا بعلم الإلهيات ابن البناء العددى الذي وضع كتاب «مراسيم الطريقة في علم الحقيقة» كما أن له شرحاً على هذا الكتاب ومقالات أربعاً<sup>(٣)</sup>.

### الطبيعيات :

هو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركات والسكن، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وانسان ونبات ومعدن وما يتكون في الأرض من العيون والزلزال، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك. وفي مبدأ الحركة للأجسام، وهو النفس على تنوعها في الإنسان والحيوان والنبات<sup>(٤)</sup>.

وهكذا فإن هذا العلم كان يشتمل على علوم الطبيعة والكيمياء والجيولوجيا «طبقات الأرض» والبيولوجيا «علم الحياة»، وعلوم الأحياء «علم الإنسان وعلم الحيوان وعلم النبات»، والفيزيولوجيا «وظائف الأعضاء» والميتيورولوجيا «علم الجو»، كما كان من فروع الطبيعيات أيضاً في ذلك الوقت علم الطب والدواء.

### الطب :

كان الطب يعد فرعاً من فروع العلوم الطبيعية، بينما هو في اصطلاحنا الحديث علم قائم بذاته.

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أثبات غرناطة ج ١ ص ٢٧٢.

(٢) ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص ١٤٧، الكتابي: سلوة الأنفاس ج ٣. ص ٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) ابن القاضي: المصدر السابق ص ٧٦، ٧٧.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٦.

وأول طبيب عربي -فيما نعلم- درس الطب دراسة علمية هو الحارث بن كلدة الثاني المتوفى حوالي سنة ١٣٥هـ، وكان قد ذهب إلى بلاد الفرس وأضاف إلى معارفه الأولية دراسة علمية هناك، ونبغ في علم الطب حتى لقب «طبيب العرب» ثم خلفه في مهنة الطب ابنه النضر.

وعندما انفتح المسلمون على العالم خارج الجزيرة العربية كان طبيب اليونان يدرس في الإسكندرية بمصر وحران بأرض الجزيرة وأرند يسابور بفارس. وقد ظهر في هذه المدن أطباء من أهلها. وكان خلفاءبني أمية يستدعون بعض هؤلاء الأطباء ليعالجوهم، وقد اشتهر من بينهم ابن أثال الطبيب المسيحي الذي كان يعالج معاوية.

وعندما مرض الخليفة أبو جعفر المنصور بأمعائه استدعي جورجيس بن يختيشون الطبيب المسيحي من مدينة جنديسابور، فحضر جورجيس إلى بغداد وعالج الخليفة. وقد اهتم أبو جعفر بترجمة كتب الطب، وكلف أبا يحيى بترجمة بعض كتب بقراط وجالينوس، واهتم الخلفاء العباسيون الذين جاءوا بعد أبي جعفر بترجمة كتب الطب.

وقد أقبل المسلمون على دراسة ما ترجم من كتب الطب حتى تعلموا طب اليونان، ثم أضافوا إلى ما تعلموه كثيراً مما أفادوه بالتجربة والملاحظة، فتقدم الطب على أيديهم تقدماً ملحوظاً في تشخيص الأمراض التي تتشبه أعراضها، وعالجوها كل نوع منها بما يناسبه من أنواع العلاج. وتخصص بعضهم في نوع خاص من أنواع الطب مثل طب العيون وطب الأسنان وعلاج الأمراض وطرق علاجها، حيث أدركوا الفرق بين كثير من الأمراض الباطنية والجراحات والعظام.

وأول ما أنشيء من المستشفيات في الدولة الإسلامية هو البيمارستان الذي بناه الرشيد في بغداد في الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة. ثم تعددت المستشفيات في العالم الإسلامي بعد ذلك وأقمن مستشفى في مصر هو المستشفى الذي بناه أحمد بن طولون في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. وقد ظهرت العيادات المتنقلة في العالم الإسلامي لأول مرة في القرن الرابع الهجري، وكان بالمستشفيات الإسلامية أجنحة خاصة بالنساء، وكان لكل مستشفى صيدلية خاصة به، كما كان ببعض هذه المستشفيات مكتبات طبية، وقاعات تلقى فيها المحاضرات على طلاب الطب.

ولم يكن يسمح بمزاولة مهنة الطب إلا لمن اجتاز امتحاناً فيه. فقد روى أن أحد الأطباء أخطأ في العلاج فأمر الخليفة العباسي المقتدر بالله «٢٩٥-٢٣٢هـ» الطبيب المشهور سنان بن ثابت بن قرة بأن يمتحن كل الأطباء المحترفين ويعن إجازات لكل من نجح منهم. وقد نجح في هذه الامتحان أكثر من ٨٦٠ طبيباً. وبذلك أقصى عن هذه المهنة الدجالون وأدعياء الطب.

ولما كان الإسلام يحرم تشريح جسم الإنسان فقد لجأ الأطباء إلى تشريح بعض الحيوانات التي يشبه تركيب جسمها تركيب جسم الإنسان، مثل النسانيس لمعرفة أجزاء الجسم. وكان أطباء العالم الإسلامي أول من عرف التخدير واستعمله لتخفيض آلام الجراح.

وقد اشتهر في العالم الإسلامي في العصور الوسطى عدد من الأطباء المسلمين وغير المسلمين، نخص منهم بالذكر أبا بكر محمد الرازي المتوفى سنة ٣١١هـ. وكان في حداثة سنّه مولعاً بالفناء ثم أقبل على دراسة الطب بعد أن جاوز الثلاثين وبنج فيه حتى لقب «جالينوس الغرب» وعين رئيساً لمستشفيات بغداد والري، ثم كف بصره في آخر حياته، وقد ترك عدة مؤلفات في الطب أشهرها كتاب «الحاوي» الذي يعتبر من أوسع المؤلفات الطبية.

ومنهم الشيخ الرئيس أبو على بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ. وقد نال شهرة فائقة، وبخاصة في الفلسفة والطب، وترك عدة مؤلفات في كثير من العلوم من أشهرها في الطب والتشريح والصيدلة.

وقد اشتهر في مصر عدد من الأطباء منذ عهد الدولة الطولونية. ومنهم أبو الحسن على بن رضوان طبيب الخليفة العزيز بالله الفاطمي. وقد ألف هذا الطبيب في كثير من العلوم علامة على ما ألف في الطب، اعتمد أطباء الأندلس بادئ الأمر على كتاب يطلق عليه الإبريم Aphorismi ومعناه المجموع، أو الجامع<sup>(١)</sup>. ثم تطور العلم على غرار طب المشرق، غير أن علماء الطب ومستغليه في الأندلس

(١) ابن جلجل: طبقات الأطباء، تحقيق فؤاد سيد (القاهرة ١٩٥٥) ص ٢٩.

أولوا الجراحة الطبية عنایتهم الخاصة من دون فروع الطب الأخرى<sup>(١)</sup>. فازدهر هذا العلم على يد يونس بن أحمد الحراني، الذي وفد من المشرق سنة ٢٣٧هـ/٨٥٢م، ويقول عنه صاعد الطبقي: «كانت عنده مجريات حسان في الطب، واشتهر بقرطبة»<sup>(٢)</sup>.

وقد أخذ عنه كثيرون، كان على رأسهم ابنه أحمد وعمر حيث امتاز الأول بالخبرة في تحضير الأدوية، واشتهر الثاني بالكحالة، والذي يبدو أنه يرجع إليه الفضل في تأسيس مدرسة طب العيون في الأندلس، فهو الذي تللمذ على يديه أبو القاسم خلف الزهراوي حيث أخذ عنه طريق استخراج ماء العين «الكتاراكتا» بواسطة الإبرة في الجراحة الطبية<sup>(٣)</sup>. أشار أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي إلى أن أحمد وعمر رحلا إلى المشرق وأقاما هناك عشرة أعوام ودخلوا بغداد وقرأا على ثابت بن سنان بن ثابت ابن قرة الصاببي، ثم عادا بعد خمسة عشر سنة عام ٣٥١هـ/٩٦٢م إلى الأندلس فاستخلصهما الأمير الحكم المستنصر لخدمته في الطب. وقد خلف أحمد في قرطبة آثارا نفيسة<sup>(٤)</sup> وأضاف ابن أبي أصبعية أن أحمد بن يونس الحراني كان: «عاقلا بما شاهد علاجه ورأه عيانا بالشرق»<sup>(٥)</sup>.

ولقد كان الأطباء الأندلسيون احتشد بهم بلاط المرابطين والموحدين أثره الواضح في تطوير الطب وازدهاره بالمغرب على يد هؤلاء الأطباء الأندلسيين الذين تقلد بعضهم مناصب وزارية في كل من الدولتين المرابطية والموحدية<sup>(٦)</sup> وكانت لهم مصنفات طبية منها ما يتعلق بالأمراض الغالبة الانتشار في المغرب والأدوية المناسبة لها<sup>(٧)</sup>.

ومن أهم هؤلاء لأطباء الأندلسيين الذين عملوا بالطب في المغرب على عهد

(١) سوادى عبد محمد: «تأثير الفكر الأندلسي بالحركة العلمية في المشرف الإسلامي»، مقال بمجلة عالم الفكير، المجلد الثالث عشر، العدد الثاني، يوليوب - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٢، ص ٦٥٣.

(٢) ابن أبي أصبعية: «عيون الأنبياء»، ج ٢، ص ٤٢.

(٣) سوادى عبد محمد: «المراجع السابق»، ص ٦٥٣.

(٤) صاعد الطبقي: «طبقات الأم»، نشر محمود صبح (القاهرة) ص ١٢٤.

(٥) ابن أبي أصبعية: «المصدر السابق»، ج ٢، ص ٤٦.

(٦) المراكشي: «العجب»، ص ٢٤٠، ابن أصبعية: «المصدر السابق»، ج ٢، ص ٦٦.

(٧) ابن أبي أصبعية: «ج ٢، ص ٦٧»، عبد العزيز بن عبد الله: «الطب والأطباء بالمغرب» (الرباط ١٩٥٦)، ص ٢٤.

المرابطين: أبو العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر<sup>(١)</sup> والذي توجه للعمل في البلاط المرابطي بدعوة من يوسف بن تاشفين<sup>(٢)</sup> وبعد وفاة يوسف بن تاشفين بقى أبو العلاء زهر طبيباً لابنه وهو الذي استورزه<sup>(٣)</sup>.

ولأبي العلاء تصانيف كثيرة في الطب منها كتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «الإيصال بشوادل الافتراض في الرد على ابن رضوان»<sup>(٤)</sup>. توفي بالأندلس سنة ١١٣٠هـ/٥٢٥م<sup>(٥)</sup>.

ولقد عمل بالبلاط المرابطي أطباءً أندلسيون كثيرون، أما عن الذين عملوا منهم في البلاط الموحدi فهم كثيرون جداً ومن أشهرهم:

أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن بن محمد مروان بن زهر<sup>(٦)</sup> خدم في بلاط الدولتين المرابطية والمحمدية<sup>(٧)</sup> واستدعاه إلى مراكش عبد المؤمن بن على واتخذه طبيباً خاصاً، وجعل اعتماده عليه في الطب وحالات وخطف لطيفة في معالجة المرضى<sup>(٨)</sup> وصنف كتاباً طبيباً كثيرة<sup>(٩)</sup> كانت مشهورة ومتداولة بين أيدي الناس في المغرب والأندلس<sup>(١٠)</sup>، ودرس الطب بالعاصمة المرابطية والمحمدية<sup>(١١)</sup> ومن بين الذين تلذموا على يده في العلم المذكور أبو الحكم بن غلندة<sup>(١٢)</sup> الذي أصبح طبيباً في البلاط الموحدi فيما بعد<sup>(١٣)</sup> وتوفي أبو مروان عبد الملك

(١) ابن بسام: الذخيرة قسم ٢ ج ١ ص ٢١٩، ٢١٨ ابن أبي أصبيعة: عيون الأنباء ج ٢ ص ٦٤.

(٢) عبد العزيز بن عبد الله: المرجع السابق ص ٢٢.

(٣) العباس بن إبراهيم: الأعلام ج ٣ ص ٢٥١.

(٤) ابن أبي أصبيعة: ج ٢ ص ٦٦.

(٥) ابن عذاري: البهان المغربي ج ٤ ص ٨٥.

(٦) ابن أبي أصبيعة: المصدر السابق ج ٢ ص ٦٦.

(٧) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٨) ابن العماد الحنفي: شذات الذهب ج ٤ ص ١٧٩.

(٩) غوستاف لوبيون: حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر، وعيسي البابي الحبلي، القاهرة، ص ٤٩٤.

(١٠) ابن أبي أصبيعة: المصدر السابق ج ٢ ص ٦٦، ٦٧.

(١١) العباس بن إبراهيم: المرجع السابق ج ٨ ص ٣٥٥.

(١٢) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكميل قسم ١، ج ٥ ص ١٩.

(١٣) العباس بن إبراهيم: الأعلام ج ٨ ص ٢٥٥.

(١٤) ابن الأبار: المقتضب ص ٧٢، ٧١.

بن أبي العلاء بمدينة أشبيلية سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م<sup>(١)</sup>.

ومن الأطباء الآخرين الذين لمعوا في العاصمة الموحدية أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر<sup>(٢)</sup> ومحمد بن على بن سليمان بن رفاعة الجزامي<sup>(٣)</sup> وأبو جعفر الذهبي أحمد بن جرح<sup>(٤)</sup>، ومن الطبيبيات اللواتي اشتغلن بمراكش في عهد الموحدين أخت الحفيد أبي بكر بن زهر وابنته<sup>(٥)</sup>، فقد كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة، ولهمما خبرة جيدة بأمراض النساء<sup>(٦)</sup>. من خلال ما تقدم يمكن تصور مدى الجهد الضخمة للأطباء الأندلسيين الذين عملوا بمدينة مراكش على عهد الدولتين المرابطية والموحدية، فقد بذلوا جهوداً جبارة في مجال اختصاصهم سواء على صعيد التصدى لتطبيب الجماهير المغربية أم تصنيف الكتب أم تدريب الطلبة وتدریسهم أم في مجال قدرتهم على إجراء التجارب العلمية واستنباط النتائج الطبية<sup>(٧)</sup>.

وقد واصل الطب تقدمه وازدهاره في عصر بنى مرين، ومن الأطباء الذين بروزا في هذا العلم أحمد بن محمد بن يوسف الجزناني المعروف بابن شعيب المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م<sup>(٨)</sup> وقد تلمند ابن شعيب على يد يعقوب الدارس بتونس وأخذ عنه الطب والهيئة، وسافر إلى غرناطة حيث قام بدراسة واسعة عن تغيير الأدوية المفتردة<sup>(٩)</sup>.

ومنهم أيضاً محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي المتوفى سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م<sup>(١٠)</sup>.

ومن الأندلسيين الذين عملوا بالطب في العاصمة المرinية فاس محمد بن قاسم

(١) ابن العماد الحنفي: شذرات الذهب ج٤ ص١٧٨، ١٧٩.

(٢) ابن أبي أصبيعة: عيون الأنباء ج٢ ص٦٧، ٧٣.

(٣) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكميل ج٦ ص٤٤٦، ٤٤٧.

(٤) ابن أبي أصبيعة: عيون الأنباء، ج٢ ص٨١.

(٥) المصدر السابق ج٢ ص٦٧، ٧٠.

(٦) المصدر السابق ج٢ ص٢٠، ٢٠.

(٧) عبد العباس إبراهيم حمادى: الحركة الفكرية ص٣٨٩.

(٨) ابن خلدون: المقدمة ص٤٧٣.

(٩) د. على عبد الواحد وافي: عبد الرحمن بن خلدون ص٣١٦-٣٢٠.

(١٠) ابن القاضى: جذوة الاقتباس ص٥٧، ٥٨.

بن أبي بكر القرشي المالقي، وقد رحل هذا الطبيب إلى فاس، ومن المؤلفات الطبية المشهورة في عصر بنى مرين الكتاب الذي ألفه ابن الخطيب بعنوان : «علم من طب لمن حب» وهو مؤلف طبى كبير تناول فيه ابن الخطيب الأمراض المختلفة مع ذكر أسباب كل مرض وأعراضه وطرق علاجه وتحويطاته ونظام الغذاء الذي يناسبه، كما تحدث فيه عن مختلف أعضاء الجسم، وطرق العناية بها، وذكر ابن الخطيب في مقدمة الكتاب أنه لم يجد لخدمة أبي سالم المريني أفضل من الطب فألف له هذا الكتاب تعبيراً عن حبه له<sup>(١)</sup>.

### علم الدواء «الصيدلة»:

تقدم استعمال العقاقير الطبية تقدماً ملحوظاً على يد العرب، فهم أول من أنشأ حوانيت الصيدلانية «الصيدليات»، وأول من أسس مدرسة لدراسة علم الصيدلة. وقد تركوا لنا أول «أقربازين» مبني على قواعد علمية صحيحة، وألقووا عدة رسائل في كيفية تركيب الأدوية. ولم يكن يسمع لأحد بمعزولة مهنة الصيدلة إلا إذا نجح في امتحان نظري وعملي أمام لجنة من النابغين في هذا العلم.

وكان معظم العقاقير الطبية يحضر من الأعشاب الطبيعية، لذلك كانت دكاكين العطارين بمثابة الصيدليات الآن.

وكان يلحق بقصور الخلافاء والسلطانين صيدليات عرفت في عهد الفاطميين بخزانة الشراب، وفي عهد المماليك أطلق عليها اسم: الشراب خانة.

وكانت الأدوية تسمى بحسب تكوينها، فإن كانت مكونة من عنصر واحد سميت بالأدوية البسيطة أو المفردة وإن كانت مكونة من أكثر من عنصر عرفت بالأدوية المركبة «الأقربازينات»، كما كانت تسمى بأثرها الطبيعي مثل ملطف ومعرق وهاضم ومسهل وقابض وما شابه ذلك.

وأول المستغلين بالصيدلة من العرب هو جابر بن حيان في منتصف القرن الثاني للهجرة، وقد زاول المهنة بعده من العلماء العرب من أشهرهم ضياء الدين أحمد بن البيطار المتوفى سنة ٦٤٦هـ وقد ولد بمدينة مالقة بالأندلس، واشتهر بابن البيطار

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ج. ١ من ٢٧٧، ٢٧٢.

لأن والده كان يعالج الحيوانات، وقد زار ضياء الدين بلاد اليونان واستوطن مصر في عهد الأيوبيين، وعين رئيساً للعشابين «كبيراً للصيادلة» بها، وألف كتاباً في الصيدلة، منها كتاب «الجامع الكبير لقوى الأدوية والأغذية»، الذي اشتهر، بمفردات ابن البيطار، وهو عبارة عن قاموس حوى أكثر من أربععمائة وألف دواء مرتبة على حسب حروف الهجاء، منها ثلاثة لم تذكر في مؤلف قبله، ومن بين هذه الثلاثة نحو مائتين من الأعشاب النباتية، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية في أواخر سنة ١٧٥٨.

### علم الكيمياء :

تنسب الروايات التاريخية إلى الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥هـ. أنه أول من اشتغل بعلم الكيمياء من العرب. ولكن ابن خلدون يستبعد ذلك، ويستدل على ما ذهب إليه بأن خالداً من الجيل العربي الذي كانت البداوة أقرب إليه، فهو بعيد عن العلوم والصناعات، فكيف يتمنى له أن يبحث في علم دقيق مثل الكيمياء، علاوة على أن الترجمة إلى العربية لم تكن قد شاعت في العالم الإسلامي بعد.

وما استدل به ابن خلدون على دعوه غير مسلم له لأن خالد بن يزيد بن معاوية وإن كان من الجيل العربي الذي كانت البداوة أقرب إليه، إلا أن ظروفه تختلف عن ظروف عامة العرب المعاصرين له، فقد ولد بمدينة دمشق ونشأ بها، وهي كمدينة عريقة في الحضارة، ثم انتقل إلى مصر، وأقام بها مدة طويلة وسط مظاهر الحضارة، كما أنه تربى في قصر الخلافة الذي كان مثابة للعلماء في كل فن، فلا يستبعد أن يكون خالد قد عرف علم الكيمياء وغيره من العلوم من خالطه من العلماء الذين كانوا يفيدون إلى قصر أبيه وجده، ودفعه حبه للمعرفة إلى تكليف هؤلاء العلماء بترجمة بعض مراجع هذه العلوم من اللاتينية أو السريانية أو القبطية إلى اللغة العربية، ليتسنى له الاطلاع عليها، وكان لديه من الثراء ما يمكنه من بذل مكافآت سخية لهؤلاء المترجمين، ولديه من الذكاء ما يمكنه من فهم ما ترجم إلى العربية من العلوم، كما كانت ظروفه السياسية عاملًا مهمًا في توجهه هذا التوجه العلمي حيث حرم من الخلافة التي كان قد تربع على كرسيها أخوه وأبوه وجده من قبل فائز الانصراف إلى تحصيل العلم والابتعاد عن السياسة حتى لا يعرض نفسه للخطر.

وأشهر عالم عربي نبغ في علم الكيمياء هو جابر بن حيان الكوفي وقد حدا حذو أسلافه من كيميائيي المصريين واليونان في افتراض أن المعادن الخيسية كالقصدير والرصاص والحديد والنحاس يمكن تحويلها إلى ذهب أو فضة إذا أضيفت إليها مادة غريبة، وقد وجّه كل جهوده للبحث عن هذه المادة.

وعلى يدي جابر ارتفع علم الكيمياء من الناحتين النظرية والعملية، فقد اكتشف علميتين من أهم العمليات الكيميائية، وهما التكليس والتحويل، وأدخل تحسينات مهمة على الطرق القديمة للتبيخ والتمعيد والإزابة والبلورة، وعرف كيف يحضر حمض الكبريتيك وحمض النيتريك، وعدل نظرية أرسسطو في تركيب المعادن بطريقة ظلت متّعة في أوروبا - مع شئ يسير من التغيير - حتى أوائل عهد الكيمياء الحديثة في القرن الثامن عشر الميلادي، وقد ترك جابر ثروة ضخمة من المؤلفات في علم الكيمياء.

وجاء بعده عدد كبير من مشاهير الكيميائيين المسلمين، تذكر منهم مسلمة بن أحمد المجريطي الأندلسي المتوفى سنة ٢٩٨هـ وكتابه «رتبة الحكيم» يعتبر من الكتب المهمة في علم الكيمياء.

### علم الطبيعة :

اهتم المسلمون بدراسة علم الطبيعة، فنقلوا عن اليونان بعض النظريات الطبيعية مثل قوانين الجاذبية والوزن النوعي والحركة والسكن والأواني المستطرقة والمرابيا المحترقة وانكسار الضوء ومركز الثقل ، وغير ذلك من القواعد الطبيعية، ولكنهم لم يكتفوا بمجرد النقل بل أضافوا إلى هذه القوانين من تجاربهم ما جعلها أكثر دقة وأصدق نتيجة .

وعرف المسلمون أنواع الموازين المختلفة، وأدخلوا تحسينات على الميزان المسمى «قبان» ، وهو عبارة عن قصبة مقسمة إلى قسمين قسم طويل مرقم تعلق فيه الصنجة وأخر قصير يعلق ما يراد وزنه بالصنجة ووضعوا مصطلحات لمقادير الأوزان مثل المثقال والدرهم والرطل والقنطار .

وقد اكتشف المسلمون البوصلة واستعانا بها في أسفارهم في الصحاري والبحار، واتجاههم إلى القبلة في الصلاة، ووضعوا قانون الذهبية واهتدوا به في صناعة الساعات ليستعينوا على معرفة الأوقات.

كما عرّفوا أنواع النباتات، وميزوا بين فصائلها وما ينمو منها بالبذر وما ينمو بالشتل، ووضعوا قواعد لتطعيم الأشجار، وشخصوا أمراض النبات، واهتدوا إلى علاجها، وعرفوا خصائص التربة وفوائد الأسمدة ودرسوا طبائع الحيوان وبخاصة الخيل لما لها من الأهمية البالغة في المعارك الحربية، وألفوا في ذلك كثيراً من الكتب والرسائل.

ومن أشهر علماء المسلمين أبو الحسن بن الهيثم الذي ولد بمدينة البصرة سنة ٢٥٤هـ وجاء إلى مصر في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله فكلفه بتنظيم فيضان النيل، وأرسل معه الفعلة إلى أسوان، ولكنّه لم ينجح في مهمته فتُظاهر بالجنون واحتفى لينجو من بطش الحاكم بأمر الله، فلما مات الحاكم ظهر وعاد إلى مزاولة نشاطه العلمي حتى توفي سنة ٤٣٠هـ وقد ترك أكثر من مائة مؤلف في الرياضيات والفلك والفلسفة والطب.

وأهم مؤلفاته في الطبيعة كتابه في البصريات المعنى «كتاب المناظر» وقد خالف فيه نظريات أقليدس وبطليموس القائلة بأن العين ترسل أشعة بصرية إلى الأشياء المرئية، وأجرى عدة اختبارات لقياس زاوية انكسار الضوء وزاوية انعكاسه، ووصل بتجاربه إلى اكتشاف العدسات المكثرة التي صنعت في إيطاليا بعد عصره بثلاثة قرون.

### علم التعاليم :

ويتفرّع عنه: العلوم الهندسية، والعلوم العددية، والموسيقى، وعلم الهيئة «الفلك»، والذي يتفرّع منه علم التنجيم وعلم السحر والطلسمات<sup>(١)</sup>.

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٥٢.

وتتجدر الإشارة هنا إلى أن علم الهيئة الذي كان يعد فرعاً من فروع علم التعاليم

ـ أنه في اصطلاحنا الحديث يعد فرعاً من فروع العلوم الطبيعية<sup>(١)</sup>.

### العلوم الهندسية :

هي النظر في المقادير، إما المتصلة بالخط والسطح والجسم، وإنما المتفصلة كالأعداد فيما يعرض لها من العوارض الذاتية «أي فيما يتصل بقوانينها»: مثل إن كان مثلث فزواياه مثل قائمتين، ومثل إن كل خطين متقطعين فالزاویتان المتقابلتان منها متساویتان<sup>(٢)</sup>. وللعلم أربعة فروع وهي: الهندسة العامة، والهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية، والمخروطات وفن مساحة الأرض والمناظر، والذي يبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن إدراك البصر يكون بمخروط شعاعي رأسه يقطع الباصير وقاعدته المرئي، ثم يقع الغلط كثيراً في رؤية القريب كبيراً والبعيد صغيراً، وكذا رؤية الأشباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة، ورؤية النقط النازلة من المطر خطأ مستقيماً، والشعلة دائرة، وأمثال ذلك، فيتبين في هذا أسبابه وكيفياته بالبراهين الهندسية<sup>(٣)</sup>.

ومما يلاحظ هنا أن علم «المناظر» كان فرعاً من فروع العلوم الهندسية، بينما يدرس الآن هذا الفرع في علم الضوء الذي هو من فروع علم الطبيعة في مفهومنا الحديث<sup>(٤)</sup>.

يرجع الفضل إلى المسلمين في تقديم العلوم الرياضية، فقد ساهموا في تطويرها بفروعها المختلفة، وهم الذين نقلوا إلى العالم المتحضر طريقة العدد بالأرقام، ففي القرن الثاني للهجرة زار بغداد رحالة هندي كان يحمل معه كتاباً في الفلك يسمى «السند هند» فأمر الخليفة أبو جعفر المنصور محمد بن إبراهيم الفزاري بترجمته.

وعن هذا الرحالة الهندي نقل الفزاري علم الحساب الهندي أيضاً بنظام الأرقام التي عرفت عند العرب باسم «الأرقام الهندية».

(١) د. على عبد الواحد وافي: عبد الرحمن بن خلون هامش ص ٣٠٦.

(٢) ابن خلون: المقدمة ص ٤٥٨.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٥٩.

(٤) د. على عبد الواحد وافي: المرجع السابق، هامش ص ٣٢٢.

وكان العرب - قبل ذلك - يكتبون الأعداد بالحروف الأبجدية، ومع أن نظام كتابة الأعداد بالأرقام عرف عند العرب منذ النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة فإنهم ظلوا يكتبون الأعداد بالحروف إلى جانب كتابتها بالأرقام حتى أوائل القرن الخامس الهجري.

وكان للمسلمين جهد مشكور في تقدم علم الجبر إن لم يكونوا أول من وضعه، وهو عبارة عن استخراج العدد المجهول من العدد المعلوم بالفرض، إذا كانت بينهما نسبة، لأن بها يتعين المطلوب المجهول، وقد وضعوا له رموزاً اصطلاحية لاختصار كتابته مثل «س» للمجهول و«ج» للجزء و«ك» للممكعب.

وقد نقل المسلمون الهندسة النظرية عن اليونان والهنود والفرس وأضافوا إلى ما نقلوه شروحًا تيسّر فهم قواعده وتعليقات تضبطها، كما نقلوا الهندسة العلمية عن اليونان واستخدموها في صناعتهم وبخاصة في صناعة المزاول والساعات. ينسب إلى المسلمين أنهم أول من اخترع بندول الساعة.

ومن الشخصيات الإسلامية اللامعة في عالم الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمي المتوفى حوالي سنة ٢٢٦هـ. فقد نبغ في علم الفلك والرياضيات وألف أقدم كتاب عربي في الحساب والمقابلة وجمع فيه أكثر من ثمانمائة مسألة. ويعتبر هذا الكتاب أهم مؤلف تركه الخوارزمي. وترجم إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، وظل يدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر. وإلى مؤلفات الخوارزمي يرجع الفضل في إدخال الأرقام العربية إلى أوروبا، وقد عرفت هذه الأرقام عند الأوروبيين باسم «الجورزمي» يعني الخوارزمية نسبة إلى الخوارزمي.

ومنهم أبو الوفا محمد بن محمد بن إسماعيل بن العباس، ولد في مدينة نيسابور سنة ٣٢٨هـ. وقد على العراق وهو في العشرين من عمره، وتعلم الحساب على يد عمه عمر المغازلي وخاله عبد الله بن عنبرة، ومن أشهر مؤلفاته كتاب «ما يحتاج إليه العمال والكتاب في صناعة الحساب» وكتاب تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة.

ومنهم أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم، الذي نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مصر وأقام بها، وكانت مصر آنذاك تحت حكم الفاطميين، وقد ظهر نبوغه في الرياضة،

ومع ذلك لخُصُّ كثيّراً من كُتُب جالينور في الطِّبِّ وتعلّمه غيرُ آنه لم يزاول مهنة الطِّبِّ. وقد عرفت الأندلس علوم التّعلّيم مبكرةً، وذلك لارتباطها بالعلوم الدينيّة وتطبّيق الشّريعة، مثل تقسيم المواريث ومعرفة اتجاه القبّة... إلخ، على أنّ بدايَة نهضة هذه العلوم في الأندلس، كانت بالتحديد على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن<sup>(١)</sup>. وأول من بَرَزَ في هذا المجال هو عبيدة بن مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة البلنسي، المتوفى ٩٠٧هـ/١٤٩٥م<sup>(٢)</sup>.

وفي عصر الخلافة في الأندلس تطّورت التّعلّيم تطّوراً ضخماً، ولعب الحُكْم المستنصر دوراً كبيراً في تشجيعها<sup>(٣)</sup> ويزّ أبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمجريطي، المتوفى ١٤٩٨هـ/١٠٠٧م. فقد كان إمام التّعلّيم في الأندلس في وقته<sup>(٤)</sup> وترك في الأندلس ما يمكن أن نسميه بمدرسة المجريطي في التّعلّيم<sup>(٥)</sup>.

ومن هؤلَاء من مال أكثر، إلى دراسة علم الهيئَة، مثل محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن البرغوث المتوفى ١٤٤٤هـ/١٠٥٢م<sup>(٦)</sup> وابراهيم بن حبيب أبو إسحق المعروف بولد الزرقيال الأندلسي المتوفى ١٤٩٤هـ/١١٠٠م<sup>(٧)</sup>.

وما تجدر الإشارة إليه هنا أنّ الأندلسيين طوروا قليلاً الأرقام التي استعملها عرب الأندلس في البداية لتكون:

٠,٩,٨,٧,٦,٥,٤,٣,٢,١  
الأندلس<sup>(٨)</sup> مع انتشار الحركة العلمية في المغرب على عهد المرابطين والموحدين. وبهذه المناسبة ننوه بأن المغاربة لا يزالون إلى وقتنا الحاضر يستعملون هذه الأرقام.

(١) علم الفلك الذي كان يُعَدُّ في عصر المرابطين والموحدين فرعاً من فروع التّعلّيم بعد في اصطلاحنا الحديث فرعاً من فروع العلوم الطبيعية. (د. على عبد الواحد وافي: عبد الرحمن بن خلدون، هامش من ٣٠٦).

(٢) د. محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم من ٣٢٣-٣٢٢.

(٣) صاعد الطبقي: طبقات الأمم من ٨٧-٨٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٩٢، القفظي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء (القاهرة ١٣٢٦هـ) ص ٣٢٦.

(٥) د. محمد عبد الحميد عيسى: المرجع السابق من ٣٢٤.

(٦) صاعد الطبقي: المرجع السابق من ٩٥.

(٧) القفظي: إخبار العلماء من ٥٧، د. محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم من ٣٢٥.

(٨) عبد الحميد لطفى، وأحمد أبو العباس: تاريخ الرياضيات (القاهرة ١٩٥٥) ص ٦٢

ومن الشخصيات الأندلسية التي تدين لها المغرب بنشر علوم التعاليم بين أبنائها على عهد الموحدين: أحمد بن إبراهيم بن على بن منعم العبدري<sup>(١)</sup> الذي سكن العاصمة الموحدية وتصدى لتدريس العلوم المذكورة بالقبة المنصورية إزاء جامع المنصور الموحدى فأخذ عنه كثير من أبناء العاصمة الموحدية وغيرهم إلى أن توفي بها سنة ١٢٢٦هـ/١٢٢٨م وقد صنف تصانيف جليلة في علوم التعاليم منها: فقه الحساب وتجديد أخبار كتب الهندسة على اختلاف مقاصدها وغيرها، وكان من كثرة شغفه بهذا اللون من العلوم لا ينام في كل ليلة حتى يستظره كتاب الأركان لإقليدس إضافة إلى ذلك أنه كان طيباً أيضاً<sup>(٢)</sup>.

ومن الشخصيات العلمية المغربية التي أسهمت في هذا العلم بدور كبير عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين<sup>(٣)</sup> الذي أكمل دراسته بمدينة أشبيلية وصار من الأعلام في علوم كثيرة<sup>(٤)</sup> كعلم الأدب والرياضيات<sup>(٥)</sup> وترك أرجوزتين إحداهما في علم الجبر والمقابلة خلدت<sup>(٦)</sup> اسمه.

وقد نشطت العلوم الهندسية بصفة عامة في عصر بني مرين، نظراً للنهضة العمرانية التي شهدتها بلاد المغرب، وتقدمت تباعاً لذلك الالات والأجهزة الهندسية كالإسطرلابات والساعات، والتي كان الاعتماد فيها على علم جر الأثقال أو الميكانيكا<sup>(٧)</sup>.

ومن الذين برزوا في العلوم الهندسية في عصر بني مرين محمد بن على بن عبد الله بن الحاج المتوفي سنة ١٣١٤هـ/٧١٤م وهو من الذين وفدوا إلى المغرب من أشبيلية، وكان بارعاً في الحيل الهندسية، ونقل الأجرام، ورفع الأثقال، لذلك فقد أسد إليه الإشراف على بناء دار الصناعة البحريية بمدينة سلا<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن عبد العالق المراكشي: الذيل والتكميل ج ٦ ص ٥٩.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٥٩، ٦٠.

(٣) العباس بن إبراهيم: الأعلام ج ٨ ص ٢٠٤.

(٤) ابن سعيد: الخصون الهاشمة ص ٤٢.

(٥) ابن القاضي: جذوة الاقتباس قسم ٢ ص ٤٢٣.

(٦) عبد العباس إبراهيم حمادي: الحركة الفكرية ص ٣٩٦.

(٧) عثمان الكعك: الحضارة العربية ص ٩٢.

(٨) ابن القاضي: المصدر السابق ص ١٨٠.

وهي ستة فروع، «الارتياطيق Arithmetiqic» وهو معرفة خواص الأعداد من حيث التأليف إما على التوالى أو بالتضعيف<sup>(١)</sup> وهو ما نسميه الآن بحساب المتواليات<sup>(٢)</sup>، «والحساب» وهو صناعة عملية في حساب الأعداد بالضم والتفريق<sup>(٣)</sup> وكان الحساب في اصطلاح عصر بنى مرين مقصورا على القواعد الأربع والكسور والجذور<sup>(٤)</sup>، أما «الجبر» فهو: صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك<sup>(٥)</sup> وهو ما نسميه الآن تمارينات ومسائل على قواعد الحساب<sup>(٦)</sup>.

و«الفرانض» وهي «صناعة حسابية في تحديد السهام لذوي الفروض في العيراث»<sup>(٧)</sup>.

ويطلق علم الارتياطيق الآن على جميع الفروع الستة للعلوم العددية ماعدا الجبر<sup>(٨)</sup>.

وقد نبغ في العلوم العددية في عصر بنى مرين عدد كبير من العلماء، نذكر منهم على سبيل المثال محمد بن الشيخ الكبير الذي برع في علم الحساب<sup>(٩)</sup> وابن البناء العددي المتوفى سنة ١٣٢٣هـ/٥٧٢٣ م الذي وضع كتاب «التلخيص في علم الحساب ورفع الحجاب عليه»<sup>(١٠)</sup>.

ومن هؤلاء أيضاً أحمد بن عبد الله العطار المتوفى سنة ١٣٤١هـ/٧٤١ م وهو من العلماء البارزين في علم الحساب<sup>(١١)</sup>.

(١) ابن خلدون : المقدمة، من ٤٥٥.

(٢) د. على عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون من ٣٢١.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق من ٤٥٥.

(٤) د. على عبد الواحد وافي : المرجع السابق من ٣٢١.

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق، من ٤٥٦.

(٦) د. على عبد الواحد وافي . المرجع السابق من ٣٢٢.

(٧) ابن خلدون : المصدر السابق من ٤٥٧.

(٨) د. على الواحد وافي : المرجع السابق هامش من ٣٢١.

(٩) الكتائبي : سلوة الأنفاس ج ٣ من ٣٢٢.

(١٠) ابن القاضي : جذوة الإقتساس من ٧٧، ٧٦.

(١١) المصدر السابق : من ٥٧.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن عصر بنى مرين قد ساهم إلى حد كبير في نقل الأرقام الهندية العربية<sup>(٤)</sup> إلى أوروبا عن طريق الأندلس بحكم اتصالها بالأندلس وسيطرتها على بعض مناطقه على فترات متقطعة من تاريخ هذه الدولة امتد إلى أكثر من قرنين من الزمان . وقد رأينا أثر انتقال هذه الأرقام يظهر في أوروبا ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي، فظهرت هذه الأرقام في العملة في سويسرا سنة ١٤٢٤م، وفي النمسا سنة ١٤٨٤م وفي فرنسا سنة ١٤٨٥م، وفي ألمانيا سنة ١٤٨٩م، وفي اسكتلندا سنة ١٥٣٩م، وفي إنجلترا سنة ١٥٥١م<sup>(٥)</sup> .

الموسيقى

هي: «معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض، وقديرها بالعدد، وثمرته معرفة تلاميذ الفنان»<sup>(٢)</sup>.

استعمل العرب في الجاهلية بعض الآلات الموسيقية مثل الدف والمزمار والقصبة والمزهرا، ولما جاء الإسلام شغل المسلمون بتعلم شعائر الدين والجهاد في سبيل الله عن الموسيقى والطرب.

وفي أواخر عهد الخلفاء الراشدين تغيرت ظروف المجتمع العربي نتيجة لازدياد الثروة وكثرة الأسرى من الروم والفرس الذين جيء بهم إلى مكة والمدينة، فظهرت نواة تطور موسيقى في بلاد العرب على يد هؤلاء الأسرى.

(١) من المعروف أن العرب قد أحذوا الأرقام عن الهند. ويقول البيرونى بأن أشكال هذه الأرقام كانت مختلفة باختلاف الجهات فى الهند، وأن العرب انتقلا منها ما رأوه مناسبا، وقد اكتفى العرب بطريقتين مختلفتين لكتابة الأرقام:

(أ) **الطريقة المشرقة** : واستعملها عرب بغداد وتطورت قليلاً حتى أصبحت الأرقام التي تستعملها الآن في مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وبلاد العرب. وهي .٩،٨،٧،٦،٥،٤،٣،٢،١

(ب) الطريقة المغربية : وهي التي تستعمل الأن فى بلاد المغرب ومنها انتقلت إلى أوروبا عن طريق إسبانيا وهى الأرقام 0,9,8,7,6,5,4,3,2,1 وبهذه المناسبة ننوه بأن المغاربة ظنوا بأنهم يكتبون الأرقام الأفرونجية وإنما الفرنجة هم الذين يكتبون الأرقام العربية بينما يطلق عليها اسم الأرقام الهندية، وغدا بعض الكتاب الغربيين يطلقون عليها اسم الأرقام الهندية العربية (انظر عبد الحميد لطفي، أحمد أبو العباس: تاريخ الرياضيات القاهرة ١٩٥٥ ص ٦٢).

(٢) عبد الرحمن لطفي، أحمد أبو العباس: الترجمة السابقة، ص ٦٣.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٥٢

وفي عهد الأمويين بدأت الموسيقى تدخل قصور الخلفاء : وكان يزيد بن معاوية أول من أقام الحفلات الغنائية الموسيقية، ومنذ ذلك الوقت بدأ ظهور عدد من المغنيين الموسيقيين من أمثال طويس وابن سريح والغريض، وابن محرز ومعبد، وكلهم من أصول غير عربية، كما بدأت تظهر طائفه من القيان المغنيات الموسيقيات من أمثال جميلة وتلميذتها حبابة وسلامة القس جاريتي الخليفة يزيد بن عبد الملك.

وكانت أهم آلات النفع هي القصبة والمزمار والبوق، وأهم آلات الطرق الدف والطبل والصنوج، ثم أضيفت من الآلات الوتيرية العود.

ولم يكمل ينتهي عصر الخليفتين الأول والثاني من خلفاء بنى العباس حتى عرف المغنون والموسيقيون طريقهم إلى قصور الخلفاء العباسيين، فقد استدعاى الخليفة محمد المهدى « سياطا » المغني الموسيقى من مكة إلى بغداد وشمله برعايته وأجزل له العطاء، ونال تلميذه إبراهيم الموصلى حظوة عظيمة في بلاط الرشيد.

وقد كان إبراهيم الموصلى من أسرة فارسية نبيلة اختطف من أهله وهو صغير وبيع بأأسواق بغداد ثم نجع في الغناء والموسيقى حتى استطاع أن يكتشف أن فتاة من ثلاثين عازفة على العود لم تشد الوتر الثاني من عودها إلى الدرجة التي ينبغي أن يكون عليها.

وكان لإبراهيم الموصلى تلاميذ كثيرون شخص منهم بالذكر ابنه إسحاق الذى نال حظوة بالغة في بلاط أربعة من الخلفاء العباسيين هم المأمون والمعتصم والوافق والمتوكل، وفاق أباء في الفنون الموسيقية وامتاز على كل من عاصره أو سبقه من الموسيقيين.

ومن أشهر المغنين الموسيقيين بالأندلس أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب، وقد كان مولى للخليفة محمد المهدى، تعلم الغناء والموسيقى على إسحاق الموصلى، ولكن إسحاق خشى منافسته فاضطرره للخروج من بغداد فذهب إلى الأندلس ونال حظوة بالغة في بلاط الأمير عبد الرحمن الأوسط ( ٢٠٦-٢٣٨ هـ ) الذى ازدهرت الموسيقى والغناء في بلاد الأندلس على عهده.

وقد أثر عن زرياب أنه كان يحفظ عشرة مقطوعات من الأغانى بألحانها، وأنه

كان شاعراً مطبوعاً وأديباً طريفاً وعالماً بالنجوم، كما أثر عنه أنه يتألق في ملisseه وأنه كان يلبس في كل فصل من فصول السنة نوعاً خاصاً من الثياب يتناسب معه، حتى أن أهل الأندلس كانوا يقتدون به في ارتداء الثياب الأنثية، وأنه أدخل في الطعام ألواناً جديدة. وقد نال ثروة ضخمة وجاهها واسعاً حتى أنه كان يركب في مائة غلام من غلمانه.

وكان من بين الأمراء والخلفاء العباسيين من يجيد الموسيقى والغناء، فكان إبراهيم ابن المهدى موسيقياً وغنياً بارعاً، وكان الخليفة الواثق يجيد العزف على العود، وقد ألف مائة أغنية، وكان المعتز من ذوى المذاهب الشعرية والموسيقى وكان المعتمد من أصحاب الذوق الرفيع في الموسيقى والغناء. صحيح أن المسلمين اقتبسوا بعض الاراء العلمية في الموسيقى من اليونان، ولكن موسيقاهم من الناحية العلمية كانت عربية خالصة.

وقد وضع العرب كثيراً من النظريات الموسيقية، وكتب في الموسيقى كثير من أعلامهم وفي مقدمتهم الكندي والرازى والفارابى وابن سينا، ونوه أطباؤهم بأثر الموسيقى في علاج بعض الأمراض.

وكان للآلات الموسيقية حوانين في المدن الإسلامية وكانت حوانيتها في مصر تسمى حوانين المعازف.

ويبدو أن كتاب أبو الحسن بن الحاسب المرسى، كان المرجع الأساسي للموسيقيين في المغرب وهو كتاب ضخم متكون من جملة أسفار في الموسيقى<sup>(١)</sup>. أما الآلات الموسيقية التي يستخدمها الموسيقيون في العزف فيمكن حصرها في ثلاثة أنواع : هي. آلات النفخ، والآلات الأوتار، وآلات القرع. فأما آلات القرع فهي الطبول التي كانت تصنف عادة من النحاس وتشبه الصحن الكبير، عريضة من أعلىها ضيقة من أسفلها، وجزءها العلوي مغطى بالجلد، ويدق عليه بواسطه سوط قصير<sup>(٢)</sup>.

(١) عباس الجراري : أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والإيقاع. مقال منشور بمجلة عالم الفكر الثاني عشر العدد الأول. أبريل-مايو-يونيه ١٩٨١ ص ٢٠.

(٢) Lepm Afrociano, Descripcion de Africa Y de les Cosas p.1 46.

وآلات النفح كان منها ما يسمونه الشبابة، والمزمار، البرق الذي يعتبر من أحسن آلات النفح في عصر بني مرين، وألات الأوتوار كان أشهرها القانون<sup>(١)</sup>.

ويرجع إلى بني مرين الفضل في أنهم أول من استخدمو الموسيقى في علاج المرضى في المغرب حيث حبست على بيمارستان سيدى فرج بفاس أحباس خاصة كانت للانفاق منها على جوق الطرف الأندلسى الذي كان يحضر مرة كل أسبوع ليطرد نزلاء البيمارستان من مرضى الأعصاب<sup>(٢)</sup>.

### علم الهيئة (الفلك) :

علم الهيئة أو الأفلاك هو علم يبحث في حركات الكواكب، ومن فروعه علم الأزياج (علم التنجيم) الذي يبحث في مواضع الكواكب في أفلاكها، وكيف يمكن به معرفة الشهور وال أيام والتاريخ السابقة، والتنبؤ بالحوادث المستقبلية. وكانت لهذه الصناعة في عصر بني مرين قوانين كالمقدمات والأصول لها غنى معرفة الشهور والتاريخ الماضي، وأصول متقررة في معرفة الأوج والحضيض، والميول وأصناف الحركات، واستخراج بعضها من بعض، يضعونها في جداول مرتبة تسهيلاً على المتعلمين ويسمونها (الأزياج) وإذا كان كتاب الماجستي ليطليموس الفلكي هو المرجع الذي تقف عنده النظريات في علم الهيئة في المغرب في عصر بني مرين، فإن زيج ابن إسحاق (من منجمي تونس في أول المائة السابعة للهجرة) هو أهم المراجع في علم الأزياج، وقد لخصه ابن البناء العددى<sup>(٣)</sup> في كتابه: (منهاج الطالب في تعديل الكواكب) كما كانت له عدة مؤلفات في علم الهيئة منها (تنبيه الفهوم على مدارك العلوم) و(المناخ في تعديل الكواكب)، و(المستطيل والسيارة في تعديل الشاره) و(المناخ في رؤية الأهل) و(المناخ في تركيب الأرياح)، كما كان له أيضاً تأليف في أحكام النجوم، ومدخل ثلاثة لصناعة الأحكام النجومية<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن خلدون: المقدمة من ٣٨٤، ٣٨٥.

(٢) عباس الجارى: أثر الأندلس ص ٤٣.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ص ٤٦١، ٤٦٠.

(٤) ابن القاضى: جذوة الاقتباس من ٧٧، ٧٦.

وكانت لابن البناء العددى أيضاً عدة قوانين تمثل خلاصة دراساته وأبحاثه في هذا المجال مثل : قانونه في معرفة الأوقات بالحساب، وقانونه في فصول السنة، وقانونه في ترحيل الشمس<sup>(١)</sup>.

ومن علماء الهيئة في عصر بنى مرين البارزين أيضاً عبد الرحمن بن محمد الجاديرى المتوفى سنة ٩٨١٨هـ / ١٤١٥م<sup>(٢)</sup>.

وعلم الهيئة كان معروفاً عند العرب وبخاصة أهل الحضر منهم مثل اليمانيين والكلذانيين أما البدو منهم فكانت معرفتهم به مقصورة على ما يدرك بالعين المجردة، ولم يدرس هذا العلم دراسة دقيقة إلا في منتصف القرن الثاني للهجرة، عندما كلف الخليفة أبو جعفر المنصور محمد بن إبراهيم الفزارى بترجمة كتاب «السند هند» في علم الفلك، ثم نقل المسلمين عن اليونان «كتاب الماجسطي»، ومعناه بالعربية «الأعظم» و«كتاب الهيئة» اللذين أفهمَا العالم الفلكي اليونانى بطليموس.

ثم أكثر المسلمون من ترجمة كتب الهيئة، ولكنهم لم يكتفوا بالترجمة بل أضافوا إلى ما ترجموه معلومات جديدة، وأصلحوا المقاييس الفلكية القديمة، ودرسوا كسوف الشمس وكسوف القمر، على أساس دقيقة، كما عينوا مواضع النجوم ومجموعتها، واهتموا بالتقويم القمري لتحديد أوائل الشهور، لتعلق ذلك بالعبادة في الصوم والحج.

وقد أنشأ المسلمون المراصد لرصد حركة النجوم في أفلاكها بواسطة «الاسطرباب»، وهو آلة اخترعها اليونانيون ليستعينوا بها على رؤية الكواكب، لكن المسلمين أدخلوا عليها تحسينات وسموا استعمالها بالاسطربابى نسبة إلى التسمية اليونانية.

ومن أشهر المراصد التي أنشأها المسلمون مرصد دمشق الذي أنشأه الخليفة المأمون، ومرصد بغداد الذي أنشأه عضد الدولة البوهيمى، ومرصد جبل المقطم الذي بناه الحاكم بأمر الله في مصر.

(١) ابن القاضى: جذوة الاقتباس ص ٧٧.

(٢) الكتانى: سلوة الأنفاس ج ٢ من ١٥٨، ١٥٧.

ومن فروع الهيئة علم التنجيم، وهو التنبو بالحوادث المستقبلة عن طريق معرفة أو أوضاع الكواكب في أفلاتها، وقد كان بعض الخلفاء والأمراء يعتمدون على التنجيم في توجيه سياستهم. فقد روى أن أبي جعفر المنصور حينما خرج عليه محمد بن عبد الله العلوى الملقب بالنفس الذكية ازعج لخروجه، فطمأنه الحارث المنجم بقوله « يا أمير المؤمنين ما يحزنك، فو الله لو ملك الأرض مالبث إلا تسعين يوماً » كما روى أنه بدأ في وضع أساس بغداد في الوقت الذي اختاره أبو سهل بن نوبخت المنجم حيث تنبأ بكثره عمارة بغداد وطول بقانها إذا ابتدئ بناوها في هذا الوقت. كما روى أن الفاطميين اختاروا ابن حوشب لنشر دعوتهم في بلاد اليمن، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أن هذا الرجل سيكون له شأن كبير في نشر هذه الدعوة بين أهل تلك البلاد. وأن مدينة القاهرة عندما بنيت سميت « المنصورية » واستمرت هذه التسمية أربع سنوات ثم سميت القاهرة لأن أساسها وضع وقت طلوع كوكب المريخ الذي يسمى القاهر».

وكان أول من نبغ في علم الهيئة من المسلمين محمد بن إبراهيم الفزارى، وسند ابن على الذى اشرف على بناء مرصد المأمون وأبو معشر جعفر بن محمد البلخى الذى كان من أصحاب الحديث، ثم اشتغل بعلم النجوم، وقد ترك عدة مؤلفات فى علم الفلك، من أشهر كتبه «هيئة الفلك واختلاف طلوعه » وكتاب « الأمطار والرياح وتغيير الأهوية».

وقد بلغ الاهتمام برصد الكواكب غايتها فى القرن الخامس الهجرى، وكان فى مقدمة المشتغلين به أبو الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠هـ، وكان قد تنبأ للسلطان محمود الغزنوى نبوءة، ثم أطلقه بشفاعة وزيره وخلع عليه ووهبه ألف دينار وعبدًا وأمة.

وقد استمدت الأندلسيون معلوماتهم عن الفلك من سبق فى هذا العلم من مسلمى الشرق. وكان من أوائل علماء الفلك فى الأندلس أبو القاسم مسلمة المجريطي، الذى نشر وصحح الر Zigat « جداول النجوم » التى وضعها الخوارزمى، ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى الزرقانى الذى اخترع نوعاً دقيقاً من الأسطرلاب، والذى اشتهر بدقه رصده، وفاق معاصريه من علماء الفلك.

وعلى مر الزمن ترجم عدد كثير من الكتب الإسلامية في الفلك إلى اللغة اللاتينية، وكان لها أثر كبير في تطور هذا العلم ورقمه في أوروبا المسيحية.

### علم السحر والطلمسات :

هو : « علم بكيفية استعدادات يمكن بها للنفوس البشرية التأثير في عالم العناصر، وذلك إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو [السحر] والثاني هو : الطلمسات »<sup>(١)</sup>.

ويبدو أن هذا العلم كان فرعا من فروع الهيئة، وأنه لم يكن مهجورا بين الناس في المغرب، وإنما تداولوه دون أن يكتب فيه أحد معتقدين على كتاب مسلم بن أحمد المجريطي إمام أهل الأندلس الذي جمع كل كتب هذا العلم على زمانه، وهذبها و爐صها في كتابه : « غاية الحكم »<sup>(٢)</sup>، ولكن ابن شاطر يذكر أن ابن البناء العددى المتوفى سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٣ م كان له كلام في عمل الطلمسات، وكلام في الزجر والفال والكهانة، وكلام على خط الرمل<sup>(٣)</sup>.

### علم تقويم البلدان (الجغرافيا) :

الجغرافيا كلمة يونانية، بمعنى صورة الأرض، وهو علم يبحث في أحوال الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار، والمعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم وأخلاقهم، واختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك في أبدان البشر وأخلاقهم<sup>(٤)</sup>.

وكانت الجغرافيا التي أقبل المسلمون على دراستها هي الجغرافيا الوصفية التي تتناول وصف الأقاليم والمدن والأنهار والبحار والجبال وحالة السكان، وكان الغرض من تلك الدراسة هو تحري العدالة في فرض الضرائب، وبخاصة ضريبة الخراج والجزية، لأن ضريبة الخراج تحتاج إلى معرفة حالة الأرض الخراجية وما هي عليه من خصوبية، أو جدب، أو معرفة حال الرعایا من أهل الذمة وما هم فيه من يسار

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٧.

(٢) ص ٤٦٨.

(٣) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٧٧.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ص ١١٢-٣٩ حاجي خليفة . كشف الظنون استنبول ١٩٤١ م ص ٥٩٠.

أو إعسار لتكون الضريبة مناسبة لحال الخصوبة والجدب واليسار والاعسار حتى لا يظلم من تجب عليه الضريبة ولا تقل الجبائية عن المستوى الذي ينبغي أن تكون عليه. وقد درس الجغرافيون المسلمين الرياضة التي تبحث في تحديد خطوط الطول والعرض، وموقع الأقاليم منها وتحديد المسافات بين المدن، وقد استعانا على ذلك بمعلوماتهم في البنية والرياضيات.

وقد جغرافي المسلمون الأرض إلى سبعة أقاليم بحسب قربها أو بعدها من خط الأرض ( خط الاستواء ) واعتبروا الإقليم الرابع الذي يضم العالم الإسلامي أفضل الأقاليم.

كما عرفوا أن شكل الأرض كروي وأنها محاطة بعنصر الماء الذي سموه « البحر المحيط »، وأنها كعنة طافية عليه، وأن الماء انحسر عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري.

وقد بحث الجغرافيون المسلمين عما حدث من تغير في القشرة الأرضية، وهي مناخ الأقاليم وتأثيره في ألوان البشر وأخلاقهم، وعن اختلاف المحاصيل الزراعية باختلاف الأحوال.

ومن أوائل الجغرافيين المسلمين سليمان السيرافي المتوفى سنة ٢٣٧هـ وهو تاجر من أهل سيراف على الخليج العربي قام بعدة رحلات تجارية إلى الشرق الأقصى ووصف بلاد الصين وسواحل الهند، وإن كان الذي سجل هذا الوصف هو أبو الحسن السيرافي المتوفى حوالي سنة ٣٠٨هـ وربما كان أحد أحفاده.

ومنهم أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خردناية الفارسي الأصلي المتوفى حوالي سنة ٢٣٣هـ وكتابه « المسالك والممالك » يعتبر دليلاً يستعين به المسافر في البحر من الأبلة عند مصب نهر دجلة إلى بلاد الهند والصين.

ومنهم أبو الحسن على المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ وهو من كبار الرحالة العرب، وقد زار بلاد الفرس والهند وجزيرة سرديني، ومحب التجار إلى بحار الصين، وذهب إلى زنجبار وسواحل أفريقيا الشرقية وطوف بإقليم بحر قزوين وأسيا الصغرى

ومن ببلاد الشام، وزار مصر في عهد محمد الإخشيد، ووصف آثارها ونظام الري بها وتحدث عن جبر الخليج والاحتفال بليلة الغطاس.

ومن أشهرهم في القرن الخامس البيروني وكتابه «الأثار الباقيه عن القرون الخالية» جمع بين التاريخ والجغرافيا، والرحالة الفارسي المشهور ناصر خسرو، الذي زار مصر في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وكتابه المشهور سفرنامه (زار المسافر) دون فيه كل مشاهداته في بلاد الحجاز وبلاد الفرس والشام ومصر.

وأما في الأندلس فكما اشتهر الأندلسيون بولعهم الشديد بالكتابة التاريخية، اشتهروا أيضاً بولعهم الشديد بالرحلة والأسفار والتنقل: لهذا ظهر من بينهم تخبة ممتازة من الرحالة الذين زاروا كثيراً من نواحي المعمورة، وسجلوا ما شاهدوه وعاينوه، أو قرأوه في وصف تلك البلاد، فحفلت مؤلفاتهم بمادة جغرافية وفيرة عن العالم المعروف في ذلك الوقت<sup>(١)</sup>.

وبطبيعة الحال كان وصف وطنهم جزيرة الأندلس يحتل مكاناً بارزاً في مؤلفاتهم، فتحدثوا بالتفصيل عن خططها ومسالكها ومدنها وكورها، وأنهارها وجبالها، والتوزيع الإداري لأقاليمها، ونسبة كل إقليم إلى الآخر من الوجهة الجغرافية. كذلك اهتموا بضبط أسماء هذه الأماكن الجغرافية ضبطاً صحيحاً بحيث يتتفق نطقها العربي مع نطقها الأسباني، ولم تقتصر دقة الأندلسيين على رسم الأعلام والثبات من نطقها، بل تتجلى دقتهم أيضاً في محاولة الرجوع إلى أصولها اللاتينية أو الإغريقية، لتفسير معناها حسبما هو موجود لديهم في كتابات الإغريق والرومان، مثل ذلك قول عبد الله بن عبد العزيز بن محمدالمعروف بابن عبيد الباركي المتوفى (ت ٤٨٧هـ - ١١٩٤م) أكبر جغرافي أنجبيته الأندلس<sup>(٢)</sup> عند كلامه على طليطلة، يقول أن تفسيرها باللاتيني تولاطو *Tolatum* ومعناها فرح ساكنها لحصانتها.

وقد ثبت أن من مشتقات هذه الكلمة اللاتينية ما يدل على معنى حافة الجبل المنكب، وهو ما يتتفق مع وضعها الجغرافي. قوله عند الكلام عن أشبيليه: ورأيت

(١) د. أحمد مختار العبادي: الاسلام في أرض الأندلس من ٣٦٣

(٢) الباركي: المسالك والمالك تحقيق العجر (بيروت ١٩٦٨) من ، مؤنس: تاريخ الجغرافيا من ١٠٨ - ١٤٨ ، عبد الله يوسف الغنمي: مصادر الباركي ومنهجه الجغرافي، القسم الأول. (الكويت ١٩٧٤م).

لبعض المؤرخين أن مدينة أشبليه تسمى أشبالي Hispalis ومعناها المدينة المنبسطة. قوله في وصف ماردة Merida وقد أحدق بالمدينة سوره عرضه اثنا عشر ذراعا، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا، وعلى بابها كتابة ترجمتها بالأعجمية براءة لأهل إيلاء (بيت المقدس)<sup>(١)</sup>. وينذهب ذرزي وسيمونيث إلى القول بأن الجغرافيين الأندلسيين كانوا على معرفة بكتاب (أصول الكلمات) Etimologias للقديس ايزيدور الأشبيلي أو الباقي توفي سنة ٥٦٢ هـ - ٦٢٦ م، وقد حقق أبناء المغرب في عصر الموحدين قفزة عملية كبيرة في الأبحاث الجغرافية<sup>(٢)</sup>، ومن هرزا علماء العصر من المغاربة نذكر الإدريسي الذي من أشهر مؤلفاته كتاب «نرمة المستناق في اختراق الآفاق»، وأبا على الحسن بن على الذي يرجع إليه الفضل في تصحيح بعض آراء بطليموس الجغرافية، وهو الذي حدد رسم خريطة المغرب بطريقة تختلف عن طريقة غيره من العلماء الجغرافيين الذين سبقوه في هذا وقاموا بنقلها نقلآليا على ما هي عليه من الخطأ وترك مصنفها بعد من أجل الآثار العلمية الإسلامية في علم الجغرافيا سماه بـ «البدايات والنهايات».

ويبدو أن تطور علم الجغرافيا في المغرب لم يكن سريعا كما كان في المشرق، إلا أن المغرب في عصر بنى مرين عرف كثيرا من الجغرافيين الذين قاموا بدور هام في تدعيم علم الجغرافيا الإسلامية<sup>(٣)</sup>، وإمداده بالمعلومات المفصلة لاسيما عن بلاد السودان، وشمال القارة الأفريقية، وبعض أجزاء القارة الأوروبية، هذا إلى جانب ابتكارهم للرحلات الحجازية التي دونوا فيها ما شاهدوه في طريقهم للحج حتى كادت كتب الرحلات تكون محكمة على العلماء المغاربة والأندلسيين<sup>(٤)</sup>.

ومن هؤلاء المغاربة الذين كانت لهم مؤلفات في عصر بنى مرين في علم الجغرافيا ذلك الجغرافي المجهول الذي وضع كتابة في علم الجغرافيا سنة

(١) د. أحمد مختار العباري: تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ووصف لابن الشباط (مدريد ١٩٧١) ص ١٢٩.

(٢) سيديو: خلاصة تاريخ العرب: أمر بترجمتها على باشا مبارك، (القاهرة ١٨٩١) ص ٢١٥.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب من ٢٠٠ - ٢٢٠.

(٤) كراتشفسكي: تاريخ لأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم القسم الأول ص ٧٥، ٢٧٤، عمر رضا كحاله: معجم المؤلفين، بيروت ١٩٥٧ م ص ٥.

١٢٩٢هـ/٦٩٢، والذى أشار فيه إلى أنه نسخة عن جغرافيا الفزانى التى نسخها من أمير المؤمنين المأمون بن هارون الرشيد والتى جمعها سبعون رجلاً من فلاسفة العراق وضعوها على صفة الأرض<sup>(١)</sup>.

وهناك أيضاً ابن البناء العددى الذى وضع كتاب «المناخ فى تركيب الرياح، ومقاله فى علم الإسطرلاب، ورسالته العمل بالصفحة الزقالية، ورسالة أخرى فى السكانية. كما كانت له عدة قوانين تعتبر خلاصة دراساته وأبحاثه فى هذا المجال مثل قانون فصول السنة<sup>(٢)</sup>.

ومن علماء الجغرافيا أيضاً فى عصر بنى مرين عبد الرحمن بن محمد الجاذبى المتوفى سنة ١٤١٥هـ/٨١٨ م والذى كان جغرافياً وفلكياً متفوقاً استطاع أن يجمع بين العديد من المهارات فى هذا المجال مثل : العمل بآلية الأسطرلاب وبالصفحة السكانية، وبربع الدائرة والعمل بالحساب والجدل، كما كانت له مؤلفات جغرافية مثل: (تنبيه الأنماط على ما يحدث فى أيام العام) و (روضة الأزهار فى علم وقتى الليل والنهاى)<sup>(٣)</sup>.

### علم الخرائط :

كان أول من رسم الخرائط هم قدماء المصريين، فقد رسموا خرائط لأرض مصر وما يجاورها، ثم أخذ عنهم اليونان هذا العلم وتوسعوا فيه وأخذه الرومان عنهم. ويعتبر بطليموس اليونانى أشهر جغرافي، ووصلت كتبه فى الجغرافيا وخرائطه إلى العرب، ولكنهم لم يتسعوا فى دراسة علم الخرائط إلا فى أوائل القرن الثالث الهجرى، فقد نقل إلينا الخليفة المأمون العباسى أمر برسم صورة يظهر فيها العالم بأجوانه ونحوه وقاراته وبحاره ومواطن سكانه ومدنه وصحابيه بأصياغ مختلفة. وقد قام برسمها عدد من العلماء، وعرفت هذه الخريطة بالصورة المأمونية. وكان **الجغرافيون المسلمين الأوائل - متاثرين إلى حد كبير - فى رسم خرائطهم**

(١) مجهول : كتاب فى الجغرافيا مخطوط مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية من ٩.

(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس من ٧٧، ٧٦.

(٣) الكتانى : سلوة الأنفاس من ١٥٧، ١٥٨.

بالجغرافيين اليونان وبخاصة بطليموس، ولكن العلماء الذين جاءوا بعد ذلك، وعلى الأخص في القرن الرابع الهجري رسموا خرائط لا أثر فيها للتقليد<sup>٦</sup> كما يتجلّى ذلك واضحاً في خرائط أبي إسحاق الأسطخري.

ولما انقسم العالم الإسلامي إلى عدة دول اهتم خلفاء وسلطين تلك الدول برسم الخرائط، فقد أمر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله برسم خريطة ملونة بلغت تكاليفها اثنين وعشرين ألف درهم. وقد رسمت على قطعة كبيرة من الحرير الأزرق المنسوج ظهرت عليه أقاليم الأرض وما عليها من جبال وبحار وأنهار ومدن، وكانت صورة مكة والمدينة أوضحت هذه الصور. وقد كتب على كل مدينة وبلد وجبل وبحر ونهر وطريق اسمه بالذهب أو بالفضة أو الحرير الملون. وكتبت على هذه الخريطة تلك العبارة «ما أمر بعملة المعز لدين الله شوقاً إلى حرم الله وإيهاراً لمعالم رسول الله في سنة ثلاثة وخمسين وثلاثمائة».

وقد اشتهر في القرن السادس الهجري الجغرافي الذايئ الصيّت أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي العلوي الذي ولد بمدينة سبتة بال المغرب الأقصى، ثم اضطر إلى الهرب إلى جزيرة صقلية، وعاش في مدينة بلزم عاصمتها، ونال حظوة عند ملوكها روجر الثاني، وألف كتابه الشهير في الجغرافيا «نَزَهَةُ الْمُشْتَاقِ فِي اخْتِرَاقِ الْأَفَاقِ» وأهداه إلى الملك روجر، كما صنع له كرة سماوية وخرائط للعالم على شكل قرص، وكلامها من الفضة.

ثم اشتغل برسم الخرائط عدد كبير من الجغرافيين المسلمين بعد الإدريسي، ولكنهم لم يضيفوا جديداً إلى هذا العلم يستحق التنويه به.

### الفصل الخامس

## الحضارة الإسلامية والتربية المعيشية

\* السعي في طلب الرزق ضرورة.

\* تطور الزراعة.

\* تطور الصناعة.



## السعى في طلب الرزق

حدد القرآن الكريم أربع حاجات أساسية يجب على الإنسان أن يشقى لتحصيلها في حياته الدنيا وهي: الطعام، والكساء، والشراب، والسكن. وذلك في قوله تعالى: **﴿فَوَفَقْلَنَا يَا آدَمَ إِنْ هَذَا عَدُوكَ وَلِزُوْجِكَ، فَلَا يَخْرُجُنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ وَإِنْ لَكَ أَلَّاتَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِيٰ وَأَنْكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَخْسِحُ﴾**<sup>(١)</sup>.

لذلك فقد دعا الدين الإسلامي إلى السعي في طلب الرزق، وحببه إلى النفوس يقول سبحانه: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَابِكُهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾**<sup>(٢)</sup>.

أما رسول الله - **ﷺ** - فيقول: «ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»<sup>(٣)</sup>، كما سئل عليه الصلاة والسلام: أى الكسب أطيب؟ فقال: عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور»<sup>(٤)</sup>.

ويشير القرآن الكريم أن داود عليه السلام كان يعمل في مهنة الحداده فيقول تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا دَاوِدَ مَنَا فَضْلًا يَا جِبَالَ أُوبَيِّ مَعَهُ الظِّيَرُ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ وَأَنْ أَعْمَلَ سَابِقَاتٍ وَقَدْرًا فِي السَّرْدِ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**<sup>(٥)</sup>.

كذلك تكررت في القرآن الكريم الإشارة إلى أن نوح عليه السلام كان يعمل في صناعة السفن، وأن موسى عليه السلام اشتغل برعى الغنم عشر سنين أجيراً في أرض مدين، كما نعلم من سير نبينا محمد - **ﷺ** - أنه كان يرعى الغنم في صدر شبابه، ثم اشتغل بالتجارة، في مال خديجة رضي الله تعالى عنها.

(١) سورة طه، الآيات ١١٧ - ١١٩.

(٢) سورة الملك، الآية ١٥.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه الحاكم.

(٥) سورة سباء، الآيات ١١، ١٠.

لذلك قال رسول الله - ﷺ - : «من أمسى كلامن عمل يده أمسى مغفرا له» .<sup>(١)</sup>

ومر رسول الله - ﷺ - وجماعة من أصحابه على رجل يعمل في جلد ونشاط.

فقالوا : يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله ؟

فقال رسول الله - ﷺ - : «إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل

الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله وإن كان خرج

يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رباء ومحاورة فهو في

سبيل الشيطان» .<sup>(٢)</sup>

كما قال رسول الله - ﷺ - في الحث على السعي في طلب الرزق : «لأن يأخذ

أحدكم أحبله فیأتأتی بحزمة من حطب على ظهره فیبیبعها، فکیف الله بها وجهه، خير

له من أن يسأل الناس: أعطوه أم منعوه» .<sup>(٣)</sup>

لذلك تطورت الحياة الاقتصادية في العالم الإسلامي تطورا سريعا لم تشهده

البشرية من قبل. كما تطورت أيضا وسائل المحافظة على صحة الإنسان سواء كان

ذلك بالتربيـة البدـنية من سباحـة وركـوب الخـيل وغـير ذـلك أو بـمراـعة الإـرشـادات

الصـحيـة <sup>(٤)</sup> وـكـلـوا وـاشـبـوا وـلا تـسـرـفـوا <sup>(٥)</sup> وـصـوـمـوا تـصـحـوا، أو بـتـطـورـ العـلـومـ الطـبـيـةـ

وـإـنـشـاءـ الـبـيـمـارـ سـتـانـاتـ. وإنـ كانـ هـذـاـ كـلـ يـحـتـاجـ إـلـىـ صـفـحـاتـ وـصـفـحـاتـ لـكـلـامـ عنـ

كـلـ عـنـصـرـ مـنـ تـلـكـ العـنـاصـرـ، فـإـنـ سـأـكـنـىـ بـمـاـ هـوـ فـيـ مـجـالـ تـخـصـصـيـ، وـلـأـفـسـحـ

الـمـجـالـ لـغـيرـ مـنـ الـبـاحـثـينـ كـلـ بـحـسـبـ تـخـصـصـهـ لـأـنـهـ أـقـدـرـ مـنـ عـلـىـ ذـكـ.

## تطور الزراعة

كان الماء منذ ظهور البشرية على الأرض، وحتى قامـتـ الثـورـةـ الصـنـاعـيـةـ فيـ

أـواـخـرـ العـصـورـ الـوـسـطـيـ، هوـ مـصـدرـ الـثـرـاءـ وـالـقـوـةـ لـلـأـمـةـ الـتـيـ تـمـتـلـكـهـ. وـيـشـيرـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ

إـلـىـ تـلـكـ الحـقـيـقـةـ الـاـقـتـصـادـيـةـ عـلـىـ لـسـانـ فـرـعـوـنـ، فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: <sup>(٦)</sup> الـيـسـ لـىـ مـلـكـ مـصـرـ

وـهـذـهـ الـأـنـهـارـ تـجـرـىـ مـنـ تـحـتـىـ <sup>(٧)</sup>. لأنـ وـجـودـ المـاءـ يـتـرـتـبـ عـلـيـهـ زـرـاعـةـ الـأـرـضـ وـإـقـامـةـ

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه البخاري.

المجتمعات المستقرة. فبالمال التي تحصل عليه الأمة من الزراعة، وباستقرارها في الأرض، يمكنها أن تتطور علمياً، وأن تتطور عسكرياً. ويؤكد القرآن الكريم تلك الحقيقة حينما يشير إلى سبأ التي تحولت إلى قوة قديرة على الأرض نتيجة لحصولها على الماء ببناءها سد مأرب. ولما انفتح المسلمون على العالم الخارجي، كانوا على وعي كامل بتلك الحقيقة، ولذلك حرصوا على الإبقاء على الأراضي الزراعية، بل وتنميتها فقد ضمت الدولة الإسلامية بين جنباتها أقاليم زراعية، كانت الزراعة هي الحرفة الرئيسية فيها مثل: بلاد الشام والعراق وخراسان وببلاد ما وراء النهر، ومصر وشمال أفريقيا وببلاد الأندلس<sup>(١)</sup>.

وقد كانت الأقاليم المترامية الأطراف، وبخاصة تلك التي توجد على حافة بحر قزوين وأفغانستان الحاضرة، قد مسها الفتح العربي مسا خفيفاً، واحتفظ بكيانها الإقطاعي دون تغيير محسوس، وكان يسكن بلاد الشاطئ الغربي لنهر دجلة ومصر - فلاحون فقراء.

ولما استقرت الأحوال في البلاد المفتوحة اهتمت الدولة الإسلامية بالزراعة، وقد كانت فيضانات نهر النيل ونهر السند تحدد السنوات المصرية والهندية، وكانت هذه الفيضانات تطابق المقلوب الصيفي الذي كان كذلك بداية السنة في فارس - وكانت هذه البداية مناسبة لعبد ممیز بنيران كبيرة توقد عند ما ياتي المساء.

وفي سبتمبر كانت تبدأ سنة الفلاحين المسلمين، عندما يبدأ الزيتون في النضج، وعندما ينضج الرمان والسفigel. وكان الفلاحون يحصدون وقتنذ الأرض واللوبها، وكانوا يشرعون بعد ذلك في اقتلاع أشجار الحناء، وفي تطعيم الكرم. وفي أكتوبر، كانوا يبدأون حرش الأرض. وفي الوقت نفسه كانوا يغطون أشجار النارنج، وأشجار الموز، وأشجار البرتقال لحمايتها من البرودة الوافدة. وكان نوفمبر الشهر الذي يبذرون فيه الشعير والحنطة، والكتان. وكان الخشاش الأبيض يبذر أثناء الشتاء، في أمكنة مصونة بعناية من الرياح ومن البرد، حتى إذا خفت حدة البرودة، كانوا يشرعون في إعداد الأراضي المخصصة لزراعة القطن والكتان. ثم يستغلون بتقليم أشجار اللوز

(١) دكتور عطية القرصى - الحضارة الإسلامية من ١٠٩.

والخروب، بعد ذلك يقطعن قصب السكر. وفي الربيع كانوا يبذرون الحناء، والبازنجان والكتان، وفي الوقت نفسه كانوا يعدون بذور الخضر، ثم ينقطعون إلى أعمال تقطير الروائح وماء الورد، وفي غضون أيام الصيف الطويلة وفي نهاية شهر يونيو كانوا يجمعون البرقوق، والتين والبطيخ. وكان موسم الحصاد وجمع الحبوب والبقول. يأتي بعد موسم حصاد الدرис. وفي الخريف في أثناء اكتمال نضج البلع والعنب كانوا يحصدون الأرز والنيلة، على حين كانت تبشر غصون الكروم المذهبة بقطفها.

أنتجت دانما حدائق الشرق - باستثناء البطاطس والطماطم - اللتين لم يكن العرب على علم بهما بعد - جميع أنواع الخضر بوفرة : الكراث، والكرفس، والبصل بمختلف الألوان، من أحمر وأبيض وأصفر وأخضر، والخيار الذي كان يغمس بذره في ماء الورد أو يغرق بالخل، والخيار المخلل، والقرع والبازنجان، ولم يهمل أى شيء فيه مرضاه لفن الطهو.

ولم تكن زراعة البساتين سراً خافياً عن الشرقيين. وكانت أشجار التفاح المختلفة الأنواع، وأشجار البلع، وأشجار التوت، وأشجار التين في الحقول معتنى بها. وكان المزاراتون الأكثر تطوراً يحاولون أن يوكلموا فسائل جديدة مستوردة من البلاد الثانية. وكانت الحديقة النباتية في تبريز بإيران مشهورة بجمعها لأكثر الفواكه ندرة في آسيا، والصين، والهند. وكانت زراعة الكروم قد غزت العالم الإسلامي من المغرب وقد كان زراع الكروم الشرقيون في الحقيقة منذ عصور الحضارة الفارسية الموجلة في القدم على دراية بزراعة الكروم وفن تشيبيه وتطعيمه وتسميده، كما هي العادة في الكروم المشهورة في العصر الحديث.

زرعت أشجار البرتقال والليمون في بلاد ما بين النهرين، وفي فارس، وفي كردستان، وفي مزارع البصرة، وفي خوزستان وفي القاهرة، وفي بغداد كانت زراعة أشجار الموز تتطلب كثيراً من الحرارة والرطوبة. ولكن نجعل هذه الفاكهة أحلى مذاقاً، كانت فسائلها تطل على بالعسل. وفي الحقيقة كان الشرقيون أعناء بالتجارب والمعرفة واللاحظة، وعلى دراية ببعض المشابهات، والاختلافات التي تربط بين شجرة

وأخرى، كما أنهم كانوا يعرفون إخشاب بعض الشمار بمختلف الألوان من شجرة واحدة.

واشتهرت غوطة دمشق بأنواع الأشجار المثمرة كالتفاح والبرقوق (المشمش) والدراق والخوخ والليمون والبرتقال والتين والعنب واللوز والرمان والبطيخ.

ويذكر هيرودوت أن بلاد ما بين النهرين، كانت موطن القمح، بل إن هذا القطر كان كذلك غنياً بزراعة حبوب أخرى مثل الشعير بخاصة. وقد مورست زراعة الأرز في المناطق المجاورة لبحر قزوين، وفي بلاد ما بين النهرين، وفي العراق، وفي عيلام وعلى الشاطئ الغربي من نهر دجلة. وكان الأرز، فوق فائدته الغذائية، يستفاد من قسه الذي كان يصنع منه حصر وقلنسوات، وسلام وحقائب ومكانس<sup>(١)</sup>.

وقد قام المسلمون بتطوير زراعة بعض المحاصيل وبخاصة قصب السكر والقطن لحاجة الدولة لهما، كذلك نقلوا إلى الأقاليم الغربية في الدولة زراعة بعض حاصلات لم يكونوا يعرفونها، مثل البرتقال وبعض توابل الشرق.

وقد لقى الاهتمام بزراعة القمح والشعير عنابة خاصة: ذلك لأن القمح كان الغذاء الأساسي للسكان، وكان الشعير غذاء الحيوان الرئيسي. وتوسيع المسلمين في زراعة الخضروات في الحدائق والبقول وأشجار الزيتون وأشجار النخيل.

أما القطن وهو نبات هندي الأصل فقد أدخل إلى إيران والعراق في بداية عصر الميلاد؛ ثم زرعه المسلمون في سوريا، ومصر، وأسبانيا. وكان الكتان يزرع في دلتا النيل منذ العصور القديمة. لكن الإسلام نشر زراعته في القرن العاشر في خوزستان وفي جنوب فارس، ووصل استغلاله بعد ذلك إلى الشمال وبحر قزوين. وكان هذا النبات يتطلب أرضاً رطبة وتربة جيدة، ولا يكاد يصفر حتى يأخذوا في حصاده، وبعد أن ينقع في الماء ويجف يستبعد القش بالدراس.

كان نبات النيل يزرع في أبريل بعيداً عن الرياح الباردة، وينقل إلى مكان آخر عندما ينبت من الأرض. وكلما أخذ في النمو، كان يلتف حول غابة مغروسة أسفل كل شجرة. وكانت الفوه تذر في الهواء مثل القمح على أرض محروثة مسمندة. وكانت تروي

(١) جاك. س. رسيلر: الحضارة العربية ١١٤، ١١٥.

كل ثمانية أيام، ثم كانت تعطى بعد ذلك جذراً مشرباً بالحمرة يقتلع بمجرد أن يصل إلى نمو معين. والحناء شجيرة تغمر بالماء مدة خمسة عشر عاماً تقريباً في مصر العليا وفي الجيش. وقد نجع المسلمين في إدخالها بصعوبة إلى سوريا، وجنوب فارس.

كما اهتموا بزراعة الورد والريحان اللذين اشتهرت بهما أيضاً غوطة دمشق على أن أهم مزارع الزهور كانت في بلدة خور من فارس، حتى أن بلدة خور كانت تدفع ما عليها من خراج عطور استخرجوها من الزهور وترسلها لعاصمة الخلافة<sup>(١)</sup>.

لم تكن توجد في الشرق أعمال مشرفة غير أعمال الفلاحة، ولم تعد تربية الماشية، ودراسة النحل، وعاداته، وتربيبة دودة القرز بخافية على المزارعين الشرقيين، وكان العسل منتشرًا جداً في فارس حتى أنه كان يتم التفاييض به، وكانت الدولة تقبله وفاءً للضربيبة. أما تربية دودة القرز، فقد بلغ من إتقانها أن أصبحت علماً حقيقياً. وكان يعرف من قبل انتقاء الشرائف وأشجار التوت نفسها، والرجوع إلى تنظيم محال تربية دود القرز. وأصبح إنتاج الحرير وفيراً جداً في فارس حتى استطاع أن يواجه كل استهلاك: أوروبا في العصر الوسيط<sup>(٢)</sup>

وهكذا كانت أعمال الفلاحة تتتصدر الأعمال الهامة في العالم الإسلامي. نظراً لوفرة المياه في أرض الإسلام، ولأن الزراعة قبل أن يعرف العالم الثورة الصناعية في أواخر العصور الوسطى، كانت هي مصدر الثراء والقوة فكتبوها عنها وعن أنواعها ومحاصيلها وظروف زراعتها وكيفية العمل على تطويرها في بلاد مختلفة، ومن هؤلاء: أبو بكر أحمد بن وحشية الكسدياني في كتابة «الفلاحة النبطية» عن الزراعة في العراق، وكتب أيضاً عدداً من الكتاب في فارس واليمين، مما يدل على الاهتمام الكبير بأمر الزراعة في الدولة الإسلامية على النطاقين الحكومي والشعبي.

أما في الجناح المغربي فقد استطاع المسلمون في سنوات قليلة بعد الفتح أن

(١) دكتور عطية القوصي: الحضارة الإسلامية من ١١٠.

(٢) جاك. س. ريمتر: الحضارة العربية من ١١٥.

ينهضوا بالزراعة، وأن يحققوا فائضا زراعيا بعد أن كانت حصة الفلاحين لا تكفي أحيانا لذمار الموسم التالي أو لسد حاجة العاملين في الحقول.<sup>(١)</sup>

والمعلومات القليلة المتوفرة عن تلك الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس تشير إلى أن القمح كان هو المحصول الرئيسي. كما احتل الزيتون مرتبة مهمة، وقد حرص المسلمون على توسيع نطاق زراعته وتحسينه ولاسيما في المناطق المحيطة بمدينة جيان.<sup>(٢)</sup>

على أن النشاط الزراعي في الأندلس لم يقتصر على تحسين الإنتاج من الزيارات المحلية، بل حرص المسلمون في الأندلس على توفير كل أسباب الارتفاع بالزراعة، فعمدوا إلى إرسال البعثات من الخبراء في النباتات إلى أخصب أقاليم الشرق كمصر وال العراق والهندستان لجمع بذور النباتات وانتقاء الأنواع النافعة لإجراء التجارب عليها في مزارع خاصة بذلك<sup>(٣)</sup>، حتى عرفت الأندلس عددا كبيرا من المحاصيل الزراعية التي لم تعرفها المنطقة من قبل، شملت الحمضيات، واللوز والتين والدراق والرمان والموز والزعفران والكتان<sup>(٤)</sup> والقطن، وقصب السكر والمشمش<sup>(٥)</sup>، والزهور والنباتات الطبية والزنجبيل<sup>(٦)</sup> والحناء<sup>(٧)</sup>، وحيثما وجد عرب أو بيرير في منطقة أخرى بالأندلس، أعطى هؤلاء المكان سمات مميزة كما حدث بالنسبة للسوريين في كورة البيرة (غرنطة) والمصريين في باحة وتدمير (مرسة) والفلسطينيين في مناطق شدونة، والأردنيين في رية، وأهل حمص في أشبوبية، والبيرير في المناطق المرتفعة التي تلائم طبيعتهم وتشابه مع المناطق التي قدموا منها قبل الفتح<sup>(٨)</sup>.

(١) عادل سعيد بشتاوى: الأندلسيون المواركة (القاهرة ١٩٨٣) ص ٧١.

(٢) المرجع السابق: ص ٧٢.

(٣) Scott : History, pp. 589 - 600.

(٤) عادل سعيد بشتاوى: المرجع السابق من ٧٢.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦) ج. ٢، ص. ٣٢٩، عادل سعيد بشتاوى: الأندلسيون من ٧٢.

(٦) ياقوت الحموي: المصدر السابق ج ٣ ص ٣٢٩.

(٧) ابن بطال: الفلاحة من ١١٨.

(٨) عادل سعيد بشتاوى: المرجع السابق: ص ٧٢.

كما حرص الأندلسيون على استغلال كل شبر من الأرض خال من الزراعة حتى أنهم زرعوا الكروم على جوانب القلال الصخرية<sup>(١)</sup>. واحتللت المنطقة الساحلية الممتدة من لشبونة حتى شمال جزائر البليارة على مناطق مغطاة بأشجار الفاكهة من جميع الأصناف، كما اختصت شنترة بالتفاح الممتاز، وكذلك اشتهرت لشبونة ببساتين أشجار التين منتشرة في إسبانيا، وخاصة في منطقة قوربة، ومالقة، واللتين اشتهرتا كذلك بزراعة أشجار الرمان، واللوز، والبرتقال. واحتللت وديان منطقة البحر الأبيض المتوسط بزراعة أشجار الموز، وخاصة في الجهات السفلية من الوادي الكبير. أما المناطق ذات المناخ الحار، فكان بها قليل من التخيل<sup>(٢)</sup> وتقدمت زراعة الأرز، حتى بلغت درجة الكمال بولاية بلنسية، كما اشتهرت بشجر التوت. وقد اشتهرت ضواحي قرطبة، وغرناطة، ومرسية بوفرة حضرواتها<sup>(٣)</sup>.

وكان الاهتمام بزراعة النباتات ذات التيلة عند الأندلسيين، لا يقل عن العناية بزراعة الحبوب أو غرس أشجار الفاكهة. ومن أهم هذه النباتات الكتان والقطن، حيث كان الكتان يزرع خاصية في منطقة البيرة<sup>(٤)</sup>.

أما القطن فكانت ولاية أشبيلية هي الولاية الوحيدة في الأندلس التي تقوم بزراعته، وجعلت منه مادة للتبادل التجاري بينها وبين بلاد المغرب في سجلماسة. وكانت زراعة أشجار الزيتون من الزراعات التي تقدم فيها الأندلسيون كثيراً، وكانت مزارع الزيتون تغطي مساحات كبيرة من الأراضي الواقعة في السهول الغربية من سلاسل جبال الشارة. وكان انتشارها في الشمال أكثر منه في الجنوب، كما كانت أشجار الزيتون تزرع بالقرب من قرطبة في المناطق الجبلية، وفي الشمال من أشبيلية<sup>(٥)</sup>.

وكان لإدخال الحمير إلى الأندلس بعد جلبها من مصر مفعول عظيم في تطوير طرق الفلاحة والمحاصد وارتفاع حجم المحصول. وقد يبدو هذا غريباً اليوم، ولكن أحد

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج ٣ ص ٣٢٩.

(٢) المصدر السابق، الصفحة ذاتها.

(٣) Scott : History, p. 611.

(٤) الإدريسي : وصف المغرب، ص ٢٠٢.

(٥) الحميري : الروض المعاطر ص ١٤٩، ٤٤، ١٤.

مفاهيم الرخاء في ذلك العصر، كان توافر حمار لكل شخص يستخدمه في غابته المختلفة<sup>(١)</sup>.

وفي بلاد الأندلس كانت الغابات تجاور غالباً أشجار الزيتون، وقد احترف سكان بعض مناطق الجنوب الأسبانية صناعة النجارة واشتغلوا بنشاط في قطع الأشجار من الغابات وكانت أهم أنواع الخشب المستخرج هو خشب السنديان الذي تنتجه أشجار البلوط<sup>(٢)</sup>.

واشتهر الأندلسيون بخليط البساتين ودرايتم بطرق التطعيم الصناعي للنباتات، فاستخدمو ثمانى طرق في التطعيم. كما اتبعوا طريقة عجيبة في تسهيل سقيها باستخدام أوعية ذات ثقوب ينفذ منها الماء نقطة نقطة، كما استنبط الإخصائيون في البساتين عدة وسائل لتحسين الإنتاج من حيث الحجم والنوع بواسطة نقل عقلة من شجرة إلى أخرى كما أنهم استطاعوا أن يزرعوا أنواعاً من المنتجات الهندية ذات الصبغة النيلية والعروق الحمر.

وتناول بالتفصيل بحث نشر في أشبيلية في القرن الثاني عشر زراعة أكثر من خمسين شجرة فاكهة وبيان أمراضها المتنوعة مع وسائل علاجها.

كذلك كانوا على علم تام بأنواع الورود التي ازدهرت في بساتينهم على مدار السنة، وتفوقوا في طريقة تقطير وترويق عصارة الزهور لاستخراج العطور المتنوعة، حتى بلغ عددها خمسة وعشرين صنفاً، وكان أهم أنواع النباتات العطرية نبات الزعفران<sup>(٣)</sup>.

وعرف الأندلس في عصر الخليفة الحكم المستنصر تقوياً أندلسيّاً<sup>(٤)</sup> كان له فضل على الحياة الزراعية، عرف بالتقويم القرطبي الذي ينسب إلى ربيع بن الأسف

(١) عادل سعيد البشناوى: الأندلسيون ص ٧٢.

(٢) الإدريسي: وصف المغرب: ص ١٩، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٥.

(٣) الفزوي: ثمار البلاد (طبع جونجنب ١٨٤٣م) ص ٣٤٤، ٣٤٥، عبد الحميد محمود الشرقاوى: الحياة الاقتصادية، ص ٧٠.

Imamuddin: Some aspects of the socio-economic Cultural history of Muslim (٤) Spain (London), 1965 p. 73

والى عرب بن سعد وكان الاثنين مؤرخين فى عصر الخليفة الحكم<sup>(١)</sup>، وقد حل هذا التقويم القرطبي محل التقويم اليولياني الرومانى الذى نقله البربر إلى الأندلس من قبل، وفيه كانت **الشهور ذات أسماء لاتينية**<sup>(٢)</sup>، وقد أمدنا التقويم القرطبي بكثير من المعلومات المهمة التى كانت تعتبر دستورا زراعياً، حيث نجد فى هذه الأحيان مع ما رواه الجغرافيون من أمثال الإدريسي والقزويني، وكان لهذه الإرشادات أثر ظاهر فى **الحياة الزراعية فى شتى مواسمها**<sup>(٣)</sup>.

ولما جاء المرابطون وانضوت الأندلس تحت لوائهم كانت محاولات الاستفادة من الخبرات الاندلسية فى شتى مجالات الزراعة من أسباب الارتفاع بالزراعة فى المغرب، كذلك اهتم خلفاء الموحدين بالزراعة وباستغلال الخبرات الاندلسية، وشجعوا المزارعين على استغلال الأرض، فنجد على سبيل المثال ابن همشك حين دخل فى طاعة الموحدين وقدم من الأندلس إلى المغرب فى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م فابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أقطعه عدة إقطاعات بمدينة مكناسة ليستثمرها<sup>(٤)</sup>.

ولقد كان للمهاجرين الاندلسيين فى عهد دولتى المرابطين والموحدين أثر فى تكيف الحياة الاقتصادية بالمغرب، ولاسيما فى المراكز التى استوطنوها، حيث اختلف التأثير باختلاف هوية المهاجرين وطبيعة المهاجر، وأغرب ما فى الأمر أن الأثر الفلاحي غالب مثلا فى سلا بينما تأثر الرياط بالطابع الأرستقراطى والصناعى، فكثرت الغابات والبساتين والحدائق والمزارع حيث وجد الأندلسيون<sup>(٥)</sup>، فاستبطنوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأروحى الطاحنة بالماء<sup>(٦)</sup>، فنجد مهاجرين غرناطيين فى ناحية فاس يدخلون زراعة قصب السكر وزراعة أشجار التوت<sup>(٧)</sup>. وقد أشار ابن غازى إلى اهتمام أحد الموحدين بغرس الزيتون فى مدينة مكناسة وبفاس ويرباط

Le Calendrier de cordone de L'Annee 961 Ttxre Arabe et Ancienne Traduction Latin (١)  
(Leyden 1873)P.4.

Levi-provencal/ Histoire,p. 172. (٢)  
L bid, p. 171. (٣)

(٤) عنان: عصر المرابطين والموحدين، القسم الثانى ص ٥٧.

(٥) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحاضرة ص ٢٧.

(٦) المرجع السابق : ص ٨٨.

(٧) المرجع السابق: ص ٩١.

تازا<sup>(١)</sup> كذلك كثرة زراعة الحناء بمدينة سلجماسة<sup>(٢)</sup> ودرعة التي زرع بها أيضاً النهلة<sup>(٣)</sup>.  
كما شهد المغرب في عهد دولتي المرابطين والموحدين انتشار زراعة الفاكهة  
بأنواعها المختلفة من التمر والعنب والتين والرمان والسفرجل والممشمش والبرقوق  
والخوخ والجوز والموالح<sup>(٤)</sup>.

كما أن مدينة فاس أنتجت مختلف الفواكه والثمار، وكان بها تفاح حلو يعرف  
بالمطرابلس حسن الطعم والرائحة<sup>(٥)</sup>.

وقد أشار الإدريسي إلى تنوع الفاكهة في منطقة السوس بقوله: «وببلاد السوس  
قرى كثيرة وعماراتها متصلة بعضها ببعض وبها من الفواكه الجليلة أجناس مختلفة  
 وأنواع كثيرة كالجوز والتين والعنب والعذاري والسفرجل والرمان الأملليس والأترج  
 الكبير المقدار الكثير العدد، وكذلك الممشمش والتفاح المهند وقصب السكر الذي ليس  
 على قرار الأرض مثله طولاً وعرضًا وحلاؤه وكثرة ماء<sup>(٦)</sup>.

و عمل المرابطون والموحدون من بعدهم على غرس البساتين المختلفة، فمن  
أعمال الخليفة عبد المؤمن الموحدي إنشاؤه بستان مراكش العظيم في سنة ٥٥٢هـ/  
١١٥٧م الذي يطلق عليه البيدق (شسطولية) وقد تولى تنسيق البستان والقيام عليه  
أمير من أمراء الأندلس هو: أحمد ابن ملحان ملك وادي آش<sup>(٧)</sup>.

وقد ذكر إلى عبد المؤمن حين استولى محمد بن مردنيش على وادي آش، وكان  
للأمير المذكور خبرة واسعة بفن تنسيق البساتين. فزود بستان (شسطولية) بسانر  
الغرس: من أنواع الفاكهة، وأشجار الرياض والزينة، واجتذب من هذه الأنواع كثيراً  
من بلاد الأندلس مما لم يكن معروضاً بالمغرب حينئذ، فكان أول بستان فريد في  
نوعه<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن غازى: الروض المحتون في أعيار مكناة الزينتون، طبع حجر مغربى من ٢٠٠٢.

(٢) ابن سعيد: نزهة الأنظار ج١ ص ١١.

(٣) المصدر السابق، ج١ ص ١١.

(٤) القلقشنى: صبح الأعشى ج ٥ ص ١٧٥، عبد العزيز بن عبد الله: المعجم التاريخي من ١٠١٠-١١٠٠.

(٥) مجهول: الاستئثار في عجائب الأ MCSAR، نشر. سعد زغلول عبد الحميد (الإسكندرية) ١٩٥٠ ص ٢١٠.

(٦) الإدريسي: وصف المغرب والأندلس ص ٦١، ٦٢.

(٧) البيدق: أعيار المهدى بن تومرت وابناء دولة الموحدين، نشر لينى بروفنسال (باريس ١٩٢٨) ص ١٢٠.

(٨) د. عبد الله على علام: الدولة الموحدية بالمغرب ص ٣٨٥.

وقد جسّور لنا ابن الخطيب مساحة هذا البستان ومقدار الفواكه التي ينتجهما بقوله : وإن الخليفة عبد المؤمن غرس خارج مراكش بستانًا طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منه فيه كل فاكهة تشتهر بها الأنفس وجلب إليه الماء من أنعمات واستنبط عيونا كثيرة<sup>(١)</sup>. ولم يمض غير قليل من السنين حتى أصبح هذا البستان مصدرا من مصادر الاقتصاد بال المغرب. فقد بيعت ثماره بعد ثلاث سنوات من إنشائه، بثمن ثلاثين ألف دينار مؤمنى، على الرغم من رخص الفاكهة في هذا العصر<sup>(٢)</sup>.

كما استخدم هذا البستان ليكون ضيعة تجريبية، حيث تغرس أنواع شتى من الأزهار والرياحانين المجلوبة من أوروبا<sup>(٣)</sup>. وهذا دليل على أن معظم فواكه الأندلس قد انتقلت زراعتها إلى المغرب في عهد دولتي المرابطين والموحدين.

#### الرى :

عمل الخلفاء الأمويون والعباسيون على تنظيم الري والاهتمام بأمره ، في المشرق الإسلامي، وبخاصة في فارس والعراق حتى أن الدولة العباسية أفردت ديوانا خاصا للري كان يشرف عليه موظف مسؤول كبير يعاونه عدد كبير من الموظفين والعمال. كذلك عملوا المصارف وشقوا الترع والقنوات وأقاموا القنطر والسدود وبنوا الجسور، وحفروا الآبار، ورفعوا الماء إلى الأراضي المرتفعة بالنواعير والطواحين الهوائية<sup>(٤)</sup>.

أما في الجناح المغربي فقد :

فرض هذا النشاط الزراعي الكبير على الأندلسيين الاهتمام بالري وإنشاء الترع المتفرعة في كل الاتجاهات، كما أنشأوا القنوات المعلقة التي تستخدم في توصيل مياه الفيضان إلى المحرومة منها بطريقة القنوات. وصفوة القول أن الأندلسيين استخدمو أنظمة للري تدل على تقدم عظيم كما ادخلوا وسائل لم تكن معروفة من قبل

(١) ابن الخطيب : العلل الموثقة ص ١٠٩، ١١٠.

(٢) د. عبد الله على علام : الدولة الموحدية ص ٣٨٥.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة، قسم ٢ ص ٣١٢٤.

(٤) دكتور عطية الفوقي : الحضارة الإسلامية ص ١١٠.

في تلك المناطق كالساقية لرفع الماء وتوزيعه، كما استغلوا المياه المنحدرة من الجبال عن طريق جريان الماء في أنابيب من الرصاص تصب في أحواض عديدة صنع بعضها من الذهب والبعض الآخر من الفضة ومن النحاس، أو في بحيرات وخزانات ونافورات مصنوعة من الرخام<sup>(١)</sup> وعرف الأندلسيون صناعة السماد البلدي لإخصاب الأرضي الزراعية حيث كانوا يحفرون في الأرض حفراً عميقاً تلقى فيها الأزيال من فضلات الناس ثم تقلب حتى تختمر<sup>(٢)</sup>.

وقد اهتم المرابطون بالرى في المغرب فأقاموا قنوات الري على يد مهندسين أندلسيين<sup>(٣)</sup> كما أمر أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ببناء قنطرة على نهر تانسيفت لدورها في توزيع المياه الازمة للزراعة.

فيقول الإدريسي : «وعلى ثلاثة أرباع من مراكش نهر يسمى تانسيفت وليس بالكبير لكنه دائم الجري وزمن الشتاء يحمل بسيط كبير لا يبقى ولا يذر، وبينه على بن يوسف عليه قنطرة عجيبة متقنة الصنف فجلب إلى عملها صناع الأندلس وحملوا من أهل المعرفة بالبناء فشيدوها وأتقنوا بنيانها حتى كملت<sup>(٤)</sup>».

ويذكر ابن أبي زرع : «ولم يكن بها (أى مراكش) ماء فحفر الناس بها آباراً فخرج لهم الماء على قرب فاستوطنها الناس»<sup>(٥)</sup> ثم وفد على المدينة عبد الله بن يونس الذي استطاع بمهارته أن يوفر الماء لسكنى البساتين التي انتشرت بسبب الطريقة التي ابتكرها<sup>(٦)</sup>. وقد أشار الإدريسي إلى هذه الطريقة بقوله: « وما زعما الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة، استخرج ذلك عبد الله بن يونس .. وذلك أن هذا الرجل المذكور وهو عبد الله بن يونس جاء إلى مراكش في صدر بناها وليس بها إلا بستان واحد لأبى الفضل مولى أمير المسلمين .. فقصد إلى أعلى الأرض مما يلى البستان فاحتفر فيه بئر مربعة كبيرة التربيع، ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على

(١) Lane poole : The Mooes,pp. 130-131.

(٢) ابن العولم : الفلاحة ج ١ ص ٤٠٧.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة قسم ٢ ص ٣.

(٤) الإدريسي : وصف المغرب من ٦٩.

(٥) ابن أبي زرع : الأنبياء المطروب ج ٢ من ٤٠ السلاوى : الاستقصا ج ٣ من ٢٥.

(٦) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ من ١٢.

وجه الأرض ومر يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجاً إلى أسفل بميزان حتى وصل الماء إلى البستان وهو منسكب مع وجه الأرض يصب فيه، فهو جار مع الأيام لا يتغير. .<sup>(١)</sup> ثم قام السكان وصنعوا مثله في استخراج المياه حتى كثرت البساتين والجنات.<sup>(٢)</sup>

أما في عهد الموحدين، فإن أبرز ما صنع هو القنوات التي نقلت ماء غبولة أيام عبد المؤمن إلى المعسكر، الذي بنيت فيه بعد ذلك مدينة الرياط، وتمر هذه القنوات قرب المسجد الأعظم، ثم تتجه إلى قصبة الأوداية، ثم جدد أبو يعقوب قنطرة تنسيف، ونقل المنصور الماء على قنطرة إلى مراكش، كما نقل الماء في عهد الموحدين من باب الحديد، إلى عدوة الأندلس بفاس.<sup>(٣)</sup>

## تطور الصناعة

نظراً لاختفاء طبقات الفحم في جوف الأرض وأن ما يمكن الحصول عليه منه لا يتعدي بعض العروق الخفيفة في منطقة يزد وسط هضبة إيران، وفي لورستان، وهي أقطار عسيرة مزارها، لذلك كان استغلال الخشب ضرورياً، وأدت هذه الضرورة إلى إزالة الغابات من بعض ولايات أفغانستان الحالية، ومن جبال أرمينية، وهي مركز تموين البلاد ما بين النهرين.

رغم هذا تقدمت الحرف والصناعات في العالم الإسلامي بسبب كمال عمرانه الحضاري. ولقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً بعنوان «فصل في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضاري وكثنته» وبين ابن خلدون في هذا الفصل مدى تقدم الصنائع في الدولة الإسلامية، واستدل على مقدار عمران العالم الإسلامي من جودة صناعته وكمال تأثيرها؛ لأنه على حد تعبيره «على مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع» للتأنيق فيها حيث إن واستجادة ما يطلب منها بحيث تتلوى دواعي الترف والثروة.

(١) الإدريسي: وصف المغرب، ص ٦٧، ٦٨.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٨.

(٣) عبد العزيز بن عبد الله مظاهر الحضارة المغربية قسم ٢ من ٥٤.

كان الذهب والفضة والزنبق يوجد في منطقة جنراك - وهي مدينة مشهورة بعلمائها الكيميائيين - وبين نهر دجلة الأعلى وبحر قزوين، وفي مناجم جبال زاجروس. وكان البوراكس والأنتميون يأتيان من أرمينية. وكانت منطقة بنجشير في أفغانستان غنية بمناجم الفضة والنحاس، كما كانت توجد طبقة صغيرة من القصدير في منطقة كابول. لكن أهم مناجم الذهب هي التي كانت تقع بين بلاد النوبة والبحر الأحمر في مصر.

كانت المعادن تجلب إلى المدينة، حيث كان النحاس يصهر ويطرق ومعه البرونز والقلن، والفضة، والذهب. وكانت الأباريق، والأوانى، والأقداح، والأكواب، والأحواض، والسفافيد، والمفاتيح والمقصات، والصينيات، والمرابيا، والمصابيح، والشمعدانات، والمواقد، والبواخر، والآلات الفلكية وأغلفة مصاحف القرآن الكريم. وكانت هذه الأشياء كلها تصنع وقتلند بحسب رسوم ونماذج.

كما أنه نشأ في بلاد ما بين النهرين من النحاس الذي كان أقل ندرة من بقية المعادن، صناعة قطع مطعمة بالفضة لها تأثير عجيب في نفوس الناظرين، واختصت دمشق والموصى بصناعة الأسلحة والدروع من المعدن العادي، وكانت هذه الأسلحة المزخرفة إلى درجة الاتقان بفضل العرب محللة بخيوط من الذهب أو الفضة. وفي دمشق كان يثبت الخيط الذهبي إلى الفضي في الفراش الخشبية أو بعض المساكن المجهزة مقدماً، وفي الموصى، كانت تسوى هذه الأسلحة بضربات من المطرقة في مجموعها بحسب رسم موضوع: وكان يطلق عليها اسم «الدمشقيات» وكان الصلب والحديد يجهزان في سمرقند وأذربيجان والبرونز في بخارى، ونيسابور، والنحاس في الموصى وديار بكر.

وكان القصدير نادراً في المشرق. وكان منه القليل في بلاد صنديان في أمواريا العليا، وكان يمزج بالبرونز وكان الرصاص لا يحتاج إلى المزج. ويستخدم هذا الرصاص لبناء سقوف المساجد، وأنابيب المياه، وتنبيط الأحجار.

ومع ذلك، لم يعرف العالم الإسلامي الصناعات الكبيرة، وظللت الصناعة في مستوى الصانع اليدوى، وبقيت الأشياء تصنع في (الورش) والمحال الصغيرة، لأنه

كما نعلم أن الصناعة بصفة عامة، كانت تعتمد على ذراع العامل منذ العهد القديم، وحتى قامت الثورة الصناعية في غرب أوروبا في أواخر العصور الوسطى، حيث أصبحت الصناعة ولأول مرة في تاريخ البشرية تعتمد على الآلة، وليس على ذراع العامل كما كانت عليه في الماضي.

وكان العامل يبدىء، في هذه (الورش) وفي هذه المجال، مهارة وحذقاً وصبراً، وكانت كل هذه تعوق الإنتاج بدون شك، ولكنها كانت تمنحه صفة الإتقان، وطابع الطلاوة. وقد بلغ صانع المعادن ما بلغه الخطاط، وصانع الفخار. ولا شك أن في كل عمل متقن فضيلة، مهما يكن هذا العمل الشخصي متواضعاً، ومهما تكون قدرته على التعبير عن ذات نفسه.

ولم تكن الآثار الفنية المترفة التي يصنفها المتقنون لعلية القوم الشاغل الوحيد لصناعة المعادن، بل كانوا يصنفون أيضاً السلال الضخمة التي كانت توصى مداخل الأبواب، والتي كانت الحلقة الصغيرة منها في طول الذراع وضخامتها. ففي المباني الذي أنشأه المهدى على مقربة من تونس، كانت أبواب، يزن مصراع الواحد منها خمسةطنان. وكانت معظم المدن المحسنة توصى بواسطة أبواب قوية من الحديد المطروق. وكان صانع الأواني النحاسية يصنع في سمر قند قدوراً تسع أكثر من ألف لتر؛ وأنقذ المسلمين صناعة سبائك (حدوة) الخيل، وتعلم الصليبيون - عن طريقهم - مدى ما تتمتع به سبائك دمشق من صلابة قوية. ويشير بيان موجز عن ثروة الفاطميين إلى المدى الذي وصلت إليه المنتوجات الصناعية الشرقية : فيذكر البيان هذه الحقائق، «أربعمائة قفص من الذهب، وستة آلاف آنية من الذهب، وخزانات من الفضة تزن مائة وخمسين كيلو، وديكة، وطواويس، وغزلان، ذات حجم طبيعي من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة، وأشجار نخيل من الذهب وأسلحة، ودروع، وأكثر من مائة ألف تحفة عينية في مجموعها منها ثلاثة ألافاً من معادن مختلفة»<sup>(١)</sup>.

ولقد انتشرت دور الصناعة في المدن الإسلامية المختلفة، وكان لكل حرفة وصنعة سوق خاصة بها في هذه المدن ويقال أنه في بغداد وحدها، آلاف مصنع

(١) جاك. س. ريسيلر : الحضارة العربية، ص ١١٨ - ١١٩.

لصنع الزجاج وثلاثة آلاف مصنع لصنع الخزف على سبيل المثال لا الحصر. هذا فضلاً عن المصانع الكثيرة المتنوعة التي كانت في مدن الدولة الإسلامية المختلفة<sup>(١)</sup>.

أما في الجنان المغربي فقد كانت المعادن في شبه جزيرة إيبيريا موزعة على النحو الآتي: الفضة والرصاص في جنوب شرق شبه الجزيرة، ومناجم الذهب والفضة والنحاس في الجزء الذي أطلق الرومان عليه ولاية الأندلس، واشتهرت البرتغال وجليقية بمعدن القصدير، وكان استخراج معدن الحديد من المناجم من الأعمال التي كانت منتشرة في كل مكان تقريباً، وهذا استطاع أن يحصل الأندلسيون على معدن الذهب من رمال نهر لاردة، وكذلك من رمال شقورة، وكذلك من رمال نهر التاجة وكيف، وكانوا يستخرجون الفضة من مناجم مقاطعات مرسية وقرطبة وكذلك من توتاليكا بمقاطعة باجة<sup>(٢)</sup> كذلك كانت أهم مناجم الزنك موجودة في مكان يبعد عن شمال قرطبة بمسافة ١٢٥ كيلوا متراً كما كان موجوداً بمنطقة فحص البلوط ومنطقة أبلا<sup>(٣)</sup>.

كذلك كان الأندلسيون يستخرجون النحاس من مناجم في شمال شرق دانيا، وكان إقليم بنلونة يستخرج منه الشبة، وسلفات الحديد، كما كان يستخرج الملح المعدني من سرقسطة، والطفل من مكان بالقرب من طليطلة، والكحل من مقاطعة طرطوشة وبسطة. كذلك كانت الأندلس غنية بالأحجار الكريمة حيث كان يستخرج البلور واللازورد من لورقا والياقوت من مالقة، أما الياقوت الأحمر اللون فكان يستخرج من المرية، كما كانت تستخرج أحجار المغناطيس من مرسية، كذلك كانت أحجار العقيق الأحمر والأصفر تستخرج من مقاطعة غرناطة أما المرمر الأبيض فكان يستخرج من مارسيل بمقاطعة المرية. أما معدن الحديد الذي كان أكثر المعادن استخداماً فقد كان يستخرج من جزيرة شلطيش المقابلة لمدينة والية<sup>(٤)</sup>.

(١) دكتور عطية القومني : الحضارة الإسلامية ص ١١٣.

Levi-provincial : Historie, p. 1 (٢)

I hid. pp. 177-178 (٣)

(٤) الإدريسي وصف المغرب ص ١٧٨.

ويرجع الفضل في إقامة الصناعات المعدنية في الأندلس إلى الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط حيث أنشأ عدداً من دور الصناعة لبناء السفن في أشبيلية<sup>(١)</sup> وقرطبة وقرمونة<sup>(٢)</sup> وجزيرة شلطيش<sup>(٣)</sup> وفي عصر عبد الرحمن أنشئت دور للصناعة في كثير من مدن الأندلس مثل المرية<sup>(٤)</sup> وطرطوشة والجزيرة<sup>(٥)</sup>، ولقنت<sup>(٦)</sup> وقصر أبي دانس ودانية<sup>(٧)</sup> والزهراء<sup>(٨)</sup> وشترورية بالبرتغال<sup>(٩)</sup>.

ولبعد دار صناعة السفن بقرطبة عن الساحل تحولت بعد سنوات قليلة إلى دار لصناعة التحف المعدنية والآلات، فقد أمر عبد الرحمن الناصر بصناعة اثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر التفيس في دار الصناعة بقرطبة. وذلك لكي تنصب حول الحوض الرخامي الذي استحضره من القسطنطينية<sup>(١٠)</sup>.

ثم أنشأ عبد الرحمن الناصر داراً ثانية لصناعة الأسلحة والحلوي والتحف المعدنية بمدينة الزهراء<sup>(١١)</sup>.

ولقد كان لكثرة المعارك الحربية التي خاضها ولاة الأمر من المرابطين واحتياجهم المستمر للسلاح وجود قسط من الثروة المعدنية في المغرب مثل معادن الحديد الموجودة بين سلا ومراكش، ومعادن الفضة قرب مكناس وفي السوس حيث النحاس والتوكينا التي يصبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر<sup>(١٢)</sup>. إنهم حاولوا استغلال الخبرات الأندلسية في صناعة الأسلحة التي اقتبسوها من الأندلس، ولم تكن معروفة

(١) ابن القوطي: تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٧.

(٢) الحميري: صفة جزيرة ص ١٥٩.

(٣) الإدريسي: وصف المغرب: ص ١٧٩.

(٤) ابن غالب: قطعة من كتب فرحة الأنفس.

(٥) الإدريسي: ص ١٩٠، والحميري: ص ١٢٤.

(٦) الإدريسي: ١٩٢.

(٧) نفس المصدر ص ١٩٢ والحميري ص ٧٦.

(٨) المقرى: ج ٢ ص ١١٢.

(٩) الحميري: ص ٧٦.

(١٠) د. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة ج ٢ ص ١٣٠.

(١١) المقرى: نفح الطيب ج ٢ ص ١١٢.

(١٢) عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر العمارنة قسم ٢ ص ٢٥.

في المغرب من قبل، مثل صناعة السهام والرماح والخوذات وصناعة السفن الحربية وغيرها<sup>(١)</sup>، وقد تقدم المغرب في هذا حتى أن الخليفة عبد المؤمن حين جهز جيشه سنة ١١٦١ م لغزو الأندلس كانت مصانع السلاح تنتج له يومياً عشرة قناتير من السهام<sup>(٢)</sup> بخلاف الأسلحة الأخرى من سيوف وقسي ورماح، وخوذات وغيرها، وهذا يشير إلى كثرة العمال الذين قاموا بهذا العمل<sup>(٣)</sup>.

وفي عهد المنصور ، والناصر المودعين أحصى في فاس وحدها اثنى عشر معملاً لتسبيك الحديد والنحاس<sup>(٤)</sup>.

كما انتقل إلى المغرب تصنيع أواني النحاس المنحوتة والمرصعة والتي اشتهرت بها مدينة سبتة<sup>(٥)</sup>.

#### المصنوعات الخشبية :

كانت صناعة الخشب مزدهرة على الدوام عند المسلمين ومما يثير الدهشة لدى الرجل الأوروبي حين يزور الشرق، المشربيات المصنوعة من الخشب المفرغ والتي تكسو التوافذ. وهناك أيضاً عدد كبير من العرائس من الخشب المنقوش حول الشرفات والاروقة. وفي المساجد والمحاريب، والمنابير، ودكة القراء، كلها مصنوعة من خشب جميل قوي محفور بشكل يثير العجب. وتزين معلقات متقدمة الصنع المساكن الخاصة، والسلام والحواف، والتواذ والأبواب. وتصنف كذلك المقاعد، والأرائك، والمكاتب، والمواند والنضد المستديرة والعلب المزينة بصفائح رقيقة متنوعة من الصدف أو المرمر أو الخشب الثمين، أو بتقوش من الودع على شكل سكين مقلن، من خشب مزخرف. والخشب مهم جداً من أجل الصناعة والبناء والتدفئة.

ولكنــ كما يقول جويتيه(FUTIER)، وبما كان هذا القول مبالغة فيه، «قد لا

(١) دكتور محمد عادل عبد العزيز: توحيد المغرب والأندلس وأثره الحضاري، عصر المرابطين والموحدين. الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م من ص ٧٧ - ٨٩.

(٢) ابن أبي زرع: الأنليس المطرب ج ٢ من ١٦٥، السلاوي: الاستقصاء ج ٢ من ١٤٣.

(٣) د. على حسن على: الحضارة الإسلامية ص ٣٤٩.

(٤) عبد العزيز بن عبد الله: ظاهر الحضارة قسم ٢ من ٢٤.

(٥) المرجع السابق: من ٨٢.

يوجد في الجزيرة العربية خشب يكفي لصناعة عود ثقاب « فالشرق الأدنى كله مشترك تقريباً في ندرة الخشب اشتراكاً على أجمل وجه، باستثناء لبنان الذي كانت أخشاب أرزه تستخدم من قبل في بناء الأسطول الفينيقي، ثم الأسطول الإسلامي، وباستثناء أرمينية التي كانت تمتد بلاد ما بين النهرين بخشب الوقود. وكانت بقية أخشاب غابات أرمينية تقطع من أجل احتياجات الصناعة، إذن فقد كانت الأخشاب المستخدمة في الصناعات مستوردة. وكانت جميع مساكن الخليج العربي، ومساكن بلاد ما بين النهرين، والجزيرة العربية تستخدم في هيكلها الخشبية. وفي أثاثها خشب الهندي، والملايو، وإفريقيا. وتجلب هذه المواد بالسفن أو بوساطة ناقلات بحرية مصنوعة من جذوع الأشجار مرتبطة بعضها ببعض بسلسل حديدية.

هذا هو السبب الذي من أجله كان فن صناعة الخشب منتشرًا دائمًا في البلاد الإسلامية. وكان الصناع من المهارة على الغاية، وكانت التحف الخشبية المقطوعة قطعًا فنيًا أحياناً في نقش حقيقى أو المنسقة بإحكام تشهد ببراعتهم. وكانت الزخرفة تتربّك من نقوش ومن قطع من الخشب الثمين تطعم بها الأخشاب العاردية: مثال خشب الأبنوس، والخشب البنفسجي اللون، والخشب الوردي أو قطع من اللؤلؤ، ومن العاج، ومن المعدن. وكانت قطع الشطرنج تحتوى على ألوان فنية رائعة<sup>(١)</sup>.

أما من الجناح المغربي فقد حظيت قرطبة بشهرة كبيرة بالمصنوعات الخشبية، وذاعت شهرتها بالذات في صناعة المتابير، فيذكر ابن غالب أن منبر جامع قرطبة كان من الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعود والرطب والمرجان، وأوصاله وحشواته من الفضة المثبتة والمبنية<sup>(٢)</sup> كما كان مرصعاً بالفضة وببعض حشواته ببنفيس الأحجار<sup>(٣)</sup> وقد كرر الحميري هذا القول وأكّد أن عدد حشواته ٣٦ ألف حشوة سمرت بمسامير الذهب والفضة، ورصعت ببنفيس الأحجار<sup>(٤)</sup> أما مقصورة الجامع فقد نصبت فيها ثلاثة أبواب بدعة الصنعة، عجيبة النّقش<sup>(٥)</sup>. لذلك فقد اعتمدت العدوة المغربية -

(١) جاك. س. رسيلر: الحضارة العربية من ١١٩٠ - ١٢٠٠.

(٢) ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس من ٢٨.

(٣) المقرى: نفح الطيب ج ٢ ص ٨٩.

(٤) الحميري: ص ١٠٥.

(٥) المقرى: المصدر السابق ج ٢ ص ٨٨.

على ما يبدو-على الأندلس في صناعة المنابر لمساجدها الجامعة منذ وقت مبكر. فنرى أن المنصور محمد بن أبي عامر يأمر بصنع منبر لجامع الأندلسيين بفاس سنة ٩٨٥هـ/١٣٧٥ مـ على أيدى صانع من قرطبة<sup>(١)</sup> كما يأمر أيضاً المظفر بن عبد الملك في عام ٩٩٥هـ بصنع منبر لجامع القرويين بفاس<sup>(٢)</sup>. وينذكر صاحب الحل الموشية أن عبد المؤمن بن على نقل إلى جامع الكتيبين متيراً عظيماً كان قد صنعه بالأندلس في غاية الابتقان قطعه عود وصنل أحمر وأصفر مفانحة من الذهب والفضة وأقام للمسجد مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع، تسع أكثر من ألف رجل، وكان الذي تولى صنع المقصورة والمنبر الحاج يعيش المالقى<sup>(٣)</sup> ويبدو أن هذا المنبر صنع على غرار منبر جامع قرطبة من حيث طريقة الصناعة ومن حيث الشكل، فقد جعل لمنبر الكتيبين بيت يحفظ فيه، وكان يخرج على عجل أيام الجمع<sup>(٤)</sup> ونستدل على أنـ هذا المنبر قد صنع بقرطبة من نقش كتابي يتضمن هذا المعنى، نقرأ فيه أنه صنع (بمدينة قرطبة حرسها الله)<sup>(٥)</sup>.

#### صناعة الورق :

عندما فتح المسلمون سمرقند في سنة ٧١٢م، أذاعوا فيها طريقة تعطين الكتان وتشكيل عجينة منه تنتهي إلى أوراق رقيقة جداً، وهذه العجينة تستطيع أن تحل محل الورق الأبيض الأملس والورق اللذين كانا نادري الوجود وأثمنهما غالباً. وكان هذا الورق «البابيروس» يذكروا بالورق البردي، وسرعان ما استبعد الكتان وحل محله القطن لأنـه أقل تكلفة ومنتشر جداً في الشرق. وقد خلق الوزير الفضل البرمكي الصناعة الأولى للورق في بغداد في سنة ١٧٩٤. وهذه الصناعة التي كانت من أصل صيني انتشرت بسرعة لمواجهة الاستهلاك المتزايد جداً بسبب المترجمات كما أنـ الشفـ

Terrace: La mosquée des andalous à Fès, publications de l' Institut des Hautes Marocaines t. 38, paris, p.38.

(١) د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة جـ ١٤٧٢.

(٢)الجزناء: زهرة الأنس في بناء مدينة فاس (فاس ١٩٢٢) ص ٤٢، ٤١.

(٤) ابن الخطيب: الحل الموشية ط تونس ١٣٢٩ مـ ص ١٠٨.

(٥) نفس المصدر ص ١٠٩.

(٦) د. محمد عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس (بيروت ١٩٧٢) ص ١٥٩.

العام بالكتب كان يستلزم الإكثار على نطاق واسع من صناعة الورق. وقد انتشر الورق بسرعة في جميع البلاد الإسلامية حتى بلغ إسبانيا، وقد اقتضى مع ذلك أكثر من ثلاثة قرون لكي ينتقل إلى أوروبا. وظلت سمرقند وقتا طويلا المدينة المهمة للورق الجيد. وكانت القوافل تحمل من الصين إلى سمرقند الورق الذي يقال عنه ورق الحرير، ومن الصين تأتي جلد الكراسات، وكانت أحجام أوراق الكتب كذلك التي تستخدم اليوم. مثل القطع على النصف والقطع على الربع أو البغدادي والقطع على الثمن أو الثلث، ولم يكن معروفا لدى العصور القديمة غير دروج الرق.

وتحتفظ المكتبة القومية في باريس بنصوص مطبوعة بواسطة المانويين في هذان قبل مطبعة جيتنبرج بستمائة عام. وعن طريق تركستان أدخل المفول في فارس في القرن الثالث عشر أوراقا خاصة خلية بأن تطبع بمساعدة حروف متحركة من البرنز. وهذه كانت أول أوراق نقدية. وقد أدى سوء استخدام هذه الأوراق النقدية إلى اختفائها واختفاء طريقة الطبع في وقت واحد. لكن أهالي جنوا كانوا قد اطّلعوا على طريقتها الخفية المزدوجة وحملوها إلى أوروبا.

وفي الجناح المغربي عرفت الأندلس في عهد الخليفة كصناعة الكاغد (الورق السميك المستخدم في المخطوطات القديمة) ولا يزال بعض نماذج هذه الصناعة محفوظا بها في مراكش، والتي تعرف باسم SATBI نسبة إلى مدينة شاطبة التي اشتهرت بصناعة هذا النوع من الورق ومنها انتشرت في الأندلس والمغرب<sup>(١)</sup>.

ولقد انتقلت صناعة الورق المستخرج من القطن والحرير إلى الأندلس عن طريق اليمن منذ القرن الرابع الهجري، وارتبط بذلك الصناعة صناعة التسفيير أو التجليد التي ازدهرت في قرطبة حتى تحولت من مجرد كسوة الكتاب إلى زخرفته وتزييقه وتلوينه وتذهيبه، وقد اهتم المسلمون في المغرب والأندلس بهذه الصناعة اهتماما كبيرا حتى بلغت غاية الكمال، ووضعت الكتب التي تصف هذه الصنعة وتتحدث عنها مثل كتاب (التسهير في صناعة التسفيير)<sup>(٢)</sup>، وقد قسم الكتاب إلى عشرين بابا كلها في

(١) جاك. س. ريسلي: *الحضارة العربية من ١٢٠٠، ١٢١٠*

(٢) مخطوط في مكتبة تطوان يقع في ١٤ ورقة.

أسلوب التسفيين، فالباب الأول في الأداة (٢) باب الأغنية (٣) التخريم وحكمة (٤) باب التقافية (٥) باب التسوية (٦) باب الحبك (٧) باب التبطين (٨) باب البشر (٩) باب تركيب الجلد (١٠) باب العمل في الأسفار البوالى (١١) باب طبخ البقم (١٢) باب النقوش (١٣) باب نقش الضرس (١٤) باب الأمثلة (١٥) باب العمل في الأزرة الغرا (١٦) باب العمل في أقرية المصاحف (١٧) باب العمل في الأقرية المهنية (١٨) باب العمل في الجامع (١٩) باب في النكت (٢٠) باب في العيوب .



## الفصل السادس

### الحضارة الإسلامية وتربيّة العلاقات

- \* السلام أساس العلاقات.
- \* تبادل المنافع بين الناس.
- \* القتال منهج وليس ضرورة.
- \* تفسير حركة الفتوح الإسلامية.



## السلام أساس العلاقات

تنتج شريعة الله بالإنسان دائماً إلى تحقيق الوئام والانسجام مع هذا الوجود، ليكون في مقام محمود من الإنسانية وليحظى بالحياة المطمئنة الطيبة، في الدنيا، والسعادة والنعيم في الآخرة.

ولكي يتحقق للإنسان هذا الوئام وهذا الانسجام مع هذا الوجود لابد أن يكون السلام أساس جميع علائق الإنسان بهذا الوجود.

فالسلام في دين الله اسم من أسماء الله الحسنى : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُوسُ السَّلَامُ﴾ طبيعى أن ينبع عن إسلام الوجه لله تبادل السلام بين العبد وربه ليكون أساس صلة تلك العلاقة ﴿بَلِّى مِنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ إِنَّ رَبَّهُ﴾.

والسلام في شريعة الله هو أساس الصلة بين الإنسان ونفسه التي بين جنبيه، لكي يحيا الإنسان معافي من أي علل نفسية، فتأتي التعاليم السماوية لتسد كل السبل التي قد تتسرب منها تلك العلل، سواء كانت ظاهرية، أم باطنية، والتي تجلب للإنسان المعاناة فيأتي الأمر الإلهي : ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبِاطِنَهُ﴾.

والسلام هو أيضاً أساس الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان في شريعة الله، فالمؤمنون في القرآن الكريم إخوة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَوْهُ﴾ وميزان إيمان الشخص بمقدار الحب الذي يكتنفه لأخيه الإنسان طبقاً لما جاء في الحديث الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ثم بعد هذا يقف القرآن الكريم حائلاً أمام ما يعكر صفو هذا السلام، إذا ما أفلت الزمام وكانت العداوة والبغضاء، فيأتي النص القرآني: ﴿أَدْفِعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّمَا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِي حَمِيمٌ﴾ أي أدفع هذا الشر بما تطيب له النفس

الغاضبة حرصاً منك على أخيك الإنسان وحتى تتحول هذه العداوة إلى محبة بل ليصبح أكثر من هذا ﴿كأنه ولی حميم﴾.

وإذا كان هذا هو مفهوم الإسلام في علاقة الفرد بالفرد، فلا عجب أن يكون هذا مفهومه أيضاً في علاقة المجتمع بأي مجتمع آخر، فتأتي النصوص القرآنية: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾.

فإذا كان ذلك في حالة الوئام والوفاق بين المجتمع وغيره، فإنه أيضاً في حالة

العداء تأتي النصوص حريصة على حرمات المجتمع وكرامتها، فيقول تعالى: ﴿وَإِن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ وذلك رغم كل ما كان من العداوة والبغضاء، وويلات الحرب، وذلك أن القرآن الكريم يقرر صراحة أن الناس جميعاً أمة واحدة، وأن أي اختلاف بينهم فهو عارض، وأن من شأنه اختلاف الأهواء، فيقول تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنَّزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحُكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بِغَيْرِهِمْ﴾، وإذا كان الناس جميعاً أمة واحدة، فإنه من الطبيعي أن يكون الإسلام دعوة عالمية لجميع الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم، فيقول سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بِشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، لذلك فإن الدين الإسلامي يعتبر السلام هو الأصل في علاقة الأمم الإسلامية بغيرها من الأمم، والسدن التشريعي لذلك ما يلي:

١- كتب رسول الله - ﷺ - إلى رؤساء الدول الذين عاصروا الدعوة الإسلامية في حياة الرسول، فكلها كانت ت تعرض الدعوة، ثم تحمل رؤساء الدول مسؤولية إبلاغها للشعوب، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، ومن بين تلك الكتب، كتابه - ﷺ - إلى هرقل.

٢- البر والعدل في المعاملة، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ

لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروا وتقسروا إليهم إن الله يحب  
المقسطين <sup>(١)</sup>.

٣- المعاهدات بين الدول الإسلامية وغيرها عقود ملزمة، يجب احترامها  
والوفاء بالتزاماتها، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا الْعُهُودَ﴾<sup>(٢)</sup>. وقوله  
تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْنُوا﴾<sup>(٣)</sup>.

وخلال قيام عهد الحديبية الذي كان من بين نصوصه أن يرد الرسول إلى الطرف  
الآخر من جاء إليه - يعني الرسول - مسلماً. جاء أبو رافع معلناً إسلامه، فرده الرسول  
وقال: إني لا أخisis بالعهد، ولكن ارجع إليهم، فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع.

٤- المعاملة بالمثل. قال أبو يوسف. حدثنا عاصم بن سليمان عن الحسن قال:  
كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. أن تجاراً من قبلنا من  
المسلمين يأتون أهل الكتاب أرض الحرب. فيأخذون منهم العرش. قال: فكتب إليه عمر.  
خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، يعني خذ من تجارتكم مثل ما يأخذون  
من تجار المسلمين .

٥- تأمين السفراء والرسل. مهما كان لون السفارة وأمر الرسالة ففيما رواه عبد  
الله بن مسعود قال: جاء بن النواحة وابن أثال رسولاً مسليمة إلى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال  
لهمَا: أتتَهُدَانِي رَسُولُ اللَّهِ؟ قالا: نَشَهِدُ أَنَّ مُسْلِيْمَةَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمْنِتَ  
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَوْ كُنْتَ قَاتِلًا رَسُولًا لَقُتِلْتُكُمَا .

قال عبد الله: «فمضت السنة أن الرسل لا تقتل» وفي رواية أبي داود عن نعيم  
بن مسعود الأشعري قال: سمعت حين قرئ كتاب مسليمة الكذاب قال للرسولين: فما  
تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال. فقال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله  
لولا أن الرسل لا تقتل لضررت أنفاسكم».

٦- المحافظة على الرعایا الأجانب في الدولة الإسلامية. قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ

(١) سورة المتحنن، الآية ٨.

(٢) سورة المائدة، الآية ١.

(٣) سورة الأسراء، الآية ٣٤.

من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه **﴿فَقَالَ الْقَرْطَبِيُّ فِي**  
**مَعْنَى «اسْتَجَارَكَ» أَيْ سَأَلَ أَمَانَكَ وَذَمَّاكَ.**

**فَتَسْتَمِرُ الْمَحَافَظَةُ عَلَى الْأَجْنَبِيِّ حَتَّى يَغَادِرَ حَدُودَ الدُّولَةِ إِلَى مَكَانٍ يَأْمُنُ فِيهِ**  
**عَلَى نَفْسِهِ.**

هذه هي الأسس التي تقوم عليها العلاقات الدولية في نظام الإسلام، استناداً إلى  
مصادرها من كتاب الله وسنة رسوله، والتطبيقات العملية في عهد الخلافة الراشدة <sup>(١)</sup>.  
وبعد، فلا عجب أن يكون السلام هو شعار الأمة الإسلامية، وأن اسم الإسلام  
يشتق من السلام، وتحية المسلمين: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وختام  
صلاتهم -سلام عن اليمين وسلام عن الشمال، والليلة التي نزل فيها القرآن وصفها  
الله تعالى بأنها: **﴿سَلَامٌ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾**.

وكانت تحية الله لرسوله -**ﷺ**- عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج:  
«السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته »، وتحية الله لعباده يوم القيمة  
«تحيتم يوم يلقونه سلام»، وعندما يتجه أهل الجنة يقال لهم «ادخلوها بسلام» حتى  
الجنة اسمها دار السلام.

---

(١) دكتور يوسف عبد الهادي الشال: الإسلام وبناء المجتمع الفاضل من ٣١٩-٢٢٢

## تبادل المنافع بين الناس

الحضارة الإسلامية حضارة لها شخصيتها المستقلة والمتميزة، لأنها استمدت كافة مقوماتها من الدين الإسلامي، لكنها مع ذلك لم تكن يوماً حضارة جامدة لا تأخذ ولا تعطى. به على العكس تماماً من ذلك، حضارة مرنّة تأخذ وتعطى. ولذلك فقد لعب الإطار الجغرافي الذي امتدت إليه الخلافة الإسلامية دوراً مهماً في تشكيل الحضارة الإسلامية.

ومن الواضح أن هذا الإطار الجغرافي كان يشمل رقعة متعلقة من الأرض تمتد بصفة أساسية من الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً؛ وأن هذه الرقعة من الأرض ذات تضاريس وأجواء مختلفة مما يؤدي إلى تنوع شعوبها وحيوانها ونباتاتها ومنتجاتها، كما أنها بصفة عامة تتميز باعتدال مناخها، وقد هيأ ذلك كله للحضارة الإسلامية أن تنمو في بيئة غنية خصبة مكتفية بذاتها، كما مكنتها من الإفادة من الخبرات البشرية السابقة والمعاصرة، مما زودها بالحيوية وامكانيات الرقي والتطور. ذلك أن هذا الإطار الجغرافي كان مهد الديانات السماوية وموطن أقدم حضارات العالم، كما أنه في الوقت نفسه كان يقع بين الصين شرقاً وأوروبا غرباً، وكان ملتقى الطرق التجارية والتبارارات الثقافية، ومن ثم كانت الحضارات الإسلامية غير جامدة أو منعزلة، ودائمة الاحتكاك بالحضارات الأخرى في الشرق وفي الغرب، تتبادل معها المعرف والخبرات، على أنه يجب لا يفهم من هذا أن الحضارة الإسلامية كانت حضارة مهزوزة الشخصية، بل كانت حضارة في منتهى القوة والاستقلالية، بدليل أنها لم تأخذ من الحضارات التي افتحت عليها إلا ما يتوافق مع فلسفتها التي تنبئ من الدين الإسلامي، ونبنت كل ما عدا ذلك، هذا وقد كانت أهم التأثيرات الأجنبية في الحضارة الإسلامية هي كما يلى :-

- ١- تأثيرات هلينية، ودخلت الحضارة الإسلامية عن طريق مدارس الثقافة الهلينية في أنطاكية والإسكندرية ونيساپور وغيرها.
- ٢- تراث يهودي ومسحي مستمد من التوراة والإنجيل والساميات.
- ٣- تأثيرات فارسية في مجال الإدارة والحكم والفنون.
- ٤- نظم رومانية في شكل بيزنطي.
- ٥- خليط من الثقافة الهندية والصينية مثل الأرقام التي يقال إن العرب نقلوها عن الهند. وصناعة الورق التي يزعم أن العرب تعلموها من الصينيين<sup>(١)</sup>.

### حركة الترجمة:

اهتم العرب بترجمة ما لم يعرفوه من العلوم إلى لغتهم، وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من عنى بنقل علوم الكيمياء والطب. وفي العصر العباسي اهتم العرب بترجمة الكتب العلمية في شتى أنواع المعرفة إلى لغتهم.

وحالي سنة ١٥٤ هـ كلف الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور محمد إبراهيم الفرازقي بترجمة كتاب في الفلك من الهندية إلى العربية، وعندما مرض الخليفة بأمائه وعجز الأطباء عن علاجه استدعي جورجيس بن بختيصور النصراوي من مدينة جندىساپور إلى بغداد لعلاجه، فنجح في علاج الخليفة وكسّر ثقته وأقام ببغداد، وتوارث أبناؤه من بعده مهنة الطب، وظلوا يمارسونها في بلاط الخلفاء العباسيين نحو قرنين ونصف القرن من الزمان. وعنى أبو جعفر بترجمة كتب الطب، فكلف أبا يحيى بن البطريق بترجمة كتب جالينوس وأبقراط، ولكن هذه الترجمات لم تكن دقيقة فروجع أو أعيدت ترجمتها في عهد الرشيد وعهد المأمون. وفي عهد الرشيد نشطت حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية، ففي أثناء حروب الخليفة مع الدولة البيزنطية كان الخليفة يستولى على بعض المدن ويحمل ما بها من المخطوطات اليونانية وينقلها إلى بغداد. وكان معظم هذه المخطوطات عن علم الطب. ومن أشهر المترجمين في عهده يحيى بن ماسوية، وحنين بن إسحاق.

(١) الدكتور حسن الباشا : دراسات في الحضارة الإسلامية ص ١٢، ١٤.

ـ وقد ازدهرت الحياة العلمية في عهد المأمون، واتسع نطاق حركة الترجمة وأنفق الخليفةـ عن سعةـ على «دارالحكمة» التي خصص جناحا منها للمجمع العلمي، وأخر للجنة الترجمة وثالثاً للمكتبة.

و قبل عهد المأمون كانت الترجمة عملاً فردياً، ولكنها منذ عهده أصبحت من عمل لجنة تضم عدة أشخاص من كبار المترجمين مما جعلها أوسع دائرة وأكثر دقة مما عليه من قبل.

وكان النقل من اليونانية مقصوراً على الكتب العلمية في أول الأمر، لأن العرب كانوا يوثرن الآداب الفارسية وينقلون عليها أكثر من غيرها، وأول كتاب نقل من الفارسية إلى العربية هو «كتاب كليلة ودمنة» وهوـ في الأصلـ مجموعة قصص هندية كتبت باللغة السنسكريتية ثم نقلت إلى اللغة الفارسية في عهد كسرى أنوشروان في القرن السادس الميلادي ثم نقلها عبد الله بن المفعع في القرن الثاني الهجري «الثامن الميلادي» من الفارسية إلى العربية.

ولم يكن الاهتمام بالترجمة مقصوراً على الخلفاء بل شاركهم في ذلك جماعة من ذوي اليسار مثل البرامكة في عهد الرشيد، وأبناء المنجم في عهد المأمون الذين بلغ من شغفهم بترجمة كتب اليونان إلى اللغة العربية أن أرسلوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات.

وقد أقبل كثير من علماء المسلمين على دراسة ما نقل إلى العربية من الكتب، وتفسير ما غمض من عباراتها وتصحيح ما وجد فيها من أخطاء، وعلقوا عليها تعليقات دقيقة تشهد بذكائهم وقوتهم ملاحظتهم وسعة إدراكهم.

أما تأثيرات الحضارات الإسلامية في الحضارات الأجنبية فأكفي بأن أعرض جانب من المؤثرات في اللغات الأوروبية، وهي كافية للتدليل على قوة تأثير الحضارة الإسلامية، فمن المؤكد أن عدد الكلمات العربية التي تسربت إلى اللغات الأوروبية الحية في العصور الوسطى أكثر بكثير من عدد الكلمات من أصول أوروبية مما تسربت إلى اللغة العربية. ومن الكلمات العربية التي تسربت إلى اللغات الأوروبية والحياة في العصور الوسطى المستعملة في أمور التجارة والصناعة والزراعة أو ذات صلة بها

كلمة «ترجمان» في العربية هي في الانجليزية dragman وكلمة caramel في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «كالرماط» التي كانت تطلق على السكر المحروق. وكلمة castle في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «قصر». وكلمة masquerade في الانجليزية تعنى اللبس التنكري وهي مأخوذة عن الكلمة العربية «مسخة» بسبب الضحك الذي يتلو مشاهدة اللبس التنكري، وهي في الفرنسية masque وفي الأسبانية mascaré. وكلمة razzia في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «رزمة» وهي في الفرنسية rame و الكلمة rame في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «رزمة»، أي المصيبة التي تعقب الغزو أو تسببها الغارة وهي في الألمانية razzia وكلمة smavagdos refuser في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Refuser وكلمة emerald في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «زمرد» وهو حجر كريم أخضر اللون وهي في الفرنسية emeraud و في الفرنسية القديمة esmeralde وفي اللاتينية smaragdus وفي اللاتينية smaragdus وفي الألمانية smaragd و الكلمة theodolite في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية ثيودوليت وهي آلة استعملها العرب لقياس الزوايا الأفقية والعمودية، وكلمة canal في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة «قناة» في العربية وهي في اللاتينية canalis . وكلمة cabob في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة «كباب» في العربية أي اللحم المشوى. وكلمة calibre في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة قالب في العربية وتعني العيار أو القطر الداخلي لamasورة وهي في الفرنسية calibre وفي الإيطالية calibro . وكلمة calibre في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة guidem في الانجليزية مأخوذة عن كلمة قائد في العربية وهي في الفرنسية guider . وكلمة hazard في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية هززد وهي ضرب من لعب التردد يعتمد على الرمي الزهر وعلى الحظ أو المخاطرة، ويرجع أن تكون هذه الكلمة مأخوذة عن الكلمة هازارات وهو أحد القصور في سوريا حيث اكتشفت هذه اللعبة في عصر الحروب الصليبية. وكلمة hashish مأخوذة عن الكلمة العربية «حشيش» أي القنب الهندي وأوراقه سامة. وكلمة carat في الانجليزية مأخوذة عن الكلمة قيراط في العربية وتعني وحدة وزن للذهب والجحارة الكريمة وهي في الفرنسية qirat وفي

الألمانية karation . وكلمة cave في الأنجلو-أمريكية مأخوذة عن الكلمة «كهف» في العربية وهي في اللاتينية down في الإنجلو-أمريكية مأخوذة عن الكلمة دون في العربية أي الأسفل. وكلمة candle في الإنجلو-أمريكية مأخوذة عن الكلمة قنديل في العربية أي الشمعة المضيئة، وهي في اللاتينية mosque و الكلمة candela في الإنجلو-أمريكية مأخوذة عن الكلمة مسجد في العربية وهي في الفرنسية mezquita و الكلمة mimaret في الإنجلو-أمريكية مأخوذة عن الكلمة منارة في العربية و الكلمة muontuan في الإنجلو-أمريكية مأخوذة عن الكلمة المتن في العربية، وهي ما ارتفع عن الأرض. وكلمة mummy في الإنجلو-أمريكية مأخوذة عن الكلمة الموتى في العربية أي الجثة المحنطة وهي في الفرنسية والإنجليزية mummia . وكلمة simoom مأخوذة عن الكلمة العربية «سموم» وهي الريح الجافة المثقلة بالغاز التي تهب في شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية من قبل الصحراء. وكلمة typhoon في الإنجلو-أمريكية مأخوذة عن الكلمة طوفان في العربية وهو الأعصار الاستوائي في منطقة الفلبين أو بحر الصين، ويشبه الطوفان. وكلمة oyo في الإنجلو-أمريكية مأخوذة من الكلمة برakan في العربية وهو الجبل الذي يتفجر منه الدخان واللهم والحم البركانية وهي في الإيطالية volcano وفي اللاتينية Ivol أو vulcanus . وكلمة saracens في الإنجلو-أمريكية تعني المسلمين وكانت تطلق هذه الكلمة في العصور الوسطى على مسلمي شمال أفريقيا بشكل خاص، وهي مأخوذة عن الكلمة «شرقي» التي كانت تطلق على بعض أفراد قبائل الباربارية في شرق شبه الجزيرة العربية، ثم اتسع استعمالها فأخذت تطلق على المسلمين عامة. وكلمة sherry في الإنجلو-أمريكية هي تحريف لاسم مدينة شريش الأسبانية ثم أخذت تطلق على الخمر الأسباني المصنوع من شراب الشري والماء والسكر .

وهناك كلمات عربية مستعملة في الموسيقى انتقلت إلى اللغات الأوروبية الحية منها الكلمة bugle في الإنجلو-أمريكية مأخوذة عن الكلمة «بوق» في العربية وهي في الفرنسية tambour . وكلمة busulus في الإنجلو-أمريكية مأخوذة عن الكلمة «طبل» في العربية، أي الدف الصغير، وهي في الإنكليزية أيضا tambourine . وكلمة fafane في الإنجلو-أمريكية مأخوذة عن الكلمة العربية «فرفر» أي الخضر في البوق، وهي في

الفرنسية FarFane و الكلمة violin ندين guitar و الكلمة cithara في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية قيثارة وهي في الفرنسية guitare و في اللاتينية cithara و في الألمانية Quitarra, Kithare الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة «رباب» في العربية وهي في الفرنسية rabela. و الكلمة «العود» في العربية هي في الإنجليزية lute و في الفرنسية luth و في الإيطالية luit و في الألمانية laute. و من الكلمات العربية المستعملة في الرياضيات والعلوم والكيمياء والصيدلة والفلك والتي تسربت إلى اللغات الأوروبية الحية كلمة algebra في الإنجليزية وهي مأخوذة عن الكلمة «جبر» في العربية التي تعني نقل الكميات السالبة إلى الطرف الآخر من المعادلة. و الكلمة algorism منسوبة إلى العالم العربي والرياضي والفلكي الشهير محمد بن موسى الخوارزمي الذي عاش في القرن التاسع للميلاد. و الكلمة algorithm و الكلمة cipher أصبحت تعني نظام العد العربي أو العشري. و الكلمة cipher في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة «صفر» في العربية وهي في الفرنسية القديمة chiffre. و الكلمة alkali في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة القلي «القلبي» في العربية أي المادة القلوية في الكيمياء التي تتحدد مع الحامض فتعادله ويصبح لا حامضا ولا قاعديا وهي في اللاتينية alkalis و في الألمانية alkali, alka. و الكلمة alchemy أو alchymy في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة العربية الخيمياء والكيمياء القديمة وغايتها تحليل عام للمواد واكتشاف حجر الفلسفة الذي يشفى من جميع الأمراض ويطيل الحياة إلى الأبد ويهول المعادن الخيسية إلى ذهب. و الكلمة elixir في الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة إكسير العربية أي حجر الفلسفة أو المادة التي زعموا أنها تطيل الحياة. و الكلمة Balsam في الإنكليزية مأخوذة عن الكلمة العربية «بلسم» وهي مادة زيتية راتنجية عطري الرائحة شاف ومسكن وهي في اللاتينية balsamum و في الألمانية balsamon. و الكلمة samum في الأنكليزية مأخوذة عن الكلمة أنتيمون «أنتيمون» في العربية وهي معدن لمعان سهل الانسحاب أزرق اللون مع ميل للابيضاض. و الكلمة niter أو nitre في الإنكليزية مأخوذة عن الكلمة «النترون» في العربية أو ملح البارود أو نترات الصوديوم أو البوتاسيوم وهي في الفرنسية واللاتينية nitrum و في الألمانية nitron و الكلمة naphtha في الإنكليزية مأخوذة عن الكلمة «النفط» naft. و الكلمة talc في الإنكليزية في العربية، وهي في الألمانية واللاتينية وال العربية.

مأخوذة عن الكلمة «طلق» في العربية وهو حجر الطلق أو المعدن الطري الذي يستعمل في تجميل الوجه، ومنها اشتقت الكلمة *talcum* أي مسحوق الطلق.

وكلمة *ralphard* أي الفرد في العربية وهو نجم ثابت من الحجم الثاني. وكلمة *ayz* أي الفرس في العربية وهو نجم ثابت من الحجم الأول. وكلمة *algenib* أي الجانب في العربية وهو نجم ثابت من الحجم الثاني. وكلمة *alcaid* أي القائد في العربية وهو النجم الأول من نبات نعش الصغرى. وكلمة *taurus* أي الثور في العربية. وكلمة *tbenet* أي بنات نعش في العربية.

وهنالك أسماء عربية أخرى كثيرة للنجوم وردت في اللغة الألمانية ورد ذكرها في مؤلف سيرجرد هونك، غير أنني لم أجد ما يقابلها في الإنكليزية منها أي *chemaili* الأكليل الشمالي و *albajoth* أي البعث و *alchbor* و *alchbor* و *algedi* و *algo* أي الجدي و *meiza* أي الغميساء و *algorab* أي الغراب و *alkor* أي القر و *alpha* و *theta* و *beta* و *gamma* أي الفتى و *did* أي الردف و *ayuk* أي الشارع و *acheree* أي العيوق و *baten* و *kaitos* و *kalbelzguar* و *foracding* و *kalbehasit* و *kalbolacrab* أي قلب الأسد و *kalbelzguar* أي الكلب الأزور و *kalbolacrab* أي قلب العقرب<sup>(١)</sup>.

وهكذا كانت الحضارة الإسلامية حضارة مرنة، قادرة على التبادل الحضاري فأثرت وتأثرت، وتبادلت المنافع ليعم الخير الجميع.

(١) ميخائيل جيميان : المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية من خلال الحروب الصليبية. الطبعة الأولى ١٩٨٣. المطبعة الاقتصادية - عمان - الأردن - ص ٢١٩ وما بعدها.

## تفسير حركة الفتوح الإسلامية

تبينت آراء الباحثين حول حركة الفتوح الإسلامية، ويمكن حصر تلك الآراء في مجموعتين: المجموعة الأولى يدور رأي فريقها في أن حركة الفتوح الإسلامية كانت اندفاعاً دينياً استهدفت نشر الإسلام بحد السيف. أما المجموعة الثانية، فيدور رأي فريقها في أن حركة الفتوح الإسلامية كانت بداعي اقتصادي بحث استهدف الاستيلاء على خيرات تلك البلاد المفتوحة.

والواقع أن رأي كل من الفريقين مردود عليه: فإذا كان القتال في الإسلام استهدف نشر الإسلام بحد السيف، فلماذا قبل المسلمين الجزية من لم يرضوا بالإسلام ديناً؟

وإذا كان القتال في الإسلام كان طمعاً في خيرات البلاد المفتوحة فلماذا عاش الصحابة حياة الفقراء؟

الأمر الذي يجعلنا نحن المسلمين أخرج ما نكون إلى تفسير علمي لحركة الفتوح الإسلامية لعلنا نستطيع أن نصحح فهما خاطئنا وقع فيه كثيرون حتى من المسلمين أنفسهم ردوده في الكتب الدراسية.

## القتال منهج وليس ضرورة

قلنا إن السلام هو الأصل في العلاقات بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم التي تختلفها في العقيدة، ومن المؤكد أن القتال كان محظوراً على المسلمين قبل الهجرة، وفي أول مقدم الرسول - ﷺ - إلى المدينة كان تشريع القتال، وجمهور الفقهاء يرى أنه يحرم حمل الكفار على الإيمان بحد السيف، ويستدلون على هذا الحكم من القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشُدُ مِنَ الْغَيْرِ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿أَفَأَنْتَ تَكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿فَإِنَّمَا اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ الْسَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾<sup>(٣)</sup>.

كما ثبت بالنص والإجماع أن أهل الكتاب إذا أدوا الجزية حرم قتالهم، وكذلك المجروس مع أنهم ليسوا أهل كتاب.

ويستدل جمهور الفقهاء على الحكم السابق من السنة بأنه - ﷺ - كان يدعو مسالماً والمشركون يذلونه. وقد اعتدوا على أصحابه وكان يدعو بالمعونة الحسنة حتى أرادوا أن يوقفوا الدعوة الإسلامية نهائياً بالتأمر على قتل النبي فخرج - ﷺ - مهاجراً إلى المدينة، حتى بعد أن كتب الله على المؤمنين القتال. لم يجرد الرسول - ﷺ - حملة عسكرية واحدة هدفها حمل الكفار على الإيمان بالله تعالى بحد السيف. بل كانت كل الحملات العسكرية حتى وفاته - ﷺ - ردًا لعدوان المشركين، ورغم أن الكعبة كانت قبلة المسلمين فإن فتح مكة لم يكن إلا بسبب نقض قريش لصلح الحديبية.

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٢) سورة يونس، الآية ٩٩.

(٣) سورة النساء، الآية ٩٠.

وأما قوله - ﴿أَمْرَتْ أَنْ أَقْاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشَهُدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فإن كل العلماء متفقون على أن المراد بالناس في هذا النص مشركي العرب خاصة، وغيرهم من أهل الكتاب ومشاركي غير العرب حكمهم يخالف أولئك الذين قيل في حقهم هذا الحديث، ذلك لأن قتال مشركي العرب كان لدفع شرهم الذي بدأ في توالي المؤامرات، ومداومة الكيد للدعوة، ومحاولات تحطيم القوة الإسلامية والقضاء عليها، فقتال هؤلاء لدفع الشر لا للدعوة.

ونجد ما يؤكد ذلك فيما كان من أحد رؤساء الدول الذين كاتبهم الرسول - ﴿أَمْرَتْ أَنْ أَقْاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشَهُدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ - وحملهم مسؤولية إبلاغ الدعوة لشعوبهم، وهو كسرى الذي مزق كتاب الرسول، بل بعث على من يقبض على رسول الله، وكان المسلمين آنذاك على مستوى من القوة يتبع لهم التصرف العسكري، ومع ذلك لم يكن من الرسول الكريم سوى التمسك بالمسالمة، وأداء واجب البلاغ، فلم يجاوز ذلك. وقد كانت له مندوحة في المجاوزة بيد أنه لم يفعل.<sup>(١)</sup> أما البعض على قتال الكفار عند جمهور الفقهاء فهو دفع عدوائهم وقمع الفتنة. ويستدلون على هذا الحكم من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَاتَلُوكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْاتِلُوكُمْ وَلَا تَعْتَدُوكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى: ﴿وَقَاتَلُوكُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونُ فَتْنَةٌ وَيَكُونُ الدِّينُ لَكُمْ فَإِنْ انتَهُوا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال: ﴿وَقَاتَلُوكُمْ الْمُشْرِكُونَ كَافَةٌ كَمَا يَقْاتِلُوكُمْ كَافَةٌ﴾<sup>(٤)</sup>.  
 ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾<sup>(٥)</sup>.  
 وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوكُمْ بِمِثْلِ مَا عَوَقْبَتُمْ بِهِ وَلَنْ يُصْبِرُوكُمْ لَهُ خَيْرُ الْمُصَابِرِ﴾<sup>(٦)</sup>، وفي فصل من رسالة ابن تيمية عن القتال بحث فيه البعض على القتال، فهو اعتداء الكفار على الإسلام ورد عدوائهم؟ أم البعض على قتال الكفار

(١) دكتور يوسف عبد الهادي الشال: الإسلام وبناء المجتمع الفاضل من ٣٢٥-٣٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٩٠.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٩٣.

(٤) سورة التوبه، الآية ٣٦.

(٥) سورة البقرة، الآية ١٩٤.

(٦) سورة النحل، الآية ١٢٦.

كفرهم؟ ذكر ابن تيمية أنه ذهب قلة من الشافعية إلى أن الباعث على قتال الكفار هو كفرهم والتمكين للدعوة إلى الإسلام حتى تكون كلمة الله هي العليا. لكن ابن تيمية يعيل إلى رأي المحققين من فقهاء المالكية والحنابلة والأنناف الذين اتفقوا على أن الباعث على القتال هو الاعتداء وليس الكفر<sup>(١)</sup>.

ونخلص من هذا كله إلى أن القتال في التشريع الإسلامي منهج وليس ضرورة، إنما هو منهج يستخدم عند الضرورة التي تجعله وحده هو الوسيلة لإقرار السلام. ويمكن حصر بواعث القتال فيما يلي:

- ١- يستخدم القتال رداً للعدوان مثل ما حدث في غزوة بدر، وأحد والخندق.
- ٢- يستخدم القتال دفاعاً للهجوم متوقع يعده الأعداء وذلك مثلما حدث في غزوة المصط乐园، غزوة حنين وحصار الطائف.
- ٣- يستخدم القتال ضد من ينقض المعاهدات مثل ما حدث مع بني قينقاع، وبني النضير وبني قريظة، وفتح مكة .
- ٤- يستخدم القتال لتأمين المسلمين إذا تعرض لهم من يقتنهم عن دينهم .

#### القتال في واقع التاريخ:

كان من أهم ما ترتب عليه صلح الحديبية في العام السادس من الهجرة أن أصبح رسول الله - ﷺ - شخصية اعتبارية في جزيرة العرب، كما أتاحت تلك المعاهدة بأن يصطبغ مجتمع المسلمين في يثرب بالصبغة الرسمية. لذلك رأى الرسول - ﷺ - أنه قد حان الوقت ليخرج بالدعوة الإسلامية خارج الحجاز تحقيقاً لمبدأ عالمية الدعوة الإسلامية.

#### (أ) كتب الرسول إلى أمراء العرب :

كان من بين أمراء العرب الذين أرسل إليهم الرسول كتاباً يدعوهم فيها إلى الإسلام، المنذر بن ساوي أمير البحرين، فقد بعث إليه الرسول كتاباً مع العلاء بن الحضرمي، فكتب إليه المنذر بإسلامه وقال: فإنني قرأت كتابك على أهل البحرين.

(١) الدكتورة: نادية حسني صقر: فلسفة الحرب في الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص ٩٥.

فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي يهود ومجوس، فأحدث إلى في ذلك أمرك. فكتب إليه رسول الله «بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد إلى المنذر بن ساوي، سلام عليك، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، أما بعد فإنني أذكرك الله عز وجل فإن من ينصح فإنما ينصح نفسه، وإن من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثروا عليك خيراً، وإنني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلمو عليه. وغفوت عن أهل الذنب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن تعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية<sup>(١)</sup>

وكتب الرسول إلى أميري عمان: جيفر وعباد ابني الجلندي-وهما من الأزرد- كتاباً بعثه مع عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان<sup>(٢)</sup>. وجاء فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى جيفر وعباد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلماً تسلماً، فإنني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررت بالإسلام وليتكم وإن أبيتما أن تقرأوا بالإسلام فإن ملككم زائل عنكم وخيلي تحل باحتكم وتطهر نبوتي على ملككم<sup>(٣)</sup> فأجابا إلى الإسلام وصدقوا بالنبي<sup>(٤)</sup>.

وبيعث الرسول سليمان بن عمر العماري إلى هودة بن على الحفني وإلى ثامة بن أثال أميري اليمامة يدعوهما إلى الإسلام، فلم يجيئا دعوته<sup>(٥)</sup>.

وكتب الرسول إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق كتاباً بعثه مع شجاع بن وهب<sup>(٦)</sup>، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث ابن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وأمن بالله وصدق، وإن أدعوك إلى أن تؤمن

(١) النبهاني: الأنوار الحمدية من المawahب اللدنية ص ١٦٩ - ١٩٠.

(٢) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير ج ٢ ص ٢٧.

(٣) النبهاني: المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٤) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٧.

(٥) ابن هشام: ج ٤ ص ٢٨٩، ابن سعد ج ٢ ص ٢٩.

(٦) الطبرى: ج ٢ ص ٢٩٤.

بالله وحده، لا شريك له يبقى لك ملكك. فلما أتاه الكتاب، قال: من ينزع مني ملكي، أنا سائر إليه «أي مهاريه» ولم يسلم. فقال الرسول: باد وباد ملكه.

كذلك بعث الرسول الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى صاحب بصرى، فلما نزل موتة<sup>(١)</sup> اعترضه شرحبيل بن عمرو الفسانى وقتلته<sup>(٢)</sup>.

وكذلك حينما أرسل الرسول -عليه السلام- وفدا إلى ذات الطلع -على مقربة من الشام- ليدعوهم إلى الإسلام وكان عدتهم خمسة عشر رجلاً، قتلواهم جميعاً إلا رئيسيهم وقد أبقوا عليه عمداً ليخبر رسول الله بما رأه عند عودته إليه.

وكتب الرسول إلى بعض أمراء اليمن، منهم الحارث بن عبد كلال الحميري وشريح بن عبد كلال ونعميم بن عبد كلال. ونعمان قيل ذي يزن ومعافر وهمان، وزرعة ذي رعين يدعوهم إلى الإسلام، وأمرهم أن يزدوا الصدقة والجزية لمعاذ بن جبل ومالك بن مرارة وأوصاهم بهما خيراً، فبعث إليه مالك بن مرارة يخبره إسلامهم ودخولهم طاعته<sup>(٣)</sup>.

#### (ب) كتب الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المعاصرة:

كذلك وجه الرسول إلى ملوك وأمراء الدول المجاورة لجزيرة العرب كتباً موزعها الترغيب في الدخول في الدين الإسلامي، ولم يطلب منهم الخضوع لسلطانه. فأوفد عمرو بن أمية الضمري إلى نجاشي الحبشة، وبعث معه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام. فكتب إليه النجاشي رسالة يخبره فيها بقبوله دعوته وتصديقه إياها<sup>(٤)</sup>.

أما هرقل قيصر الروم ، فبعث إليه الرسول كتاباً مع دحية بن خليفة الكلبي، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يوتک الله أجرك مرتين، فإن أبىت فإن عليك أتم الأربىيين»<sup>(٥)</sup>. وبما أهل الكتاب تعالىوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضاً بعضاً أرباباً من دون الله

(١) موتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، يالقوت: مجمع المدائن ج ٨ من ١٩٠.

(٢) النبهانى، الأنوار المحمدية من المواهب المدنية ص ١٠٣، المقرىزى، إمتناع الاسماع ج ١ من ٣٤٥.

(٣) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير ج ٢ من ٢٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٥) أى فإن عليك مع إتم الاتباع والأرس الفلاح.

فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون<sup>(١)</sup> فقبل هرقل كتاب الرسول وكتب إليه .. إلى  
أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم، إنه جاءني كتابك مع رسولك،  
واني أشهد أنك رسول الله. نجده عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى ابن مريم، واني  
دعوت الروم أن يؤمنوا بك، فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيرا لهم ولو ددت اني عند  
فأخذتك وأغسل قدميك

وبعث الرسول إلى كسرى فارس كتابا مع عبد الله بن حذافة السهمي يدعوه فيه  
إلى اعتناق الإسلام. قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام  
على من اتبع الهدى وأمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن  
محمدًا عبد الله ورسوله، أدعوك بدعابة الله عز وجل، فإني رسول الله إلى الناس كلهم  
لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن توليت فعليك إثم  
المجوس، فلما قرئ عليه الكتاب مزقه فبلغ ذلك رسول الله رسول الله فقال: مزق الله ملكه

كذلك وجه الرسول إلى المقوس حاكم مصر من قبل هرقل إمبراطور الروم كتابا  
مع حاطب ابن أبي بلترة، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله  
إلى المقوس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعابة  
الإسلام، أسلم تسلم يوتوك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط، ويأهل الكتاب  
تعالوا إلى كلمة بيننا وبينكم أن لا تبعد إلا الله ولا تشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا  
بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون، فاحسن المقوس  
استقبال رسول النبي وقبل كتابه وأجبه بقوله: كنت أعلم أن نبيا قد بقى، وقد كنت  
أظن مخرجه الشام - وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبليه - فأراه قد خرج في العرب  
في أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعني في اتباعه، ولا أحب أن يعلم بمحاورياتي  
إياك<sup>(٢)</sup>، وبعث معه بهدية إلى النبي - رسول الله -

(١) النبهاني: الأنوار المحمدية من المawahب الدينية ص ١٦٦

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٦٢

(٣) الطبرى: ج ٢ ص ٢٩٦، المقرىزى: إمتناع الأسماع ج ١ ص ٣٠٦، النبهاني، المصدر السابق، ص ١٦٦

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ج ٣ ص ٤٧

(٥) المقرىزى: إمتناع الأسماع ج ١ ص ١٠٨

## فتح الشام :

وقد وكان رد فعل النبي - ﷺ - على كلتا الفعلتين التي قتلت فيهما رسلاه إلى الشام أن رأى أن يرد عدوانهما، وأن يقتضي لأصحابه، وأن يكسر تلك الحاجز الذي وضعته كلتا الفعلتين أمام الدعوة الإسلامية في الشام، وحتى لا تضعف أيضا هيبة المسلمين مع جيرانهم . لذلك وقع اختيار الرسول على مولاه زيد بن حارثة الكلبي ليكون أمير الجيش، وأوصى في حالة موته أن يخلفه جعفر بن أبي طالب، وإذا قتل جعفر حل محله عبد الله بن رواحة الأنصاري، وإن أصيب عبد الله بسوء، فليتفرق المسلمون على إسناد القيادة لرجل منهم<sup>(١)</sup> فخرج هؤلاء النساء إلى موته في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، على رأس جيش بلغت عدته ثلاثة آلاف، وشييعهم رسول الله إلى ثانية الوداع<sup>(٢)</sup>، وأوصى أمراء الجيش بقوله<sup>(٣)</sup> وأوصيكم بتقوى الله، ويعن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدوا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليديا، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث، فأيتها ما أجابوك إليها، فاقبل منهم واكتف عنهم، ثم ادعهم إلى الدخول في الإسلام فإن فعلوا فاقبل منهم واكتف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، إن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعزاب المسلمين، ويجري عليهم حكم الله ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبووا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم واكتف عنهم، فإن أبووا فاستعن بالله وقاتلهم

(١) البعقوبي تاريخ ج ٢ هـ ٤٩.

(٢) ثانية مشرفة على المدينة. يطرزها من يزيد مكة، وكان الناس في الجاهلية يودعون المسافرين من هذا المكان. ولذا عرف بثانية الوداع . انظر . باقوت . معجم البلدان .

(٣) المقرئي . المصدر السابق من ٣٤٤-٣٤٦ .

وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله، فلا تستنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإن تخفروا<sup>(١)</sup> ذمتك. وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله.

وستجدون رجالا في الصوامع معتزلين للناس، فلا تتعرضوا لهم، وستجدون آخرين في رهoseم مفاحص<sup>(٢)</sup>، فاقلعوها بالسيوف، لا تقتلن امرأة ولا صغيرا ضرعا<sup>(٣)</sup> ولا كبيرا فانيا، ولا تغرنن نخلا، ولا تقلعن شجرا، ولا تهدموا بيتكا.

ولما فرغ الرسول من نصيحته لأمراء الجيش، قال له عبد الله بن رواحة: يا رسول الله: مرنبي بشيء أحفظه عنك، قال: إنك قادم غدا بليدا، السجود فيه قليل، فأكثر السجود، قال: زدني يا رسول الله، قال: اذكر الله فإنه عنك على ما تطلب،

سار جيش المسلمين إلى تخوم البلقان، وكانت موطن نفوذ الغساسنة - ولما وصلوا إلى بلدة معان، بلغهم أن هرقل نزل بمكان يقال له مأب في مائة ألف من الروم ومعه من قبائل بهراء ووائل ويكرب وخدم وخدمان مائة ألف ، يتولى قيادتهم رجل من قبيلة بلى يقال له مالك ابن رافلة<sup>(٤)</sup>، فأخذوا يفكرون في الأمر وأرادوا أن يكتبوا إلى رسول الله بكثرة عدد العدو ليبعث إليهم مددأ أو يأمرهم بالعودة إلى المدينة. فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضي في القتال وقال: «والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ولا بكثرة خيول إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، انطلقا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد فإنما هي إحدى الحسينين، إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ووعد نبينا وليس لوعده خلف، وإما الشهادة فلتتحقق بالأخوان نرافقهم في الجنان<sup>(٥)</sup>». فتغلب على المسلمين الحماسة الدينية وعزموا على

(١) أى تتقضوا ذمتكم ولا ترثوا بها.

(٢) المقصود بذلك أن الشيطان استوطن في رهoseم، فجعل له فيها كمفاحص الطير، فأذزمهم شدة البغي «انظر كتاب إمتناع الأسماع، حاشية رقم ٢ من ٣٤٦».

(٣) الضرع: الصغير السن.

(٤) المقربي: إمتناع الأسماع، ج ١ من ٣٤٧.

(٥) المصدر السابق، ج ١ من ٣٤٨.

المضى في سيرهم، فمضوا إلى بلدة موتة حيث وافاهم المشركون معهم ما لا قبل لهم به من العدد والسلاح والديباج والحرير والذهب<sup>(١)</sup>. ثم دار القتال بين الفريقين، فأخذ زيد بن حارثة اللواء وظل يقاتل حتى قتل، فخلفه جعفر بن أبي طالب في القيادة. غير أنه لم يلبث أن استشهد في ميدان القتال وخلفه عبد الله بن رواحة قتل<sup>(٢)</sup>، ثم ولى المسلمين عليهم خالد بن الوليد<sup>(٣)</sup>. فبذل جهده في إنقاذ بقية جند المسلمين وعاد بهم إلى المدينة<sup>(٤)</sup> فocabلهم أهلها بشيء من السخط. غير أن الرسول لم ينظر إلى حادث انهزامهم هذه النظرة، بل أظهر أمله في عودتهم لمهاجمة العدو وإحران النصر عليه.

رأى الرسول ﷺ أن يقضى على الآثار التي خلفتها غزوة موتة ويقوم بعمل حاسم يحول دون حدوث أي تهديد من قبل الروم، فلما تم له فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة وانصرف عائدا إلى المدينة، بلغه أن الروم جمعت جموعا كثيرة بالشام وضموا إليهم لخم وجذام وغسان وعاملة<sup>(٥)</sup>، فبعث إلى القبائل ورؤساء العشائر يحثهم على الخروج ويرغبهم في الجهاد<sup>(٦)</sup>، كما حض الرسول المسلمين على بذل المال في سبيل الله<sup>(٧)</sup>، فسارعوا إلى تلبية طلبه. ف جاء أبو بكر الصديق بكل ماله، - وهو أربعة آلاف درهم -، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، كما حمل إليه كل من العباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالا وفيرا. وكان عثمان ابن عفان من أكثرهم نفقة، إذ جهز ثلث الجيش<sup>(٨)</sup>. كذلك أقبل أهل الغنى من الرجال والنساء على التبرع ببعض أموالهم.

وكانت حرارة الصيف وقتذاك شديدة، والشمار قد طابت، ويوثر الناس البقاء بجوار ثمارهم<sup>(٩)</sup>. فلما دعا الرسول المسلمين إلى التهجد للغزو وجد تثاقلا من بعضهم، فاعتذر جماعة بأعذار واهية منها: مشاق السفر ومتاعبه وشدة الحر، كما جاءه فريق

(١) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير ج ٣ ص ١٧٥.

(٢) ابن هشام: ج ٢ ص ٤٣٥-٤٣٣.

(٣) ابن سعد: ج ٣ ص ١٧٥ الطبرى: ج ٢ ص ٤٢.

(٤) ابن سعد: ج ٣ ص ٢١٨. المقريزى: إمتناع الأسماع ج ١ ص ٤٤٦.

(٥) المقريزى: ج ٣ ص ٥١.

(٦) ابن هشام: ج ٤ ص ١٧٢.

(٧) النبهانى: الأنوار المحمدية من المواهب الالهية ص ١٢٧.

(٨) المقريزى: إمتناع الأسماع ج ١ ص ٤٤٧-٤٤٦.

من المنافقين يستأذنونه في التخلف عن القتال دون أن يكون بهم علة يشكون منها،  
وتشير إلى ذلك الآيات في سورة التوبة:

﴿لَوْكَانَ عَرْضًا قَرِيبًا وَسَفْرًا قَاصِدًا لَاتَّبِعُوكُمْ وَلَكُنْ بَعْدَ عَلَيْهِمُ الشَّقَةُ وَسِيَّاحُوْنَ بِاللَّهِ لَوْ أَسْتَطَعْنَا لِخَرْجِنَا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (آية ٤٢).

﴿إِنَّمَا يَسْتَنِذِنُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابُتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رِبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (آية ٤٥).

﴿فَرَحِ الْمُخْلِفُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خَلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَالُوا لَا تَنْقِرُوا فِي الْحَرِّ قَلْ نَارَ جَهَنَّمَ أَشَدُ حَرًا لَوْ كَانُوا يَقْنُونَ﴾ (آية ٨١).

﴿وَجَاءَ الْمَعْذِرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنُ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سِيَّصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ﴾ (آية ٩٠).

لما تغلب الرسول على الصعب التي لاقاها في سبيل إعداد الجيش، اعتزم المسير إلى حدود بلاد العرب الشمالية، فخرج ومعه ثلاثة ألفاً في أول رجب سنة تسع، وكان عبد الله بن أبي سلول إذ ذاك قد عسّر مع أنصاره خارج المدينة بثنية الوداع وأخذ يثبط عزائمهم بادعائه أن المسلمين لا محالة منهزمون إذا ما وقفوا أمام الروم، ثم ما لبث أن تخلف عن النبي هو وأتباعه وعادوا إلى المدينة<sup>(١)</sup>.

لم يبال الرسول بتخلف هؤلاء المنافقين ومضى في سيره حتى تبوك<sup>(٢)</sup>، فحط بها وصالحه أهلها على الجزية<sup>(٣)</sup>، ثم شاور أصحابه في التقدم شمالاً والسير إلى حدود الشام، فقال له عمر بن الخطاب، إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال الرسول ﷺ: لو أمرت به ما استشرتكم فيه، فقال له أصحابه: يا رسول الله، إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى وقد أفزعهم دنوك، فلورجع هذه

(١) المقريزى: إمتناع الأسماع ج ١ ص ٤٥٥

(٢) تقع على بعد اثنى عشر فرسخاً من المدينة.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٧١

السنة حتى ترى أو يحدث الله في ذلك أمراً<sup>(١)</sup>، فاكتفى الرسول بإفاد بعض سراياه إلى الجهات المجاورة لتبوك .

كان الرسول قد وجه رسالة إلى أحد الأمراء المقيمين على الحدود الشمالية ويدعى يحنة بن رؤبة- صاحب أيلة- يطلب إليه فيها إما أن يعلن إسلامه أو يؤدي إليه الجزية<sup>(٢)</sup>، فأقبل عليه هذا الأمير- بعد وصوله إلى تبوك- ومعه أهل جرباء<sup>(٣)</sup> وأذرح وبعض أهل الشام واليمن، فصالحهم وفرض عليهم جزية معينة، وكان بأيلة ثلاثةمائة رجل، فقرر عليهم ثلاثة دينار، وكتب ليحنة بن رؤبة هذا الكتاب<sup>(٤)</sup> بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله و Mohamed النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم في البر، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر.

وكتب لأهل جرباء<sup>(٥)</sup> : «كتاب من محمد النبي رسول الله، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم».

وكتب لأهل أذرح<sup>(٦)</sup> : «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح أنهم آمنوا بأمان الله ومحمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان لل المسلمين، من لجأ إليهم من المسلمين من المخالفة والتعزير<sup>(٧)</sup> إذا خسروا على المسلمين وهو آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه». وكتب لأهل مقنا<sup>(٨)</sup> - وكانوا يهوداً<sup>(٩)</sup> «أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم ربيع غزوهم وربع ثمارهم».

(١) المقريزى : إمتناع الأسماع ج ١ ص ٤٦٣

(٢) ابن سعد : الطبقات ج ٢ ص ٤٢

(٣) جرباء : موضع من أعمال عمان بالبلقاء . ياقوت . معجم البلدان ج ٢ ص ٧٢

(٤) أذرح : بلد في أطراف الشام من نواحي البلقاء وعمان المجاورة لأراضي الحجاز (ياقوت).

(٥) المقريزى : المصدر السابق ج ١ ص ٤٦٨

(٦) ابن سعد : ج ٢ ص ٥٦ - المقريزى : إمتناع الأسماع من ٤٦٩

(٧) التعزير : النصرة بالسيف - حاشية رام ٥ - إمتناع الأسماع من ٤٦٩

(٨) مقنا : تقع على مقربة من أيلة (ابن سعد ج ٢ ص ٥٤١)

(٩) ابن سعد : الطبقات، ج ٢ ص ٤١، ٥٦

كذلك رأى الرسول أثناء إقامته بتبوك أن يبعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندي<sup>(١)</sup> على رأس حملة، خشية خروج ملكها أكيدر بن عبد الملك ومعاونته جيوش الروم إذا ما أتت من ناحيته، وتحقيقاً لسياسة النبي ترمي إلى تأمين شمال الحجاز، وكان أكيدر من كندة يدين بالنصرانية فأمر الرسول خالد بن الوليد بأن يأتي به إليه، ونهاه عن قتله فسار إليه خالد وقبض عليه<sup>(٢)</sup>، وأظهر استعداده ليجبره من القتل حتى يأتي به الرسول على أن يفتح له دومة الجندي، فقبل أكيدر وفتحت أبواب دومة المسلمين بعد أن تم الصلح بين خالد وأكيدر<sup>(٣)</sup>، فصالحة الرسول على أداء الجزية وأخل سبيله<sup>(٤)</sup>، وكتب له ولأهله دومة كتاباً، وفيما يلى نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله، لأكيدر، حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد<sup>(٥)</sup> والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندي وأكناها: أن له الضاحية<sup>(٦)</sup> من الضحل<sup>(٧)</sup> والببور، والمعامي<sup>(٨)</sup>، وأغفال<sup>(٩)</sup> الأرض، والحلقة، والسلاح، والحافار والحصن، ولكم الضامنة<sup>(١٠)</sup> من النخل، والمعين<sup>(١١)</sup> من المعمور بعد الخامس، لا تعدل<sup>(١٢)</sup> سارحتكم<sup>(١٣)</sup> ولا تعد فاردتكم<sup>(١٤)</sup> ولا يحظر عليكم الثبات ولا يؤخذ منكم إلا عشر الثبات<sup>(١٥)</sup>. تقييمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها. عليكم بذلك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين.

(١) دومة الجندي: واحة خصبة، يقيم بها بطون كندة، تقع شمال المدينة على بعد خمس عشرة ليلة.

(٢) الطبرى: ج ٢ ص ٣٧٢-٣٧٣

(٣) ابن سعد: ج ٣ ص ١٩٠-٢٢٠ والمقرىزى: إمتناع الأسماع ج ١ ص ٤٦٥

(٤) ابن سعد: ج ٢ ص ٥٤-٥٥ والبلاذرى: فتوح البلدان ص ٧٣-٧٧.

(٥) الأنداد: الأمثال والشركاء.

(٦) الضاحية: الأرض البارزة.

(٧) والضحل: الماء القليل.

(٨) المعامي: البلاد المجهولة.

(٩) أغفال الأرض: التي لا أثار بها.

(١٠) الضمانة: ما حل من الخل.

(١١) العين: الماء الجاري.

(١٢) لا تعدل: لا تصرف من مرمى تريده.

(١٣) السارحة: العاشية التي تسرح في المرمى.

(١٤) الفاردة: ما لا تحب فيه الصدقة.

(١٥) الثابت: النحل القديم الذى ضرب عروقه الأرض وثبت مراجع أن سعد ج ٢ ص ٥٤ و ٥٥: مواشى

«المقرىزى: إمتناع الأسماع ج ١ ص ٤٦٦-٤٦٧، حاشية رقم ١ البلاذرى: فتوح البلدان من ٧٣».

انصرف الرسول من تبوك بعد أن أقام بها بضع عشرة ليلة<sup>(١)</sup>، وعاد إلى المدينة دون أن يتبعه السير إلى حدود الشام، ولم يقع قتال بينه وبين الروم كما كان متوقعاً، بل اكتفى بتوطيد سلطانه السياسي على شمال الحجاز، وقد تم له ذلك بعد أن أقبلت عليه وفود المستعمرات النصرانية واليهودية من المنطقة الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية لبلاد الحجاز، واتفق معها على أن يؤدوا جزية معينة.

ولما أدى الرسول حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، وعاد مع أصحابه إلى المدينة أصبح لا يخشى شيئاً من ناحية جزيرة العرب لسيطرة الدين الإسلامي على أقاليمها ومدنها، لكنه كان يرى أن أرض الإسلام لا تزال مهددة بالخطر من ناحية الشمال حيث كان الروم يرابطون على حدود الشام الجنوبية، لذلك وجه اهتمامه إلى تأمين حدود أرض الإسلام الشمالية، فأمر بتجهيز جيش لغزو أطراف الشام الجنوبية، أرسن قيادته إلى أسامة بن زيد بن حارثة<sup>(٢)</sup> . وأوصاه بقوله<sup>(٣)</sup> . «اغزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تذروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا تعنوا لقاء العدو، فإنكم لا تدرؤن لعلمكم تبتلون بهم، ولكن قولوا : اللهم اكفناهم، واكفناهم عننا، فإن لقوكم قد أجابوا وصيغوا، فعليكم بالسكينة والصمت ولا تنازعوا فتنشلوا وتذهبوا ريحكم، وقولوا اللهم إنا عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تغلبهم أنت، واعلموا أن الجنة تحت البارقة<sup>(٤)</sup> .

لقيت الدعوة التي وجهها الرسول إلى المسلمين للاشتراك في حملة أسامة قبولاً من كثير من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار كعمر بن الخطاب وأبي عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وقناة بن النعمان. غير أن بعض المهاجرين ساءه تولية أسامة قيادة الحملة لحادثة سنة<sup>(٥)</sup> ، فقد كان وقتذاك لا يتجاوز العشرين من عمره. فلما بلغ ذلك الرسول - وكان قد بدأ يشتكي من المرض الذي ألم به، غضب غضباً شديداً، وألقى على المسلمين خطبة في المسجد، قال فيها<sup>(٦)</sup> : أما بعد، أيها

(١) المقريزى : إمتناع الأسماع ج ١ من ٤٧٣.

(٢) الطبرى : ج ٢ من ٤٢٩.

(٣) المقريزى : المصدر السابق ج ١ من ٥٣٦-٥٣٧.

(٤) البارقة : السيف « حاشية رقم ١ - المقريزى المصدر السابق . ج ١ من ٥٣٧ .

(٥) المحققى : ج ١ من ٩٣ .

(٦) ابن سعد : ج ٤ من ٣ - المقريزى ، المصدر السابق ج ١ من ٣٧ .

الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ والله لئن طعنتم في إمارتي  
أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وائم الله، إنه كان للإمارة لخليقها، وإن ابنه  
من بعده لخليق للإمارة، وإن كان من أحب الناس إلى، وإنهما لمخيلان لكل خير،  
فاستوصوا به خيرا، فإنه من خياركم.

حرص الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رغم المرض الذي اعترافه على المرض في إعداد حملة  
أسامة بن زيد، فقال للمسلمين الذين جاءوا يودعونه قبل خروجه بهم مع أسامة: «أنقذوا  
بعث أسامة» فأخذ المسلمين يتهدلون للغزو وركب أسامة بن زيد - سكره - خارج  
المدينة -، وطلب من أصحابه اللحاق به، غير إنه لم يك يشرع في المسير بحملته حتى  
أناه اشتداد المرض على الرسول، فأقبل إلى المدينة بصحبة عمر بن الخطاب وأبي  
عبيدة بن الجراح، وبعد فترة قصيرة من وصوله إليها، انتقل الرسول إلى جوار ربه وذلك  
في يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ<sup>(١)</sup>.

لما بُويع أبو بكر الصديق بالخلافة، بدأ عمله بإنفاذ بعث أسامة بن زيد لغزو  
أطراف الشام الجنوبية تحقيقاً لما أمر به الرسول، فخرج أسامة في أول ربيع الثاني سنة  
إحدى عشرة على رأس الحملة التي أعدت في حياة الرسول، ولم يتختلف عن سوى عمر  
بن الخطاب الذي رأى أبو بكر الصديق إبقاءه بجواره في المدينة ليشير عليه، وبلغ من  
اهتمام أبي بكر بهذه الحملة بأن خرج بنفسه يودع أسامة وقال له: استودع الله دينك  
وأمانتك وخواتيم عملك، إني سمعت رسول الله يوصيك، فانفذ لأمر به رسول الله،  
فإنني لست أمرك ولا أنهاك عنه، إنما أنا منفذ لأمر به رسول الله<sup>(٢)</sup>.

مضى أسامة في سيره قاصداً البلقاء، فلما وصل أباً <sup>(٣)</sup> شن الغارة على أهلها  
وقضى على كل من تعرض له منهم، كما حرق منازلهم وحرثهم ونخلهم<sup>(٤)</sup> وغنم بعض  
الغنائم، ثم عاد ظافراً إلى المدينة بعد ما يقرب من شهرين<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن سعد: ج ٤ ص ٤ المقرئي: إمداد الأسماع ج ٤ ص ٥٣٧-٥٣٩.

(٢) المقرئي: المصدر السابق ج ١ ص ٥٢٩-٥٤٠.

(٣) أبي، موضع بالشتر من جهة البلقاء، ويقال قربة بمعنونه «ياقوت»: معجم البلدان. ج ١ ص ٩٧.

(٤) النبهاني، الأنوار المحمدية ص ١٣٤.

(٥) المقرئي المصدر السابق ج ١ ص ٥٤٠.

كانت حملة أسماء عظيمة الأثر، فقد أوقفت القبائل العربية التي تقيم في أطراف الشام الجنوبي على قوة المسلمين، كما جعلت الروم يعيدون حساباتهم - رغم أن زيد لم يلق جيشهم فاضطروا إلى إرسال حامية قوية لترابط في البلقاء، وأنباء حروب الربدة كان للMuslimين عدة جيوش على الحدود الشمالية بقيادة خالد بن سعيد بن العاص، لحماية تلك الحدود. فعلم خالد بن سعيد بأن هرقل قد أعد العدة لمحاجمة تلك الجيوش التي على الحدود، فأرسل إلى أبي بكر - رضي الله عنه - يستأذنه في منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام. واستشار أبو بكر كبار الصحابة، فتقرر النفير العام لمواجهة العدوان الآتي من الشام. قلب المسلمين الدعوة في حماسة وحمية. وسرعان ما انفذت الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة، وعقد اللواء لأربعة من النساءهم: شرحبيل بن حسنة ووجهته وادي الأردن، وعمرو بن العاص ووجهته نحو فلسطين، وأبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص، ويزيد بن سفيان ووجهته دمشق. وأمر أبو بكر هؤلاء القواد أن يتعارفوا بعضهم على بعض، وأن يكونوا مددًا للجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة<sup>(١)</sup>.

سار خالد بن سعيد بن العاص نحو الشام وهزم الجيوش التي كان قد جمعها الروم، وبعد ذلك توالى قدوم الجيوش الإسلامية إلى الشام، وانضم الوليد بن عقبة، وعكرمة بن أبي جهل، وذو الكلاع الحميري أحد أمراء اليمن إلى خالد بن سعيد بن العاص، لكن ما هان قائد جيش الروم استطاع أن يستدرجه إلى مكان قريب من وادي الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية، حتى أطاح به وقطع عليه خط الرجعة واضطرب إلى الفرار هو والوليد بن عقبة، تاركا وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة وذو الكلاع فتقهروا إلى الحدود.

لكن هرقل قد سير لمحاجتهم عدة جيوش كثيفة فتبادل القواد الرأي، وأشار عليهم عمرو بن العاص بجمع قواتهم، كما أرسل إليهم أبي بكر كتابا قال فيه: «اجتمعوا عسكرا واحدا وألقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعون الله، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ..»

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٢ ص ١٩٥

وانصاع المسلمين لأمر الخليفة واجتمعت قواتهم كلها على شاطئ اليرموك الأيسر، ولما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم كلها على الشاطئ الأيمن للنهر ونزلوا على بطحاء تحيط بها الجبال من ثلاثة جهات في منطقة تسمى واقوصة، فعبر المسلمين نهر الأردن إلى شاطئه الأيمن ووقفوا أمام جيوش الروم وكان يقودها تيودوريك «هو آخر هرقل».

وقف الجيشان وجهاً لوجه دون أن يتغلب أحدهما على الآخر نحو شهرين، مما أفلق الخليفة. فأرسل إلى خالد بن الوليد في العراق: أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك. فتوجه خالد بن الوليد على رأس جيش كبير يتكون من عشرة آلاف جندي أدرك به المسلمين في اليرموك وصادف مجنه أن هرقل قد عزز جيشه بتعيين ماهان قائداً وهو الذي كان قد سبق وأوقع هزيمة بخالد بن الوليد<sup>(١)</sup>.

وبعد أن عاد المسلمون تنظيم جيشه حيث جعل أبا عبيدة بن الجراح في القلب، وعمرو بن العاص على الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان على الميسرة، ثم دارت رحى القتال، ورغم أن المسلمين اضطروا إلى التقهقر عدة مرات<sup>(٢)</sup> انتصر المسلمين في النهاية واستمرت الجيوش الإسلامية في مواصلة مطاردة قوات الروم بأمر من الخليفة الجديد عمر حيث كان قد توفي أبو بكر في تلك الأثناء - رضى الله تعالى عنهم. فتوجهت القوات الإسلامية صوب دمشق في العام الثالث عشر من الهجرة.

### فتح العراق وإيران:

كانت الإمبراطورية الإيرانية قبيل الفتح الإسلامي - الذي بدأ منذ سنة ٤٢١-٤٦٤ م - مقسمة إلى إقليمين مختلفين في عناصر السكان والتوجيه الجغرافي والحياة الاجتماعية: فقد كانت مقسمة إلى إقليم العراق العجمي الذي يمتد شرقاً حتى سلسلة الجبال الإيرانية ثقافته سامية منذ القدم وحياته زراعية وكانت عاصمته المدائن. أما الإقليم الآخر فهو إيران الخالصة، أو المهدية الإيرانية الصميمية التي تنتد

(١) الدكتور علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام من ٢٢٥

(٢) الواقفي: فتح الشام ج ١ من ١٦٥

من سلسلة جبال إيران حتى هضاب آسيا الوسطى<sup>(١)</sup>. وكانت عاصمتها مدينة إصطخر. كانت إيران في تلك الفترة تحكمها الأسرة الساسانية، هذه الأسرة التي تحتل من تاريخ إيران القومي مكاناً عظيماً بسبب التطور التي صحبته ظهورها، خصوصاً بعد الثورة التي أعلنتها أردشير مؤسس هذه الأسرة سنة ٢١٢ م<sup>(٢)</sup> وكانت إيران ضحية لوضعها الجغرافي. ذلك أن السياسة الإيرانية كانت من أهدافها حماية الوطن من ثلاثة أعداء: البيزنطيين في أرمينيا وأسيا الصغرى، والقبائل العربية التي كانت لا تكف عن الإغارة على بادية العراق، والترك<sup>(٣)</sup> الذين كانوا يغزون من وطنهم القديم إغارات غير منتظمة على الحدود الإيرانية الشمالية الشرقية، والتي بدأت تشتد على خراسان منذ القرن الرابع الميلادي، وأصبحت هذه الغارات خطراً عظيماً يتهدد هذه المنطقة المهمة التي كانت تمثل قلب الحضارة الإيرانية<sup>(٤)</sup>.

وكان الساسانيون يستردون الأتراك حينما انتصرت لهم على البيزنطيين. وكان البيزنطيون في حربهم مع الساسانيين يمدون أيديهم للأتراك في أكثر من مناسبة ليشتراكاً في جهود مشتركة للقضاء على الساسانيين. وفي الوقت نفسه كانت الدولة الساسانية تصارع العرب. وقد أقام الساسانيون دولة المناذرة كإمارة عازلة تدفع عنهم خطر البدو وتحمي أطراف الدولة من ناحية العراق<sup>(٥)</sup>. غير أن الدولة الساسانية قضت على هذه الإمارة قضاءً تاماً في مستهل القرن السابع الميلادي، فلادي ذلك إلى إفساح المجال أمام الغزوات العربية لتوغل فيما بعد في منطقة العراق<sup>(٦)</sup>.

ورغم أن الفتح الإسلامي للعراق وإيران كان في الحقيقة أهم الأحداث في تاريخ الشرق الأوسط لما ترتب عليه من نتائج بعيدة الأثر في تاريخ هذا الشرق وحضارته،

(١) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي. دار الفكر العربي. ص ٨، ٩.

(٢) كريتنس: إيران في عهد الساسانيين. القاهرة ١٩٥٧، دكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٢.

(٣) الدكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٢.

(٤) أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم ولقائهم وصلاتهم بالعرب ج ١ بيروت ١٩٢٥ ص ٢٢٦.

(٥) كريستنس: إيران ص ٣٥٨.

(٦) دكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق ص ٥.

فقد اختفت الدولة الساسانية التي كانت تلعب الدور الرئيسي منذ القرن الثالث الميلادي، وكان وجود الدولة الساسانية بعد أهم ملامع تاريخ الشرق الأوسط. ومن الغريب أن هذه الأحداث على أهميتها غامضة إلى أبعد الحدود، فهي مازالت في حاجة إلى مزيد من البحث، ولعل السبب في ذلك أن المصادر البيزنطية المعاصرة للفتح الإسلامي لإيران لم تعن بتدوين أخبار هذا الفتح بسبب انشغال الدولة البيزنطية بأحداث الفتح الإسلامي لأراضيها، على حين نجد الكتب الفارسية قد ضاع أكثرها بعد انتهاء المقاومة. فلم يبق إلا أن ندرس هذه الأحداث من المصادر العربية، علما بأن العرب دونوا هذه الأخبار بعد حوادث الفتح بفترة طويلة<sup>(١)</sup>.

ولما كانت الإمبراطورية الإيرانية تتتألف من أقاليم جغرافية ثلاثة: العراق العربي وال伊拉克 العجمي - الذي يقع بين دجلة والفرات ويمتد شرقا حتى سلسلة الجبال الإيرانية - والإقليم الثالث وهو الهمبة الإيرانية الصميمية التي تمتد من سلسلة جبال إيران حتى هضاب آسيا الوسطى<sup>(٢)</sup>. فقد كان كل إقليم من هذه الأقاليم يمثل مرحلة من مراحل الفتح قائمة بذاتها لها اتجاهاتها ومقوماتها، كما أن كل مرحلة منها مرتبطة بمعركة شهيرة قررت مصير الأقاليم ومكنت المسلمين من التغلب. ولنضرب لذلك مثلا فنقول: إن إقليم العراق العربي تقرر مصيره بعد معركة الحيرة، وإقليم العراق العجمي تقرر مصيره بعد القادسية والإقليم الأخير تقرر مصيره بعد معركة نهاوند<sup>(٣)</sup>. وقد بدأت المرحلة الأولى للفتح الإسلامية للعراق بعد أن كتب المثنى بن حارثة الشيباني إلى الخليفة أبي بكر يطلب أن يأذن له بفتح العراق، فيروي البلاذري: «قدم المثنى على أبي بكر فقال له: يا خليفة رسول الله، استعملني على من أسلم من قومي أقائل هذه الأعاجم من أهل فارس. فكتب له أبو بكر في ذلك عهدا، وكان مذعور بن عدى العجلي قد كتب إلى أبي بكر أيضا يعلمه حاله وحال قومه ويسأله توليه قتال فارس، وكذلك فعل سويد بن قطبة الذهلي من بكر بن وائل ومعه جماعة من قومه»<sup>(٤)</sup>.

(١) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية، ص. ٩.

(٢) الدكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص. ٩.

(٣) المرجع السابق من ١٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٥٠ - ١٥١.

ويرجع السبب في موافقة أبي بكر على حرب العراق إلى أمرين:

أولاً: كانت العراق قبل الإسلام تضم عدداً من القبائل العربية منها: إياد وبكر بن وائل والنصر بن قاسط وتغلب وكلب وقضاء وآسد<sup>(١)</sup>، وقد تنصرت هذه القبائل، مع من سكن الحيرة من العرب من قبائل طيء وكلب وتيم والأرد ولخم وغسان وكنده ومذحج وحمير وبني الحارث بن كعب وسليم وتنتوخ<sup>(٢)</sup> وكانت نصرانيتهم على المذهب النسطوري، وأطلق عليهم اسم العباد<sup>(٣)</sup>. وأثناء حرب الردة هرب كثير من بكر بن وائل النصارى والتجأوا إلى العرب المنتصرة في العراق<sup>(٤)</sup>.

ثانياً: معاونة الفرس وعمالهم المرتدين في البحرين<sup>(٥)</sup>

لذلك فقد كان أمراً طبيعياً أن يوافق أبو بكر على غزو العراق تأميناً لحدود الدولة الإسلامية الناشئة حتى لا يقضى على الدعوة الإسلامية.

ومن غريب الأمر أن الدولة الساسانية واجهت الغزو الإسلامي باستخفاف شديد. إذ عهدت إلى الحاميات المحلية وبعض العرب المرتزقة بدفع هذا الغزو، وهو نفسه الإسلوب القديم نفسه الذي كانت تواجهه به الفرازة العرب قبل الإسلام. وانتهى الأمر بأن دخل العرب مدينة الحيرة وكان نصر المسلمين عند الحيرة هو الذي قرر مصير العراق المسلمين. والسبب أن فتح الحيرة تم بعد معاهدة معروفة تسمى معاهدة الحيرة، وهي تشبه المعاهدات المألوفة من حيث ضمانها لحرية العقيدة وحرمة النفس والمال وتنظيمها لوضع أهل الذمة، فكانت هذه المعاهدة ذات أثر عظيم في نفوس الطبقات الفقيرة من سكان العراق العربي، وال العراق العمجي. بل كان فتح الحيرة

(١) ابن سعد: الطبقات ج ٧ ق: ص ٢٤ ، البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٤٧.

(٢) الطبرى ج ٢ من ١٩٦ ، البيقوى: ج ١ من ٢٥٧.

(٣) الدكتور جميل عبد الله الحصري: تاريخ الدعوة الإسلامية في زمان الرسول - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين ص ٢٧٩.

(٤) الدكتور على إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، الجاهلية - الدولة العربية - الدولة العباسية، وكالة المطبوعات - الكويت، ص ٢٢٢.

(٥) الدكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية ص ١١ ، شكرى فنيصل: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ص ٤٤ ، ٦٣.

نونذجا للفتوح الإسلامية التي شهدتها إيران فيما بعد. وأصبحت الحيرة بعد فتحها قاعدة إسلامية كبرى تتركز فيها الإمدادات والقوات لإتمام المراحل الأخرى<sup>(١)</sup>.

أما المرحلة الثانية وهي فتح العراق العجمي فتمثل فيها المقاومة الحقيقة للإمبراطورية الإيرانية مستخدمة أسلحتها كلها فكان أن قامت بحشد قواتها وإلقاء هذه القوات في معركة فاصلة<sup>(٢)</sup>. كما عمدت الدولة إلى التجنيد العام الشامل، وزوّدت الفرق في كل أنحاء الأرض التي استولى عليها المسلمين. وفي نفس الوقت أثاروا السكان وألّبّوهم على المسلمين حتى نقضوا العهود والمواثيق<sup>(٣)</sup>.

ويبدو أن المسلمين من ناحيتهم لم يكونوا أقل إدراكاً لقيمة هذا الصراع وأثره في تقدير مصير الإسلام. وكان عمر في ذلك الوقت قد تولى الخلافة واتخذ المسلمين خطوات بعيدة الأثر.

ف مقابل المسلمين تجنيد الفرس العام بتجنيد إسلامي عام، فالمعنى استنفر الناس وكتب عمر إلى عمالة على الكور والقبائل أن لا يدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبوه ووجهوه إلى المدينة<sup>(٤)</sup> فكانت المعركة الشهيرة معركة القادسية التي تمثل الصراع الحقيقي بين الدولة الساسانية وبين المسلمين، ويتمثل فيها عنت الهجوم من ناحية الفرس ثم عمق المقاومة من ناحية المسلمين، واستمرت ثلاثة أيام انتهت بنصر حاسم كان أشبه بالمعجزات<sup>(٥)</sup>.

وكما قررت الحيرة وما تلاها من وقائع مصير العراق فإن موقعة القادسية قررت مصير العراق العجمي، إذ أن الفرس كفوا عن الهجوم في هذه المنطقة وأسلمواها غنيمة للMuslimين الذين انتفعت أمامهم سهول العراق، بدليل أن العرب دخلوا العاصمة المدائن دون مقاومة.

(١) الدكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة من ١١-١٣.

(٢) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي، ص ٥٦.

(٣) شكري فيصل: ص ٥٧-٥٦، الدكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق من ١٢.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان من ٢٦٤-٢٧١، كريستنس ص ٤٨٢، دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية من ١٢.

(٥) البلاذري: المصدر السابق من ٢٧٢-٢٧٣، دكتور حسن أحمد محمود المرجع السابق من ١٣.

والمرحلة الثالثة وهي فتح إيران تتمثل فيها المقاومة الحقيقة لالفتح الإسلامي. فقد تم فيها اللقاء الحقيقي بين المسلمين والعنصر الإيرانية. وتمكن العرب من مهاجمة قلب الأمة الإيرانية ومحاجمة إيران نفسها، لأن العراق بقسميه كان ولاية خاضعة للنفوذ الفارسي<sup>(١)</sup>.

وكان الأعاجم: «قد تحصنوا وخندقوا وجعلوا عمالهم وثقلهم بخانقين، وتعاهدوا ألا يفروا، وجعلت الإمدادات تقدم عليهم من حلوان والجبال... واقتتلوا قتالا شديدا مثله رمي بالنبال وطعن بالرماح، حتى تقصفت وتجالدوا بالسيوف حتى انثفنت...»<sup>(٢)</sup>.

ثم مضى المسلمون في نصرهم، ومضى الساسانيون في هزائمهم، حتى كانت معركة نهاوند التي استطاع فيها للمسلمين أن يقظوا على المقاومة الساسانية قضاء تماما، وأن يوغلوا في صميم الوطن الإيراني وقلب الهضبة الإيرانية. وكان الزحف الإسلامي من الحيرة حتى نهاوند زحفا غير منظم حق نصرا للمسلمين، تعقبوا بعده العدو المهزوم الذي ولى الأدبار.

وإذا تأملنا في تطور الزحف الإسلامي بعد إنشاء البصرة والكوفة نستطيع إن نقول أن هذا الفتح كان على شكل «كماشة كبرى» يمضي الجزء الشمالي منها<sup>(٣)</sup> يخترق شمال إيران. وفعلا استطاع المسلمون أن يستولوا على منطقة خراسان، بل وصل الزحف الإسلامي إلى حدود أفغانستان في عهد عثمان بن عفان. والطرف الجنوبي من حركة الزحف كان يخترق إيران الجنوبية ويتجه نحو الشرق ووصل هذا الزحف فعلا حتى حدود السند<sup>(٤)</sup>.

وقد حاولت بقايا الأسرة الساسانية أن تعتصم ببلاد الصين وأن تعتمد على الصين في استعادة الأراضي التي فتحها المسلمون، لكن هذه الحركة لم تتحقق الأغراض المرجوة منها، واستسلم الإيرانيون للفتح<sup>(٥)</sup>.

(١) دكتور حسن أحمد محمد محمود: الإسلام من ١٢.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان من ٢٧٢.

(٣) دكتور حسن أحمد محمود: المرجع السابق من ١٤.

(٤) المرجع السابق من ١٥.

(٥) المرجع السابق من ١٥.

إن الحد الفاصل بين فارس وتركستان ليس هو الخط الذي يفصل اليوم بين إيران وروسيا، إنما هو في الحقيقة نهر جيحون باعتباره الحد الفاصل بين الثقافتين الفارسية والتورانية.<sup>(١)</sup> ومعنى هذا أن أرض الترك تشمل المناطق الخصبة الواقعة بين نهرى جيحون وسونج، أو الإقليم الذى يسمى فى المصطلح الإسلامي باسم بلاد ما وراء النهر.

على أن هذا الإقليم فى الحقيقة ليس هو وطن الأتراك جميعهم ، إنما هو وطن الأتراك الغربيين فقط. أما وطن الأتراك الشرقيين فهو يتجاوز إقليم ما وراء النهر صوب الشمال حتى منطقة السهوب الروسية، أو يمتد قليلاً صوب الشرق حتى حدود الصين. وهذا الوطن قد يتطاول أحياناً إلى الشمال الغربى من بحر قزوين ويدخل منطقة القوقاز من الشمال، وأحياناً أخرى يمتد حتى حوض الفولجا<sup>(٢)</sup>. ويرجع ظهور الترك فى منطقة آسيا الوسطى لأول مرة إلى النصف الأخير من القرن السادس الميلادى وأوائل السابع، وأن هذا الشعب اتخد للمرة الأولى فى تاريخ هذا الإقليم اسم (الترك) حيث بدأ يكون فى منطقة ما وراء النهر سلسلة من الإمارات التركية المستقلة التى انفصلت عن القسم الشرقي من عالم الترك<sup>(٣)</sup> .

وقد بدأ الاحتكاك الأول بين المسلمين وبين الترك بعد أن فرغ المسلمون من فتح فارس سنة ٦٥١ م / ٣٦١ هـ. ففى هذه السنة توطد النفوذ الإسلامي من منطقة خراسان، وورث المسلمون الفاتحين من مخلفات الساسانيين هذا الخطر التركى أو المشكلة التركية. واضطرب المسلمون فى المرحلة الأولى أن يتزموا نفس سياسة الدفاع التى سار عليها الساسانيون، وكان الدفاع الإسلامى يكاد يكون مركزاً فى منطقة خراسان التى نظمت تنظيمها ثغرياً، إذ أصبحت ثغراً من ثغور المسلمين وظلت تخضع لهذا التنظيم الثغرى أكثر من خمسين سنة، من سنة ٦٥١ م / ٣٦١ هـ إلى سنة ٧٠٥ م / ٨٨٦ هـ.

(١) Barthold : Turkestan down to the Mongol invasion p 46.

(٢) دكتور حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة من ١١١.

(٣) المراجع السابق من ١١٤، ١١٢.

كان انتصار المسلمين في معركة القادسية إذانا لهم بفتح السندي، فقد استنجد كسرى الفرس ببعض ملوك البلاد المجاورة ومنها مملكة السندي حيث أمهه ملك السندي بالمال والرجال الأمر الذي اضطر المسلمين بمحاجمة السندي ردا على تدخلها ضدهم في معركة القادسية<sup>(١)</sup>، ولذلك فإن البلاذري يحدثنا عن حملات إسلامية مبكرة عن السندي، كان أولها في عهد عمر بن الخطاب، وكان ثانية في عهد على بن أبي طالب، كما نفهم من رواية البلاذري أن عثمان بن عفان كان أيضاً مهتماً بتنصي تحركات السندي<sup>(٢)</sup>.

كما أن البلاذري يوضح الأسباب التي حولت هذه الحملات إلى فتح منظم للسندي في الأسباب الآتية :

أولاً : اكتشاف تحالف آخر بين السندي والترك حيث لقي المهلب في عهد معاوية بن أبي سفيان ثمانية عشر فارساً من الترك ببلاد القيقان بالهند<sup>(٣)</sup>. لذلك تلاحت حملات معاوية فأغار عبد الله بن سوار وستان بن سلمة بن المحبق الهذلي « فأتى الثغر ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها<sup>(٤)</sup> ».

ثانياً : أعمال القرصنة البحرية التي كان يقوم بها الهند حيث يذكر البلاذري أن البوارج الهندية قد استولت على سفينة كانت تحمل نساء مسلمات أرسلهن ملك جزيرة الياقوت هدية إلى الحجاج بن يوسف فنادت امرأة من تلك النسوة، وكانت من يربوع: يا حجاج، وبلغ الحجاج ذلك فقال : يا ليك، فأرسل إلى داهر رسالته تخلية النسوة. فقال : أخذهن لصوص لا أقدر عليهم<sup>(٥)</sup>. لذلك أرسل الحجاج بن يوسف عبد الله بن بنهاي إلى الدبيبل (كراتشي اليوم) فقتل، فكتب إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعمان يأمره أن يسرر إلى الدبيبل، لكن الهند استطاعوا محاصرته وقتله أيضاً<sup>(٦)</sup>. الأمر

(١) محمد يوسف النجراوي : العلاقات السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية (رسالة ماجستير) من ٢٠

(٢) البلاذري : فتوح البلدان من ٤٢١، ٤٢٠.

(٣) المصدر السابق من ٤٢١.

(٤) المصدر السابق من ٤٢٣.

(٥) المصدر السابق من ٤٢٤، ٤٢٣.

(٦) المصدر السابق من ٤٢٤.

الذى أدى إلى تجميع القوات الإسلامية من جند البصرة والكوفة، ومن جند الشام فى ثغر مكران، وتكتسست الأسلحة وحرصن الحاجاج بن يوسف على أن يهين للقوات الإسلامية كل ما تحتاج إليه إذا بدأت المعركة، كما سلح الجيش بنوع جديد من المجنانيق يعمل فيه نحو من خمسمائة من الجنود فى وقت واحد<sup>(١)</sup>. والبلاذري يروى لنا رواية على لسان الحاجاج بن يوسف تدل على أن الحاجاج بن يوسف كانت حرية مع السندي رد فعل لما قام به الهنود من أعمال عدائية للمسلمين، وليس بسبق النية والترصد لفتح السندي، حيث يذكر البلاذري : ونظر الحاجاج فإذا هو قد أتى على محمد بن القاسم (ابن أخي الحاجاج وقائد الفتح) ستين ألف ألف، ووُجِدَ ما حمل إليه عشرين ومائة ألف ألف، فقال شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا وأردنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر.

وبعد هذا الاستعراض السريع لأسباب الفتوحات في الجناح الشرقي للدولة الإسلامية نجدها جمِيعاً دون تخطيط مسبق من جانب المسلمين طمعاً في أي مكاسب سوى رد عدوan واقع من العدو أو رد عدوan متوقع، هدفهم في هذه الحروب جمِيعاً حماية الإسلام ودولتهم الناشئة فشاءت الأقدار لهم الانتصار والتَّوسيع، وشاء الله لِتَلكِ البلاد المفتوحة أن يدخلها نور الإسلام . . . وهكذا كانت الفتوحات الإسلامية في الجناح الشرقي سلسلة من القتال اضطراها إليها المسلمين اضطراها وأنها لم تتوقف إلا حينما توقف العدو عن العدوان.

## الفتوحات في الجناح الغربي

فتح مصر :

شطر انتصار المسلمين على الروم في الشام الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين: الإمبراطورية الأم في آسيا الصغرى وما وراءها، والولايات التابعة لها : مصر وما وراءها في إفريقيا. ولم يعد هناك ما يصل شطري الإمبراطورية إلا البحر. لذلك كان على الدولة الرومانية أن تحاول استنقاذ إمبراطوريتها عن طريق البحر، وبالفعل

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٢٧

أبحرت القوات البيزنطية من الإسكندرية ١٧١هـ / ٦٣٨م بقيادة قسطنطين بن هرقل نفسه- مما يدل على الأهمية الكبرى التي علقها هرقل على تلك الحملة، وألقت هذه الحملة مرساها فى أنطاكية ونجحت فى الاستيلاء عليها وانضمت إلى القبائل العربية المتمردة من أهل الجزيرة<sup>(١)</sup>.

الأمر الذى أضطر أبو عبد بن الجراح رضى الله تعالى عنه - أن يجمع قواته وأن يعسكر فى فناء حمص، وأقبل خالد بن الوليد من قنسرىن وانضم إليهم، وأستقر رأى المسلمين على التحصن وطلب المدد من الخليفة عمر، الذى ما أن علم بخروج القبائل العربية بالجزيرة على المسلمين بحمص حتى سارع بارسال المدد إليهم وفي نفس الوقت سرح سهيل بن عدى إلى الجزيرة لأن أهلها الذين حرضوا الروم (البيزنطيين) على المسلمين بحمص وكان لجدية تحركات المسلمين أثر كبير فى إلقاء الرعب فى نفوس تلك القبائل التى ما أن علمت بوصول المدد إلى المسلمين حتى تخلت عن الروم وعادت إلى بلادها - ثم شن المسلمون هجومهم على جيش الروم الذى انهارت مقاومته بعد انسحاب القبائل العربية - وأضطر إلى الانسحاب بدوره بحرا إلى الإسكندرية ونتيجة لانتصار المسلمين وتغلبهم على حملة الروم ثبتت أقدامهم فى بلاد الشام، ولكن خرج المسلمين من حوادث حروبهم فى الشام بدرس مهم، وهو أن استقرارهم فى الشام رهن بالاستيلاء على مصر<sup>(٢)</sup>.

وجاءت على هذا النحو- حركة هرقل الأخيرة فى أنطاكية وشمال سوريا حافزاً حمل قادة المسلمين على إعادة النظر فى الموقف الحرى، وذلك لتأمين الفتوحات الإسلامية فى بلاد الشام وخاصة بعد أن عمد البيزنطيين إلى جانب تعزيز قاعدتهم فى قيسارية (قىصرية) إلى إرسال حملة قسطنطين بن هرقل من الموانئ لمصرية. ويبعد أن عمرو بن العاص هو أول من تنبه إلى أن مصر غدت محور الارتكاز لقوات الروم فى شرق البحر المتوسط، فمصر كانت القاعدة التى انسحب إليها الأرطابون

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٤ مصر ١٩٧٧م تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٥٠، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٢ القاهرة ١٩٩٠هـ / ١٢٩٠م، ٢٢٤. إبراهيم أحمد العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، القاهرة ١٩٥١م، ص ٤٢٤٣.

(٢) الطبرى، المصدر السابق، ج ٤ ص ٥٢، ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٢ ص ٣٢٤، إبراهيم العدوى، المرجع السابق ص ٤٣ - ٤٤.

حاكم الروم على بيت المقدس، وأخذ يجمع الجنود ويحشد الحشود تمهيدا لاسترداد بلاد الشام، ويبدوا أن مفاوضة صفرونيوس بطريرك بيت المقدس للمسلمين إنما كانت رغبة منه في كسب الوقت حتى يتمكن القائد البيزنطي الأرطبوون من سحب قواته من تلك المدينة، والوصول إلى مصر أمنا، وربما كان هناك اتفاق مسبق بين صفرونيوس والأرطبوون من أجل الصالح العام فالأول يحافظ على مدinetه والآخر يحافظ على جنوده ويعيدهم<sup>(١)</sup>.

وكانت مصر أيضا -كما سبق أن ذكرنا- القاعدة التي انطلقت منها حملة قسطنطين بن هرقل إلى أنطاكية، وكانت تلك الحملة تزعزع الفتوحات الإسلامية في الشام، وما لا شك فيه أن قوة تلك الحملة وما بعثته في قلوب المسلمين من فزع جعلهم لا يغضون الطرف عن ذلك الإقليم الذي انبعثت منه الحملة، أنهم إذا كانوا قد انتصروا على القوات البيزنطية، فإنهم لم يأمنوا أن تتكسر تلك المحاولة، خاصة أن البحر ما زال في أيدي الروم وعن طريقة يمدون الموانئ التي لم تسقط بعد بالمؤن وبالرجال، وخاصة قيسارية التي ظل المسلمون يحاصرونها بعد سقوط بيت المقدس والتي ظلت صامدة بفضل تلك الإمدادات في وجه المسلمين، وكانت مصر هي أقرب قاعدة زودت قيسارية وغيرها من الموانئ بحاجتها من المؤن، ومن ثم غدت مصر محور ارتكاز القوات البيزنطية في حوض البحر الشرقي.

وكان فتح مصر بعد الشام ضرورة، فقد أدرك قادة المسلمين بالشام أن مصر ليست قاعدة يمكن أن تقضى على فتوحات في الشام فحسب بل أنها ذات مركز استراتيжи يهوى موقعه الجغرافي للبيزنطيين القيام بحملة انتقامية على جزيرة العرب نفسها أي على المدينة المنورة حينما يفتيق البيزنطيون إلى أنفسهم.

وعلى هذا التحوكان في الاستيلاء على مصر حرمان للأسطول البيزنطى من أية قاعدة يستطيع أن يعمل منها ضد المسلمين سواء في مياه البحر المتوسط الشرقي قرب سواحل الشام، أو في مياه البحر الأحمر قرب الحجاز<sup>(٢)</sup> وكذلك انتهز عمرو بن العاص

(١) الطبرى ، الرسل، ج ٢، ص ٦٠٧، العدوى مصر الإسلامية، ص ١١، العدوى الإمبراطورية، ص ٤٤ - ٤٥

عبد الرحمن الراافعى وسعيد عاشر، مصر فى العصور الوسطى، ص ١٩.

(٢) الدكتور ليلي عبد الجاد إسماعيل : الدولة البيزنطية في مصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بال المسلمين، دار النهضة العربية ١٩٨٥ - ص ٣٩١

فرصة المؤتمر الحربي الذى عقده عمر بن الخطاب فى الجابية (وهي مرفعات الجولان الحالية) فى ١٨هـ / ٦٣٩ م أثناء حضور عمر بن الخطاب إلى الشام ليتسلم بيت المقدس من بطريركها صفرونيوس، وعرض عمرو بن العاص على المؤتمردور الذى ساهمت به قوات الروم فى مصر فى خلق المتابع الذى واجه المسلمين بالشام، وأنه يجب على المسلمين ألا يضيئوا الوقت، بل يوقعوا بالروم قبل أن يستفحل الأمر<sup>(١)</sup>. وتختلف الروايات حول مسيرة عمرو بن العاص إلى مصر لفتحها، ومن هذه الروايات أن عمرو بن العاص قدم إلى عمر بن الخطاب وهو بالجابية (١٨هـ / ٦٣٩م) وخلابه وقال له «يا أمير المؤمنين، ائذن لي أن أسير إلى مصر، وأن عمراً أخذ يحسن له فكرة فتح مصر وما يعود على المسلمين من نتائج من وراء فتحها، غير أن الخليفة عمر بن الخطاب تخوف من ذلك على المسلمين وكرهه لما فى مصر من جموع الروم، ومع ذلك أخذ عمرو يلح عليه ويحسن له الفكرة ويعظم له أمر مصر ويهون عليه فتحها، وأنه علیم بطرقها ومسالكها، حتى وافق الخليفة، وعقد له أربعة آلاف رجل، وقيل ثلاثة آلاف وخمسمائة، وأمره بالمسير إلى مصر، وقال له: سر وأنا مستخير الله فى سيرك، وسيأتيك كتابى سريعا إن شاء الله تعالى، فإن أدركك كتابى أمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره<sup>(٢)</sup>.

### فتح المغرب :

ولقد كانت الضرورة العسكرية التى دفعت المسلمين إلى فتح مصر لتأمين بلاد الشام من خطر الروم هى نفس الضرورة التى دفعتهم إلى أن يدخلوا مع بلاد المغرب فى حرب طويلة، وكانت بلاد المغرب حينئذ يطلق عليها الروم لفظ أفريقيا حيث كان يطلق الروم على ما وراء برقة أو ما وراء طرابلس إلى المغرب لفظ أفريقيا.

وقد استعمل المسلمون لفظ أفريقيا أيضاً على نفس الأراضى، فالبكرى فيما

(١) الطبرى، الرسل، ج٢، ص٦٠٧-٦٠٨ التورى، ج١، ص١٧١ أنس رستم الروم، ج١، ص٢٤٨ العدوى، مصر الإسلامية، ص١٥.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص٨٠-٨١، الكندى، الولاية والقضاء من ٧، أبو المحاسن، النجوم الظاهرة ج١، ص٦٥، السيوطي، حسن المحاضرة، ص٦٣.

ينقل عنه ياقوت يقول: حد أفريقية طولها من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا، وعرضها من البحر إلى الرمال التي في أول بلاد السودان.

وكانت إفريقية ولاية الدولة الرومانية (البيزنطية) غداة الفتوحات الإسلامية، وكانت عاصمة تلك الولاية يومنذ قرطاجنة، وكان هرقل قد ولى عليها ملكا يقال له جرجير (جريجوريوس) ولم تكن ولاية أفريقية مستقرة الحدود، فكانت من الشرق تشمل طرابلس وبرقة حينا، وكانت تتخلّى عنها لتكون فيما تشمل ولاية مصر حينا آخر، وكانت تمتد إلى المغرب تبعاً لامتداد نفوذ الروم<sup>(١)</sup>، ولم يغلب لفظ المغرب على لفظ أفريقية إلا في القرنين المتاخرة، وقد كانت برقة وطرابلس قد انفصلتا عن ولاية أفريقية منذ عهد الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م) وأصبحتا رسمياً تابعتين لمصر<sup>(٢)</sup>.

وقد كان من الطبيعي أن يتوجه عمرو بن العاص إلى فتح برقة وطرابلس بعد فتح مصر، حيث إنها كانتا رسمياً تابعتين لمصر. فكان عمرو بن العاص على رأس جيش من فرسانه حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يودونها إليه جزية، ثم سار عمرو بن العاص بعد ذلك حتى نزل طرابلس سنة اثننتين وعشرين من الهجرة، فوجد سفن جند الروم راسية على الشاطئ، فأسرع بمحاجمة المدينة والتي لم يكن لها أسوار تحميها فلم تفلت الروم إلا بما خلف لهم من سفنهم<sup>(٣)</sup>.

ولما ظفر عمرو بمدينة طرابلس «جرد خيلاً كثيفاً من ليلته وأمرهم بسرعة السير، فأصبحت خيله مدينة سيرت، وقد غفلوا، وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم، فدخلوا، فلم ينج منهم أحد، واحتوى عمرو على ما فيها»<sup>(٤)</sup> كما أرسل عمرو بن العاص بحملة عسكرية إلى ودان، وبيدو أن المسلمين افتتحوا ودان وسرت بقصد القضاء على آية محاولة من جانب بربن نفوسه لنجد أهل طرابلس في نفس الوقت لتأمين فتحهم للساحل، على نحو ما فعله عمرو عند افتتاحه برقة، إذ خضم خصوص زويلة وفزان

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول - دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية دار العلم للملاتين بيروت - الطبعة السادسة ١٩٨٣م. ص ١٥٠-١٥١.

(٢) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر: الإسكندرية ص ٥٥.

(٣) ابن الحكم: فتوح مصر من ١٧٠-١٧١.

(٤) المصدر السابق ص ١٧٢.

للمسلمين، خشية أن ينقض أهل هذه المناطق الداخلية على جيوشهم، فيقطعوا عليهما خط الرجعة<sup>(١)</sup>.

وقد كان موقف الروم موقف انقضاض متصل ظاهر بعضه وخفى أكثره. كانوا كلما توافرت لهم إمدادات من الجند أو قطع من الأسطول ثاروا بال المسلمين وانتقضوا عليهم، فإذا عاد إليهم المسلمين في الغزوات القوية استكانوا ليتفلولهم من جديد وليصلوا ما بينهم وبين بيزنطة من أسباب، قدر ما تستعفهم بيزنطة وقدر ما يسعفهم سكوت المسلمين ولذلك لم تهدأ مقاومة الروم كل سنوات الفتح الطويلة وإنما استمرت منذ أوطا المسلمين خيلهم هذه الأرض حتى كانت لهم الغلبة عليهما في ولاية حسان بن النعمان، وموسى من بعده. ولم تكن محاولة حسان بناء تونس قريباً من قرطاجنة إلا تعبيراً عن قلق المسلمين من هذه المقاومة ومعالجتهم المثلث لها. فقد وجدوا أن قرطاجنة-هذه النافذة العريضة التي تطل على البحر والتي تصل بين بيزنطة والروم- يجب أن يسكنها المسلمون حتى يأمونوا هذا البيات المتكرر والبغاث المتصلة<sup>(٢)</sup>.

ولسنا في حاجة إلى أن نقف وقفات مفصلة عند موقف الروم من كل غزوة من غزوات المسلمين، فكتب التاريخ فيها التفصيل الكافى كما أثنا نجد جرجير (جريجرويوس) صاحب أفريقية يتذمّر من جانبه موقفاً عدائياً للمسلمين. فيبادر بتحصين بلاده، ويتخذ العديد من الخطوات استعداداً لحرب المسلمين. وعمل على التقرب من البربر طمعاً في فتح أفريقية، وذكر له في جملة ما ذكره «أن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقية إلا تسعه أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل»<sup>(٣)</sup> لكن عمر بن الخطاب يرفض هذا الاقتراح فكتب إليه عمر: «لا إنها ليست بأفريقية ولكنها المفرقة فارقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت<sup>(٤)</sup> لكن المسلمين يضطرون لمواجهة جرجير عسكرياً في عهد الخليفة

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب من ٦٣٢.

(٢) شكري ف يصل: حركة الفتح الإسلامي من ١٨٣.

(٣) الدكتور السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب من ٦٤.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر من ١٧٢-١٧٣.

(٥) المصدر السابق، من ١٧٣.

الثالث عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وتفصيل ذلك موجود في كتب التاريخ.

ويلاحظ أن فتح المغرب انقسم إلى فترتين:

**الفترة الأولى:** وتمتد من سنة ٢٢ حتى سنة ٥٥ هـ، أي منذ الحملة الأولى بقيادة عمرو بن العاص حتى عزل عقبة بن نافع من ولايته الأولى لأفريقيا. وتميز هذه الفترة بأن الحملات التي قادها المسلمون خلالها لفتح المغرب كانت أشبه بحملات تأديبية فقط.

**الفترة الثانية:** وتمتد من سنة ٥٥ حتى سنة ٩٠ هـ. أي من بداية ولاية أبي المهاجر دينار حتى اتمام الفتح على يد موسى بن نصیر. وفي هذه الفترة الثانية أخذت الحملات الحربية إلى تثبيت أقدام المسلمين واستقرارهم في هذه البلاد.

ويلاحظ أن موسى بن نصیر بعد أن فتح طنجة التي بها قد تم فتح آخر مراحل فتح المغرب. كلف طارق بن زياد الذي عينه على طنجة، مهمة الاتصال بحاكم سبتة، وكان يحكمها آنذاك رجل من الروم يدعى يوليان حيث كانت المدينة الوحيدة في المغرب التي ما زالت تخضع للروم. وكانت سبتة تتمتع بموقع جغرافي فريد يجعلها مدينة منيعة حيث كان يحيط بها ماء البحر من ثلاث جهات.

كما أنها كانت تمثل مفتاح إسبانيا، والحارس الذي يحميها من هجوم يشن عليها من الجانب الأفريقي. فهي تقع قبالة الجزيرة الخضراء من أرض إسبانيا، وتسيطر على المياه التي بينها وبين تلك الرقعة الأسبانية.

### فتح الأندلس :

كان يوليان يرى على الرغم من دعم صلاته بدولة القوط في إسبانيا. أن تطور الأوضاع في بلاد المغرب، واستقرار الفتوح الإسلامية بها يفرض عليه حسن الجوار مع الإداره الإسلامية الجديدة وتجنب الاصطدام بها، ولذا رحب يوليان بسياسة موسى بن نصیر الذي كلف طارق بن زياد مهمة تنظيم علاقات الجوار مع حاكم سبتة.

وسارت الأمور بعد ذلك في سبتة بما دفعت بحاكمها يوليان إلى الانتقال من سياسة حسن الجوار مع المسلمين إلى سياسة التحالف والاتفاق على تحقيق المصالح المشتركة بينهما. ذلك أن أحد كبار رجال القوط، واسمه رودريك، وهو الذي عرفه

العرب باسم لوزريق استطاع أن يطيح بالملك الحاكم، وهو غيطشة، ثم اعتلى العرش، ولم يكتف لوزريق بذلك، وإنما أخذ يعمل على إزالة أشد ألوان الأذى بأبناء غيطشة، وسائر عائلته. الأمر الذي أدى أن يتجه أبناء غيطشة إلى يولييان حاكم سبتة لتعاونهم في استرداد حقهم المسلوب، فأعاد يولييان حملة نزلت أسبانيا واشتركت مع الثوار في أعمالهم الحربية. ولكن قوات لوزريق استطاعت الحصول على النصر ودحرت حملة يولييان، وأضطررتها للعودة إلى سبتة. وما إن إنتهت هذه المعركة في أسبانيا عن فوز لوزريق حتى أيقن يولييان أنه لم يعد أمامه مفر من الاتجاه نحو السلطات الإسلامية في القิروان، وطلب مساعدتهم ضد لوزريق. فذهب يولييان بنفسه إلى القิروان ليقنع موسى بن نصیر بأن يغزو الأندلس.

أرسل موسى بن نصیر إلى الخليفة في دمشق الوليد عبد بن عبد الملك يستأذنه في فتح بلاد الأندلس حيث تلك البلاد قريبة من ممتلكات المسلمين في طنجة، حتى أن المرأة يشاهد مناظرها بنفسه في سهولة، ولما كرر موسى بن نصیر على الخليفة ذلك أصر الخليفة على ضرورة إرسال الحملات الاستطلاعية أولاً، قائلًا لموسى : (وأن كان فاختبره «أى الأندلس» بالسرايا).

وقد استطاع موسى بن نصیر في أقل من أربعة عشر شهراً أن يقضى على مملكة القوط قضاء تاماً بعد عدة معارك طاحنة. واتخذ أثناءها يولييان من الجزيرة الخضراء مقراً له ليؤمن خطوط مواصلات المسلمين بين أسبانيا وبلاد المغرب.

ويلاحظ أيضاً أنه قبل أن يتم لموسى بن نصیر فتح الأندلس أرسل الخليفة الوليد ابن عبد الملك مغيثاً الرومي، ومعه أمر من الخليفة يطلب فيه من موسى بن نصیر إيقاف الغزو والحضور فوراً إلى دمشق. لكن موسى بن نصیر لم يتمكن من تنفيذ هذا الأمر على وجه السرعة. إذ جاء أمر الخليفة بالعودة إلى دمشق وهو قرب جبال ألبرت، أى في المنطقة الشمالية الوعرة من أرض أسبانيا، ومن ثم فإن تأخير موسى بن نصیر في تلبية أمر الخليفة جاء نتيجة المقتضيات الحربية وحرصه على سلامة المسلمين في أسبانيا.

وأخيراً أبحر موسى بن نصیر، ومعه موكب النصر من أشبيلية في ذى الحجة سنة ٩٥هـ. لقد أدار موسى بن نصیر في جهد متصل، دام أربع سنوات إلا شهراً تقريباً

فتح الأندلس. إذ بدأ الفتح الإسلامي لاسبانيا في رجب سنة 92هـ، وها هوذا موسى بن نصير يغادر البلاد في ذي الحجة سنة 95هـ<sup>(١)</sup>.

ويذكر المقرى في نفح الطيب أن عمر بن عبد العزيز هو أول من جعل الأندلس مستقلة عن والي أفريقيا سنة 100هـ<sup>(٢)</sup>.

.

---

(١) الدكتور ابراهيم أحمد العدوى: موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي، ص ٦٦، ٨٥.

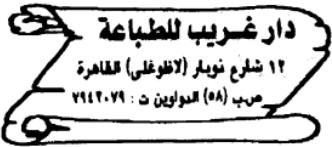
(٢) المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٣.

## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
١١	الفصل الأول: الحضارة الإسلامية وتربيّة النفس
١٣	* الدين ضرورة للإصلاح
٢٣	* الأخلاق ضرورة فردية واجتماعية
٢٧	الفصل الثاني: الحضارة الإسلامية وتربيّة المجتمع
٢٩	* القدوة ضرورة لتربيّة المجتمع
٣١	* تولد فكرة الخلافة
٣٤	* تفسير موقف الصحابة من ترشيح الخليفة الأول
٤٩	* سلطة الخليفة
٦٣	* الوزارة والحجابة
٧٦	* الإمارة - الدواوين - القضاء
٩١	* الحسبة - الشرطة
١٠١	الفصل الثالث: الحضارة الإسلامية وتربيّة اللسان العربي
١٠٣	* الإسلام واللسان العربي
١٠٩	* ثقيف اللسان العربي
١٢٧	* تفسير حركة التعرّب
١٤٧	الفصل الرابع: الحضارة الإسلامية وتربيّة العقل
١٤٩	* طلب العلم فريضة
١٥٨	* نشأة العلوم النقلية
٢٠٣	* نشأة العلوم العقلية

الصفحة	الموضوع
٢٢٧	<b>الفصل الخامس؛ الحضارة الإسلامية والتربية المعيشية</b>
٢٣٩	* السعي في طلب الرزق ضرورة
٢٤٠	* تطور الزراعة
٢٥٢	* تطور الصناعة
٢٦٣	<b>الفصل السادس؛ الحضارة الإسلامية وتربية العلاقات</b>
٢٦٥	* السلام أساس العلاقات
٢٦٩	* تبادل المنافع بين الناس
٢٧٦	* تفسير حركة الفتوح الإسلامية
٢٧٧	* القتال منهج وليس ضرورة
٢٧٩	* القتال في واقع التاريخ
٣٠٩	<b>الفهرس</b>





دار غريب للطباعة

١٢ شارع فؤاد (الظواعي) القاهرة

منب (٥٨) التوايون ٣ : ٧٩٤٢٠٧٩